الهجرة وأسطورة العودة"

« الهجرة احتجاج ضد اللامساواة »

(بول هاريسون)

« لا يزاحم الأطباء والحلاقون أحداً ، لأن المهاجرين أنفسهم يحتاجون إلى حلاقين وإلى مختلف الخدمات الطبية »

(ألفرد سوفي)

تمهيد

كانت الهجرات البشرية ـ ولا تزال ـ تؤلف واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ، ولـذا فـإنها استرعت ـ ولا تزال تسترعي انتباه المتخصصين في مختلف مجالات الدراسات الانسانية وبوجه أخص الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع ، نظراً لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه والمجتمع الذي انتهت اليه على السواء . وعلى الرغم من قدم هذه الظاهرة فإن هذه التحركات البشرية تتم الآن على نطاق أوسع بكثير جداً مما كان يحدث في الماضي ، ربما باستثناء بعض حالات قليلة ، وأصبحت تتخطى كل الحدود الوطنية والإقليمية وتشمل فئات متفاوتة ومتباينة من الناس من كل الأعمار والجنسيات والأعراق والسلالات والمستويات الثقافية والاقتصادية والتخصصات المهنية . وساعد على ازدياد هذه التحركات ظهور مناطق جديدة للجذب السكاني تتيح فرصاً طيبة للعمل والنجاح وتحقيق الذات والتخلص ـ ولو الى حين ـ من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الموطن الأصلي كما تتيح الحياة المستقرة ـ ولو بقَدْر ـ في الموطن الجديد رغم كل ما قد يحيط بهذه الحياة من صراع وكفاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة أو عجز عن التأقلم والتكيف ، بل ومن رغبة المجتمع الجديد نفسه في استيعاب الوافدين الجدد وامتصاصهم أو تقييد حركتهم ووضع العوائق والعراقيل والقواعد والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه ودون إتمام عملية التمثيل مما قد يدفعهم ، أو يدفع ببعضهم ، إلى العودة الى مجتمع الأصل والبداية . وكل هذا يجعل

من هذه الهجرات البشرية المتواصلة موضوعا متجددا يحتاج الى دراسات جديدة تتناول « الموضوع / الظاهرة » في كل أبعاده الايكولوجية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات . فكأن تعقد هذه المشكلات وتنوعها واستمرارها وتجددها هي السبب وراء كل ذلك القدر الضخم من البحوث والدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة بوجه خاص حول الهجرة وآثارها وأسبابها ، وهي بغير شك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفعنا الى تخصيص هذا العدد لمشكلة الهجرة والهجرة المعاكسة . وقد يكون في ذلك رد مقنع لمن قد يتساءل : لماذا هذا العدد من المجلة ؟ ولماذا هذا الموضوع أو المحور الذي كثر الكلام فيه ؟

ولقد كانت هذه التحركات السكانية التي نطلق عليها هنا اسم « الهجرة » والتي لازمت الإنسان منذ وجوده هي العامل الفعال المؤثر في انتشار الجنس البشري من موطنه الأصلي الأول ـ إن كان هناك موطن أصلي واحد فقط ـ أو من مواطن ظهوره الأولى ، وبالتالي ارتياده لمناطق جديدة وعمران الأرض وظهور المجتمعات والثقافات الإنسانية المختلفة . والأغلب أن هذه الهجرات « البدائية » القديمة كانت تنشأ بفعل عوامل « الدفع » أو « الطرد » التي تتمثل في قسوة قوى الطبيعة المناوئة وضراوة الجماعات المعادية ، وعجز الانسان عن الصمود في وجه هذه القوى المادية والبشرية وعدم قدرته على التحكم فيها واخضاعها وتذليلها وتطويعها لصالحه ، أو على الأقل التعايش معها ، وبذلك لم يكن أمامه سوى الهروب منها والنزوح عن موطنه . ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن هذه الهجرات « البدائية » لم تكن هجرات أفراد كما هو الحال في معظم الهجرات الحديثة وإنما هي هجرات « جماعية » تقوم بها جماعات كبيرة أو شعوب وقبائل بأكملها بصرف النظر عن مستواها الحضاري أو الفترة الزمنية التي عاشت فيها . وبذلك يمكننا أن نُسلك ضمن هذه الهجرات « البدائية » تحركات جماعات الصيد والقنص في العصور المبكرة من تاريخ الجنس البشري ، ونزوح الجماعات التي تعيش على الزراعة المتنقلة والتي تضطر إلى تغيير مكان إقامتها كل بضع سنين بعد أن يتم استنزاف خصوبة الأرض فتنتقل إلى مناطق جديدة وهكذا . بل إنه يمكن أن تُدخل في هذا النمط من الهجرة انتقال بعض الجماعات البدائية في أفريقيا الآن حين يموت أحد أفراد القبيلة وتخشى من أذى شبح الميت فتنتقل الجماعة كلها إلى موطن جديد بعيد عن متناول الشبح وهكذا . بل وقد يمكن أيضا أن ندخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » هجرة القبائل الجرمانية بين القرنين الرابع والسادس من منطقة بحر البلطيق جنوبا بحثا عن الأراضي الزراعية ، وهجرات بعض القبائل العربية الشهيرة وبخاصة تلك التي اتجهت نحو شمال إفريقيا والتي سجلتها بعض الملاحم والسير الشعبية ، والتحركات القبلية التي قامت بها بعض القبائل الافريقية الكبيرة مثل قبائل الباتو بين القرنين السابع والثاني عشر من منطقة بحيرة فيكتوريا الى الغرب نحو الكونجو ثم بعد ذلك ، وفيما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر نحو الجنوب حتى منطقة ناتال وجنوب غربي أفريقيا . فهذه كلها هجرات تاريخية شملت جماعات قبلية كبيرة العدد ـ على الأقل بمعايير تلك الأزمنة والعصور ـ وكان لها كلها آثار ونتائج هامة وملموسة في التاريخ . ولذا فقد يكون أفضل مصطلح يصدق على هذه الهجرات « البدائية » هو المصطلح الألماني Volkerwanderung التي تعني الهجرة القبلية أو هجرة الشعوب . بل إن هناك من يدخل في هذا النمط من الهجرة هجرة الايرلنديين والزراع الألمان الشهيرة بعد أزمة محصول البطاطس عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ ، وهي الهجرات التي حملت عدة ملايين من البشر الى أمريكا ، وكذلك التحركات السكانية (الاضطرارية) التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية في شبه القارة الهندية بعد قيام دولتي الهند والباكستان وتبادل ملايين السكان بين الدولتين(١) .

(١) انظر مادة "Human Migration" in Encyclopaedia Britannica, Vol. 12 p. 186.

والأمثلة كثيرة ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لتوضيح ما يراد بالهجرة « البدائية » التي تضم أعدادا كبيرة جدا من البشر الذين يضطرون لتغيير موطنهم الأصلي نتيجة لعجزهم عن التصدي بنجاح لبعض العوامل والقوى القاهرة ، سواء أكانت هذه القوى طبيعية أو بشرية . ولكن لا تدخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » الحركات السكانية التي تُفرض بالقوة على الناس كما هو الحال مثلا في نفي الأعداد الكبيرة من الروس والذين يقدر عددهم بحوالي مليون نسمة الى سيبيريا في القرن التاسع عشر ، أو نقل ملايين العبيد من أفريقيا الى أمريكا والتي تذهب بعض التقديرات الى تقديرها بعشرين مليون نسمة ، وان لم تكن كل هذه الأعداد وصلت بالفعل الى الشواطىء الامريكية نتيجة لموت أعداد كبيرة جدا منهم أثناء الرحلات البحرية القاسية . كذلك يميل بعض العلماء الى التمييز بين هذه الهجرات « البدائية » الجماعية وبين نزوح مئات الآلاف من (اللاجئين) الذين تضطرهم الظروف و الأوضاع السياسية ، أو الغزو العسكري ، الى ترك أوطانهم والفرار بحياتهم الى مواطن أخرى . والمثل الواضح أمامنا لذلك هو خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم في ظل الظروف التي أدت الى قيام اسرائيل .

ولكن يبقى بعد هذا كله الشرطان الأساسيان اللذان يميزان الهجرات « البدائية » وهما « جماعية » الحركة والانتقال ، والعجز عن التصدي لعوامل الطرد أو الدفع أو التكيف معها . ومن هذه الناحية تختلف الهجرات « البدائية » اختلافا جذريا عن النمط الغالب الآن على الهجرة . فرغم أن ملايين الناس يتحركون ويتركون أوطانهم ويتزحون إلى مناطق وأوطان أخرى فان هذه التحركات تتم في العادة على أساس فردي كما سبق أن ذكرنا . وحتى إذا اتخذت شكلا جماعيا فإنها لا تشمل شعبا بأكمله . وعلى الرغم من أن كثيرا من الهجرات الحديثة يتم تحت ظروف قاسية وعوامل طاردة يصعب تذليلها أو التكيف معها فإن المهاجرين الأفراد يحددون في الأغلب أهدافهم ويتخيرون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ ما استقر عليه رأيهم ، والأغلب أيضا أنهم يعرفون مقدما الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون اليه وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه ويُعِدّون لهذه الهجرة إعدادا كافيا ويذهبون على أمل الاقامة هناك لفترات طويلة أو حتى للعمر كله . وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية للعودة إلى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية .

•••

وقد يكون من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح ومقبول لمفهوم « الهجرة » . ولذا يكتفي الكثيرون بتعريفها بأنها النقلة « الدائمة » أو الانتقال « الدائم » الى مكان يبعد عن الوطن الأصلي « بعدا كافيا » . ولكن هذا التعريف - إن صح اعتباره تعريفا على الإطلاق - يفتقر إلى الدقة والوضوح فيما يتعلق بالبعد الزماني المتمثل في كلمة « دائم » والبعد المكاني المتمثل في عبارة « بعدا كافيا » . وصحيح أن هيئة الأمم حددت المقصود بالانتقال الدائم بأنه الانتقال الذي يستمر لمدة سنة واحدة على الأقل ، ولكن تبقى مع ذلك مشكلة تحديد المسافة التي تفصل بين الوطن الأصلي أو موطن النشأة والإرسال الذي بدأت منه الهجرة وموطن الإقامة الجديد أو موطن الاستقبال الذي انتهت الهجرة اليه . وكما يقول وليام بيترسن William Petersen إن الشخص الذي يترك وطنه إلى وطن آخر ويقيم فيه بقية حياته يعتبر (مهاجرا) بينما الشخص الذي يذهب الى مدينة مجاورة أو قرية ويقضي فيها بضع ساعات يعتبر مجرد (زائر) . وبين هذين الطرفين

النقيضين يوجد صف طويل جدا من الحالات والأوضاع الوسيطة يصعب التمييز بينها تمييزا قاطعا . فهي إذن تمييزات تتم على وجه التقريب وباستخدام محكات تعسفية . فالإقامة في بلد الاستقبال لمدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن عام تعتبر هجرة مؤقتة بينما الاقامة في ذلك البلد لأي فترة تزيد عن العام ولو ببضعة شهور تعتبر هجرة دائمة وتستوي في ذلك مع الاقامة لطول العمر ⁽²⁾. لكن هذه المحكات لا تأخذ في الاعتبار نية الشخص المهاجر والظروف التي قد تظهر فجأة وتمنع من تحقيق هذه النية أو القصد . فقد يخرج الشخص من موطنه الأصلي وفي نيته أن تكون هجرته لفترة موقوتة قد تكون بضع سنين يعود بعدها إلى وطنه . فهو ينظر من البداية الى هجرته على أنها هجرة مؤقتة ولكنها تعتبر بحسب تلك المعايير والمحكات هجرة دائمة . ثم إن الكثيرين ممن يهاجرون هجرة دائمة تمتد لعدة سنين لا يقطعون علاقاتهم تماما بالأهل والوطن بل يظلون مرتبطين بهم وبه عاطفيا ويتمنون لو أتيحت لهم الفرصة للعودة . وكثيرا ما تظل هذه العودة مجرد أسطورة لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنهم يتمسكون بها مع ذلك أشد التمسك ويظلون بذلك موزعين بين ولائهم للموطن الأصلي أو الوطن الأم وولائهم للموطن الجديد أو المجتمع (المضيف) أو مجتمع الاستقبال . كذلك تغفل هذه المحكات والمقاييس نظرة المجتمع المضيف الى هؤلاء الوافدين ومدى تقبله لهم ومدى السماح لهم بالتكيف مع المجتمع بحيث يتم تمثلهم فيه . وإغفال هذه الأمور يمنع من الوصول إلى تعريف أكثر دقة وإحكاما من تلك التعريفات السريعة السطحية التي تقتنع بالنظر إلى عملية الانتقال والاقامة من حيث المدة التي يمضيها الشخص في الموطن الجديد والمسافة التي تفصل بين الموطنين⁽³⁾ .

ومع ذلك فإن هذه المحكات لها فائدتها في التمييز بين « الهجرة » باعتبارها تغييرا للوطن « الاقامة » وبين بعض

---

(2) William Petersen; "Migration: Social Aspects"; I.E.S.S., Vol. 10, p. 286.

(3) الواقع أن مفهوم المصطلحات الأجنبية غير واضح في أذهان الكثيرين ممن يكتبون عن الموضوع باللغة العربية . وليس أدل على ذلك من أن « قاموس علم الاجتماع » الذي قام بتأليفه نفر من أساتذة علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية يستخدم كلمة « هجرة خارجية » في مقابل الكلمات الانجليزية الثلاث : Immigration و Emigration و Migration ثم يقدم التعريفات التالية لتلك الكلمات :

أ ـ Emigration « هجرة خارجية » : انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يستوطنوا موطنا آخر » (صفحة ١٥٦) .

ب ـ Immigration « هجرة خارجية » : زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر تجعل منه مكانا جديدا للاقامة الدائمة ، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة إلى دولة أخرى » (صفحة ٢٢٢) .

جـ ـ Migration « هجرة خارجية » : حركة دائمة نسبيا يقوم بها شخص أو جماعة تتخطى الحدود السياسية نحو منطقة أو مجتمع جديد » (صفحة ٢٨٩) .

(راجع : قاموس علم الاجتماع ، تحرير ومراجعة : الدكتور محمد عاطف غيث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩) .

كذلك تظهر عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في « قاموس الأنثروبولوجيا » الذي قام بتأليفه الدكتور شاكر مصطفى سليم ونشر بالكويت عام ١٩٨١ حيث نجد التعريفات التالية :

أ ـ هجرة خارجية Emigration : « هجرة الجماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وحدودها الاقليمية التقليدية بهدف الاقامة الدائمة في الموطن الجديد . وتحدث الهجرة الخارجية عادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو تهجير من قوة غازية ، أو طلبا لمستوى معيشي أفضل .

ب ـ هجرة داخلية Immigration : « تحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الاقليم تحدث عادة بين موطنين يكون (أحدهما) مزدحما بالسكان وفيه عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية طاردة ، ويكون الثاني أقل ازدحاما بالسكان وفيه عوامل جاذبة » (صفحة ٤٥١) .

جـ ـ هجرة Migration : « حركة واسعة لمجموعة سكانية تنتقل من موطنها أو الى موطن آخر . وقد تكون الهجرة موسمية طلبا للماء والكلأ ، كما قد تكون دائمية بسبب الكوارث الطبيعية أو التبدلات الاجتماعية أو الحروب أو لتحقيق مستوى معيشي أفضل » (صفحة ٦٣١) .

ولعل منشأ الخلط في فهم مدلول المصطلحات يرجع إلى كثير من الكتابات الأخرى التي تقع بالمعنى المعجمي للكلمة ولا تنظر إلى الهجرة migration عموما باعتبارها حركة سكانية (تخرج) من مجتمع معين emigration وتتجه الى مجتمع آخر حيث (تدخل) أي immigration .

أشكال التنقل أو التحركات البشرية الأخرى مثل تحركات البدو الرحل أو تحركات الرعاة من أشباه الرحل بحثا عن الماء والكلأ . فهذه تحركات موسمية تختلف كل الاختلاف في طبيعتها عن الهجرة بالمعنى الذي تحدده هيئة الأمم ، لأنها تفتقر إلى عنصر الإقامة والاستقرار لفترة معينة من الزمن . والشيء نفسه يصدق على تحركات وتنقلات « عمال التراحيل » الذين يتنقلون بين مراكز العمل المختلفة وتتوقف إقامتهم في أي مركز منها على توفر العمل دون أن يرتبطوا بأي مركز منها ارتباطا (دائما) حتى يمكن اعتباره موطن إقامة لهم . ففي كل هذه الأنماط من التحركات البشرية التي قد تستغرق فترات طويلة لا تقوم علاقة قوية بين الناس والمكان تكفي لنمو الشعور بالانتماء إلى ذلك المكان أو لتمثل المجتمع لهؤلاء الوافدين (الطارئين) .

وهذا كله معناه أنه إلى جانب عنصري الزمان والمكان أو البعد الزماني والبعد المكاني اللذين يصعب الاكتفاء بهما في تعريف الهجرة توجد عناصر أخرى قد يكون من الصعب قياسها ولكن يحسن أن تؤخذ في الاعتبار ، وهي عناصر ذاتية واجتماعية وثقافية ترتبط بإحساس الفرد نفسه ونظرته إلى عملية انتقاله والهدف منها وتكيفه لهذه العملية وشعوره بالانتماء الى المجتمع الجديد وتكيفه معه وتقبله لقيم ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده ومثله العليا والانفعال بها ، أو على الأقل رغبته في أن يستوعب هذا كله حتى يتم اندماجه وتمثله في المجتمع . فالهجرة ليست مجرد نقلة (جسدية) من موطن لآخر ، وإنما هي أيضا موقف عقلي واتجاه ذهني وتوجه نفسي من الشخص ذاته . ودراسة هذا الجانب الهام تتطلب من الباحث الاتصال المباشر والوثيق بالمهاجرين أنفسهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثربولوجيا كلمة rapport والتي تعتبر مبدأ أساسيا لأي دراسة مركزة متعمقة .[1]

وبالمثل ليس هناك ما يبرر الاقتصار في دراسة الهجرة على إبراز الدور الذي تلعبه الأوضاع الاقتصادية السائدة في الوطن الأصلي في نزوح العناصر المهاجرة وإغفال النظم والأنساق الاجتماعية الأخرى التي قد تتعاون فيما بينها بحيث تجعل من ذلك الموطن الأصلي منطقة دافعة أو طاردة لسكانها . وهذا لا يعني التهوين من شأن الأسباب الاقتصادية ، ولكن الدور الذي تلعبه هذه العوامل يبدو أكثر وضوحا حين تدرس ضمن البناء الاجتماعي الكلي وفي علاقاتها ببقية النظم والعلاقات المتشابكة التي تؤلف ذلك البناء . فالأوضاع الاقتصادية ليست وحدها المسئولة دائما وفي كل الأحوال عن الهجرة ، ويستوي في ذلك الهجرات الخارجية التي ينتقل فيها المهاجرون إلى مجتمعات أخرى غريبة تنتمي الى دول أخرى بعيدة ، أو الهجرات الداخلية التي ينتقل فيها المهاجرون من مجتمع محلي معين الى مجتمع محلي آخر ضمن حدود الدولة . ففي الولايات المتحدة الامريكية مثلا قليلا ما تكون تحركات السكان أو هجراتهم من منطقة لأخرى أو من

---

(١) وبرغم ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام إن عدد المهاجرين إلى بلد ما يرتبط عكسيا مع طول المسافة التي تفصل بين هذا البلد والوطن الأصلي الذي خرجت منه هذه الهجرات ، بينما يرتبط طرديا مع فرص العمل المتاحة ، وإن كان ذلك يتوقف أيضا على مدى توفر هذه الفرص في المراحل الوسيطة بين موطن (الارسال) وموطن (الاستقبال) . وقد كانت هذه المحاولات لصياغة هذه المقاييس في شكل قضايا أو حتى في شكل معادلات يمكن إخضاعها للاختبار بإجراء دراسات وبحوث في مجتمعات وثقافات مختلفة ، على أمل الوصول بذلك في آخر الأمر إلى ما يمكن اعتباره « قانون » أو « قوانين » الهجرة . ومع ذلك فقد يكون من الصعب أو حتى من الخطأ ، التعميم من دراسة حالات قليلة للهجرة لأن في ذلك تبسيطا شديدا للأمور وللظاهرة نفسها . وهذا لا يقلل بحال من شأن أو من أهمية الدراسات المركزة المتعمقة لحالة معينة للهجرة من بلد معين بالذات إلى بلد آخر ، لأن مثل هذه الدراسات المتعمقة للظاهرة تكشف وتحللها من كل جوانبها وفي كل أبعادها سواء من حيث التوقيت أو الأهداف أو المراحل الدافعة إليها أو حجمها واتجاهاتها بالاضافة إلى كثير من المسائل المتعلقة بوضع المجتمع الأصلي أو المجتمع المضيف هي التي تؤلف الأساس الأول الذي تقوم عليه الدراسات المقارنة التي يمكن الوصول منها إلى بعض التعميمات أو إقامة النماذج والأنماط التي تسترشد بها في إجراء مزيد من الدراسات .

ولاية لأخرى متأثرة بعوامل اقتصادية بحت . بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن العوامل الاقتصادية تلعب في هذه التحركات دورا أقل بكثير مما يظن في العادة . وثمة بعض الدراسات المسحية التي يشير إليها بترسن والتي أجراها مكتب الاحصاء للولايات المتحدة عام ١٩٤٧ وعام ١٩٦٦ ، وقد تبين منها أن حوالي ٢٢,٦٪ من أفراد العينة هاجروا لأسباب اقتصادية بحثا عن العمل ، بينما تتوزع بقية الاجابات بين عدد كبير من الأسباب الاجتماعية المختلفة بل وببعض الأسباب الصحية أو حتى بطبيعة الطقس السائد في « موطن » الارسال ، وان كان بعض الأسباب (الاجتماعية) التي ذكرت لها جانب اقتصادي واضح مثل سوء وسائل المواصلات . وليس من الضروري أبدا أن يكون وراء كل هجرات الزنوج من جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها وغربها أسباب اقتصادية أو مجرد الرغبة في تغيير حياة الزراعة إلى حياة أفضل تستند إلى ممارسة أعمال أخرى في المدن يكون لها مردود اقتصادي أعلى من فلاحة الأرض . إنما هناك الى جانب ذلك كله الرغبة في الهروب من كل الأوضاع الاجتماعية السائدة في الجنوب بكل ما تمثله من ضغوط ومعاناة اجتماعية ونفسية يقاسي منها الأمريكيون السود من جراء التفرقة العنصرية .⁽⁴⁾ فأسباب الهجرة هنا أوسع وأكثر تعقيدا من الوضع الاقتصادي ، بل إن هذا الوضع الاقتصادي نفسه الذي يجد الأمريكيون السود فيه أنفسهم هو مجرد مظهر واحد من مظاهر التميز العنصري في الولايات الجنوبية من أمريكا . وقد يكون ذلك مثالا متطرفا ولكن له دلالته بغير شك .

هذه النظرة الشاملة التي تدرس الهجرة في كل أبعادها توائم المدخل البنائي الوظيفي الذي يتبعه غالبية علماء الأنثروبولوجيا وعدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة العلماء الذين يحرصون على دراسة الظاهرة في مجتمع معين بالذات ، سواء أكان هذا المجتمع هو الوطن الأصلي - أو مجتمع الارسال الذي يترك أعضاؤه متجهين إلى مواطن جديدة مختلفة ومتفرقة - أو كان هو الوطن الجديد أو المجتمع المضيف الذي يستقبل أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يفدون اليه من مجتمعات وثقافات مختلفة ومتباينة . ولكن أيا ما يكون المجتمع الذي يركز عليه الباحث فلا بد من أن يتطرق البحث إلى المجتمع الآخر بشكل من الأشكال . فالهجرة « عملية » ذات طرفين ، يؤلف مجتمع الارسال أحد هذين الطرفين ويؤلف مجتمع الاستقبال الطرف الثاني ، بينما يقوم المهاجرون بدور « حلقة الوصل » بين الطرفين . فالمسألة تتعدى إذن مجرد الاهتمام بتبين عوامل الطرد أو عوامل الجذب والآثار الناجمة عنها وتحديد أنماط الهجرة المختلفة الناشئة عن هذه العوامل واذا ما كانت هي هجرة دائمة أو مؤقتة ، أو هجرة قسرية اجبارية أو ارادية اختيارية ، أو هجرة كاملة أو غير كاملة ، أو هجرة أولية أو ثانوية ، أو هجرة قصيرة الأمد أو طويلة الأمد وغير ذلك من التصنيفات التي يحب بعض علماء الاجتماع ابرازها وتوكيدها . بل ان المدخل البنائي الوظيفي الذي ينظر الى الهجرة نظرة شاملة كلية لا يكاد يعطي كثيرا من الاهتمام لبعض الجوانب التي يعنى بها أصحاب المناهج الأخرى في دراسة الهجرة مثل حجم الهجرة وفئات المهاجرين بحسب الجنس أو السن أو المهنة أو الجنسية الأصلية ، وأسباب الهجرة وآثارها على كل من المجتمعين ، والعائد الاقتصادي من الهجرة سواء بالنسبة للمهاجرين أنفسهم أو المجتمعات التي خرجوا منها ، والخسارة التي تحيق بقوة العمل في بلد المنشأ وأثر ذلك في بعض مجالات الانتاج ، وظهور أنماط استهلاكية جديدة والاقبال الشديد - مثلا - على اقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة ، ومجالات استثمار التحويلات التي يرسلها المهاجرون الى مواطنهم الأصلية وما

(4)
Peterson, op. cit. pp. 288-9

الى ذلك . وعدم الاهتمام بهذه الأمور لا يعني بحال من الأحوال عدم أهميتها أو التهوين من شأنها ، ولكنها تعتبر في نظر الباحثين البنائيين الوظيفيين معلومات أولية تؤلف الخلفية الأساسية التي يرتكز اليها التحليل البنائي الذي يهتم أكثر ما يهتم بالعلاقات الاجتماعية . فالاكتفاء بهذه المعلومات الرقمية أو الكمية يعني في آخر الأمر دراسة الظاهرة من (الخارج) فحسب . ومن هنا يهتم المدخل البنائي الوظيفي بدراسة التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يقوم داخل مجتمع الاستقبال أو الموطن الجديد الذي يستقبل هؤلاء المهاجرين ، بحيث يتناول بالتحليل مثلا علاقات التعاون والصداقة أو الصراع والعداء بين المهاجرين من مختلف الجنسيات ونظرة بعضهم الى بعض في ضوء انتماءاتهم العرقية والسلالية والدينية ، بل ونظرتهم إلى أهل المجتمع وسكانه الأصليين ونظرة المجتمع اليهم ومدى تقبله أو رفضه لهم ، والجهود التي يبذلونها للاندماج في المجتمع أو رغبتهم على العكس من ذلك في التمسك بثقافتهم الأصلية والاحتفاظ بمقوماتهم التقليدية التي تنتمي إلى المجتمع الذي جاءوا منه ، بل ونظرة كل جماعة من هذه الجماعات العرقية الى نفسها وتقييمها للمكانة التي تحتلها في الموطن الجديد ومقارنة ذلك بالمكانة التي كانت تتمتع بها في موطنها الأصلي مع تعرف آرائهم في ذلك المجتمع القديم بكل نظمه وأنساقه وأنماطه السلوكية وقيمه الاجتماعية التي تركوها وراءهم .

●●●

وقد يحسن أن نشير هنا إلى إحدى الدراسات التي أجريت في الخارج وتناولت بالتحليل الدقيق المشاكل الناجمة عن نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين الذين ينتمون إلى ثقافة تختلف كل الاختلاف عن الثقافة السائدة في بلد المهجر أو بلد « الاستقبال » . والدراسة التي أعنيها قامت بها الدكتورة باتريشيا جيفري Patricia Jeffery الزميلة الباحثة بقسم الأنثربولوجيا الاجتماعية بجامعة أدنبرة على العائلات المهاجرة من باكستان الى بريطانيا والتي أقامت بعد ذلك في بريستول . وقد ظهرت الدراسة تحت عنوان « مهاجرون ولاجئون : دراسة للعائلات الباكستانية المسلمة والمسيحية في بريستول » . والذي يهمنا في هذه الدراسة الى جانب المشكلات التي تعرضت لها هو أنها بدلا من أن تدرس هجرة الباكستانيين إلى بريطانيا بشكل عام ركزت على العائلات المقيمة في مجتمع محلي محدد هو مدينة بريستول وبذلك جاءت الدراسة على درجة كبيرة من العمق والقدرة على التحليل ، كما أنها بدلا من أن تتبع الاسلوب السوسيولوجي المعتاد في الدراسات المماثلة والذي يعتمد في المحل الأول على جمع المعلومات من عينة مختارة من المهاجرين اتبعت الأسلوب الأنثربولوجي الذي يعتمد على الإقامة الطويلة في مجتمع البحث وعلى جمع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي ، كما عززت ملاحظاتها بعدد من « دراسات الحالة » المتعمقة فضلا عن ذهابها إلى باكستان لدراسة اللغة الأردية حتى تستطيع أن تستخدمها في الحديث مع النساء الباكستانيات اللاتي لا يعرفن الانجليزية ، وحتى تتعرف أيضا ملامح الثقافة التقليدية في باكستان ومكونات البناء الاجتماعي التقليدي . وهذه كلها أساليب وطرق للبحث تكفل التغلغل في أعماق الظاهرة أو النظام الاجتماعي موضوع الدراسة . وهذه مسألة سوف نعود إليها فيما بعد ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الكتاب لم يشتمل على جدول واحد ، وأن الأرقام فيه قليلة . وذلك على عكس الدراسات السوسيولوجية حول الموضوع والتي يبدو أن لها ولعا كبيرا بالأرقام والجداول . وهذا لا يعني الاستهانة بلغة الأرقام ، وكل ما يعنيه هو أن هناك أساليب وطرائق مختلفة لدراسة الموضوع الواحد ، وأن اختيار

المشكلة هو الذي يحدد المنهج والأسلوب وطريقة التحليل الملائمة . ومعظم الدراسات التي أجريت على المهاجرين من الكومنولث الى بريطانيا كانت تفترض أن هؤلاء الوافدين المقيمين قطعوا علاقاتهم مع وطنهم الأصلي ومع ثقافتهم التقليدية وأنه يمكن بالتالي دراسة وفهم هذه الجماعات فهما دقيقا من خلال ملاحظة وتحليل سلوكهم العادي في حياتهم اليومية في مجتمع الاقامة ، ودراسة الأعمال التي يقومون بها وظروف الحياة التي تحيط بهم مثل السكن والدخل وغيرها . ولكن هذه الدراسة تعتبر ذلك نظرة ضيقة الى الموضوع وأن الهجرة عملية معقدة فيها كثير من الأطراف المتشابكة التي يجب تتبعها بدقة وتفصيل ، وأن الفهم الحقيقي لهذه المشكلة لن يتحقق الا اذا رجع الباحث الى الثقافة الاصلية التي ينتمي اليها هؤلاء المهاجرون الذين يتجاذبهم بذلك نوعان من الانتماء : الانتماء إلى الوطن الأصلي بكل قيمه وتراثه وتقاليده ، والانتماء الى المجتمع الجديد أو الوطن المضيف ، مع الرغبة الشديدة طيلة الوقت في العودة الى أرض المنشأ . وهي رغبة قلما تتحقق ، بل وقلما يعمل المهاجرون بإخلاص لاخراجها إلى حيز التنفيذ .

وهجرة الباكستانيين إلى بريطانيا جزء من هجرات أكبر وأوسع وأشمل وتضم أعدادا كبيرة جدا من الملونين والزنوج الذين وفدوا على بريطانيا من شبه القارة الهندية ومن أفريقيا وعدد من المستعمرات البريطانية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد ظهر حول هذه الهجرات عدد كبير من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على هؤلاء الوافدين في مواطن إقامتهم الجديدة . وقد نجم عن هذه الهجرات كثير من المشكلات وأثير حولها كثير من التساؤلات كما ظهرت بعض الاتجاهات العدائية السافرة ضد هؤلاء الوافدين ، وهي اتجاهات تعبر عن الرفض الشديد والإحساس بخطورة هذه الهجرات على نمط الحياة والقيم والثقافة البريطانية التقليدية وعلى أسلوب الحياة « البريطاني » . ومعظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع والتي كان علماء الأنثروبولوجيا فيها بنصيب وافر تكشف عن مشكلة هامة بدأ المجتمع البريطاني يعاني منها نتيجة لهذه الهجرات ، وهي مشكلة الحاجز اللوني والتمايز السلالي والعنصري وما صاحب ذلك من الاتجاه إلى كثير من أساليب العنف التي لم تكن معروفة في بريطانيا من قبل[٦] .

والواقع أن هجرة الملونين والسود الى بريطانيا ليست الا مظهرا آخر للتاريخ الامبريالي البريطاني وامتدادا لهذا التاريخ حتى وإن كان هذا الامتداد قد اتخذ بعد انتهاء عصر الاستعمار اتجاها مخالفا لما كان عليه من قبل . فأسلوب الحكم البريطاني في المستعمرات ، والاستغلال الاقتصادي لمصادر الثروة الطبيعية وتسخير الافارقة في المزارع الكبيرة الواسعة وفي المناجم ، وحركات التبشير أدت كلها إلى ظهور تصنيفات سلالية وعرقية تضع الرجل الأبيض على رأس

---

(٦) من الدراسات الهامة التي ظهرت حول هجرة الملونين إلى بريطانيا والمشكلات الاجتماعية والعرقية الحادة والصراع العنصري التي نجمت كلها من هذه الهجرات الدراسات والبحوث التالية التي سوف نعتمد عليها هنا بشكل مباشر أو غير مباشر :

William W. Daniel; Racial Discrimination in England, Penguin Books, 1968; Nicolas Deakin, Colour, Citizenship and British Society, Panther Books, London 1970; Roland Littlewood and Maurice Lipsedge; Aliens and Alienists, Penguin Books 1982; Ivor Morrish, The Background of Immigrant Children, Allen and Unwin 1971; Sheila Patterson, Dark Strangers, A Study of West Indians in London, Penguin Books 1965; Peter Ratcliffe, Racism and Reaction, R.K.P. 1981;

ولكن الكتاب الذي سوف يحظى بمعظم اهتمامنا هنا هو البحث الأنثروبولوجي الممتاز الذي ظهر عام ١٩٧٦ بعنوان :

Patricia Jeffery, Migrants and Refugees: Muslim and Christian Families in Bristol, Cambridge University Press 1976.

الجنس البشري . وقد ظهر ذلك واضحا في كل كتابات القرن التاسع عشر وعلى الأخص الكتابات الأنثربولوجية التي اهتمت بتصنيف البشر وكل الكائنات الحيوانية وتصنيف الثقافات والمجتمعات والنظم والأنساق تبعا لفلسفة تطورية تقوم على ترتيب الأشياء حسب درجة رقيها وتقدمها أو تخلفها وانحطاطها . والظاهر أن هذه النظرة لا تزال سائدة في بريطانيا إلى حد كبير ويعتنقها كثير من الناس وإن كانت لا تطفو على السطح إلا حين تتهيأ الظروف لذلك . وعلى أي حال فإن الذي يهمنا هنا هو أن معظم الذين درسوا الحركات الهجرية إلى بريطانيا كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك التاريخ الاستعماري البريطاني الذي كان جزءا من التوسع الأوربي الذي امتد الى أطراف بعيدة من العالم من أجل السيطرة والتحكم في الأسواق ونقل ثروات تلك المستعمرات إلى أوربا ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن احتكر بعض مناطق العالم لتصريف الصناعات والمنتجات الأوربية فيها . وهذه السياسة الاستعمارية هي التي أدت الى تقسيم العالم إلى دول ومجتمعات صناعية وأخرى زراعية فقيرة هي التي تؤلف « العالم الثالث » بكل ما يعانيه من فقر وسوء تغذية وجهل ومرض وبطالة . ومعظم المهاجرين الملونين السود الذين يعيشون الآن في بريطانيا جاءوا من دول ومجتمعات تعاني من بعض المشكلات التي خلقتها على أيدي بريطانيا ذاتها . وهذه حقيقة يعترف بها معظم الباحثين في كثير من التجرد والموضوعية[٧] .

ولقد كانت شبه القارة الهندية قبل تقسيمها إلى دولتي الهند والباكستان واحدة من أهم المناطق التي خضعت للحكم البريطاني وكانت تعتبر أجمل وأغلى جوهرة في التاج البريطاني . ولقد أفادت بريطانيا من هذه (العلاقة) إلى أبعد الحدود سواء من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية العسكرية حيث كان (الهنود) يحاربون لها حروبها ، بينما لم تكد شبه القارة الهندية تفيد شيئا يذكر من (المدنية) الغربية التي جلبها البريطانيون لهم في مقابل استنزاف خيرات بلادهم وثرواتها . وكما تقول باتريشيا جيفري (صفحة ٢) فإنه لا يمكن الفصل من الناحية التاريخية بين تطور بريطانيا وتقدمها كدولة صناعية وتخلف الهند وفقرها واعتمادها اقتصاديا على الزراعة ، وأن تحكم بريطانيا في أسواق الهند كان من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الصناعية في بريطانيا .

وربما كانت هذه الحقيقة ماثلة في أذهان الكثير من الهنود والباكستانيين الذين اضطرتهم ظروف بلادهم إلى الهجرة الى بريطانيا بحثا عن العمل ، فقد كانوا يرون أن هذه الهجرة أمر طبيعي وأن من حقهم أن يجدوا في بريطانيا العمل الذي يحتاجون اليه . ولم تكن بريطانيا على أي حال تجد في أوائل الخمسينات ما يمنع من قبول تلك الأعداد الكبيرة الوافدة اليها ، اذ كانت تجد فيهم الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لتشغيل مصانعها بعد أن انصرف كثير من العمال البريطانيين عن العمل فيها نظرا لانخفاض الأجور . وهكذا نجد أنه بعد أن أفلحت بريطانيا في استنزاف الموارد الطبيعية من شبه القارة الهندية أيام الاستعمار أخذت تستنزف قواها البشرية بعد أن نالت استقلالها وانقسمت الى دولتين كبيرتين هما الهند والباكستان . ولقد كان النازحون من هاتين الدولتين يدخلون بريطانيا بغير عوائق أو صعوبات حتى عام ١٩٦٢ حين تغير الوضع وأصبحت بريطانيا تقبل أصحاب المهارات والكفاءات فقط ، أي أنها لم تكن تقبل سوى الفئات التي تحتاج إليهم بلادهم الأصلية ولا تستطيع الاستغناء عنهم بسهولة . وربما كان ذلك وراء ما قاله إحدى

---

(٧) انظر على سبيل المثال :

Patricia Jeffery, op. cit. pp. 7-43; R. Littlewood and M. Lipsedge, op. cit. Ch. 4; Ratcliffe, op. cit. pp. 1-18.

السيدات المهاجرات حين سئلت في شيء من العداء عما يدفعها هي وأمثالها إلى المجيء الى بريطانيا فأجابت بأنها هي وأمثالها انما يأتين الى بريطانيا من شبه القارة الهندية لاسترداد ماسة كوهي نور Koh-i-noor الشهيرة . ولكن لا يمكن القول إن كل المهاجرين من شبه القارة الهندية الى بريطانيا يعرفون ذلك التاريخ ويعرفون تلك الماسة الشهيرة أو يدركون الأبعاد التاريخية والسياسية لهجرتهم ، وإنما هم يرون أنفسهم مجرد أفراد كانوا يعيشون في بلد فقير لا يستطيع أن يوفر لهم ولعائلاتهم العيش الكريم وأنه لم يكن أمامهم إزاء ذلك إلا أن يحاولوا الافادة بقدر الامكان من الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وأن الهجرة الى بريطانيا كانت إحدى هذه الفرص .[٨]

ولقد كانت تلك الاعتبارات وراء اختيار باتريشيا جيفري للمنهج الذي اتبعته في دراسة المهاجرين الباكستانيين في بريستول ، وهو منهج يقوم ليس فقط على معايشة الناس ومشاركتهم كثيرا من أوجه النشاط اليومي والاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتطلب الاقامة الطويلة في المجتمع وعدم الاتجاه إلى صحائف الاستبيان وقوائم الأسئلة القصيرة المباشرة الا في أضيق الحدود ، ولكنه أيضا منهج يقوم على التعاطف مع الناس ومحاولة فهم وجهة نظرهم والتعبير عنها بأمانة لدرجة قد تصل بالباحث الى أن ينكر ذاته تماما ويختفي من الصورة بقدر الامكان لكي يترك للناس أنفسهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وعرض دقائق حياتهم وشرح تجربتهم الخاصة وتقييم هذه التجربة في ضوء الظروف والأوضاع التي عاشوها ، وبدون تدخل أو توجيه من الباحث الا في أضيق الحدود . وهذا هو بالضبط ما فعلته باتريشيا جيفري في هذه الدراسة التي نحن بصددها . وربما كان هذا المدخل الذي يقوم على التعاطف والذي يحب بعض علماء الانثربولوجيا تسميته بالمدخل العرقي هو أهم ما يميز هذه الدراسة . والواقع أن الستينات والسبعينات شهدت اتجاها واضحا في البحوث الأنثربولوجية في الخارج نحو اتباع هذا المدخل الذي لم يطبق عندنا على أي حال الا في حالات قليلة معدودة وبالذات في بعض الرسائل الجامعية التي لم تنشر بعد .

ومع التسليم بتعدد الأسباب وراء الهجرة فان الهجرة من أجل العمل ـ أي لأسباب اقتصادية في المحل الأول ـ تشكل نسبة كبيرة من الهجرات البشرية في العالم . وتبدأ هذه الهجرات في العادة على أنها مسألة مؤقتة لا يلبث المهاجر أن يعود بعدها إلى وطنه الأصلي . أو هذا على الأقل هو ما يعتقده الكثيرون في بداية الأمر ، خاصة وأن كثيرا من مجتمعات الاستقبال لا تحبذ إقامة الوافدين من أجل العمل بصفة دائمة فيها ، ولكن ذلك لم يمنع من تزايد حركات الهجرة في كثير من مناطق العالم . فتقارير مكتب العمل الدولي مثلا تشير الى أنه في عام ١٩١٩ كان المهاجرون من أجل العمل كله حوالي عشرة ملايين نسمة ولكن في عام ١٩٧٣ كان ٩٪ من القوة العاملة في ألمانيا الغربية ينتمون الى جنسيات

(٨) وقد كانت لأبناء دول الكومنولث الحق في الاقامة والعمل في بريطانيا . بل إن ذلك كان من دوافعهم أكثر مما كان بالنسبة للوافدين من جنوب أوربا مثلا الذين كانوا يعتبرون أجانب من الناحية القانونية ، وبالتالي لم يكن في استطاعتهم التنقل هناك بغير الحصول على ترخيص . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية خرجت أعداد متزايدة من شبه القارة الهندية ومن بعض دول الكومنولث القديم والجديد للاقامة في بريطانيا ... [illegible] ... البريطانيين البيض الذين يؤلفون السكان الأصليين . والواقع أنه حتى عام ١٩٦٦ لم تكن الفرقة العنصرية في بريطانيا غير مشروعة ، بل إنه حتى عام ١٩٦٨ حين صدرت القوانين المنظمة للعلاقات السلالية كان من المألوف ... [illegible] ... وحتى بعد صدور القوانين لم يتغير الموقف تغيرا جذريا إلا ببطء وبالتدريج . وقد عانى الباكستانيون بالذات ... [illegible] ... ولقد لاحظ هذه الظاهرة عدد من العلماء الذين درسوا الهجرة الى بريطانيا ومنهم باتريشيا جيفري . انظر على سبيل المثال كتاب

Littlewood and Lipsedge, op. cit. p. 128 and p. 136.

أجنبية ، كما أن فرنسا تعتمد على العمال المهاجرين من الجزائر والمغرب بحيث أنه في عام ١٩٧٤ كان حوالي ٥٪ من كل القوى العاملة الجزائرية تعمل في فرنسا . وقد سبق أن أشرنا الى أن بريطانيا كانت في سنوات الازدهار في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تستقبل أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين الذين كانوا يفدون اليها من الدول التي أدت السياسة البريطانية الاستعمارية ذاتها الى تحطيم اقتصادها . ويشير تعداد عام ١٩٧١ الى أن ١,١٦ مليون نسمة في بريطانيا كانوا من مواليد دول الكومنولث الجديد وبوجه أخص من الهند وباكستان وبنجلاديش . ولكن حين دخل الغرب في مرحلة الكساد في السبعينات بدأت النعرات العنصرية والتفرقة بين السلالات وما يرتبط بها من توتر وصراع عنصري تظهر بعنف وقوة على ما ذكرنا وبشكل لم يكن مألوفا من قبل[٩] . وقد دفع ذلك باتريشيا جيفري الى القول بأن (دعوى) التسامح الذي يفخر به البريطانيون هي في الحقيقة (ادعاء) فيه كثير من الزيف والسطحية والخداع (صفحة ٣) . وهذا الحكم الذي تصدره باتريشيا جيفري يكشف عن نوع التعاطف الذي تبديه مع الباكستانيين الذين ركزت عليهم دراستها في بريستول ، وهو مستمد على أية حال من أقوالهم هم أنفسهم ويعبر بذلك عن وجهة نظرهم ورأيهم في المجتمع البريطاني بعامة ومجتمع بريستول الذي يعيشون فيه بخاصة ، وإن كانت ملاحظاتها هي الخاصة أثناء البحث تعزز من هذا الرأي .

بل ان اختيار باتريشيا جيفري للموضوع يكشف هو أيضا عن الدور الذي يلعبه التعاطف في الدراسة . ففي البداية كان الموضوع الذي يشغل بالها وتريد التركيز عليه والذي جذب انتباهها بحكم اقامتها في بريستول كطالبة في الجامعة هناك كان هو حياة الفتيات الباكستانيات في ضوء خضوعهن لبعض التقاليد وقواعد العرف الباكستانية ، مثل رغبة الوالدين في أن تحتجب الفتيات بالحجاب أو (البرقع) رغم اقامتهن في مجتمع غربي حديث (بريطانيا) ، وكذلك نظام الزواج الذي يتولى الوالدان ترتيبه لأولادهم وبخاصة الفتيات منهم . وعكفت على دراسة التعارض الذي يبلغ أحيانا حد الصراع بين وجهتي نظر الوالدين والفتاة الصغيرة ، واسترعى نظرها في ذلك قدرة الباكستانيين على الاحتفاظ بالهوية أو الذاتية الباكستانية عن طريق التمسك بتلك العادات وقواعد السلوك والقيم والنظم التقليدية ، وبذلك تحول اهتمامها الى دراسة الأساليب والوسائل التي تتم بها المحافظة على تلك العناصر الثقافية الهامة وأسلوب تربية وتنشئة الأطفال في البيت في جو باكستاني تقليدي . وهكذا اتجهت الدراسة نحو العمليات التي يتم عن طريقها (عدم التمثل) ـ وليس التمثل ـ والمحافظة على المقومات والأسس والملامح العرقية وليس اختفاء هذه الملامح واندثارها عن طريق الاحتكاك والتفاعل مع الثقافات الأخرى على ما تفعل كثير من الدراسات الأخرى حول الهجرة . فبينا يهتم معظم الباحثين بتعرف الوسائل والأساليب التي يتم بها تكيف المهاجرين مع المجتمع الجديد وتمثلهم الثقافة ، اتجهت باتريشيا جيفري على العكس من ذلك إلى البحث عن عوامل (عدم) التكيف و (عدم) التمثل والاحتفاظ بالشخصية الاجتماعية والهوية الثقافية الخاصة للمهاجرين الباكستانيين في مجتمع الدراسة .

●●●

الهجرة على نطاق واسع من باكستان إلى بريطانيا ظاهرة حديثة نسبيا . فلم يكن يوجد في بريطانيا عام ١٩٥٠

---

(٩) Paul Harrison; Inside the Third World: The Anatomy of Poverty, Harvester Press, London 1979, pp. 139-42.

سوى عدد قليل من الباكستانيين ، وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن العدد قد وصل إلى عشرين ألف مهاجر ، وحتى الآن لا يزال معظم الباكستانيين المهاجرين في بريطانيا من الرجال وان كانت هناك نسبة معينة من النساء يلحقن كل عام بأزواجهن ، وهي على أي حال نسبة ضئيلة نظرا للقيود المفروضة على الهجرة والاقامة . والطريف هنا هو أن بعض المهاجرين الباكستانيين الى بريستول هم من المسيحيين - أي أن الهجرة الباكستانية ليست هجرة اسلامية خالصة . وعلى الرغم من أن المسيحيين في باكستان لم يكونوا حسب إحصاء عام ١٩٦١ يزيدون عن ١,٣٦٪ من مجموع السكان وان عددهم في بريستول قليل جدا فان باتريشيا جيفري وجدت أن من المستحسن أن تجري على بعضهم البحوث المركزة المتعمقة فيما يعرف باسم دراسة الحالة ، على أساس أن ثمة فوارق ثقافية هامة تميزهم عن الباكستانيين المسلمين وأن لهم نظرتهم وآراءهم ومواقفهم الخاصة المتميزة من الهجرة .

وكما هو الحال في أغلب حالات الهجرة فان الهجرة من الباكستان إلى بريطانيا تكمن وراءها في أغلب الحالات دوافع اقتصادية ، ولذا فان معظم الوافدين يتوجهون أولا الى المناطق التي تعاني نقصا في الأيدي العاملة حتى يضمنوا لهم عملا يستطيعون الاعتماد عليه ولو مؤقتا الى أن تتاح لهم الفرصة الكافية للتعرف على الموقف بشكل أفضل ويستطيع كل منهم أن يتخير أفضل مكان للعمل والاقامة فيستقر فيه . وعلى ذلك فان أغلب الباكستانيين المقيمين في بريستول لم يصلوا اليها الا بعد أن مروا بعدد من مراكز العمل الأخرى في بريطانيا ومارسوا عددا من الأعمال المختلفة . ومع ذلك فان هناك الى جانب الدوافع الاقتصادية أسبابا أخرى اجتماعية وراء عدد كبير من حالات الهجرة وبالأخص هجرة المسيحيين . وقد ظهرت هذه الأسباب الاجتماعية نتيجة للدراسة المركزة التفصيلية لحياة بعض الأفراد لمعرفة العوامل الذاتية والشخصية التي تختفي وراء الدوافع الاقتصادية العامة مثل الشكوك التي يحملها المسيحيون ازاء وضعهم ومكانتهم الاجتماعية في الوطن الاصلي ، وهي شكوك تقول باتريشيا جيفري انه لم يتوفر لديها معلومات كافية تجعلها تطمئن الى صدق ما يقوله هؤلاء المهاجرون المسيحيون . ولكن ليس المهم هنا ان كان ما يزعمونه صحيحا أو غير صحيح ، وانما المهم هو أن الشعور بالتمييز والتفرقة بين المسيحيين والمسلمين في باكستان والاحساس بالظلم الواقع عليهم هو شعور واحساس موجودان عند المسيحيين بالفعل ولهما دخل كبير في تقييم المسيحيين لوضعهم في المجتمع وفي اتخاذهم القرار بالهجرة من باكستان . واذا كان المسلمون قد اختاروا الذهاب الى بريطانيا في المحل الأول نظرا لتوفر امكانات العمل فيها فان اختيار المسيحيين لبريطانيا كان ناجما عن شعورهم بأنها أشبه شيء (بالأرض المقدسة) - حسب التعبير الذي استخدمه أحد المسيحيين الذين درست باتريشيا جيفري حالتهم دراسة تفصيلية (صفحة ٥٧) . ولكن الظاهر ان الدين لم يكن شفيعا كافيا للباكستانيين المسيحيين يساعد على قبول المجتمع البريطاني في بريستول لهم أو يشجعهم على البقاء طويلا في بريطانيا ، وان كان فتح أمامهم أبواب بعض العائلات البريطانية . فعدد من العائلات الباكستانية المسيحية تفكر الآن في الهجرة الى كندا ، وذلك في الوقت الذي تفكر فيه عدد من العائلات المسلمة في ترك بريطانيا أيضا ولكن عائدة الى باكستان . ولهذا الاختلاف في الاختيار له دلالته . ولكن يمكن القول بوجه عام انه اذا كان الباكستانيون المسيحيون يشعرون بالتمييز ضدهم على أساس ديني في باكستان فان هذا الوضع تغير الى حد كبير في بريطانيا حيث يتقبل المجتمع المهاجرين المسيحيين بسهولة أكثر مما يتقبل المهاجرين المسلمين ، وهذا دليل آخر تسوقه باتريشيا جيفري على التمييز العنصري الديني في بريطانيا ازاء المهاجرين (صفحات ٦٦ - ٦٨) .

وليس معنى هذا أن الفصل العنصري هو سياسة مرسومة من الدولة بقدر ما هو شعور عام بين الناس ينعكس في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع المحلي الذي يضم جماعات عرقية مختلفة . كذلك ليس من الضروري أن يتخذ ذلك الشعور بالتنافر بين الجماعات العرقية شكل العنف كما حدث في بعض المدن في بريطانيا أو في بعض أحياء لندن ، وإنما قد يتخذ شكل التباعد ووضع الحدود على العلاقات الاجتماعية بحيث لا يتم التفاعل الاجتماعي الا في أضيق الحدود . وكذلك ليس من الضروري أن يقتصر ذلك التباعد الذي يعبر عن التمييز العنصري على البريطانيين البيض من ناحية والزنوج والملونين ككل من الناحية الأخرى ، وإنما يقوم ذلك التمييز بين مختلف الجماعات العرقية على السواء وبغير تفرقة كما تشير الى ذلك الأوضاع العامة السائدة في بريستول . فالاختلاط بين البريطانيين والباكستانيين الذين يشتركون في عمل واحد لا يتم الا في أضيق الحدود وأثناء أوقات العمل فقط . ويزيد من ذلك أن الكثيرين من العمال الباكستانيين يأخذون معهم طعامهم ويتناولونه بالتالي على حدة وانفراد وبذلك لا تتاح لهم فرصة الاتصال بزملائهم من الجماعات السلالية والعرقية الأخرى - وليس فقط زملاءهم من البريطانيين - أثناء فترة تناول الغذاء . ولقد حرمهم ذلك من فرصة الحديث باللغة الانجليزية وبالتالي اتقان اللغة التي هي أداة اتصال وتواصل في المجتمع البريطاني والتي بدونها يزيد شعورهم بالوحدة والعزلة والاغتراب . وليس من شك في أن طبيعة الطعام (البريطاني) لها دخل كبير في ذلك . فالباكستانيون المسلمون يحرصون على تناول اللحم (الحلال) وهو ما لا يتوفر في الطعام البريطاني العادي ، وذلك فضلا عن الفكرة العامة الشائعة بينهم ولدى الكثيرين من الأغراب من مختلف الجنسيات والسلالات من أن الطعام البريطاني بوجه عام لا طعم له وغير مستساغ لغير البريطانيين (باتريشيا جيفري ، صفحات ٩٠ - ٩٣) بل إن الباكستانيين يحرصون وقت تناول الطعام في بيوتهم أن يسدلوا الستائر حتى لا يراهم المارة في الشارع وهم يأكلون بينما لا يعطي البريطانيون لهذه المسألة أدنى اعتبار . وهذا التباعد نفسه يقوم حتى بين الجماعات العرقية التي يفترض أن بينها كثيرا من أوجه الشبه والتي تشترك معا في كثير من العناصر الثقافية كما هو الحال مثلا بين الباكستانيين والهنود ، وبخاصة الذين ينتمون في الأصل الى البنجاب حيث تتشابه الفئتان في اللغة والملابس وألوان الطعام (ربما باستثناء اللحم الحلال) . فالاختلافات الدينية والسياسية القائمة في باكستان تنعكس على العلاقات بين الفئتين في بريطانيا وتقف عقبة دون اختلاطهما بشكل أكبر فعالية في الحياة اليومية ، لدرجة أن باتريشيا جيفري التي عنيت بتتبع هذه العلاقات تقول انه في بريستول لم تنشأ أي علاقة قوية سوى بين عائلتين اثنين فقط احداهما باكستانية والأخرى هندية من مدينة أمرتسار ، وحين تتبعت الموضوع لمعرفة سر هذه العلاقة اكتشفت أن الرجل الباكستاني جاء في الأصل من أمرتسار نفسها (صفحة ٩٣) ، أي أن وحدة الموطن الأصلي كانت هي العامل الأساسي في التقريب بين هاتين العائلتين اللتين تمثلان بذلك حالة استثنائية وفريدة .

ويمتد هذا الانفصال بين الجماعات العرقية المختلفة إلى الأطفال الصغار في المدارس . فالأطفال الباكستانيون يلتحقون بطبيعة الحال بالمدارس البريطانية خاصة وأنه لا توجد مدارس باكستانية تعمل طوال الوقت ويمكنها أن تتولى وحدها مهمة تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وصحيح أن هناك بعض المؤسسات والمدارس الدينية الملحقة بالمساجد ولكنها لا تقدم للأطفال سوى التعليم الديني ولبعض الوقت فقط . وهذا لا يغني عن الالتحاق بالمدارس البريطانية من أجل التعليم الرسمي المنهجي المنتظم . ومع أنه لا يوجد فصل أو تمييز عنصري داخل المدارس فلا يكاد يوجد اختلاط

بين التلاميذ الباكستانيين والبريطانيين خارج المدارس . وتذكر لنا باتريشيا جيفري (صفحة ٩٣) أنها خلال كل الوقت الذي استغرقته الدراسة الميدانية لم تلتق بأطفال بريطانيين في زيارة بيوت (أصدقائهم) من الأطفال الباكستانيين سوى مرتين اثنتين فقط .

ويزيد من حدة هذه الانفصال الذي يكاد يصل إلى حد الانغلاق أو التقوقع على الذات وجود برامج اذاعية وتليفزيونية باللغة الأردية إلى جانب صدور عدد من الصحف بتلك اللغة أيضا ، وهي صحف تهتم بأخبار « الوطن » وأحداثه في المحل الأول ولا تكاد تولي الشئون البريطانية أو أحداث الغرب بوجه عام أدنى عناية أو اهتمام . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن نقول ان ما تعرضه وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة وبخاصة التلفزيون من ملامح الحياة في بريطانيا يساعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن المجتمع البريطاني ، أو أنه يسهم على الأقل في تصحيح كثير من الأفكار المسبقة التي جاء بها الباكستانيون (وغيرهم من الجنسيات الأخرى) حول العادات والأخلاقيات والسلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع البريطاني وبخاصة فيما يتعلق بسلوك المرأة والتحرر الأخلاقي والجنسي وتعتبر هذه الأفكار المسبقة من أهم عوامل تباعد الباكستانيين بالذات وانصرافهم عن إقامة علاقات مع البريطانيين . ولم تفلح وسائل الاعلام على أي حال رغم ذلك في إزالة كل الشكوك والريب . ولا تزال علاقات الباكستانيين مع البريطانيين علاقات سطحية إلى حد كبير وفي حدود ضيقة للغاية .

والطريف في الأمر هنا هو أن كل جماعة عرقية تنصب من نفسها حكما على سلوك وقيم الجماعات الأخرى وتخضعها لمحكاتها ومعاييرها ومقاييسها هي الخاصة ، وتنظر إلى هذه الأنماط السلوكية والثقافية من زاوية معينة تحمل في طياتها كثيرا من الشك والريبة وعدم التقدير بل وأحيانا عدم الاحترام . وقد تكون هناك أسس لهذه الريب والشكوك في بعض الأحيان ، كما هو الحال مثلا في تقييم الباكستانيين المسلمين لبعض جوانب الحياة العائلية في بريطانيا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية غير الشرعية والأطفال غير الشرعيين والعلاقات بين الآباء والأبناء وواجبات كل منهما نحو الآخر وما إلى ذلك . وتنعكس هذه الشكوك أحيانا في المقارنات التي يعقدها الباكستانيون بالذات (في بريستول) بين ما يحدث في بريطانيا وبين الأوضاع والعلاقات والروابط العائلية القوية التي عهدوها في بلادهم ، وكثيرا ما يبالغون في أحكامهم حول هذا الموضوع . فمن ذلك ما تذكره باتريشيا جيفري مثلا من أن أحد الاخباريين informant الذين كانت تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا لفهم طبيعة علاقاتهم بمجتمعهم الأصلي وبالمجتمع الجديد كان يؤمن بشكل قاطع وحاسم بأن نسبة الطلاق في بريطانيا هي ٧٥٪ من حالات الزواج ، وأن الحياة الزوجية في المجتمع البريطاني هي حياة تعيسة وبعيدة كل البعد عن السعادة الحقيقية التي تعيش فيها العائلة الباكستانية حيث لا تزيد حالات الزواج غير الموفق عن حالة واحدة في كل مليون زيجة (صفحة ٩٥) . وبصرف النظر عن مدى مطابقة ذلك للحقيقة والواقع فالمهم هو أن مثل هذه الأحكام إنما تصدر عن موقف معين يحمل نظرة تقويمية معينة ويعبر عن اتجاه معين أيضا إزاء الجماعات العرقية الأخرى . وهي في آخر الأمر أحكام ناجمة عن عدم فهم الثقافات الأخرى نتيجة لقلة ـ أو حتى انعدام ـ الاتصال والاحتكاك بتلك الثقافات والاغراق أو الانحصار كلية في الثقافة الخاصة التي تسود في المواطن الأصلي ، كما تكشف عن مدى الارتباط القوي بتلك الثقافة الأصلية على الرغم من العيش في مجتمع آخر له ثقافته الخاصة ، وعدم القدرة على التحرر من تأثير هذه الثقافة الأصلية . فالعلاقة بين المهاجرين والوطن الأم بكل ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من

السهل فصمها أو التنكر لها . والأجيال التي نشأت في الهند أو الباكستان (أو غيرهما من المجتمعات التي تخرج منها هجرات كبيرة الى بريطانيا) إنما تأتي إلى المجتمع المضيف أو الوطن الجديد محملة بكل ذلك التراث الثقافي والاجتماعي السائد في الوطن الأصلي . وهذا التراث يؤثر بغير شك في سلوك هؤلاء المهاجرين في المجتمع الجديد ويحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات العرقية .

من هنا فإن أي دراسة للجماعات المهاجرة التي تعيش في بلد « الاستقبال » أو الوطن الجديد يجب أن تأخذ في الاعتبار تلك العلاقات والروابط التي تظل قائمة بين هؤلاء المهاجرين وبلد « المنشأ » أو بلد « الارسال » الذي خرجوا منه . وهذا في الواقع هو ما فعله كثير من الباحثين الذين اهتموا بدراسة وضع المهاجرين في أوطانهم الجديدة ، وهذا أيضا هو ما فعلته باتريشيا جيفري في دراستها للعائلات الباكستانية في بريستول ، وذلك على اعتبار أن الوطن الأصلي يعتبر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أحد طرفي عملية الهجرة . والواقع أن علماء الأنثربولوجيا بوجه عام كانوا يرون دائما أن دراسة أي نظام اجتماعي أو أي ظاهرة اجتماعية يجب أن تتخطى حدود المجتمع المحلي الذي يدرسون فيه ذلك النظام أو تلك الظاهرة حتى يمكن تعرف المؤثرات الخارجية التي يخضع لها ذلك النظام أو تلك الظاهرة . وهذا يصدق بطبيعة الحال على دراسة الجماعات الانسانية التي كثيرا ما تمتد علاقاتهم إلى ما وراء حدود المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه . وهذا هو ما فعله ـ على سبيل المثال ايفانز بريتشارد في دراسته لقبائل النوير في جنوب السودان ، حيث لم يكتف بدراسة أي قبيلة من تلك القبائل على حدة وانما درسها في علاقاتها بعضها ببعض ثم تخطى ذلك إلى دراسة علاقاتها بالقبائل الأخرى التي تحيط بها ، والتي ترتبط بها بروابط الصداقة أو العداء وكيف أن هذه الروابط تحدد نوع البناء الاجتماعي السائد عند قبائل النوير[١٠] . وهذا مثال تقليدي قديم يسترشد به الباحثون في تتبعهم العلاقات بين المجتمع الذي يركزون على دراسته والمجتمعات الأخرى التي ترتبط به بعلاقات اجتماعية أو سياسية اقتصادية تتدخل في تشكيل بنائه وثقافته .

في ضوء هذه الاعتبارات لم تكتف باتريشيا جيفري بجمع المعلومات من الاخباريين في بريستول أو من الأشخاص الذين اعتبرتهم « حالات » تدرس حياتهم دراسة تفصيلية متعمقة ، وإنما حملتها الدراسة إلى باكستان نفسها حتى تستكمل دراسة الموضوع في كل أبعاده . وتقول في ذلك :

« لقد كانت هناك بعض مزايا واضحة ترجع إلى كوني امرأة . فقد كانت النساء والفتيات يشعرن بالسعادة للقائي حتى وان لم يكن في استطاعتهن الكلام بالانجليزية بينما كان الرجال يعاملونني على أنني (رجل شرف) . ولم يكن لمثل هذه الأمور أن تحدث بالنسبة للباحث الذكر . ولقد كانت اللغة هي المشكلة الكبرى اذ لم يكن يتكلمها إلا الرجال والنساء المسيحيات ، وكان من الواضح أن اتصالاتي بالمسلمات وبالفتيات اللاتي وصلن حديثا لن يكتب لها النجاح إلا إذا تعلمت أنا اللغة الأردية . . . وكانت أفضل وسيلة لحل مشكلة اللغة هي أن أقيم أنا نفسي في باكستان . وعلى ذلك فإنني عشت في لاهور في الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٠ إلى إبريل عام ١٩٧١ ، وهناك تلقيت دروسا منتظمة في اللغة الأردية وأقمت علاقات

---

(١٠) الاشارة هنا الى كتاب :

E.E. Evans Pritchard; The Neer, Oxford University Press, 1940.

واتصالات مع أكبر عدد ممكن من أقارب المهاجرين . وبطبيعة الحال فإن معرفتي باللغة الأردية معرفة قاصرة . . . وحين عدت إلى بريستول عمدت إلى توطيد علاقاتي من جديد مع الأخباريين . وقد أسعدهم - وبخاصة النساء - أن وجدوا أن بإمكاني الآن أن أتكلم الأردية معهم - وأنني أصبحت أهتم اهتماما كافيا ببلدهم لدرجة حملتني على الذهاب إليها . وقد ساعد ذلك على أن يشعر النساء بالارتياح والاطمئنان ، فقد كن يرينأنني أصبحت باكستانية وامرأة تعرف عاداتهم وتحمل لهم أخباراً من وطنهم . » (صفحة ٧٢) .

وهذا أسلوب متبع على أية حال في الدراسات الأنثربولوجية . والأساتذة الرواد كانوا يشترطون إجادة لغة المجتمع موضوع الدراسة حتى يمكن إجراء البحث دون الاستعانة بالمترجمين نظرا لما قد يضيع من معان أثناء الترجمة . ولكن المسألة تتعدى مجرد معرفة اللغة في هذه الحالة ، لأن كثيرا من أنماط السلوك التي يتبعها الباكستانيون في بريطانيا لم يكن يتيسر فهمها تماما إلا بالرجوع إلى الثقافة التقليدية التي نشأوا فيها ومعرفة العلاقات والروابط التي لا تزال تربطهم بتلك الثقافة وبالمجتمع القديم . يظهر هذا إذا نحن قارنا على سبيل المثال أوجه الصرف والانفاق بالنسبة للعامل البريطاني والعامل الباكستاني اللذين يمارسان نفس العمل . فبينما يعتبر دخل العامل البريطاني ملكا له ولأفراد أسرته ويمكن للباحث أن يتتبع بدقة كل تفاصيل أوجه الانفاق والأبواب التي يتم إنفاق الدخل فيها بالنسبة للأسرة ككل وبالنسبة لكل فرد من أفرادها فإن ذلك لا يصدق على العمال المهاجرين لأن جزءا من ذلك الدخل لا يمكن اعتباره بحال ملكا للعامل نفسه أو أسرته لأنه يرسل بالفعل خارج البلد إلى الأقارب في باكستان . ولن يمكن للباحث فهم ذلك إلا عن طريق - تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وما يرتبط بها من التزامات ومسئوليات لا تجد لها مثيلا في المجتمع البريطاني أو الثقافة الغربية بوجه عام . وتضرب لنا باتريشيا جيفري مثالا بأحد المهاجرين الذي كان ينفق على أسرته الموجودة معه في بريستول والتي تتألف من زوجة وثمانية أطفال ، ولكنه كان يعول في الوقت ذاته أبنا آخر له وأختا أرملة يعيشان في باكستان ، وذلك فضلا عما كان يرسله من نقود لشراء بيت يمكن أن يأوي إليه حين يعود إلى موطنه الأصلي . فمعظم المهاجرين الباكستانيين يضعون ذلك اليوم في اعتبارهم ويؤملون في العودة على الرغم من أن الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع يرون أن هذه أسطورة كما سبق أن ذكرنا[١١] . بل إن أولويات الانفاق تختلف عند الباكستانيين عنها عند البريطانيين . فالباكستانيون يسارعون في الأغلب الى تسديد أقساط البيوت التي يشترونها في بريطانيا بأكثر مما يفعل البريطانيون بحيث يتم تسديد كل الثمن في فترة أقصر بكثير ، لأن ذلك يعني أنهم يصبحون بسرعة ملاكا فعليين للبيوت . وليس من شك في أن ذلك يعني أنهم يتحملون كثيرا من المشقة ويعانون كثيرا من الحرمان حتى يمكنهم سداد أقساط أكبر حجما ، ولكن هنا أيضا تتدخل الاعتبارات الثقافية في تحديد الأولويات لأن ملكية العقار بالذات عنصر مهم في تحديد المكانة الاجتماعية في باكستان (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٠ - ٨١) .

●●●

(١١) انظر على سبيل المثال :

M. Anwar; The Myth of Return: Pakistanis in Britain, Heinmann

وهذا الارتباط القوي بالوطن الأصلي ليس قاصرا في الحقيقة على الباكستانيين وإنما هو أمر لاحظه الكثيرون من العلماء من أمثال أنوار Anwar الذي صاغ عبارة « أسطورة العودة » في كتابه الذي أشرنا إليه ، وبيتر راتكليف في دراسته للمهاجرين السود والملونين من عدد من المستعمرات السابقة الى بريطانيا كما درسهم في حي Handsworth في مدينة برمنجهام[١٢] . وهذا الارتباط القوي دليل واضح ومؤشر هام على أن المهاجرين لم يتم تمثلهم تماما في المجتمع الجديد ، كما أنهم لم يستوعبوا الثقافة الجديدة كل الاستيعاب ولم يتكيفوا بعد مع الأوضاع الجديدة . ولذا كانت عملية التمثل والاستيعاب والتكيف من أهم الموضوعات التي تتطرق إليها البحوث الأنثربولوجية حول الهجرة والاقامة في مجتمعات محلية معينة ومحددة ، وبخاصة حين تكون هذه الهجرة هجرة تعددية تشمل أشخاصا وعائلات ينتمون إلى جماعات عرقية وثقافية متفاوتة ومتباينة كما هو الحال في بريستول أو في برمنجهام . وهذا في الحقيقة يمكن أن يصدق على الهجرة في منطقة الخليج بالذات حيث تشمل أشخاصا ينتمون إلى عدد كبير من الجنسيات والسلالات والثقافات ويعيشون معا ، أو على الأصح يتعايشون جنبا إلى جنب ، في مجتمعات صغيرة الحجم وكانت إلى عهد قريب تتميز ببساطة البناء الاجتماعي وتعكس درجة عالية من التجانس الثقافي . وإذا كان علماء الانثربولوجيا والاجتماع يميزون بين التمثل التام والتمثل غير التام أو غير المكتمل ، ويرون أن التمثل التام يتحقق حين يفلح المهاجرون بعد طول إقامة في الوطن الجديد في التحرر تماما من ثقافاتهم القديمة الأصلية ويتقبلون ثقافة المجتمع الجديد وينداحون تماما في المجتمع وتتشابك علاقاتهم وتتنوع وتتعقد مع أفراد ذلك المجتمع الأصليين ، فان كثيرا من الشكوك تنتاب هؤلاء العلماء في مدى إمكان تحقق ذلك النوع من التمثل بالنسبة للمهاجرين وبخاصة من الجيل الأول[١٣] .

من ناحية أخرى يذهب بعض العلماء من أمثال جوردون M.M. Gordon في كتابه عن « التمثل في الحياة الامريكية » Assimilation in American Life (وهو كتاب قديم نسبيا حيث نشر منذ أكثر من عشرين سنة ـ عام ١٩٦٤ ـ ولكنه لا يزال يحتفظ بأهميته في هذا المجال) ـ إلى التمييز بين بعدين أساسيين للتمثل هما البعد البنائي والبعد الثقافي . فالبعد الثقافي يترتب عليه تقبل واستيعاب القيم وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الجديد ، بينما يتضمن التمثل البنائي إنشاء ثم توطيد العلاقات الاجتماعية ، وبالذات العلاقات الاجتماعية الأولية ، مثل روابط القرابة وعلاقات الصداقة مع أعضاء ذلك المجتمع . ويضرب لنا جوردون مثلا على ذلك من الولايات المتحدة حيث يبدو التمثل الثقافي واضحا على نطاق واسع بعكس الحال بالنسبة للتمثل البنائي . وهذا هو السبب في أن المجتمع الأمريكي يتميز بالتعددية البنائية وليس بالتعددية الثقافية . فهناك فئات وجماعات كبيرة متمايزة مثل البروتستانت والكاثوليك واليهود والزنوج ، ويميل أفراد كل فئة أو جماعة من هذه الفئات أو الجماعات الى التزاوج فيما بينهم وبذلك يقيمون علاقات وروابط قرابية واجتماعية قوية ولكنها خاصة بهم ومتميزة عن غيرها من العلاقات المماثلة التي تقيمها الفئات والجماعات الأخرى . فهذه إذن فئات تتمايز بنائيا على الرغم من أنها كلها تشارك في ثقافة واحدة أو يسودها نوع موحد من الثقافة . وهناك من يوجه بعض الانتقادات الى جوردون ويرون ـ مثلما فعل جريلي A.M.Greely في

---

(١٢) London 1979, Peter Ratcliffe; Racism and Reaction: A Profile of Handsworth, op. cit.

(١٣) يمكن للقارىء أن يرجع في ذلك إلى الفصل الرابع من « البناء الاجتماعي والثقافة » في كتابنا « البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع » الجزء الأول من المفهومات . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة والاسكندرية .

كتاب نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان طريف هو « لماذا لا يمكن أن يكونوا مثلنا ؟ » Why Can't They Be Like Us? إلى أنه ـ أي جوردون ـ بالغ في إبراز عنصر التشابه الثقافي بين تلك الجماعات المتمايزة بنائيا ، وأن ثمة في حقيقة الأمر اختلافات ثقافية كبيرة بينها وبخاصة فيما يتعلق بقواعد ومحكات القرابة ، وأن هذه الاختلافات والفوارق الثقافية توجد لدى الجماعات التي عاشت في أمريكا منذ عدة أجيال ولا يقتصر وجودها على الجماعات التي وفدت حديثا أو منذ عهد قريب .

فكأن التمثل الثقافي عملية صعبة للغاية ولا تتحقق إلا بعد عدة أجيال ، ولكنها مع ذلك أسرع في الحدوث من التمثل البنائي ، وأن العملية كلها على أي حال بالغة التعقيد . وهذا يصدق بغير شك على المهاجرين الباكستانيين إلى بريطانيا . وإذا كان بعض الكتاب يذهبون إلى أن المجتمع البريطاني مجتمع متجانس بنائيا وثقافيا على السواء فإن هناك من يرفض هذه الدعوى ويرى أن ثمة تعقيدات وتنوعات ثقافية هائلة ، كما أن هناك تقسيمات واضحة تتمثل في الاختلافات الاقليمية والتفاوت الطبقي والتمايز بحسب التعليم والاختلافات في الدين وما إلى ذلك ، وهي اختلافات تنعكس في كثير جدا من مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الحياة العائلية وأوجه النشاط المختلفة بما في ذلك النشاط الترفيهي وفي التطلعات المهنية والتوجهات السياسية وما إليها . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نتوقع أن يتم تمثل المهاجرين الباكستانيين سريعا في النمط الثقافي والاجتماعي البريطاني أو يتم تمثل هؤلاء المهاجرين في الوقت ذاته لهذا النمط مادام لا يوجد نمط واحد معين ومحدد وواضح المعالم ومادام المجتمع البريطاني التقليدي هو ذاته مجتمعا غير متجانس على عكس الشائع ، وأن فيه اختلافات وفوارق ثقافية وبنائية هائلة ؟ (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٣ ، ٨٤) .

فاذا كانت عملية التمثل الثقافي تعني اختفاء الملامح والعناصر الثقافية الأصلية تماما فإنه يكون إذن من الخطأ الكلام عن استيعاب مجتمع الاستقبال أو الوطن الجديد للمهاجرين استيعابا كاملا ، أو اندماج المهاجرين في المجتمع اندماجا كليا ، خاصة وأن التمثل بهذا المعنى يلقى مقاومة من الجانبين : جانب الأهالي الأصليين الذين يضعون حواجز اجتماعية عالية يعجز المهاجرون عن تخطيها أو القفز فوقها ، وجانب المهاجرين أنفسهم الذين يحتفظون بكثير من ملامح ثقافتهم الأصلية التقليدية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات وتعطيهم هويتهم الثقافية والاجتماعية التي يعتزون بها والتي يأملون أن تكون هي مفتاح عودتهم إلى وطنهم الأصلي في يوم من الأيام . واذا كانت هناك صعوبات وعوائق تمنع ـ أو على الأقل تعرقل ـ تحقيق التمثل الثقافي التام بالنسبة للمهاجرين فإن القيود التي تفرضها الجماعة العرقية على قيام كثير من العلاقات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق بالزواج وعلاقات القرابة ، والتي تخضع في حالة الباكستانيين المسلمين بالذات لأحكام الدين الاسلامي ، تمنع من تحقيق التمثل البنائي . والمحصلة النهائية من كل ذلك هو أن يصبح المجتمع الذي يستقبل الهجرات البشرية مجتمعا تعدديا تتجاور فيه الثقافات والأبنية الاجتماعية المتمثلة في تكوين وتنظيم الجماعات العرقية المختلفة التي يكاد كل منها يؤلف مجتمعا مغلقا ومنعزلا ، أو ما يطلق عليه علماء الانثربولوجيا تعبير social isolate . وقيام علاقات اجتماعية بين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة لن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء هذه الجماعات مهما بلغ من تشابك هذه العلاقات وتنوعها وتعقدها ، لأن هناك دائما قواعد تحكم العلاقات بين الجماعات العرقية والسلالات المختلفة وتضع فواصل في الوقت ذاته بين أشكال معينة من التصرفات بحيث يعتبر تجاوز

هذه الحدود تصرفا معينا يخضع للمساءلة والمؤاخذة[١٤] . فالتمسك بهذه الحدود هو طريقة لفرض قيود على العلاقات والاتصالات مع الجماعات الأخرى ، ونوع من الدفاع عن الذاتية الثقافية والاجتماعية . فالبريطانيون في بريستول يتمسكون بهذه الحدود وبذلك يمنعون الباكستانيين من أن يخترقوا حياتهم الخاصة أو يتغلغلوا فيها . فهناك على سبيل المثال اللامبالاة التي يبدونها إزاء جيرانهم من الباكستانيين ، وهناك التمييز من جانب سماسرة العقارات الذين قد يخفون على الباكستانيين البيوت المعروضة للبيع أو الايجار في مناطق معينة ، وغير ذلك من أساليب الابعاد التي تكاد تصل إلى حد النبذ ، وإن كان الباكستانيون الذين درستهم باتريشيا جيفري لا يتكلمون في العادة عن هذه الأمور ولا يكادون يشيرون إليها . ولقد سبق أن رأينا على أي حال كيف أن الباكستانيين من جانبهم يتمسكون هم أيضا بتلك الحدود ويأبون على الجماعات الأخرى سواء في ذلك البريطانيين أو الهنود أو الباكستانيين المسيحيين أو غيرهم أن يخترقوا تلك الحواجز ويتغلغلوا في حياتهم الخاصة . (باتريشيا جيفري صفحة ٨٩) . وليس المجتمع البريطاني كما يتمثل في بريستول فريدا في ذلك ، وإنما هي ظاهرة عامة وعنصر أساسي يميز سلوك أهل المجتمع الأصليين إزاء الغريب ـ خاصة إذا كان هذا الغريب وافدا من أجل العمل . ولكن المجتمعات تختلف في طريقة التعبير عن هذا الموقف وفي نوع القيود والحدود التي تفرضها على هؤلاء الوافدين والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حرمانهم من الاقامة الدائمة مهما طال مكوثهم في البلد المضيف . وهذه ظاهرة نجدها في كثير من البلاد العربية التي تستقبل أعداداً كبيرة من الأيدي العاملة ، وفي بعض الدول الأوربية على السواء . بل إن بعض الدول تحرم على الأيدي العاملة الوافدة اصطحاب عائلاتهم معهم على أساس أن ذلك سوف يدفع بهم إن عاجلا أو آجلا إلى العودة إلى أوطانهم[١٥] . ولكن هذا الموقف يختلف تماما عن وضع المهاجرين الدائمين الذين يقصدون الوطن الجديد بقصد الاقامة الدائمة ويحاولون الحصول على حق المواطنة ، وإن كانت تداعبهم طيلة الوقت أحلام العودة إلى الوطن .

●●●

والذي نريد أن نقوله هنا هو أن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد ، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرون بها وبخاصة فيما يتصل بعلاقاتهم بالمجتمع الأصلي الذي نزحوا منه ، ومدى ارتباطهم به ، ونوع هذه العلاقات والروابط لا تزال كلها بحاجة الى مزيد من الدراسة المتعمقة عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الانثربولوجي . ومثل هذه الدراسات خليقة بأن تكشف لنا عن جوانب إنسانية قلما يعطيها الباحثون ما تستحقه من عناية واهتمام . والدراسات العديدة التي أجريت في الخارج والتي أشرنا إلى بعض منها هنا كلها تكشف عن قوة الرابطة التي تربط بين هؤلاء المهاجرين وأوطانهم الأصلية وعن صدق الرغبة في العودة إلى الوطن ، وإنْ كانت هذه الرغبة لا تتحقق بالفعل في كل الحالات ، بل وقلما يبذل المهاجرون جهوداً حقيقية لاخراجها إلى حيز التنفيذ . وكما يلاحظ اندريه جاك Andre Jacques في كتاب حديث يعرض فيه للمهاجرين واللاجئين في عدة مناطق من العالم

(١٤) Fredrick Barth, (ed); Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference, Allen and Unwin, London 1969

(١٥) Annie Phizacklea and Robert Miles; Labour and Racism, R.K.P. 1980 pp. 10-13.

الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية

عجز في المنظومات النظرية أم إشكالية مجتمع

باقر سلمان النجار

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية البحرين الجامعية

المقدمـــة :ـ

البحث في قضايا الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية يعتبر واحدا من القضايا ذات الارتباط المباشر بالكثير من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المنطقة العربية خلال الخمس عشرسنة الماضية. ومن المهم القول أن هذه المعطيات أو « الآثار » أو « العواقب » ـ كما يذهب البعض في تسميتها ـ لم تكن مقتصرة على تلك الدول ذات العلاقة المباشرة بعملية انتقال العمالة ـ الدول المصدرة والمستوردة للعمل ـ وإنما امتدت لتشمل النظام الاقليمي العربي كما في بعض دول العالم الثالث « ذات العلاقة المباشرة مع دول المنظومة العربية .

وهي ـ أي عملية الهجرة لم تكن ظاهرة منعزلة عن عمل التغيرات المجتمعية الأخرى التي ضربت نسيج المجتمع العربي ـ وعلاقاته بل هي في الواقع إحدى أهم إفرازات التشكيل الجديد للنظام الاجتماعي العربي وسبب له .

وتقاسمت المدرستان السائدتان في الفكر الاجتماعي الغربي معالجة هذه الظاهرة : المدرسة الكلاسيكية الجديدة وهي الأسبق من حيث المعالجة والأكثر رواجا في معالجات قضايا الهجرة ومثلتها بشكل واضح الدراسات التي قادها فريق جامعة درهم ، بيركس وسنكلير وكتابات البنك الدولي وبعض الكتابات العربية (١)

---

(١) انظر في ذلك مثلاً :

J.S. Birks and C.A. Sinclair, Arab Manpower : The Crisis of Development, London, croomhelm, 1980; J.S Birks and C.A. Sinclair, Interna- tional Migration and Development in the Region, World employment Programme, Geneva, I.L.O. 1980, The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4. Autumn, 1984;

المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي الكويت ١٦ ـ ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ ، الكويت ، ١٩٧٩ ؛ أنل فطني الصباح ، الهجرة الى الكويت من عام ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ ، دراسة في جغرافية السكان ، الكويت ، جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

ومدرسة الاقتصاد السياسي والتي مثلتها بشكل جلي دراسة فرد هوليداي وبعض الدراسات الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية وبعض الدراسات الحديثة .(٢)

وتهدف هذه الدراسة لمعالجة طبيعة وخصائص الهجرة في المنطقة العربية والعوامل المؤثرة فيها واختبار مدى مصداقية الأدوات التنظيرية التي وظفت لمعالجة الظاهرة .

أولا - الهجرة العمالية : مشكل التنظير :-

في البدء لابد من تأكيد حقيقة يشاركنا فيها الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية ، وهي ان معظم الدراسات الكلاسيكية ذات المنحى الديموجرافي والسوسيولوجي والاقتصادي - المعالجة لقضايا الهجرة وانتقال العمالة في الغرب واعتمادها على متغيرات فردية لم تساعد على تطوير فهمنا لمشكل الهجرة في المنطقة العربية . فليس السهل من صياغة قوائم لمتغيرات - لاشك في صحتها طبعا - لأفراد غادروا لأسباب متعددة مثل تحسين الأوضاع المعيشية ، تعليم الأطفال ، الالتحاق بالعائلة ، ... الخ كمتغيرات فاعلة في عملية الهجرة . وبدون شك فان الاعتماد على محدودية وسكونية بعض هذه المداخل المنهجية في معالجة قضايا الهجرة قد أدى الى صياغة مفهمية Conceptualization خاطئة لمشكل الهجرة .

فالتصورات النظرية الأولى مثلا ، تبنت ما يسمى بمعادلة التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافية المختلفة كما صاغها جون ميلز John S. Mills والذي يفترض أن الهجرة ما هي إلا شكل من أشكال إعادة التوازن السكاني بين الوحدات الكونية . أي تمس أثر أن الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني في مناطق العسر ، مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافية الآخذة في النمو Growing Units من الأيدي العاملة وبهذا فإن الهجرة تعتبر إحدى العمليات المساعدة على إعادة التوازن بين الحاجة للمصادر البشرية وتوفر رأس المال(٣) .

ويقدم الأقتصاديون التقليديون Conventional Economists تصورا لعملية الهجرة قائما على فكرة عملية التنظيم الذاتي Self-Regulating Process حيث تتكيف الحاجة للطلب على العمالة مع المعروض في الوحدات الجغرافية المختلفة ضمن إطار الاقليم الواحد . فارتفاع الرواتب في المدن وكذا ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الخدمات يساعد على ارتفاع معدلات الهجرة من الريف للمدن(٤) . من ناحية أخرى تلعب نظرية التجارة الدولية International Trade Theory فتقدم تصورا مثاليا للهجرة إذ أن الدولتين غير المتساويتين في الامكانيات والسعة

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذه الكتابات انظر :

Fred Halliday, Migration and the Labour Force in the oil Producing states of the Middle East, Development and change Vol. 8, No. 3, July 1977;

نادر فرجاني وآخرون ، العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد العربي للتخطيط ، ... ١٩٨٣ - بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣ ، سعد الدين ابراهيم النظام الاجتماعي العربي الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٢ ، نادر فرجاني ، الهجرة الى النفط ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣ .

(٣) John S. Mills, Principles of Political Economy, London, Longmans, 1909.

(٤) Alejandro Portes and John Walton, Labor, Class and the International System, London, Academic Press, 1981. p. 26.

الإنتاجية بإمكانها التمتع بنوع من التبادل الثنائي لأمكانياتها المتاحة : السلع الرأسمالية والعمالة . وقد يكون باستطاعة إحدى هاتين الدولتين توظيف رأسمال وقوة عمل الدولة الأخرى بانتاجية اكبر ، أو ان يكون لاحداهما ميزة انتاج بعض السلع على الأخرى . بمعنى آخر فان التجارة والهجرة سيساهمان في رفع دخول الدولتين أو الدول الداخلة فيها .(٥)

أما نظرية التحديث Modernization في علم الاجتماع فإنها تقدم شكلا آخر من نظرية التوازن equilib-rium حيث تفترض هذه النظرية أن الهجرة وانتقال العمال بشتى أشكالها ما هي إلا نتاج لثنائية ما أسمته بالنسق القيمي Value System السائد في دول المنشأ Countries of origin(٦) . فالتوازن لدى هذه النظرية يتحقق عن طريق هجرة افراد المجتمعات المتخلفة الأكثر تعلقا بالحضارة المتقدمة لدول المركز تاركين وراءهم السكان التقليديين . وتعتقد نظرية التحديث هذه أن التعرض لنمط القيم الغربية ، التغريب (الوسترنة) ونمط السلوك الاستهلاكي يساهم في خلق الانقسام ضمن سكان الدول المتخلفة . فالأكثر تعلقا بنمط وحياة الماضي يسمون بالتقليديين Traditionals مقابل المحدثين Moderners ، أي الراغبين في التكيف او التكيفين مع نمط الحياة الجديدة في شكلها الغربي . وباستخدام كلمات دانييل ليرنر Daniel Lerner فان اكتساب ما أسماه « بالحساسية الدينامية » أو التعاطف مع الآخرين empathy يعين افراد المجتمع على التكيف والعمل بكفاءة في عالم متغير . ويعلق ليرنر على ذلك قائلا ان سكان المجتمعات المتطورة وبخلاف سكان « الدول النامية » يتميزون بخاصية القدرة العالية على تقبل الجديد والتعاطف مع الآخرين .(٧)

وبشكل عام فإن معظم النظريات السابقة والتي انطلقت أساسا من خبرة الهجرة العمالية فيالمجتمعات الغربية تدعي ان الهجرة ذات مضمون إيجابي لكلا طرفي الهجرة : الدول المصدرة والمستوردة للعمالة . ويلخص لنا رأي رست هذا الرأي بالقول :

« إنه لوضع لا يوجد فيه أي خاسر ، فالمهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلقى بالاضافة للأجر العالي التدريب الفني والمهني الذي فيما بعد يساهم في عملية التنمية في دول المنشأ . أما دول الاستقبال فإنها باستقبالها لقوة العمل الوافدة فإنها في هذه الحالة تحصل على عمالة لم تتحمل في نشأتها أية تكاليف تذكر » .(٨)

---

(٥) Philip L. Martin and Alan Richard, International Migration, Monthly Labour Review, october, 1980, p. 6.
(٦) انظر : Andrew Webster, Introduction to the Sociology of Development, London, Macmillan, 1984.
(٧) Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East, N.Y., Free Press, 1965, PP. 49/50.
(٨) Ray C. Rist, The European Economic Community (E.E.C.) and Manpower Migration Policies and Prospects, Journal of International Affairs, Vol. 33, No. 2, fall/Winter, 1979, P. 207.

فالمؤيدون لعملية الهجرة أو القائلون بعائدها الايجابي يرون فيها أحد العوامل الرئيسية المساهمة في تخفيف التضخم السكاني في المناطق المزدحمة بالسكان ويتم ذلك عن طريق اتحاد العائلات بأفرادها المهاجرين في دول الاستقبال يساهم في انخفاض عدد سكان الدول الطاردة للعمالة ، ارتفاع معدلات هجرة العزاب أو المتزوجين غير المصحوبين بعائلاتهم ساعد على ارتفاع سن الزواج وبالتالي تقليل الانجاب كما هو في الحالة الأولى أو تقليل الانجاب كما هو في الحالة الثانية ويؤكد هذا أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية .

وذلك من دراسة لبعض الاحصاءات الخاصة بالانجاب في أوساط أسر المهاجرين في الجزائر حيث وجد أن معدل الانجاب في الأسر ذات العائل المهاجر انخفض إلى نحو ٢٥٪ كما ان معدل انجاب الأطفال انخفض هو الأخر من ٤,٧ الى ٣,٥[٩] . الا أننا نضيف على ذلك فنقول ان الاستقرار النسبي والمؤقت لبعض الأسر المهاجرة في الدول الأوروبية ، من مناطق الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال عاملا مهما في انخفاض حجم التضخيم السكاني في دول مثل الهند وباكستان وتركيا والجزائر ومصر .

بالاضافة لذلك فقد تميزت الهجرة على أنها ذات تأثير إيجابي على أسواق العمل في دول الارسال . لذا فقد اعتبرت البطالة وعلى الدوام من القوى الطاردة للعمالة . من هنا جاء تشجيع الكثير من أصحاب القرار لهجرة الفائض من الأيدي العاملة كعامل مساهم في تخفيف حدة البطالة في دول المنشأ ، كما أنها من ناحية أخرى وكما قال كنز لي بيركر : « ستساعد على تنشيط عملية النمو بازاحتها المعوقات في السوق ... »[١٠] .

وتذهب لوتس Lutz مذهبا آخر وذلك بافتراضها أن الهجرة العمالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأي توسع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسلة للعمالة . فازاحة الفائض السكاني هنا سيساهم في رفع معدلات الدخل والتي بدورها ستساهم في زيادة الطلب على السلع المصنعة .[١١] .

وعلى العكس من ذلك فإن الشواهد المتاحة امامنا لم تدعم الادعاء السابق ، حيث ان بعض الدول الاوروبية وجدت نفسها مضطرة أمام تزايد هجرة قوة عملها لوقف هجرة السكان من بعض المناطق وذلك لضمان استمرارية تقديم بعض الخدمات المجتمعية التي اصيبت بالقصور نتيجة لهجرة قوة العمل المحلية .[١٢] بالاضافة لذلك فإن هجرة

---

(٩) Organization for Economic Co-operation and Development, Migration and Transfer of Technology Case Study : Algeria, Morocco, Tunisia and France, development Centre, Paris, 1975, P. 72.

(١٠) C.P. Kindleberger, Europes Post-War Growth : The Role of Labour Supply, Cambridge, Havard University Press, 1967- P. 106.

(١١) V. Lutz, Some Structural aspects of the Southern problem the Complentarity of emitration and industrialization, Banca Nazional, del Lavaro Quarterly Review No. 59, 1961, PP. 367-402, In B. S. AL-NAJJAR, Aspects of Labour Market Behaviour In An Oil Economy, Astudy of underdevelopment and Immigrant Labour in Kuwait, Ph. D Thesis, University of Durham, 1983, P. 39.

(١٢) Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, London, Oxford University Press, 1973, P. 413.

الفائض السكاني من المناطق الفقيرة لدول الشمال الأوروبي يعتبر انتقالا لبعض عناصر فائض القيمة لهذه الدول وذلك بافتراض حجم المدخلات المادية التي تم انفاقها على هؤلاء من سن الطفولة حتى دخولهم سوق العمل ، وكذا يمكن القول أن ما يسمى بالفائض السكاني في دول العالم الثالث لم يكن أبدا هكذا بل إنه نتاج لطبيعة الأنماط التنموية المتبناة وانعدام التكافؤ في توزيع ناتج فائض القيمة داخليا من ناحية وعضلة لولوج هذه الدول منظومة عمل النظام الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى وهو ما سنشرحه فيما بعد .

وأخيرا تأتي التحويلات النقدية المرسلة من المهاجرين لذويهم في دول المنشأ على أنها إحدى أهم ميزات الهجرة لدول المغرب وقد علق أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية على هذه الظاهرة في حالة الجزائر بالقول :

« تعتبر مساهمة العمال المغتربين في ميزان المدفوعات الجزائري من أهم مصادر الدخل فالتحويلات النقدية لهؤلاء العمال تعتبر احدى مصادر تغطية العجز في الميزان التجاري وبالتحديد في الفترة السابقة لارتفاع اسعار النفط (قبل خريف عام ١٩٧٣) . أما في المغرب فإن التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة إحدى أهم مصادر ميزان المدفوعات وكذا في تمويل التنمية » .(١٣)

أما في حالة التحويلات النقدية للمهاجرين والعمال الأتراك فان نيرمن أبدان Nerman Abdan تنحو في معالجتها له منحى حذرا إذ تقول :

« قد يكون من الحق القول بأن التحويلات النقدية للمهاجرين من الأتراك ساهمت في رفع المستويات المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من المجتمع التركي ، وتخطت العجز في الميزان التجاري ، وأنعشت من قوة التوجهات الاستهلاكية لهذه الجماعات ، إلا أنها نادرا ما ساهمت في الاستثمارات الانتاجية » .(١٤)

وبشكل عام ، فلو قبلنا جزئيا فكرة أن التحويلات النقدية قد تساهم في تحسين الأوضاع المعيشية لبعض أسر المهاجرين في دول المنشأ وبتغطية العجز في ميزان المدفوعات ، إلا أن كل هذه التغيرات التي اعتبرت على أنها إيجابية ليست ذات علاقة بإنتاجية الاقتصاديات المعنية وإنما بالبقاء المؤقت للعمالة المهاجرة وبطبيعة تطور اقتصاديات دول الاستقبال . بالاضافة لذلك ، فإننا لم نجد من الشواهد العملية ما يؤيد ما ذهبت إليه بعض الدراسات من أن

(١٣) Organization For Economic Co-Operation and Development, Op. Cit, P. 66.
(١٤) N. Abadan-Unat etal., Migration and Development, Ankara-Ajansmerk Press, 1975, P. 380.

التحويلات النقدية للمهاجرين تم استثمارها إنتاجيا خصوصا إذ ما عرفنا أن الكثير من الأموال النقدية تم تحويلها عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية لا تمتلك الجهات الرسمية أية سلطات بخصوص طبيعة ومجالات توظيفها .

باختصار فإن وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة قد اعتمدت على محكات اقتصادية غير مدعمة بشواهد أمبريقية . أي بتعبير آخر إن هذه الاتجاهات رغم أهميتها في تفسير الظاهرة ، إلا أنها قد اعتمدت على متغيرات فردية منسلخة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه ، وهذا ما حاول تفاديه الاتجاه الآخر المسمى بالاتجاه النقدي أو اتجاه الاقتصاد السياسي .

أ ـ اتجاه الاقتصاد السياسي في تفسير الهجرة :

دفعت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خبرتها دول الارسال في العالم الثالث بعض مفكريها من المهتمين بالتنمية لمناقشة قضية الهجرة من منظور اجتماعي ـ اقتصادي أوسع يأخذ في اعتباره ظروف التشكل الاقتصادي والسياسي لدول الارسال وموقعها ضمن منظومة عمل السوق الاقتصادي العالمي .

وترجع بدايات بروز هذا الاتجاه إلى كونر ميردال Gunner Myrdal والذي بخلاف السابق يرى في هجرة عمال العالم الثالث لأوروبا نوعا من الافقار Impoverishment وإزاحة للمصادر البشرية من سكان العالم الثالث . فالهجرة العمالية لأوروبا في العقدين الخامس والسادس لم تساهم في تنمية دول الارسال كما تذهب الاتجاهات السابقة بل على العكس من ذلك كرست من واقعها المتخلف وتبعيتها للغرب[١٥] .

أما رواد مدرسة التبعية وبالتحديد بول باران Baul Baran فيؤكد أن العلاقات التجارية بين الدول الفقيرة والدول الغنية وكذا حركة الاستثمارات الأخيرة لم تساهم في تضييق الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية في تكريس خضوع الدول الأضعف . وتقوم فكرة باران هذه على ان تقدم العالم المتطور جاء بعد مصادرة فائض القيمة في الدول النامية التي خضعت في البداية لشروط التجارة الغربية ومن ثمة للاستعمار الغربي . وقد طور أندرو فرانك Andre Frank هذه الافتراضات إلى نظرية في التخلف . ويمكن صياغة الافتراض الرئيسي لاتجاه مدرسة التبعية في التالي : « ان التخلف لم يكن حالة وجدت عليها اقتصاديات العالم الثالث قبل إخضاعه للنفوذ الأوروبي ، بل نشأ وتطور في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم في المراكز الرأسمالية المتقدمة ، أي أن التخلف والتقدم هما وجهان لعملة تاريخية واحدة بدأت مع ولادة النظام العالمي للرأسمالية منذ القرن السادس عشر »[١٦] .

أي أن مدرسة التبعية لا تعتبر التخلف نتيجة لصيقة بطبيعة الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث بقدر ما هو نتاج لتلك العلاقات التاريخية التي ربطته بمنظومة الدول الرأسمالية المتقدمة . لذلك فالنظام الرأسمالي العالمي ـ بالنسبة لأصحاب هذه النظرية ـ يتكون من منظومتين من الدول ، الأولى وتتكون من عدد صغير من الدول المسيطرة والمتطورة المستغلة ـ بكسر الغين ـ التي تشكل المركز Centre أو المتروبول Metropolis ، والثانية وتتكون من عدد كبير من دول العالم الثالث المستغلة ـ بفتح الغين ـ تشكل المحيط Prephiry أو التوابع

(١٥) انظر مثلا : Gunner Myrdal, Rich Lands andpoor, N. Y. Harper Row, 1957.

(١٦) محمد السيد سعيد ـ نظرية التبعية وتفسير التخلف الاقتصاديات العربية ، المستقبل العربي ـ العدد ٦٢ ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٣٦ .

Satellite . واستنادا لهذه النظرية ، فالهجرة من دول المحيط إلى دول المركز تمثل استمرارية لواقع الاستغلال وتزوجا لفائض القيمة لصالح الدول المتقدمة[١٧] وبهذا المعنى جاء اعتبار الهجرة شكلا من اشكال الاستعمار الجديد Neo-Colonialism على أساس أنها جزء من فائض القيمة المنقول لدول المركز والمساهم في تنمية العالم المتطور . وقد علقت دراسة حديثة ، حول هجرة الجزائريين لفرنسا على ذلك بالتالي : -

« تمثل هجرة العمال الجزائريين لفرنسا ودول الرأسمالية المتقدمة (في أوربا) أحد العوامل الرئيسية في استمرارية تبعية الجزائر لهذه الدول . فحرية انتقال اليد العاملة تمثل أحد المتغيرات الهامة للعلاقة (غير المتكافئة) بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة » .[١٨]

بشكل عام فإن مدرسة التبعية في تناولها لمشكل الهجرة لا توضح لنا بالقطع مدى إمكانية تغيير الشروط الحالية للعلاقة القائمة بين الشمال والجنوب كما أنها في الوقت ذاته اللتي تفسر هجرة عمالة العالم الثالث لأوربا على انها تزوج لفائض القيمة واستمرارية لواقع الاستغلال والتخلف لا تقدم تفسيرا واضحا لطبيعة الهجرة من وإلى العالم الثالث .

وحاولت الدراسات الحديثة وخصوصا تلك التي عالجت في بعضها قضايا الهجرة من وإلى العالم الثالث ، تجاوز هذا المعضل بتبني ما يسمى بمدخل المنظومة العالمية World-System Approach وذلك باعتبار أن الهجرة لا تحدث بين وحدات جغرافية منفصلة وإنما هي جزء من الديناميات الداخلية لنظام متجدد . فالنظام الرأسمالي العالمي نظام دائم التجدد لكن دون تغير أساسي في ديناميات تراكم رأس ماله . وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات القادمة ولكن من أين نبدأ ؟

ب - تدويـل رأس المـال :

يعتبر نمط الانتاج الرأسمالي أول نمط إنتاجي يخضع الكرة الأرضية Globe لشروطه كنظام يقوم النمط الرأسمالي في الإنتاج على خاصية تراكم رأس المال وهي بطبيعتها ذاتية التوسع Self-expansion . إلا أن هذه العملية - أي الطبيعية الأخطبوطية أو الامتدادية للنظام الرأسمالي ليست بالعملية السهلة فهي قد مرت بمراحل مختلفة اتسمت كل منها بخصائص وديناميات معينة . فالقوى المحركة الخاصة بكل مرحلة من المراحل في تناقضها ثم في اضمحلالها تدفع باتجاه التحول في النظام وبالتالي بروز لقوى محركة جديدة وإيذان ببدء مرحلة أو حقبة جديدة منه . وكمحصلة لذلك فقد تم إخضاع معظم دول العالم - وكما أشرنا سابقا - لشروط عمل النظام الرأسمالي ، لذا فتاريخ الدول النامية هو في الواقع تاريخ اختراق النمط الانتاجي الرأسمالي وتناقضه مع الأنماط الإنتاجية « التقليدية » القائمة والذي قاد ويقود بالتالي إلى تدويل رأس المال .[١٩]

---

(١٧) عدنان الشامري ، ملاحظات نقدية حول نظرية التبعية ، مجلة الفكر ، العدد الأول ، ١٩٨٤ ، ص ١٣١
(١٨) Kader Ammrat, et. al., Les Contradictions d'un Developement National, Paris, Maspro, 1974, P. 102, in B.S. AL-NAJJAR
(١٩) Peter Nore and Terda Turner, Oil and class Struggle, London, Zed Press, 1980, P. 44.
Op. Cit. P. 44.

من هنا جاء اعتبار البعض ، النظام الرأسمالي من خلال هيمنته على الكون العامل الأساسي المؤثر في شكل ومسيرة التنمية في العالم الثالث ، فأصحاب الاتجاه البرجوازي الليبرالي يعتقدون أن تحقيق التنمية في الدول النامية يتم عن طريق تضييق الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة والذي بناء عليه سيتاح لدول العالم الثالث التمتع بنفس ثمار التطور الرأسمالي مثل انخفاض معدل النمو السكاني ، زيادة في دخل الفرد ، تراكم في رأس المال المحلي ، وتطور في مستوى التطبيب والصحة والمشاركة .. الخ . أي بتعبير آخر ، فإن في اعتقاد أصحاب نظرية التحديث Modernization Theory ان تخلف دول العالم الثالث هو نتاج لقلة مصادر الثروة ، وضعف المشاركة في التجارة الدولية كمنتج او مصدر للغلات والسلع او كليهما » . . وان الدول النامية حتى تتخطى ما يسمى بهوة التخلف فان عليها تبني الأسلوب الغربي في التنمية . . بالاضافة لذلك فان اصحاب مدرسة التحديث يؤكدون دائما ان معوقات التنمية في العالم الثالث غير ذات صلة بطبيعة ومنطق النظام الرأسمالي العالمي وانما هي ذات طبيعة علائقية بالانساق القيمية السائدة في هذه الدول وسيادة الشخصية السلطية وهيمنة العائلة البطاركية .

وبالمقابل فإن الاتجاه الراديكالي يرى في النظام الرأسمالي نظاما مؤسسا لعدم التكافؤ على الصعيد العالمي . فمأزق العالم الثالث ، وحسب تفسير هذا الاتجاه ، نتاج لسيادة النظام الرأسمالي الذي أسرع من تطور دول المركز على حساب منظومة العالم الثالث ، كما أن ما يسمى « بمشاريع التحديث » المقامة في الأخيرة ، وبإغفال الكم الهائل من التشيع الرسمي لها ، ساهمت في زيادة هيمنة الدول الرأسمالية مما عزز بالتالي من اتجاه عدم التكافؤ على الصعيد العالمي الذي من نتائجه تطور كبير في دول الشمال الرأسمالية وركود Stagnation أو اضمحلال في منظومة الدول النامية .

وفي تفسيره لظاهرة التخلف يفترض هذا الاتجاه أن بروز ظاهرة الاحتكار في إطارها الرأسمالي في بعض من مجتمعات العالم الثالث أخضع من أنماطها الانتاجية التقليدية لمنطق إعادة انتاجه ـ أي الرأسمالية العالمية ـ ويسجل تاريخ هذه الدول منذ ان برز فيها النمط الرأسمالي في الانتاج ، استمرارية لعمليات الاستعباد السياسي والاقتصادي لرأس المال العالمي ، اي بشكل مقتضب تمويل لرأس المال الغربي :

> « فظاهرة التخلف ليست هي مؤشرا للجمود والتقليدية فحسب وإنما تمثل هي ايضا انتاجا لتطور معين مرتبطا أساسا بنشأة النظام الاقتصادي العالمي ومحصلة مباشرة له . لذا فان التحليل القادر على تفسير مشكلة النمو والتخلف في الدول النامية هو ذلك الذي يأخذ في اعتباره تطور الاقتصادي العالمي » .(٢٠)

أما مدرسة التبعية فتعتقد أن تشكل النظام الرأسمالي العالمي وخضوع المنظومات الأخرى له قد عاق من محاولات التصنيع أو نموها في العالم النامي فتبعية الأخيرة للشركات المتعددة الجنسية ، وحاجة هذه الدول للمعونات المالية والفنية الغربية بالاضافة للفوارق الطبيعية الصارخة كلها متغيرات لعبت دورا رئيسيا في إعاقة قيام تنمية صناعية حديثة في

(٢٠) Ronald Graham, The Aluminium Industry and The Third World, London, Zed Press, 1982, P. 3.

الدول النامية* . لذا فان الحل بالنسبة لهذا الاتجاه يتمثل في الانفصال التام عن النظام الرأسمالي أو بما سماه البعض بالتنمية المغلقة او المكتفة على ذاتها Blocked Development .(٢١)

إلا أننا مع ذلك نضيف ونقول أن حركة التصنيع التي حدثت في بعض بلدان العالم الثالث وبالتحديد جنوب شرق أسيا وأمريكا اللاتينية خلال العقدين الماضيين السادس والسابع ، وكذا في انتقال فائض القيمة ضمن المنظومة المحيطية ، قد أضعفت من مصداقية تحليلات مدرسة التبعية . فليس بإمكان اتجاه الانفصال عن السوق العالمي ولا تصور التنمية المنغلقة على الذات تقديم تحليلات مستمدة من فهم تغير ديناميات النظام الرأسمالي العالمي . فالاتجاه الأول يعتقد ان تنمية العالم الثالث مرتبطة أساسا برغبة البرجوازية المحيطية فهي أي حركة التصنيع والتنمية وفي ضوء تحليلات هذا الاتجاه تعتمد أساسا على رغبة البرجوازية المحلية وليست خاضعة لقوانين موضوعية تختص بطبيعة نمط الانتاج الرأسمالي العالمي وبخلال ذلك فان الاتجاه الآخر القائل بالتنمية المنغلقة على ذات يعتقد ان تحقيق التصنيع والتنمية في العالم الثالث يعتمد اساسا على اتجاه الرأسمالية الغربية .(٢٢)

ج ـ المنظومة العالمية : المدخل البديل ؟

كما ذكرنا سابقا فان تشكل النظام الرأسمالي في اوربا الغربية ـ اقام نظاما جديدا للتجارة يرتكز على أسس جديدة ، فالعالم مقسم وفق أسس هذا النظام* إلى منظومتي دول : الأولى دول نامية والثانية دول صناعية متقدمة أما منظومة الدول النامية فتختص بإنتاج وتصدير المواد الخام وتعتبر سوقا استهلاكيا لبيع مصنعات العالم المتطور من البضائع والسلع الرأسمالية . كما قسم العالم النامي كذلك إلى مجموعتين من الدول ، الأولى وتقوم فيها بعض الصناعات ذات التمويل والارتباط الغربي مثل صناعة السيارات في البرازيل وصناعة المنسوجات في الشمال الافريقي وجنوب شرق آسيا .. الخ ، اما المجموعة الثانية فتقوم بدور المصدر فقط للمواد الخام كمعظم الدول الافريقية والكثير من دول آسيا وامريكا اللاتينية(٢٣) ، واما منظومة الدول الصناعية المتقدمة فقد اخضعت الأولى في البدء للسيطرة العسكرية والاقتصادية المباشرة ثم احتوتها مؤخرا ضمن آليات عمل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وهي دول مستوردة للمواد الخام ومصنعة ومصدرة له .

فهيمنة النظام الرأسمالي ساهمت في حرية انتقال رأس المال الغربي إلى الدول النامية لاقامة صناعات معتمدة اساسا على وفرة المواد الخام وعلى رخص الأيدي العاملة وكلفتها ثم إعادة مصنعاتها إلى أوروبا أو إلى الأسواق القريبة لبعض دول العالم الثالث ، كالخليج والشرق الأوسط . أما هجرة الأموال الغربية للعالم النامي في السبعينات فقد جاءت

---

* لقد انتقدت الأخيرة الاتجاه المنفتح جدا من مدرسة التبعية والذي أعطى دورا متوازنا للعوامل الداخلية ـ كطبيعة دور تشكل البرجوازية المحلية وحجم الفوارق الطبقية ، قوة الأنساق القيمية .. الخ ـ في تخلف العالم الثالث .

* هذا التقسيم يعرف في أدبيات الاقتصاد السياسي باسم التقسيم التقليدي او القديم للعمل على الصعيد العالمي .

(٢١) Peter Nore and Oenis Turner Ibid, P. 145.

(٢٢) B. S. AL-NAJJAR, Op. cit. P. 48.

(٢٣) E.A. Brett, The World Economy Since The War : The Politics of Uneven Development, London, Macmillan, 1984, PP. 183-192.

متسقة مع عدة متغيرات عاكسة لأزمة النظام الاقتصادي الرأسمالي ، (١) عملية الاستثمارات الاقتصادية لرأس المال الغربي في الدول النامية وفي ظل معطيات الاقتصاد الغربي ذات عائد ربحي كبير اذا ما قورن في بعض الحالات بعائد الاستثمارات في اوربا ذاتها ، (٢) إن توظيف هذه الأموال وفي دول معينة ضمن العالم الثالث يلعب دورا مهما في المجال السياسي من حيث دوره المساعد على خلخلة التركيبات الطبقية التقليدية القائمة واضعاف المعارضة السياسية المحلية في هذه الدول ، كما انه من ناحية اخرى ساعد على تقوية مواقع البرجوازية المحلية وفي تدعيم عملية دمج الدول المحيطة بالنظام الاقتصادي العالمي ، مدخل كهذا لا يساعد فقط على فهم التشكيل الجديد ، الاقتصادي ـ الاجتماعي للدول النامية وانما يساعد كذلك على فهم طبيعة عمل النظام الاقتصادي العالمي ومأزقه المعاصر .

فالكثير من الكتاب وخصوصا في الغرب يؤكدون دائما ان المأزق الحالي للنظام الاقتصادي العالمي ما هو في الواقع الا نتاج مباشر لما اسموه حينذاك بأزمة النفط Oil Crisis عام ١٩٧٣ . إلا أننا مع ذلك نؤيد أندرو فرانك Andre Frank من ان مشكل اقتصاديات الدول الأوربية يعود الى حقبة تاريخية ابعد من ذلك كما أن جذوره اعمق مما يبدو عليه وان ما اسميناها بالمشكلة البترولية ما هي الا احدى النتاجات وليست سببا للمأزق العام ،(٢٤) ٢٣ هذه الأزمة التي يمكن تحديد ملامحها ، في ازدياد معدلات البطالة في المجتمعات الأوروبية والتي قدرت حتى مطلع الثمانينات بحوالي ٣١ مليون متعطل عن العمل في دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي ، كما ان اغلاق الكثير من الوحدات الاقتصادية والصناعية الذي هو مؤشر آخر لم يعد عاملا آخر مساهما في زيادة معدلات البطالة وانما في فقدان هؤلاء ـ أي العمال المسرحين ـ الكثير من مهاراتهم الفنية والحرفية . وكمحصلة لذلك انخفض معدل الاستثمار في هذه الدول مما زاد بالتالي من اعبائها المالية .(٢٥) فارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا على سبيل المثال والتي قدرتها بعض الأوساط المطلعة بما يقارب الخمسة او الستة ملايين نتج عنه زيادة في الإنفاق وقلة في حجم الضرائب المحصلة ، وضع كهذا افرز مجموعة من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعاني منها المجتمع البريطاني او ساهم في خلق مشكلات جديدة مرتبطة أساسا بالمأزق الاقتصادي العام الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية . وابسط مثال على ذلك الاشكال الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي تعيشه بريطانيا بسبب طبيعة السياسة التاتشرية وكذا في تبعيتها المطلقة لأمريكا وفي وجهها المعادي ـ والذي برز مؤخرا ـ للنظام الديمقراطي الليبرالي .(٢٦) .

إلا أننا مع ذلك يجب أن نؤكد على ان هذه المشكلات السابقة حصلت في الوقت الذي شهد فيه رأس المال العالمي اعلى معدلات دوران وفي الوقت الذي حققت فيه بعض الشركات وبالتحديد الشركات المتعددة الجنسية وذلك عن طريق إعادة مواقع الانتاج معدلات ربحية عالية على الصعيد العالمي .(٢٧)

لقد كان يقال دائما أن الكثير من أزمات المجتمعات الرأسمالية وخصوصا ابان المرحلة الاستعمارية Colonial Period قد تم حلها من خلال اخضاع مجتمعات جديدة Freshذات انماط انتاجية سابقة على النمط الرأسمالي لذا

(٢٤) Ande Frank, Crisis In The World Economy, London, Heinemann Educational Books Ltd., 1980, P. 68.
(٢٥) Folker Frobel, et al. The New International Division of Labour, London, Cambridge University Press, 1980, PP. 3-4.
(٢٦) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : Philip Armstrong, et al, Capitalism Since World War II, London, Fontana, 1984.
(٢٧) Folker Frobel, et al, Ibid, P. 4.

فان ما يميز المأزق الحالي للنظام الرأسمالي انتفاء بقع جغرافية جديدة غير رأسمالية قابلة للاستعمار . لذا كان على النظام الرأسمالي تجاوز معضلاته باعادة تشكيل النظام الاقتصادي العالمي . بعض من هذه التغيرات يمكن ملاحظتها في (١) يتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي open door Policy في اكثر من قطر في العالم الثالث ، (٢) ارتفاع عدد المراكز التجارية والصناعية الحرة Free Industerialand Trade zone (٣) نزوح بعض من الصناعات الاوروبية ـ لمواقع انتاجية اكثر ربحية كما هو في حالة صناعة النسيج في الشمال الافريقي وجنوب شرق اسيا ، وصناعة الالكترونيات في جنوب شرق اسيا وبعض الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب .. الخ) ذات التمويل المحلي والادارة الغربية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية المنتجة للنفط واخيرا ، (٤) ترشيد آليات الانتاج في المراكز الصناعية التقليدية .(٢٨)

وبتعبير اكثر دقة فان ازمة الاقتصاد الغربي قد دفعت باتجاه تشكل شروط جديدة لتراكم رأس المال العالمي ، من الغرب يهاجر رأس المال العالمي للبحث عن مصادر جديدة للاستثمار في بعض من مواقع العالم الثالث ، او من العالم الثالث على وجه التحديد ـ المجتمعات النفطية في الشرق الاوسط تهاجر اموال العالم الثالث لاعادة دورة الحياة للنظام الاقتصادي العالمي . بمعنى اخر ان تغيرا في الشروط التاريخية لتراكم رأس المال في المجتمعات الغربية منذ مطلع السبعينات قد استدعى اساليب وطرقا جديدة ادخلت من خلالها منظومة الدول المتخلفة من جديد في عملية اعادة انتاج رأس المال الغربي . وكمحصلة لذلك فان تزايدا في الهوة قد طرأ ليس بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة وانما بين دول الأطراف بعضها ببعض :ـ

> « تقسيم العمل على الصعيد الدولي لم يكن تغيرا في استراتيجيات تنموية لبعض الدول الغربية ، او خيارات جديدة لما يسمى بالشركات متعددة الجنسية ، انما هو في الحقيقة نظام « مؤسسي » مبتدع للنظام الرأسمالي امليه طبيعة الظروف المتغيرة ، فهو بهذا محصلة وليس سببا لهذه الشروط التي حتمت على هذه الشركات والدول ان تقيد صياغة تراكم رأس المال الغربي وفقا لهذه الشروط الجديدة » .(٢٩)

• • •

ثانيا ـ الهجرة العمالية ومأزق الاقتصاديات الغربية منذ السبعينات :

يمكن القول أن تبني الدول الغربية لسياسات متشددة على صعيد الهجرة والاستخدام منذ مطلع السبعينات حتى الآن ما هو الا نتاج للمأزق البنائي للاقتصاديات الغربية وكذا التطور الكبير ـ سياسيا ـ الذي لحق بالحركة العمالية الوافدة في المجتمعات الغربية . هذا على التحديد يمكن ملاحظته في التالي :ـ

(٢٨) B. S. AL-NAJJAR, Op. Cit, P. 58.
(٢٩) Folker Frobile, et al, Ibid, P. 46.

١ ـ عملية التسييس التي خضعت لها قوة العمل الوافدة كنتاج لتردي ظروفها المعيشية وشروط الاستخدام وكذا تردي الأوضاع الاقتصادية والكبت السياسي في بلدان المنشأ فالاضطرابات العمالية التي اجتاحت اوربا وقادها عمال وافدون هي انعكاس واضح لتنامي الوعي السياسي في صفوفها . فمثلا اضراب عمال المغرب العربي في فرنسا في الأول من مايو عام ١٩٧٣ وكذا إضراب العمال المهاجرين في منطقة الرور Ruhr-area في ألمانيا الغربية ، بالإضافة الى الاضطرابات التي اجتاحت بريطانيا في الفترة الممتدة من ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ والتي كانت الجاليات الوافدة طرفا رئيسيا فيها وبالتحديد الجاليات الآسيوية وجماعات الوست انديز West Indies كلها أحداث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الحركة العمالية الوافدة في اوروبا[٣٠] . من ناحية اخرى ، فانه لابد من التأكيد على ان هذه الاضرابات السابقة الذكر كانت احداثا خاصة بالعمالة الوافدة لأسباب غير تلك المتعلقة بظروف العمل والأجور ، انه تطور في الوعي السياسي الخاص بالفئات العمالية الوافدة وهو نتاج طبيعي لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المعيشة . وضع كهذا زاد من مخاوف حكومات المنشأ ودول الاستقبال الغربية والذي عبر عنه في اكثر من مناسبة وعلى مستويات مختلفة . احد المضطلعين بصناعة القرار في اوروبا عبر عن هذه المخاوف بالتالي : « أصبحت الانعكاسات السلبية السياسية والاجتماعية للعمالة الوافدة تفوق في ذلك عائدها الاقتصادي »[٣١] .

٢ ـ زيادة معدلات الانفاق الرسمي على قطاع الخدمات بزيادة اعداد الوافدين القادمين مما شكل بالتالي ـ وحسب تفسير الحكومات الغربية ـ عبئا على الدولة وضغطا على الخدمات المقدمة مما انعكس سلبا على الخدمات المقدمة كما ونوعا .

٣ ـ التغيرات الحاصلة في ظروف تراكم رأس المال الغربي وولوج المنظومة المحيطة ضمن اطار النظام الاقتصادي العالمي .

مرة اخرى ، ورغم كل ما قيل وما قد يقال ، فلا بد من تأكيد حقيقة ان حاجة المجتمعات الاوروبية للعمالة المهاجرة ليست هي حاجة مؤقتة أو بأنها ظرف فرضه التوسع الذي طرأ على الاقتصاديات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية . فالعمالة الوافدة هي قوة عمل ضرورية لاستمرارية اداء النظام الاقتصادي الرأسمالي رغم تزايد معدلات البطالة في اوساط الجماعات المحلية . فهم ، أي العمال الوافدون يشكلون بحق ما سمي في بعض الأدبيات الفكرية « بالجيش الاحتياطي » Reserve Army الدعم لاستمرارية وظيفة النظام الرأسمالي . بالاضافة لذلك فان العمالة الوافدة تقوم بتأدية وظيفة اجتماعية ـ سياسية مهمة للنظام الرأسمالي ، فهي بكثرتها العددية وتنوعها الاثني والثقافي تزيد من واقع الفرقة بين افراد الطبقة الواحدة ، بين الجماعات الوافدة والسكان المحليين لاعتبارات عرقية وظروف الاستخدام الافضل الذي تخضع له العمالة المواطنة[٣٢] . من هنا جاء اعتبار الهجرة العالية كاحدى السمات البنائية

---

(٣٠) Mario Nikolinkos, The New Dimension in the Employment of Foreign Workers, Berlin, International Institute For Comparative Social Studies, April, 1975, P. 4.

(٣١) Ibid. P. 4.

(٣٢) S. Castle and Kosack Godula, The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism, In Their Nlkos (ed) Capital and Labour, Glasgow, Fontana, 1980, P. 119.

لنمط الانتاج الرأسمالي باعتبار ان اعادة انتاج النمط الرأسمالي لعلاقات الانتاج يعتمد اساسا على استيراد قوة عمل من خارج اطار الحدود الاقليمية .

• • •

ثالثا ـ الهجرة العمالية في المنطقة العربية : سمات وخصائص الظاهرة :

تقدم الدراسات الرائدة لفريق جامعة درهم (١٩٨٠) وكذا دراسة البنك الدولي لعام ١٩٨٣ تقديرات الهجرة والاستخدام في المنطقة العربية حتى منتصف السبعينات حيث قدرتها باكثر من المليون ونصف المليون شكلت الجماعات العربية حوالي الثلثين ، وتشير الدراسات اللاحقة الى تزايد حركة تنقل العمل العربي والأسيوي إلى الدول العربية المنتجة للنفط في الفترة الممتدة من منتصف السبعينات حتى مطلع الثمانينات ، ويقدر البنك الدولي ومنظمة العمل الدولية اجمالي العمالة الوافدة بـ ٢,٨ مليون عامل عام ١٩٨٠ ، اما ابراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل فيقدرانها بحوالي ٣,٤١ مليون عامل لنفس العام . اما محمد لبيب شقير فيقدم تقديرا اكثر معقولية (حوالي ٥,٧ مليون عامل) نظرا لتصحيحه ما ورد في التقديرات السابقة من تقليل لحجم العمالة المصرية واليمنية المهاجرة . واخيرا تشير أحدث التقديرات المتوفرة الى أن اجمالي حجم العمل المستورد إلى الأقطار العربية المنتجة للنفط عام ١٩٨٣ قد بلغ ٥,٣ مليون عامل .(٣٣)

واذا ما صدقت هذه التقديرات فان هذا يعني انخفاضا في حجم العمل الوافد بما يقارب ٥٠٠ ألف عامل في الفترة ٨٠ ـ ١٩٨٣ . كما ان احتمالات انخفاض حجم الهجرة اقرب الى القبول بسبب الركود الاقتصادي الذي تعرضت له الدول النفطية وخصوصا مع مطلع عام ١٩٨٦ بسبب الانخفاض الشديد في اسعار النفط الذي وصل الى ما دون الخمسة عشر دولارا . وتعد أسعار النفط احدى المتغيرات الهامة في صياغة سياسة استخدام العمالة بالمنطقة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالعائدات النفطية في دول الاستقبال نظرا لطبيعة العلاقة بين عائدات النفط وحجم الاستثمارات المحتملة في تلك البلدان من جهة أخرى .(٣٤) وكمحصلة لذلك فان المؤشرات تشير الى الاستمرار في انخفاض حجم العمل المستورد او في تركيبه المهني والوظيفي خصوصا في القطاعات التي شهدت توسعا كبيرا في الفترة السابقة وذات الصفة الاقتصادية المؤقتة .

من ناحية اخرى ، فان التوقيت الذي تعاظمت فيه عمليات الهجرة في المنطقة العربية (٧٣ ـ ١٩٨٣) بالاضافة للظروف التي جرت الهجرة في اطارها وكذلك مصاحباتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلي (دول الاستقبال ودول الارسال) وعلى الصعيد الاقليمي القومي جعل منها ظاهرة فريدة في نوعها اذا ما قورنت بمثيلاتها من عمليات الهجرة الكلاسيكية في مناطق اخرى من العالم . وخصوصا في المنطقة الأوروبية وأمريكا . بعض هذه الاختلافات يمكن تحديدها في التالي :

أ ـ بخلاف عمليات الهجرة الأخرى في العصر الحديث والتي تمت بين تشكيلات اجتماعية ـ اقتصادية مختلفة جذريا حيث انتقال العمالة من دول العالم الثالث والدول الأقل تقدما في جنوب اوروبا ، اليونان ، يوغسلافيا . . . الخ

(٣٣) ابل أحمد الهواجة : سياسات استخدام وانتقال الأيدي العاملة العربية من بلدان الارسال : مراجعة نقدية ، ورقة مقدمة لاجتماع خبراء سياسات استخدام وانتقال العمالة العربية ، نوفمبر ١٩٨٨ ، المعهد العربي للتخطيط ، ص١٥ ـ ١٦ .
(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص١٧ .

الى الدول الصناعية الكبرى في اوروبا وامريكا ، تتم الهجرة في المنطقة العربية بين بلدان وان تفاوتت الانماط الانتاجية في كل منها الا انها تتسم جميعا بكونها تشكيلات اقتصادية واجتماعية تابعة ومتخلفة وتحتل مواقع متشابهة في التقسيم العالمي للعمل .[٣٥]

ب ـ بعكس حركة انتقال الأيدي العاملة الكلاسيكية والتي شملت قوة عمل احتلت الأعمال الدنيا وبسيطة العائد المالي في قطاعات التشغيل ، فان حركة انتقال العمالة في الدول العربية المنتجة للنفط تشمل جميع فئات القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة ، ذات الخبرات والمهارات أو التي يفتقر إليها وتتوزع على كل قطاعات التشغيل في اقتصاديات المنطقة[٣٦] . بمعنى آخر ، إن قوة العمل الوافدة في بلدان الاستقبال المنتجة للنفط في الشرق الأوسط تشكل العمود الفقري الذي تعتمد عليه استمرارية النشاط الاقتصادي في هذه الدول . أحد كبار المسئولين في المنطقة علق على الاعتماد المطلق لبعض دول المنطقة على العمل المستورد وبالتحديد في النصف الثاني من السبعينات بالقول :

« إذا ما قدر للمصريين أن يذهبوا ،
لأغلقت الكثير من المرافق المدرسية
أبوابها ، وإذا ما أجبر الفلسطينيون على
مغادرة البلاد ، لكفت وسائل الاعلام عن
القيام بوظيفتها ، وإذا ما جرى تسريح
(رجال الأمن والدفاع من بعض
الجنسيات) انهارت شبكة الدفاع والأمن
الداخلي ، وإذا ما أرسل الإيرانيون
والبلوش والباتان ، الذين يشكلون عماد
القوة العاملة ، الى أوطانهم ، لتوقف سير
المشاريع الحيوية التي يتواصل العمل
فيها ، كبناء الطرق والموانيء وشبكات
الري ومشاريع الإسكان والمدارس
والعيادات الطبية[٣٧] » .

ورغم محاولات بعض دول المنطقة وبالتحديد بعد الانحدار الشديد في أسعار النفط ، إعادة التوازن لتركيبتها السكانية وتقليص حجم الاعتماد على العمل المستورد الا أن طبيعة النشاطات الاقتصادية القائمة وكبر حجم الاعتماد على العمالة الوافدة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة بالاضافة إلى الطريقة التي تتم بها عملية الإحلال ، حيث يتم استقبال عمالة أجنبية بالمستوى الفني والمهني نفسه ، ومن القطر نفسه ـ وربما من القرية أو الوحدة القرابية ذاتها يجعلها

(٣٥) مكرم صادر وجيليرونيه ، المحددات الاقتصادية والاجتماعية لتنقل قوة العمل العربية بين البلدان العربية ، ورقة مقدمة لندوة السكان والتنمية في الوطن العربي ، الكويت ، المعهد العربي للتخطيط ، ص ٧٠٠ .
(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٧٠٠ .
(٣٧) ابراهيم ابراهيم ، أثر المهاجرين العرب على التنمية الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي ، في الطوان زحلان وآخرون ، هجرة الكفاءات العربية ، بيروت ، مركز ودراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤ .

رغم ما يقال عن وجودها المؤقت عمالة دائمة وأساسية لاستمرارية النشاط الاقتصادي والخدمي لدول المنطقة ، لا يمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور[٣٨] .

ولا بد هنا من التأكيد على حقيقة أن طبيعة الأنساق القيمية ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي والمشكلة خلال الحقبة الأخيرة تعيق أي استراتيجية حقيقية لتصحيح المسار / المسارات الاقتصادية ولإدماج أكبر لقوة العمل المحلية في عمليات التنمية » .

ويلاحظ أن الهجرة الحديثة لمنطقة الخليج لم تكن وليدة الطفرة النفطية في السبعينات وإنما تذهب حتى مطلع هذا القرن . ومرت الهجرة المعاصرة للمنطقة حتى الآن بأربع مراحل ، المرحلة الأولى وتمتد منذ اكتشاف النفط في الثلاثينات وربما قبل ذلك بقليل في العشرينات مع بدء عملية التحديث الإداري والتشريعي حتى مطلع الخمسينات . وتتميز هذه المرحلة بمحدودية العمل المستورد من حيث الكم والدور ، وشكل القادمون من الساحل الإيراني وشبه القارة الهندية غالبية العمل المستورد والذي تركز على وجه التحديد في قطاع النفط . أما المرحلة الثانية فتبدأ من العقد الخامس حتى مطلع السبعينات وهي المرحلة التي شهدت بداية بناء الهياكل الأساسية لمجتمعات الخليج العربي ـ وتميزت هذه المرحلة بالتدفق الكبير نسبياً لقوة العمل العربية وبالتحديد الفلسطينية والمصرية وجزء من قوة العمل الشامية التي تم على عاتقها بناء واستمرارية عمل الكثير من الأجهزة الرسمية الحديثة كما شهدت هذه المرحلة انخفاضاً في نسب مشاركة قوة العمل الأسيوية ، الايرانية والهندية رغم الارتفاع في أعدادها المطلقة . وتوصف المرحلة الثالثة بالحقبة الأسيوية للهجرة وهي الفترة التي تؤرخ منذ ارتفاع أسعار النفط في تشرين عام ١٩٧٣ وتنتهي بمطلع عام ١٩٨٣ . وتميزت هذه المرحلة بضخامة حجم الاتفاق الرسمي والذي كمحصلة له ارتفعت معدلات تدفق العمل المستورد وبالتحديد الأسيوية . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت مع انخفاض أسعار النفط في مطلع عام ١٩٨٣ حتى الآن . وهي المرحلة التي شهدت عودة قطاع كبير من العمل المستورد تقدره بعض الأوساط بقرابة المليون والنصف والمليونين نتيجة للتقلص الكبير والمفاجيء في حجم الاتفاق الرسمي بفعل انخفاض الايرادات النفطية والتي تقلصت خلال الخمس سنوات الأخيرة بما يقارب ٦٠٪ إذ انخفضت إيرادات دول مجلس التعاون من ١٧٠ مليار عام ١٩٨١ إلى أقل من ٦٥ مليار حتى العام الحالي ١٩٨٦[٣٩] .

جـ ـ عوامل الجذب والطرد المؤثرة في عمليات الهجرة في المنطقة العربية :

تكاد أن تتفق معظم الدراسات الرائدة التي عالجت قضايا الهجرة وانتقال العمالة بين البلدان العربية على أن الهجرة وخصوصاً في ذروتها في العقد الثاني من السبعينات ـ ما هي الا نتاج للعوامل والمتغيرات الاجتماعية والسياسية الفاعلة في خلق الظاهرة . بعض من هذه العوامل تم تحديده في فروقات الأجور بين الدول المستقبلة والمصدرة للعمالة ، معدلات البطالة والتضخم الوظيفي في دول الفائض السكاني وأخيراً ندرة القوى العاملة المؤهلة والمدربة في الدول المستوردة للعمالة .

(١) العامل الاقتصادي : يتلخص الاعتقاد السائد لدى الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية وهو بأن الهجرة عبارة عن قرار فردي يقوم بتنفيذه الشخص المهاجر نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور في

(٣٨) باقر النجار ، أثر العمالة الوافدة أم عواقب الترك تنموي ، المستقبل العربي ، العدد ٨٢ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ١١٧ .
(٣٩) جريدة أخبار الخليج البحرينية ١٧/ ٤/ ١٩٨٦ .

الدول المصدرة للعمالة عنها في الدول المستوردة لها . بمعنى آخر أن الهجرة وانتقال الأيدي العاملة بين الدول العربية قد حدثت في ضوء الاختلافات الاقتصادية بين دول العسر ودول اليسر من المنظومة العربية وفي ضوء طموحات الأفراد لتحسين أحوالهم المعيشية وقد أكد بيركس وسنكلير في دراسة لهما ذلك بالقول :

« فحجم ونمط الهجرة الدولية في المنطقة العربية حددت أساساً بالتوزيع اللامتساوي لمصادر الدخل النفطي . كما أن الأوجه التي وظفت فيها العائدات النفطية في هذه الدول أدت الى المزيد من « التنمية » اللامتكافئة وإلى فروقات في الدخل بين الدول العربية . ففروقات الدخل هي العامل الأساسي في حركة التنقلات الدولية للعمل[٤٠] » .

من ناحية أخرى ، وجد من دراسة حديثة أجريت على عينة من أساتذة المدارس والجامعات المصرية العاملين في الدول النفطية أن فروقات الأجور والطموح الشخصي كانا وراء سفر هؤلاء للخارج . فمثلاً وجد أن الحد الأقصى لمرتب أستاذ جامعي هو ١٥٠ جنيهاً مصرياً في الشهر بمصر وأن ما يكسبه (من راتبه) على مدى ثلاثين عاماً من العمل المتواصل سيكون ٤٨٦٠٠ جنيهاً . أما الأستاذ المعار للعمل في إحدى الجامعات الخليجية فيقدر راتبه بـ ٩٠٠ ديناراً في الشهر أي وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي المصري المعار للتدريس في إحدى الجامعات الخليجية سيكسب خلال سنوات إعارته الأربع ، وهي المسموح له بها من قبل السلطات المصرية ، ما يقارب من ١٢٩,٦٠٠ جنيه مصري ، أي أكثر من ضعف ما سيتقاضاه الأستاذ المصري ثلاثين عاماً من العمل المتواصل في إحدى الجامعات المصرية مع ثبات المتغيرات الأخرى[٤١] . لذا فإننا نجد أن بعض المعارين للعمل في هذه الدول يبقون فترات أطول من مدة الإعارة وبعضهم الآخر ينهي خدماته في دول المنشأ رغبة منهم بالبقاء مدد أطول في دول الاستقبال .

وبالمثل يتكرر المثال المصري ولكن بصور أخرى في دول الإرسال العربية منها وغير العربية ، دراسة حديثة قام بها البنك الدولي عزت هجرة البنغاليين لدول الشرق الأوسط النفطية إلى الاختناقات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع البنغالي ، كالبطالة ومحدودية السمة الاستيعابية للاقتصاد البنغالي على خلق فرص عمل جديدة بالإضافة لفشل الخطة الخمسية في تحقيق أهدافها وبالتحديد في خلق فرص عمل جديدة لمخرجات التعليم وتاركيه والمهاجرين من الريف للمدن . أي بمعنى آخر أن أوضاع الاستخدام المحلي لقوة العمل بالدول المصدرة للعمالة الفقيرة نسبياً قد ساهمت في الاستجابة السريعة بها لهذا الطلب الخارجي المتزايد .

---

(٤٠)
J. S. Birks and C. A. Sinclair, Economic and Social Implication of Current Development in the Arab Gulf, The Oriental Connection, in Tim Niblock (ed), Social and Economic Development in the Arab Gulf, London, croom Helm, 1980.

(٤١) سعد الدين ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ١١٥ ، علما وقد طرأت بعض تغيرات هامة على دخل الأستاذ الجامعي في مصر منذ صدور هذه الدراسة .

وفي الدول المستوردة للعمالة فان الأسباب الاقتصادية قد تعزى الى اتساع فرص العمل التي خلقها الاقتصاد النفطي وخصوصاً في طفرته السبعينية ، وصغر حجم قوة العمل المحلية كما وكيفاً بالاضافة إلى برامج بناء الهياكل الأساسية البالغة الطموح ، وتعزيز وتوسعة الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والإسكان . . الخ . وأخيراً رغبة هذه الدول في تنويع مصادر الدخل فيها وبناء قاعدة صناعية معتمدة في إدارتها فنياً وتكنولوجياً على الخارج[٤٢] .

(٢) ـ **العامل الاجتماعي والسياسي** : قد تعزى كذلك عملية انتقال العمل من دول العسر والفائض السكاني لدول اليسر المالي والعسر البشري للقرب الجغرافي والتشابه الثقافي كاللغة والدين المشترك وأحياناً تدخل علاقات القرابة والدم وكذا في طبيعة التوجه الاجتماعي والسياسي لدول الاستقبال حيال الكثير من القضايا القومية المعاصرة في المنطقة العربية ، فكثرة وجود العربي في كل من الكويت وليبيا والعراق وكذا تزايد حجم المهاجرين من العمال المسلمين من أفريقيا والباكستان والهند في المملكة العربية السعودية لا يخرج عن هذا الإطار* .

أما على صعيد الدول المصدرة للعمالة ، فالهجرة قد تكون أحد أهم العوامل المساعدة على استمرارية شكل معين من الاستقرار السياسي الداخلي وذلك (بتهجير) أو هجرة المعارضين لهم سياسياً لدول الاستقبال العربية . وبالنظر لمقدار الثروة التي قد يكون فيها بعض هؤلاء ، فان الكثير منهم قد جذبته حياة رجال الأعمال والمال وقد عالج سعد الدين ابراهيم . هذا الجزء من المشكلة في مناقشته لأثر الهجرة على استقرار النظام السياسي في مصر **قائلاً** :

« إن وجود عناصر المعارضة المصرية في بلدان النفط المجاورة ، يمثل نعمة ونقمة بالنسبة للنظام السياسي . . . . فمن ناحية ، يمثل غيابهم عن الساحة المصرية إضعافاً لصفوف المعارضة الداخلية والنظام يرحب بذلك ، اعتقاداً أو أملاً منه أن هؤلاء المعارضين يركزون على « جمع الثروة » بدلاً من « إشعال الثورة » . وقد حدث بالفعل أن بعضهم تحول من مجال السياسة إلى ميدان التجارة والنشاطات المهنية خارج مصر ، الا أن هناك قلة لا تزال ترفع صوتها بانتقاد (النظام) ، وقد وجدت منفذاً سهلاً لتمرير أفكارها من خلال وسائل الاعلام في البلدان المضيفة[٤٣] » .

---

* يقدر حجم العمالة العربية في الكويت بحوالي ٦٠٪ من إجمالي قوة العمل وفي ليبيا ٧٥٪ ، أما في المملكة العربية السعودية فيقدر حجم العمالة الاسلامية العربية وغير العربية بحوالي ٩٠ الى ٩٥٪ من قوة العمل الوافدة .

(٤٢) B. S. AL-NAJJAR Op. Cit. P. 24.

(٤٣) سعد الدين ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

هذا يعني أن الهجرة لبلاد النفط والمال سواء تلك القادمة من الدول العربية كمصر ، العراق والشام واليمن الشمالي والسودان ، أو من الدول الآسيوية الفقيرة كالهند وباكستان وبنغلادش والفلبين وتايلاند . . الخ قد أزاحت جزءاً من عناصر عدم الاستقرار بتصدير المشكل بعيداً عن الحدود الجغرافية لدول المنشأ .

على صعيد الفرد فان الهجرة لدول النفط تبدو وكأنها المخرج الوحيد لحل الكثير من الصعاب والمشاكل الشخصية كالزواج مثلاً أو شراء مسكن وتأثيثه . . الخ وقد وجد من دراسة أخرى حديثة أجريت على أساتذة الجامعات السودانية أن أحد أسباب الهجرة بالاضافة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضيق دائرة التعبير السياسي هو محاولة البعض البحث عن المال في الدول العربية المنتجة للنفط لبناء أو لشراء منزل أو شقة وتأثيثها . ويكاد أن ينطبق هذا على معظم المهاجرين من الدول العربية الأخرى وبالتحديد مصر والأردن وسوريا . . . الخ(٤٤) .

•••

رابعاً ـ الهجرة في المنطقة العربية : في البحث عن التفسير :

كما هو واضح من سياق النقاش السابق أن فكرة « سوق العمل » شكلت محور أدبيات الهجرة في المنطقة العربية . فرغم قناعتنا بأهمية هذا المنحى في تفسير المشكل الا أنه لم يقو على تفسير ظواهر ذات علاقة جدلية بظاهرة الهجرة مثل لماذا وفي هذا الوقت بالذات يتم استثمار جزء من رأس المال العربي في بعض من أجزاء العالم الثالث رغم الفائض من العمالة ومعدلات البطالة العالية في الغرب . . الخ ؟ كما أنه لم يفسر لنا مثلاً لماذا في الغرب لا يهاجر المال النفطي للاستثمار في دول الفائض البشري في آسيا وأفريقيا . . . ؟ أو لماذا تقوم الشركات العربية العاملة في مصر واليمن وغيرها من دول الفائض البشري العربية بتوظيف عمالة آسيوية رغم توفر عمالة مثلها من الناحية الفنية في هذه الدول . . . ؟ فهذه التساؤلات وغيرها الكثير يفسر لنا عجز المداخل غير المستندة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاعلة داخلياً وخارجياً في صناعة المشكل . .

بالإضافة لذلك فإن مفهوم سوق العمل قد يكون أقرب لتفسير الظاهرات المثيلة في المجتمعات المتقدمة ـ حيث تم اشتقاقه ـ نظراً لتوفر المقومات الضرورية لعمل آلياته إلا أن توظيفه لتفسير أوضاع التشغيل ومستواه في الدول العربية وربما في الكثير من دول العالم الثالث ، وفي الكثير من حالاتها غير موفق . فمفهوم الاستخدام يختلف جوهرياً في حالة مجموعتي الدول المتقدمة في مقابل المتخلفة . فهو في الأولى ينصرف إلى العمل لدى الغير بأجر نقدي وفي ظل أنظمة مقننة ومعايير يفترض أنها تستند إلى أسس البيروقراطية الحديثة . أما في مجموعة الدول النامية فتبرز أنماط من العمل والمشاركة قد لا تقوم على أسس العمل المأجور أو أن يكون لها صفة الاستمرارية والانتظام وإنما يعتمد أداء العمل فيها على اندماج الفرد ضمن منظومة عمل الأطر القرابية المالكة لوسائل الانتاج كالعمل في كنف الأسرة مالكة وسائل الانتاج في قطاع الزراعة أو الغوص أو الرعي أو الحرف الأسرية الأخرى كالنجارة والحدادة . . . الخ إذ يتم إنجاز العمل وتلبية احتياجاته من القوى العاملة ضمن أطر الوحدات القرابية دون أن يتم عرضها في سوق العمل(٤٥) .

---

(٤٤) - B. S. AL-NAJJAR, Ibid, P. 24.

(٤٥) ليلى أحمد الخواجة ، مصدر سابق ، ص٦٠٣ .

وبالمثل يمكن القول بالنسبة لمفهومي العرض والطلب اللذين يقدمها المدخل الكلاسيكي الجديد . فمفهوما العرض والطلب لا يتلاءمان مع واقع التشغيل وظروفه في الدول العربية ودول العالم الثالث ذلك أن مفهوم عرض العمل مبني على افتراض الحرية التامة لأفراد قوة العمل في المفاضلة بين العمل والتمتع بأوقات الفراغ في ظل معدل الأجر السائد . أما مفهوم الطلب فهو الآخر يقوم على افتراض حرية الوحدات الاقتصادية القائمة في اختيار الفن الانتاجي المستخدم بها وفقاً للأسعار النسبية لكل من عنصري العمل ورأس المال وبافتراض إمكانية إحلال لا نهاية بينها . وفي الواقع فإننا نجد أن عملية المفاضلة غير قائمة في ظل مجتمعات العسر واليسر على السواء في المنطقة العربية حيث أن الحصول على مطلب أساسي لاستمرارية البقاء . أما من حيث الاختيارات التكنولوجية فالدول العربية كما الدول النامية الأخرى هي مستوردة للفن الانتاجي وغير مبتدعة له . ففنون الانتاج السائدة تكونت وتشكلت في الدول الصناعية المتقدمة وفقاً لظروفها ومواردها المختلفة عن تلك التي في منظومة دول العالم الثالث(٦) .

وبعيداً عن مقولات المدرسة الكلاسيكية الجديدة والتي لم تخرج في تفسيرها لعملية الهجرة في المنطقة العربية عن متغيرات الجذب والطرد المتبناه في تفسير ظاهرة الهجرة الكلاسيكية لأوربا وأمريكا . فمتغيرات مثل الحاجة لبناء مسكن أو تأثيثه ، والرغبة في زيادة الدخل ، أو الالتحاق بالعائلة في دول المهجر ، وارتفاع معدلات البطالة والتضخم السكاني في الدول المرسلة للعمالة وضعف المورد البشري في الدول المستقبلة . . . رغم أهميتها النسبية إلا أن مصداقيتها لا تستقيم إلا في إطار السياق التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي للدول ذات العلاقة بالشكل وموقعها في السوق الاقتصادي العالمي .

فحركة الهجرة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة العربية خلال العقد السابق ٧٣ ـ ١٩٨٣ لا يستقيم فهمها إلا في ضوء المعطيات الجديدة التي أفرزها الارتفاع الكبير في أسعار النفط خلال الحقبة السابقة ، أي أن مؤشرات الزيادة المطردة في تنقلات العمل بين وإلى المنطقة العربية لم تعد محكومة بمتغيرات عرضية أو وقتية بل هي أساساً مرتبطة بالتغيرات الجوهرية في أجهزة الإنتاج والأهمية النسبية للبلدان المستوردة والمصدرة للعمالة وطبيعة ارتباطها بالسوق الاقتصادي العالمي(٤٧) .

فالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشت المنطقة العربية غمارها وبالتحديد انقسام دول المنظومة العربية وبفعل عامل النفط إلى دول اليسر مقابل دول العسر وكذا ضمور القوى القومية وقوى الستينات في مقابل بروز القوى التقليدية والمحافظة قد تزامن وربما ارتبط بالنظام الجديد لتقسيم العمل على الصعيد العالمي ، بعض من شواهد هذا الارتباط المتسق Articulation يمكن تحديدها في طبيعة العلاقة غير العادية التي تطورت بين دول المجموعة الأوربية وأمريكا والمنطقة العربية . فصادرات أوربا الغربية للمنطقة العربية ازدادت بشكل كبير خلال العقد المنصرم مقارنة بالعقود السابقة ، حيث ارتفعت صادرات أوربا الغربية أو المجموعة الاقتصادية الأوربية للمنطقة العربية ، خصوصاً الدول العربية المنتجة للنفط من ٢١٩٥ مليون Ecus (وحدة التعامل النقدي لدول السوق) عام ١٩٥٨ إلى ٣٢ , ١٣٧ مليون (Ecus) عام ١٩٨٠(٤٨) . بالإضافة إلى ذلك فقد زاد اعتماد المنطقة العربية على الغرب في تلبية

(٤٦) نفس المصدر السابق .
(٤٧) باقر النجار ، ظروف عمل ومعيشة العمال الأجانب ، في ثامر الرجاني وآخرون ، مصدر سابق ، ص ٤١ .
(٤٨)

B. S. AL-NAJJAR 1984, P. 3.

الكثير من حاجاتها ، وتبرز خطورة هذا الاعتماد في الانكشاف الغذائي للمنطقة العربية للخارج ، إذ ارتفع العجز في الميزان الغذائي من ٨٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨١ . وتشير الأرقام المتوفرة حول هذا الجانب ، إلى أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في الوطن العربي في تدهور متواصل حيث انخفضت من ٦٩٪ خلال الفترة ٧٤ ـ ١٩٧٩ إلى ٥٠٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ . ويكاد يزداد ذلك في بعض السلع الهامة كالقمح ، حيث انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح من ٤٩٪ خلال الفترة الأولى إلى ٣٥٪ خلال الفترة الثانية . وكذا يمكن القول بالنسبة للاكتفاء الذاتي من اللحوم الذي انخفض من ٩٣٪ خلال الفترة الأولى الى ٦٧٪ خلال الفترة الثانية ، ولو جمعنا حجم واردات الوطن العربي من السلاح ومن الغذاء وهما أخطر الميادين المؤثرة على الأمن الشامل لوجدنا أن نسبتها من إجمالي واردات المنطقة في عام ١٩٨٠ . تبلغ حوالي ٥٣،٤٪[٤٩] .

أما السمة الأخرى لهذا الارتباط ، فهي طبيعة وأسلوب تخصيص allocation العائدات النفطية في الدول العربية المنتجة للنفط في تشييد الهياكل الأساسية وفي خطط التنمية الطموحة . هذه المشاريع والتي بضخامتها استثارت كماً هائلاً من العمل الوافد للعمل في قطاعات التشغيل « المستجدة » لاقتصاديات هذه الدول* .

هذه المتغيرات وأخرى اقتصادية واجتماعية تمت الإشارة إلى بعضها خلال العرض السابق هي في الواقع مؤشرات فاعلة للأنماط الجديدة لتراكم رأس المال . بشكل محدد ، إنها تتيح له الاستفادة من الفائض العمالي الرخيص في دول الفائض العمالي وكذا توظيف الفائض المالي للدول النفطية ضمن حدودها الجغرافية وبطرق « أكثر انتاجية » . أي أنه في الوقت الذي تواجه رؤوس الأموال العربية بعض الخطورة في محل استثماراتها في بعض الدول الأسيوية (شبه القارة الهندية مثلاً) فإن في توظيف الفائض العمالي الأسيوي في مشاريع « التنمية » في الدول العربية النفطية فائدة عظيمة وربحاً مميزاً . فالهجرة للمنطقة العربية تعتبر المعطى الذي تم في ضوءه ربط أو ارتباط المال النفطي بالتقسيم الجديد للعمل وكذلك بالأنماط الجديدة لتراكم رأس المال . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الهجرة العمالية هي الدعامة التي تم عليها تشكل النظام الجديد لتقسيم العمل وكذا الأنماط الجديدة في عملية تدويل رأس المال خلال النصف الثاني من السبعينات ومطلع الثمانينات[٥٠] .

وخلاصة القول ، فان الهجرة الى المنطقة العربية وبالتحديد في حقبتها الأسيوية ، وطبيعة البرامج التنموية المقامة بالاضافة للإخفاق الشديد الذي واجهته برامج التنمية في مصر والشام والشمال الأفريقي فضلاً عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ضربت نسيج المجتمع العربي والتمثل في ضعف المركز التفاوضي العربي قبالة الغرب وضعف قوى التغير العربية كلها أمور ساعدت على ولوج دول المنظومة العربية بل والكثير من دول العالم الثالث ذات الارتباط المباشر بفعل عامل الهجرة أو غير مباشرة بها بالتقسيم الجديد للعمل على الصعيد العالمي[٥١] .

---

* تمت معالجة هذا الموضوع في أوراق سابقة معدة أهمها مداخلة الدكتور / نادر فرجاني لهذا الموضوع في كتاب ـ الهجرة الى النفط

(٤٩) خالد محمد غالب ـ التقسيم الدولي الجديد للعمل والتحولات التنموية العربية ، ورقة مقدمة للحلقة النقاشية الثالثة ، العرب والأزمة الاقتصادية العالمية ، المعهد العربي للتخطيط ، فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٧

(٥٠) B. S. AL-NAJJAR, Ibid P. 3.

(٥١) باقر النجار ـ المدخل العربي ـ مصدر سابق ، ص ١١٥ .

الهجرة والهجرة المعاكسة
نموذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي

عبدالرسول علي الموسى

قسم الجغرافيا جامعة الكويت

مقدمة :

تعتبر الهجرة من القضايا المهمة في الدراسات السكانية والحضرية بالاضافة الى استحواذها على حيز كبير من الادبيات المختلفة ويهتم الجغرافيا بشكل خاص في قضية الهجرة كأحد المحاور الرئيسية في الحيز السكاني ، فالهجرة تعني بمضمونها البسيط حركة سكانية سواء على المستوى الفردي أم الجماعي من مكان الى آخر وبهذا تحدث تغيرا في التوازن الاقليمي في طرفيها ، وفي الاساس فقد تسببت الهجرة في اكتشاف كثير من اجزاء كوكبنا وبالتالي الى اعماره وتطويره ، ومثلما كانت الهجرة سببا في اعمار كثير من اجزاء الارض وتخفيف العبء عن الارض المهاجر منها[1] فانها في وقتنا الحاضر ونتيجة للتزايد الهائل في السكان اضافة الى الفوارق الاقتصادية والفنية والاجتماعية بين بلدان العالم المختلفة ادت الى بروز مشاكل وتعقيدات نتج عنها صدور قوانين وانظمة تتعامل مع الهجرة كاحدى القضايا المهمة بجوانبها المختلفة .[2] لقد اصبحت الحركة السكانية عملية سهلة من ناحية ، نظرا للتقدم في وسائل المواصلات والطرق واصبحت معظم اجزاء العالم بين طرق خطها في متناول الانسان ولم تعد الحواجز الطبيعية تشكل عائقا امام تحرك الانسان من جزء الى آخر . ولقد استطاع التطور التقني ان يحل كثيرا من المشكلات الصعبة ويتغلب عليها كما ساعد من جهة اخرى على سهولة التحرك السكاني . فترتب على ذلك بروز مشكلات من نوع آخر وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية اعطت للهجرة ابعادا جديدة تختلف عنها في المراحل السابقة ، ان هذه المشاكل وصلت الى درجة التشابك في

(١) Wrong, D. H., "Population and Society", Random House. New York, 1969, PP. 87-90.

(٢) انظر دراسة آفاق هجرة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، إصدار منظمة العمل العربية التي قدمها حافظ شقير وجون بركس وسون ١٩٨١ ، كذلك دراسة [illegible] Migration to the Maghreb : People and Policies. التي قدمها ريتشارد لوسن ، وفن ليدلاي والسيدة آن ليدلاي ، إصدار مركز الدراسات العربية [illegible] لندن ، ١٩٨٢

العلاقات الدولية واهتمامها بها واصبحت احدى عناصر العلاقات بين الدول . فقد فرضت طبيعة التعامل بين الدول النظر الى قضية الهجرة على انها موضوع رئيسي من منظور سياسي[٣] ايضا .

ان من الامور المتعلقة في عملية الهجرة فقدان الدول لعدد من سكانها يمثلون مستويات عالية في العلم والخبرة وهو مايطلق عليه بهجرة العقول وتعتبر الدول النامية - والتي هي في أمس الحاجة الى مثل هؤلاء - أكثر الدول التي تتعرض للخسارة في هذه الكفاءات البشرية . فالهجرة لم تعد مقصورة على الافراد الذين يريدون تحسين اوضاعهم المادية أو الحصول على عمل بل اصبحت تتعلق بقضايا الحرية والديمقراطية والحياة الاجتماعية التي تشغل بال الانسان المتعلم وتهمه ولذلك نجد ان نسبة ملحوظة من الذين يواصلون تعليمهم في الدول المتقدمة يفضلون البقاء ومواصلة حياتهم هناك ، كما ان نسبة من المتعلمين اصبحت تسبب قلقا للدولتين المهاجر منها والمهاجر اليها . ان الامور بالنسبة للهجرة اصبحت أكثر تعقيدا لانها - كما قلنا - اصبحت قضية متعددة الاوجه ولذلك فاننا نجد في الربع الاخير من القرن العشرين ان التكتلات الاقليمية سواء السياسية منها او الاقتصادية أخذت تؤثر في الهجرة كما حدث للمهاجرين من المغرب العربي في فرنسا بعدما انضمت اسبانيا والبرتغال الى منظمة السوق الاوروبية المشتركة وحاولت فرنسا استبدال المهاجرين المغاربة بالمهاجرين من الدول الاعضاء في هذه المنظمة . وكذلك الدول العربية ممثلة في الجامعة العربية ، بدأت تهتم بمنافسة المهاجرين العاملين من آسيا للعمالة العرب . وقد اصدرت قرارات بهذا الشأن .[٤] واذا كان في عصرنا الحديث قد صدرت تشريعات تتعلق بالهجرة على اساس عنصري مثل اللون والهجرة البيضاء في استراليا وعرقي مثل ما حدث في امريكا وذلك بتوزيع حصص الهجرة على الدول الاوروبية وفي جنوب افريقيا حفاظا على النسيج الاجتماعي فانه نظرا لتطور دور المنظمات العالمية وبخاصة منظمة حقوق الانسان ، وكذلك نظرا لتشابك العلاقات السياسية والاقتصادية من ناحية وتطور التخطيط من ناحية أخرى ، وهذا التخطيط يهتم بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان . والعلاقة بينها وبين الانتاجية والتطور الاقتصادي فان هذا كله ادى الى الاهتمام بعملية التنمية وبالتالي اصبح الاهتمام بخصائص المهاجرين لا حسب اللون والعرق وانما من حيث كفاءاتهم وخبراتهم وقدرتهم على لعب دور ايجابي في عملية التنمية .

اذا فالبنية السكانية مهمة جدا في سلوكيات المجموعات السكانية تجاه كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٥] ومنها بدأ اتجاه جديد من قبل الدول المستقبلة للهجرة للتعامل مع المهاجرين مراعية بذلك خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية ولذلك نجد فعلا في الكويت عندما بدأت الهجرة الأسيوية الصفراء تدخل ضمن قائمة المهاجرين ، بدأت معها التحذيرات من قبل كثير من المنظمات والباحثين نظرا للاختلاف البين بين هؤلاء المهاجرين والمجتمع الكويتي كمجتمع عربي مسلم وبدأت سلبيات هذه الهجرة تبرز مع قصرها الزمني فعملية التنمية في الكويت تحتاج الى تمكين الكويتيين من الاستفادة من خبرات المهاجرين في العمل وكذلك الى التقليل قدر الامكان من التصادم

(٣) زيارة رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي الى دولة الامارات للبحث في موضوع الاجراءات المتعلقة بالهنود وكذلك توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد صدور القوانين في فرنسا المتعلقة بالمهاجرين وعودة بعض المهاجرين الجزائريين من فرنسا .
(٤) قرارات وزراء العمل العرب عام ١٩٦٥ ، وعام ١٩٦٨ .
(٥) Clark, D. "Urban Geography", Croom Helm, London, 1982 PP. 84-86.

الاجتماعي والفكري بين الكويتيين والمهاجرين نظرا للتعدد الهائل لجنسيات وثقافات المهاجرين . وعندما جاء الكوريون والفلبينيون فان عامل اللغة اصبح حاجزا يحول دون استفاد العمالة الكويتية من خبراتهم ، كذلك فان الاختلاف العميق في سلوكيات هؤلاء المهاجرين ادى الى عزلة عميقة ليس بين هؤلاء المهاجرين وبين الكويتيين فحسب وانما بينهم وبين بقية المهاجرين وتعاني بريطانيا كذلك من هجرة الأسيويين للسبب نفسه فمثلا وجد أن الحاجز اللغوي ادى الى التقليل من عطاء الاطباء الأسيويين وانخفاض مستوى الاداء عندهم . ولايقتصر هذا السلوك على الدول المستقبلة للهجرة او مجتمعاتها بل انه ينسحب على المهاجرين انفسهم الذين يضعون نصب اعينهم كثيرا من القضايا التي تحدد جهة الهجرة وعطائها[٦] فالمهاجر ايضا يحدد جهة هجرته في ضوء معلومات عن هذه الجهة واختيار المهاجر لبلد معين يعتمد على المعلومات التي يحصل عليها عن هذا البلد من خلال ما اذا كان هذا البلد يحقق طموحاته ورغباته ام لا .

ولكن تبرز مشكلة اجتماعية واحدة تقضي على هذا القرار كأن يكون المهاجر ابا لعدد من الاناث قد لاتتفق تربيتهن وعاداتهن وتقاليدهن مع ذلك البلد المنوى الهجرة اليه وبذلك يقف ذلك حجر عثرة امام تنفيذ قراره .

اذا فالهجرة قضية متشعبة تحيط بها كثير من العناصر التي تؤثر في طرق خط الهجرة وعطائها، وهي ليست قضية تهتم بالكم وانما الاهمية تأتي في الكيف واذا كان الكم يتسبب في الكيف فان القضية نسبية فهي تتعلق بالمحطات وخطوطها والهجرة وصلت ابعادها الى خط الخطر عندما بدأت الاصوات ترتفع لتطالب باعادة توزيع سكان العالم وحق الانسان في التحرك والى المشاركة في ثروات المجتمعات ولقد كانت بعض هذه الاصوات هي باطل اريد به حق فان ماتراه من اتفاقات بين كثير من الدول فيما يتعلق بالهجرة تقرر حرية السكان فيما بينها والوطن وتنظم حقوق هؤلاء المهاجرين كل ذلك يقرر مدى اهمية الهجرة .

وقد تصل خطورة الهجرة ذروتها وتعقيداتها عندما تتصف بالهجرة الطاغية التي هدفها احلال مجموعة من المهاجرين مكان شعب عريق كما حصل في فلسطين او تغير البنية السكانية سواء أكانت بنية عرقية أم ثقافية كما حصل في بعض المناطق اما الخط الثاني للهجرة وهو ما يسمى الهجرة المعاكسة فهذا موضوع يحيط به كثير من الغموض والصعوبات ولم يحظ بدراسات وبحوث كما حظيت دراسات الهجرة .

وحتى المسمى اختلف عليه كثير من الباحثين ، فاحيانا يطلق عليها الهجرة المعاكسة واحيانا هجرة العودة وهاتان التسميتان تلتقي عندها ما كتب باللغة العربية والانجليزية وهما Return Migration ويختلف هذان المسميان في المفهوم ايضا فقد تكون الهجرة المعاكسة حركة معاكسة لمحطة الوصول ، متجهة لها او خارجة منها الى اي جهة سواء الى الوطن ام الى جهة اخرى ، وقد تكون مسمى هجرة العودة هي فقط العودة الى الوطن الام .

ومثلما تختلف اهداف ومسببات الهجرة تختلف ايضا اهداف ومسببات الهجرة المعاكسة او العودة ، فقد تكون هذه الهجرة نتيجة لقرار ترحيل المهاجرين كما حدث في السنوات الاخيرة في اوغنده ونيجيريا والعراق نتيجة القرارات اقتصادية او تنظيمية وكما حدث في فرنسا وفي الكويت او نتيجة لانخفاض فرص العمل وتفشي البطالة . والهجرة المعاكسة قد تثير قضايا اكثر من الهجرة في خطها الاول لانها قد تثير قضايا اقتصادية مثل عودة المهاجرين الى بلدانهم وما

---

(٦) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، آفاق هجرة عمالة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ٢٠ .

يترتب على ذلك من بطالة وانخفاض في مستوى المعيشة وانهاك للاقتصاد الوطني كما حدث في تونس نتيجة لعودة مواطنيها من فرنسا وليبيا وقد تسبب الهجرة العاكسة اي العودة الى الوطن الام في مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية نتيجة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الاصلي والعائدين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة وسلوكياتها وما اكتسبوا من انماط الاستهلاك والقيم الاجتماعية[٧] فضلا على انها قد تؤثر على الاقتصاد الوطني في البلد المستقبل لها . فالمهاجرون قد يقبلون بأجور منخفضة ويقبلون على اعمال لا يقبل عليها المواطنون وكذلك يؤثرون في القوة الشرائية وقضايا اخرى مثل الاسكان والمرافق الاخرى . وتواجه قضية الهجرة العاكسة من الناحية العلمية ومشكلة صعوبة قياسها وتتبعها في محطاتها المختلفة لظروفها المتعددة . فقد تفرض ظروف معينة على الانسان المهاجر من وطنه الى بلد آخر فتمتد الاقامة به مدة طويلة تصل الى عشرين او ثلاثين سنة وهذه المدة كفيلة بأن ترسخ جذورا اجتماعية في هذه الارض الجديدة ، عندما يولد ويترعرع ابناؤه ويكتسبون عادات وتقاليد البلد الجديد ، وتختلف المقاييس النفسية والاجتماعية والسياسية عن بلدهم الاصلي[٨] . فيصعب التفكير في العودة الى البلد الام ولا يؤدي هذا بالضرورة الى نزع جلده الاصلي واكتساب جلد جديد وبخاصة اذا كان سكان هذا البلد يختلفون عنه عرقيا وتظل ملامحه تشكل حاجزا نفسيا بل وتؤدي الى تفرقة في التعامل ومع ذلك فان خط الهجرة العاكسة يظل مفتوحا ، اذا كان ذلك بالاختيار ، للجيل الاول وكذلك للاجيال التالية عندما يبلغ المهاجر سنا لا تعد فيها العناصر التي ذكرناها قبل قليل فاعلة .

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على الهجرة بخطها كحركة سكانية مستمرة والتعرف على العوامل التي تلعب دورا فيها حتى يمكننا التعرف على الافرازات المختلفة للهجرة .

ولتحقيق هذه الاهداف ، فان الدراسة ناقشت هذا الموضوع في اطار شمولي للتعرف على الحركات السكانية الرئيسية والتي تركت بصمات واضحة في مناطق جغرافية مختلفة في تاريخنا المعاصر ولقد اختارت الدراسة منطقتين جغرافيتين تمثلان نوعي الهجرة المختارة للدراسة وهي دول الخليج العربية التي تمثل حالتها الهجرة ودول المغرب العربي والتي تمثل حالة الهجرة العاكسة ثم اختارت الهجرة نموذجا محدودا لهجرة نوعية معينة من السكان وهي ما تسمى بهجرة العقول .

ولقد اختارت الدراسة الفترة الزمنية الحديثة في دراسة الحالات ، هذه الهجرة التي مازالت تتفاعل وتعتبر نموذجا لتأثير الحركة السكانية في تشكيل كثير من الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ففي حالة دول الخليج العربية سوف تكون مجال الدراسة هي الفترة التي حدثت معها هجرة اثرت كثيرا في ملامح مجتمعات هذه الدول وهي الهجرة التي اعقبت استغلال عوائد النفط في تحديث هذه الدول ، اما حالة المغرب العربي

(٧) سعد الدين ابراهيم، النظام الاجتماعي العربي الجديد ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ١٣٧ ، ١٤١ .

(٨) Al-Moosa, A., "Stability of the foreign labour force in Kuwait." The Arab Gulf journal, London Vol. 6, No. 1, April 1986, P. 55.

فالهجرة المعاكسة بتأثيرها الواضح لم تحدث الا في السنوات الاخيرة وبالذات في اعقاب استقلال دول المغرب العربي عن دول اوروبا المستوردة . للمهاجرين منها . والذي تزامن مع المشكلات الاقتصادية التي واجهتها اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

الهجرة منظور عالمي :

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحركات سكانية غير مقيدة وكانت معظم هذه التحركات باتجاه ارض جديدة مكتشفة بما كان يسمى بالعالم الجديد . وبالطبع نتيجة للعامل الجغرافي ، عامل المساحة الذي كان يلعب دورا حاسما في عملية التحرك نظرا لبساطة وسائل المواصلات وبدائية الطرق ومن ناحية اخرى يرجع الى الحالة السياسية والاقتصادية للمناطق المختلفة في العالم . ففي ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حروبا متواصلة وصراعات بين المجموعات البشرية سواء على اراضيها داخل القارة الاوروبية ام على اراض غيرها عبر المحيطات ولما كان عامل المساحة مهما وكذلك مستوى وسائل النقل ، فقد اتجه الاوروبيون الى القارة الامريكية وحدثت تحركات سكانية وهجرات جماعية ، ولقد وصلت الهجرة الى ذروتها في بداية القرن التاسع عشر فقد توجه ما يقارب من « ٥٧ » مليون مهاجر الى هذه القارة منهم حوالي ٣٠ مليون توجهوا الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الامريكية . ولقد دخل الولايات المتحدة في فترة زمنية قياسية ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ حوالي تسعة ملايين مهاجر ولقد سبق ودخلتها ثاني أكبر هجرة في فترة قصيرة وهي ما بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ وكانت حوالي خمسة ملايين مهاجر وكان حوالي ٨٥٪ من هؤلاء قد قدموا من اوروبا(٩) وتأتي هذه الهجرة الجماعية نتيجة للفرص الاقتصادية الهائلة في الاراضي الجديدة وتطلع الاوروبيين الى نقل الاقتصاد الصناعي الى تلك الاراضي فمن هنا يمكن القول ان هذه الهجرة كانت بفعل عامل الجذب اكثر منها بفعل عامل الطرد(١٠) مع عدم التقليل من اهميتها ، ونجد ان هذه الهجرة قد اثمرت حيث ان امريكا الشمالية بدولتها الرئيسية الولايات المتحدة الامريكية وبعد الهجرة الاوروبية الكبرى اليها اصبحت تعتبران من الدول المتقدمة ومن قوى الدول اقتصاديا لما تتمتعان به من امكانات اقتصادية اثرت بشكل خاص في الولايات المتحدة كاحدى أكبر قوتين في العالم .

اما البيئة فلها تأثير كبير على تحرك السكان فقد دفع التغير البيئي السكان الى تغيير مكان استقرارهم بل وتغيير نشاطهم الاقتصادي مثلما حدث في ايرلندا في الاربعينات من القرن التاسع عشر وذلك بعد النكسة في محصول البطاطا والذي تسبب في ايجاد بطالة هائلة في ايرلندا مما دفع جزءا من سكانها الى الهجرة وكما حدث ـ أيضا ـ في الولايات المتحدة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عندما تعرضت التربة في المناطق العربية الوسطى فيها للجرف نتيجة لسوء استغلالها من قبل المزارعين وأدى ذلك الى تعريتها للنقل بواسطة الرياح وكما تسمى بوعاء الرمل SAND BAG تلك التي أثرت على مناطق مختلفة نتيجة لهبوب الرياح المحملة بالتربة ونتيجة لذلك فقد حدثت هجرة لكثير من تلك المناطق الى مناطق اخرى في الولايات المتحدة(١١) . ولعب التغير البيئي دورا في هجرة عدد كبير من قرى أهل النوبة التي

(٩) Wrong, D. H., 1969, P. 37.
(١٠) Ibid, P. 89.
(١١) Johnes, E., and Eyles, J. "An Introduction to Social Geography", Oxford University Press, Oxford, 1977, P. 187.

كانت تقع بالقرب من بحيرة ناصر نتيجة لتحويل مجرى نهر النيل واقامة السد العالي في مصر ومع ان هذه الهجرة قد تقع تحت نمط الهجرة القسرية في أوقات السلم(١٢) وذلك نتيجة لاتفاق حدث بين السودان ومصر بتهجير هؤلاء السكان انما كان في الاساس نتيجة لتغير بيئي وحتى لو لم يحدث اتفاق التهجير فان السكان سوف يهاجرون من تلك المناطق لان تحويل مجرى النهر وانشاء بحيرة ناصر أديا الى غمر مناطق هؤلاء السكان بالمياه .

خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية حدث تحرك سكاني ضخم ، فقد انتقل تحت التهديد والقهر والارهاب حوالي ستة ملايين شخص في الحرب العالمية الاولى وكذلك نفس الرقم تقريبا في الحرب العالمية الثانية الى مناطق غير مناطقهم الاصلية وبذلك حدثت هجرة قسرية تغير على اثرها التركيب السكاني اجتماعيا وديمغرافيا في اقاليم مختلفة في اوروبا .(١٣)

وقد تحدث هجرة « سياسية » وقد تسمى بحركة الحدود ، وهي تعني تبادل السكان بين الدول في المناطق التي تحدث فيها تغيرات جغرافية سياسية ونتيجة لذلك بقيت اقليات سكانية تواجه صعوبات سياسية واجتماعية كما حدث هذا في الهند وباكستان عندما تم نقل حوالي ستة ملايين هندوسي الى الهند ومثل عددهم من المسلمين الى باكستان . وكما حدث بين اليونان وتركيا عندما تبادلا السكان بعد حرب ١٩٢١ بين الدولتين فقد انتقل ثلاثمائة الف تركي الى تركيا ومليون ومائتي الف يوناني الى اليونان . ولايمكن ان نقول انه كان هناك خيار لهؤلاء السكان في البقاء او الانتقال نظرا لانهم قاموا بهذا التحرك نتيجة لاتفاق بين الدول المعنية(١٤) وبسنوات قليلة مضت حدث تحرك سكاني قسري عندما امرت السلطات في اوغندا جميع الاسيويين الذين يحملون جوازات بريطانية بمغادرة اوغندا وكذلك من الذين لا يحملون الجنسية الاوغندية وكانت هجرة بالالاف وقد احدث ذلك ردود فعل عالمية .

اما الهجرة البشرية الحديثة التي تعتبر من أبشع انواع القسر هو ما حدث للفلسطينيين في بلدهم عندما قام الكيان الصهيوني على انقاض دولة فلسطين وحلت مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات لا يجمعها الا الدين ، محل شعب تجمعه اصالة الوطن وحدث ذلك عام ١٩٤٨ فشرد حوالي مليون فلسطيني من بلدهم وانتشروا في مناطق مختلفة من العالم مع تركز جزء كبير منهم في بعض الدول العربية .(١٥)

وقد تحدث هجرة خارجية ولكنها تكون نتيجة لعوامل خارجية ، وذلك عندما تتعرض مناطق او مدن حدودية او استراتيجية للاحتلال الاجنبي او اضمحلال الاوضاع الاقتصادية نتيجة للحرب وتأثيرها على المناطق الاقتصادية كما حدث في جمهورية مصر العربية بعد قيام حرب سنة ١٩٦٧ فاحتلت سيناء واغلقت قناة السويس وتعرضت مدنها وموانئها كبورسعيد والسويس لخطر تلك الحرب وادى ذلك الى حدوث هجرة ضخمة من هذه المناطق الى القاهرة والى مدن اخرى مصرية .

(١٢) اسحق القطب وعبد الاله أبو عياش ، « الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية » وكالة المطبوعات، ١٩٨٠ ، الكويت ، ص ١٩٨ .
(١٣) Johnes, E., and Eyles, J. 1977, P. 187.
(١٤) Ibid, P. 187.
(١٥) اسحق القطب وعبد الاله . أبو عياش ، ١٩٨٠ ، ص١٩٨

ونتيجة للعنف تحدث هجرة من المناطق التي تتعرض للقصف وقد تتأثر دول بالكامل بالهجرة عندما تتعرض هذه الدول للعنف مثلما حدث للبنان عندما تعرض لحرب أهلية يصعب حتى الآن اضفاء اية صفة على هذه الحرب لان عوامل كثيرة تشابكت في النهاية لتغطي صفحة واحدة عامة وهي عنف بلا هوية وقد ادى هذا العنف الى هجرة اللبنانيين من وطنهم ومن الصعب تحديد اتجاهات الهجرة لان اللبنانيين انتشروا في جهات متعددة .

وهناك هجرات تحدث نتيجة لازدهار اقتصادي وتوفر فرص عمل في مناطق مختلفة فتحدث انقلابا اقتصاديا واجتماعيا في هذه المناطق .

ولقد تعرضت منطقة الخليج لهجرة كبيرة في فترة متباينة من الزمن مقارنة بين حجم الهجرة وعدد السكان الوطنيين وكان دافع هذه الهجرة توفر فرص عمل كبيرة نتيجة لاكتشاف النفط واستغلال عوائده في تحديث دول الخليج العربية ونتيجة للقصور الكمي والنوعي الذي يعانيه السكان في مواجهة المستجدات في المجالات الاقتصادية والعمرانية . ولقد ادت هذه الهجرة الى قلب الميزان السكاني وتحول السكان الوطنيين في فترة زمنية وجيزة الى اقلية في بلدانهم ولم تقتصر مصادر هذه الهجرة على مصدر واحد او عدد قليل وانما جاءت من مصادر كبيرة العدد وصلت الى مائة جنسية . وبما ان العمل هو الدافع الرئيسي لهذه الهجرة ، فقد تفوقت العمالة الوافدة على الوطنية الى ان وصلت العمالة الوطنية في بعض دول الخليج العربية الى اقل من ١٠٪ ، ولقد وصلت في الكويت عام ١٩٨٥ الى حوالي ٢٢٪ ، وتغلغلت العمالة الوافدة في كل قطاع من قطاعات العمل وكثيرا ما ترتبط الهجرة بالمستوى الاقتصادي للدول المهاجر منها اي الهجرة من الدول الفقيرة الى الدول الغنية . وقد يكون هذا صحيحا بشكل عام ، ولكن عندما نعالج القضية بتفاصيل أدق نجد ان اهداف الهجرة قد تدخل في تحديد المناطق المهاجر منها بل والمهاجر اليها .

ولذلك فان الهجرة من الدول الاوروبية كانت تشكل تقليلا من العبء السكاني على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت هذه الهجرات تلعب دورا في السيطرة على اراض جديدة وانشاء مجتمعات اوروبية في تلك الاراضي في الوقت الذي كانت الهجرة من الدول والقارات الاخرى ، نتيجة لضآلة نسبتها الى السكان في تلك الدول لا تشكل تخفيفا على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت تقوم بادوار ضئيلة في الدول المهاجر لها فالمهاجرون الاوروبيون كما قلنا قاموا بادوار كبيرة حيث أنهم بالاضافة الى السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناطق المهاجر اليها وبخاصة امريكا واستراليا وافريقيا ، اقاموا انظمة اقتصادية امتدادا للاقتصاد الاوروبي . ولايمكن كما اشرنا قبل قليل انكار الدور الذي لعبته الهجرة من اوروبا في حل المشكلة السكانية التي برزت عن طريق الزيادة السكانية السريعة وعجز الموارد الاقتصادية المحلية بالمقابل .

في الدول الاخرى كان العامل الايجابي على المدى القصير هو في التحويلات النقدية التي يرسلها المهاجرون الى بلدانهم والتي بلا شك لعبت دورا في اقتصادياتها[١٦] وقد قدرت تحويلات الدول النامية لعام ١٩٨٢ بحوالي ٢٨ مليون دولار وهذا ما جعلها قادرة على زيادة الاستيراد مما وضعها ضمن اطار مشكلة الميزان التجاري لهذه الدول ، هذا على

---

(١٦) Burki, S. J., "International Migration Implications for Labour Exporting Countries" The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4 1984, P. 671.

مستوى الدول اما على مستوى الافراد فان هذا يبدو واضحا في التمايز الجغرافي بين مدن هذه الدول حيث تتميز المدن او المناطق التي تصدر المهاجرين عن المدن او تلك المناطق التي ليس لها مهاجرون من الخارج[١٧] .

هذه الهجرات بانواعها المختلفة وبسلبياتها واجهت اجراءات وسياسات لتنظيمها او لتحجيمها او لوقفها ، فالهجرة سواء أكانت داخلية ام خارجية فان لها آثارا لا يمكن اغفالها وتركها بلا ضوابط وان ما يعانيه العالم اليوم من عملية التحضر وبروز الكيانات الحضرية ، وما تسببه من تعقيد للحياة خلق للانسان مشكلات كلفته ثمنا غاليا وهو حياته النفسية اضافة الى حياته الجسمية فتكون المدن وتوسعها وسيطرة الحياة الحضرية جاءت لاسباب في مقدمتها الهجرة من الريف الى المدن والتحول نحو الصناعة التي وجد فيها الانسان متسعا للخروج من مشاكله ثم انقلبت عليه وبالا كما ان التحرك المستمر للسكان من منطقة الى اخرى خلق مشكلات اجتماعية واقتصادية وعية عند تأثيرها على المجموعتين المحلية والمهاجرة وتكون النتيجة تغيرات في احدى المجموعتين او ازدواجية او حتى تعددية في المجتمع . فالهجرة ليست قضية ترتبط بالارقام كعدد السكان المهاجرين وعدد المجموعات المهاجرة من المناطق المختلفة ، وكذلك مثل عدد الذكور وعدد الاناث والمجموعة الفاعلة اقتصاديا والصغيرة او الكبيرة وليست ايضا عدد العائدين ولكن الهجرة تتكون من أكثر من هذه العناصر الرقمية انها تدخل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية ومايطلق عليه في الجغرافيا بالمشاكل الحضرية والتي تنتج عن تفاعلات اجتماعية واقتصادية في بقعة جغرافية معينة ، وهي المدينة ونلاحظ هنا في هذا الصدد ان الهجرة غالبا ما تحدث في المدن . سواء أكانت الهجرة داخلية بتحرك السكان من الريف الى المدن ام من المناطق الفقيرة الى تلك الغنية او الهجرة الخارجية والتي تصب غالبا في المدن حيث الحاجة الى الايدي العاملة والى المغريات التي تتميز بها المدينة وحيث القبول الاجتماعي للمهاجر والذي لا يجده بسهولة في المناطق الريفية . وبذلك أصبحت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأخذ اتجاهات خطيرة في حياة الانسان . ان تطور الحياة الحضرية جعل السكان يتجهون للمدن ويتمركزون بها ، ولتصور تجمع مجموعات مختلفة الاتجاهات اجتماعيا اقتصاديا وسياسيا في بقعة محدودة من الارض تتنافس هذه المجموعات على الارض والعمل والخدمات . ان توجه الانسان للحياة الحضرية يسير بسرعة هائلة وهذه السرعة المرتبطة بالحجم الكبير للمجموعات المتحركة لا يمكن ان تعطي فرصة للمنظمات الرسمية والاهلية لمواجهتها فتزداد المشكلات .

يعزى تزايد سكان المناطق الحضرية بالمعدلات العالية الى الهجرة من الريف الى المدن اضافة الى تقدم وتطور العلوم الطبية وتزايد الاهتمام الصحي بالانسان في هذه المناطق وينطبق هذا بشكل واضح على الدول النامية حيث الفروقات بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والتي تسهل بعوامل الطرد من المناطق الريفية وعوامل الجذب في المناطق الحضرية وتساهم الهجرة من الريف الى المدن بنسبة تتراوح ما بين ٥٠٪ - ٧٦٪ من النمو السكاني في المناطق الحضرية الكبيرة في معظم الدول النامية[١٨] ويوضح الجدول رقم (١) ان الهجرة من الريف الى المدن ما زالت تلعب دورا مهما في النمو الحضري .

---

(١٧) Ibid, PP. 671-675.
(١٨) Mabogunje, A., "The Development Process" : Hutchison University Library for Africa, London, 1980, P. 177.

نسبة الهجرة من الريف الى الحضر في النمو الحضري ١٩٥٠ ـ ١٩٩٠

	١٩٥٠ ـ ١٩٦٠	١٩٧٠ ـ ١٩٧٥	١٩٨٠ ـ ١٩٩٠
العالم	٤٨,٧	٣٢,٥	٣٣٠,ـ
الدول المتقدمة	٤٨,٨	٤٦,٢	٤٩,٧
الدول النامية	٥٩,٣	٤٢,ـ	٤٢,٢

المصدر : MABOGUNJE, A., "THE DEVELOPMENT PROCESS": HUTCHISON UNIVERSITY LIBRARY FOR AFRICA? LONDON, 1980 TABLE NO. 17

ان التزايد السكاني في المناطق الحضرية يعني اضافة الى النمو السكاني الطبيعي والهجرة تلعب دورا في تطور المراكز الحضرية ، والنمو الحضري يعني مزيدا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية . فالمؤسسة الأساسية في التركيبة الاجتماعية هي الأسرة تتعرض للتغير واعادة تركيب بيتها ، كما ان البيئة الاجتماعية للسكان تتعرض للتغيير . كما ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان يعاد صياغتها في داخل الاطار الحضري .[١٩]

وتلعب التقنية والتطور في الأدوات المستخدمة في الانتاجية دورا في هذا المجال ، ففي الولايات المتحدة تطورت الهجرة من الريف الى المدن الى درجة كبيرة نتيجة للتطور في الأساليب التكنولوجية في الزراعة والتي أدت الى أن ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة يتجوون غذاء لبقية السكان (٩٠٪) بل ويصدرون الفائض الى الخارج . ولهذا نجد أن المناطق الحضرية اتسعت وتطورت وكان ٥٪ من الامريكيين يعيشون في المدن عام ١٧٩٠ فقفزت هذه النسبة الى مستوى عال في عام ١٩٦٠ وقد أشارت الاحصاءات الى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعيشون في المناطق الحضرية[٢٠] .

ولذلك فالهجرة ليست قضية ديمغرافية أو حركة سكانية ترتبط بالمسافة أو المساحة المكانية ولكنها أيضا قضية لها مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فوجود مجموعات سكانية تحمل معها مختلف العادات والتقاليد سواء تجاه العمل أم تجاه السكن أو تجاه العلاقات الانسانية أو في سلوكياتها الاقتصادية والمعيشية سوف يؤدي الى تصادم اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وليس بالضرورة أن تكون النتيجة هي عملية الاستيعاب من قبل المجتمع المستقر للمجموعات المهاجرة أو العكس[٢١] فهذا يعتمد على طبيعة المؤسسات التي تحكم المجتمع المستقبل للهجرة فاذا كانت هذه المؤسسات تعني للمهاجر الاسلوب الذي يبحث عنه ، ويأتي في المقدمة مقارنة لما يتميز به مجتمعه الاصلي ، فتأتي كحلم كان يراوده .

وقد تكون هناك قضايا فردية ولكنها في تراكماتها الزمنية تصبح اتجاها عاما في سلوكيات المهاجر وترتيبه للأفضلية أمور حياته ، فقد يهاجر الانسان الى مجتمع يختلف عن مجتمعه اجتماعيا وثقافيا ودينيا ، فاذا كان مثلا في فترة سابقة لم يكون أسرة فقد تصطدم طريقة التربية وتحديد المستقبل مع عادات واتجاهات ذلك المجتمع ، ففي فترة لاحقة عندما

---

(١٩) Clark, D., H., 1982, PP. 73-67.
(٢٠) Wrong, D., H., 1969, PP. 95-97.
(٢١) Johnes, E., and Eyles, J., 1977, P. 196.

تكون أسرة فان هذا الانسان بعد أن استمراره يصطدم بتلك القيم والعادات والاتجاهات فيبحث عن محطة أخرى تتناسب مع المكونات الاجتماعية والثقافية وغيرها .

ولذلك فان خطوط الهجرة قد تتقاطع بمحطات ترتبط بعوامل متغيرة ومتجددة هذه العوامل لا ترتبط بطرف معين بل انها تأتي من أكثر من طرف في قضية الهجرة . فكما قلنا قد تكون هذه العوامل نتيجة لتغيرات في تركيب الاسرة من حيث العدد أو من حيث التركيب النوعي ، فمثلا وجود الاناث في الاسرة يلعب دورا يختلف عن وجود الذكور وهذا قد يرتبط بالقيم والعادات من مجتمع الى مجتمع . وقد تكون التغيرات في بلد المهجر اذا استحدثت عوامل مثل سن تشريعات وأنظمة تتعلق بالمهاجرين تؤثر في بقاء أو تحرك هؤلاء المهاجرين . ولقد شهد التاريخ تغيرات في التعامل مع الهجرة . هذه التغيرات تنطلق من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي بعض الدول التي تعرضت لهجرات واسعة تعاملت في مرحلة معينة مع المهاجرين على أساس فخصصت لكل جنسية نسبة معينة من المهاجرين تستقبلهم سنويا وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا النظام عام ١٩٢٢ . ولكن في مرحلة أخرى تالية دعت أسباب الى تغير هذه السياسة الى نظام آخر وهو انتقاء الشخص أي حاجة البلاد الى كفاءات ومهارات وخبرات معينة بغض النظر عن جنسية هذا المهاجر وان لم يكن هذا بشكل مطلق ، وكانت الأسباب وراء ذلك دراسات وبحوث لفتت الى الانتباه الى القضايا الاجتماعية المهمة مثل القضايا العنصرية والتغيرات في البيئة الاثنية للمجتمع حتى لا تطغى مجموعة معينة على بقية المجموعات . وكان الصراع العقائدي بين بعض الدول وظهور الايدولوجية الشيوعية وبروز النظام الالماني في عهد هتلر وما أدى اليه من التعصب لعرقية معينة ، كل ذلك انعكس على سياسة الهجرة الى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستقبلة للهجرة بأحجام كبيرة . أما في المرحلة الحالية فان الهجرة بشكل عام تتحكم فيها فرص العمل وارتفاع الأجور من ناحية ومن ناحية أخرى فان الدول المستقبلة للهجرة تفتح المجال للمهاجرين بقصد سد النقص في عمالتها الوطنية وتطوير اقتصادها واعمار أراضيها ورفع مستوى تقنيتها .

ولذلك فان سياسة الهجرة مبنية على نظام يربط بين هجرة وبين حاجة هذه الدول لقوى عاملة معينة .

ومن هنا فقد أصبح موضوع الهجرة يدخل في خطط التنمية للبلدان التي تتعامل معها سواء أكانت باعثة أم مستقبلة . وهذه الخطط لا تقتصر على حجم العمالة وتوزيعها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، بل انها تدخل في الأبواب الاقتصادية للخطة من حيث الأخذ بعين الاعتبار العوائد النقدية التي يوردها المهاجرون الى دولهم . ففي جمهورية مصر العربية قدرت عوائد المهاجرين سنة ١٩٧٨ بما يعادل دخل قناة السويس اضافة الى عوائد القطن .

وفي لبنان قبل الحرب الاهلية . كانت هجرة المغتربين تعتبر من المصادر الرئيسية للاقتصاد اللبناني وفي الفلبين تعتبر عوائد العمالة الفلبينية في الخارج مصدرا رئيسيا للدخل القومي للدولة ولهذا فان نظاما جديدا طرأ على الهجرة من حيث التنظيم وذلك عن طريق الاتفاقيات الرسمية بين الدول « لتصدير » العمالة وما تتضمنه هذه الاتفاقيات من نظم لأجور القوى العاملة وتنظيم تحويل جزء من دخولهم الى بلدانهم فالهجرة اذا أصبحت تأخذ أبعادا قانونية واجتماعية وسياسية واقتصادية ولم تعد قضية تحرك سكاني ومشاكل ديمغرافية وخصائص تتعلق ببيئتهم الاجتماعية فقط .

الهجرة الى دول الخليج العربية :

الهجرة الى دول الخليج العربية تعتبر نموذجا للهجرات في عالمنا المعاصر وتعتبر مجالا خصبا للدراسة والبحث . فدول الخليج العربية مع انها جزء من أقدم مناطق الاستقرار في العالم الا أنها تعتبر من حيث التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي حديثة فالكويت والتي تعتبر من أوائل دول الخليج في تعرضها للهجرة الحديثة ، بدأ كيانها السياسي يدخل التاريخ السياسي العالمي في ١٧٦٥ .(٢٢)

ولقد أصبحت دول الخليج العربية محط الأنظار من قبل المهاجرين بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في بناء الدولة الحديثة ، ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية فحسب وانما في بناء دولة حديثة وتأسيس الهيكل التنموي وارساء دعائم الخدمات الأساسية الاجتماعية وكانت المشكلة التي واجهتها هذه الدول هي أن عملية الهجرة كانت فوق طاقتها السكانية سواء من حيث الكم أو الكيف بشكل ظاهر وكانت الرغبة في القيام بهذه العملية بفترة قصيرة من الوقت سببا في فتح حدود هذه الدول للهجرة بدون أية قيود ولم تستخدم الطريق والأنظمة والتشريعات التي استخدمتها مختلف الدول على طول مراحل زمنية متعددة .

وكان الافتقار الى المؤسسات الادارية والتشريعية والفنية في بداية الأمر سببا في تعرض البلاد لتدفق المهاجرين بأعداد كبيرة في فترات زمنية قصيرة .(٢٣)

ولقد تزامنت الهجرة مع تغيرات اجتماعية واقتصادية للسكان الوطنيين مما أضاف فرصا للحاجة الى المهاجرين كالتحول الاجتماعي الخطير الذي تعرض له السكان الخليجيون من تغيير في البنية الاجتماعية وبخاصة في الأسرة والتركيبة السكانية بشكل عام .

كذلك تعرض السكان لما نستطيع أن نطلق عليه عملية التحضر السريعة والمعقدة لمجتمع بسيط قليل العدد كل ذلك أضاف بعدا مهما للهجرة .(٢٤)

وتمثل الكويت ودول الخليج العربية الأخرى كلها للمهاجرين في بداية الهجرة مثل ما كانت تمثله المناطق المكتشفة في غرب الولايات المتحدة عند اكتشاف الثروات المعدنية . والفارق طبعا أن دول الخليج العربية ذات كيانات اجتماعية وسياسية . فقد توفرت فرص للعمل بشكل غير محدود للمهاجرين في كل درجات السلم المهني . بل أكثر من ذلك سيطر المهاجرون على النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها المواطنون بأسلوب بسيط تقليدي وطوروها لتتناسب مع كل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية لمجموع السكان من محليين ومهاجرين في الوقت الذي وقف فيه المواطنون عاجزين عن أخذ زمام المبادرة نظرا لعدم وجود الخبرة في التعامل مع التغيرات الجديدة وفي مقدمتها التعامل مع جنسيات متعددة وثقافات هائلة .

ولقد لعبت الجغرافيا دورا جذريا في هذه القضية فدول الخليج العربية بشكل عام تتميز ببيئة طبيعية بسيطة جدا ، اذ أنها تفتقر للتمايز الجغرافي فأرض دول الخليج والتي تؤدي الى ايجاد بنيات اجتماعية واقتصادية متباينة داخل الكيان

---

(٢٢) أحمد ابو حاكمة . تاريخ الكويت الحديث . ذات السلاسل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

(٢٣) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢٤) عبد الرسول الموسى ، « أثر التغيرات الجغرافية على التركيب الاجتماعي للسكان في الكويت » ، بحث غير منشور .

السياسي وصغر مساحة الدول والتركز السكاني والاقتصادي والسياسي في بقعة واحدة صغيرة أدى الى قيام ما يسمى بدول المدينة فكل دول الخليج العربية تتكون من مدينة واحدة . وهذه العوامل كلها أدت الى أن الهجرة عمت كل مناطق الدول ، وكان التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مجموع السكان في هذه الدول . فكل المواطنين يتعاملون مع الهجرة بكل سلبياتها وايجابياتها ولا يمكن لأي مجموعة سكانية عملية تفادي التعامل مع الهجرة .

هذا التكوين الفريد للعلاقات بين المواطنين والمهاجرين ، أدى الى سن تشريعات وأنظمة تبدو للمراقب البعيد عن حقائق الوضع تمييزا كبيرا بين المواطنين والمهاجرين . ومثال على ذلك العزلة في مناطق السكن وانشاء مناطق سكنية للمواطنين وأخرى للمهاجرين وسن قوانين تمنع سكن المهاجرين في المناطق السكنية النموذجية وذلك بمنع التملك وقيد الايجار كما وحددت كثافة البناء وصممت الوحدات السكنية حسما لمشاكل تماثل الكثافة السكانية وأصبحت هناك تفرقة في الاجور .

ان منطلق التعامل مع الهجرة في دول الخليج العربية هو أن المهاجرين يشكلون الأغلبية في هذه الدول وفي بعضها مثل قطر والامارات المتحدة وصلت هذه الأغلبية الى نسبة عالية جدا (٨٠٪) وهذا المنطلق يدعو الى معالجة دقيقة وحذرة للهجرة . لقد تشابكت قضية الهجرة في هذه الدول مع القضية الأساسية لهذه الدول وهي الارتباط المعقد بين النفط وبين البنية الاقتصادية . (جدول رقم ٢) .

لقد واجهت الهجرة موقفا يتصف بالخصوصية . فقد كان المفترض أن الهجرة تبدأ في التضاؤل ثم تحدث الهجرة المعاكسة مع انتهاء المشاريع الأساسية الكبرى وبخاصة الهياكل الأساسية كرتيبة وبذلك تقل فرص العمل ومن ثم تتحرك الهجرة في خط معاكس أو خط العودة . ولكن ما حدث هو في غير صالح الهجرة وفي غير صالح هذه البلدان في نفس الوقت .

وتتأثر الدول المرسلة للمهاجرين بالهجرة المعاكسة اذا كانت في خط العودة . وهذا التأثر يصيب كثيرا من المجالات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية ، ولذلك فهذه الدول ، تحاول جاهدة أن تأخذ في الحسبان عودة مواطنيها ، سواء في مجال الاسكان ، أو في توفير فرص العمل ، ولكن الذي حدث في حالة دول الخليج العربية هو أن الذي حدث على المستوى الاقتصادي كان بعيدا عن التوقعات فدول الخليج العربية تعتمد في دخولها على عوائد النفط بنسبة كبيرة جدا . وكان القلق على المستوى الرسمي والشعبي هو نضوب النفط أو اكتشاف مصدر بديل للطاقة . ولكن ما تعرضت له هذه الدول في مجالين الأول هو التوقيت ، فقد كان في فترة مبكرة جدا بعيدا عن التوقعات . والثاني في الانخفاض الحاد في سعر النفط والذي انخفض من ٣٦ دولار الى ما يقارب ١٠ دولارات . وما حدث أثر على طرفي خط الهجرة للدول الخليجية المستقبلة للمهاجرين والدول المصدرة لها . فالدول المصدرة للعمالة تعتمد في جزء من دخولها على التحويلات النقدية لمواطنيها في دول المهجر .

وقد تأثرت دخول هذه الدول بشكل بارز فأدى الى تخفيض ميزانياتها وهذا التخفيض أثر على باب الأجور في الميزانية وبالتالي بدأت هذه الدول في تخفيض العاملين في الأجهزة الحكومية وغير الحكومية اضافة الى الركود الاقتصادي الذي أثر على العمالة بشكل عام . وحدوث مثل هذا الوضع وسط أزمة اقتصادية عالية أدى الى أن يعيش المهاجرون في قلق حاد وخط العودة أو التحرك المعاكس يواجه مشاكل لأن عامل الطرد يواجهونه في بلدان الخليج العربي نتيجة

للظروف التي شرحناها لا يقابله عوامل جذب لا في البلد الأم ولا في بلدان هجرة أخرى . وهذه قضية الهجرة في دول الخليج العربية والتي تحتاج الى دراسات وبحوث تعطي للهجرة الى هذه الدول خصوصية في الابعاد والمضمون .

ان الهجرة المعاكسة التي بدأت ملامحها تتشكل جاءت نتيجة عامل اقتصادي مفاجىء وهو الانخفاض الحاد في أسعار البترول في السوق العالمية وقلة الطلب عليه وتخفيض انتاج البترول كل هذه العوامل جاءت بدون تخطيط مسبق لمواجهتها وهذه النتيجة لم تكن مفاجئة في حد ذاتها وانما توقيتها جاء مفاجأة وبدون أن تكون هناك أية ترتيبات تخطيطية ففي الكويت وهي من الدول الخليجية القليلة التي تنتهج أسلوب التخطيط تعد أول من تبنى مبدأ الخطط الخمسية والخطط الهيكلية القومية مع كل ما توجه اليها من انتقادات لهذه الخطط . فالكويت بهذا الوضع المتقدم نسبيا بين دول الخليج العربية صممت قبل شهور قليلة من الانهيار الفاجىء لأسعار النفط والتقيد الحاد في سوق الخطة الخمسية الثالثة . كانت الخطة تحمل أحد أهدافها الرئيسية وهو هدف الوصول الى التوازن السكاني بين المواطنين والوافدين . وقد واجهت الخطة انتقادات كثيرة أهمها ما ينصب على صعوبة تنفيذ الهدف مع وجود المعضلة الكبرى التي تتمثل بوجود أقلية حادة في العمالة الكويتية وهي نسبة تصل الى ٢٠٪ من جملة العمالة في البلاد عام ١٩٨٥ .

فكانت المفاجأة بعد شهور قليلة أن اضطرت الدولة دون الالتفات الى محددات هذه الخطة الى تخفيض الميزانية بحدود ١٠٪ وكان معظم التخفيض يتركز على اخراج نسبة من العمالة من القطاع الحكومي وقد سبقتها مؤسسات القطاع الخاص بعمليات واسعة في الاستغناء عن عمالتها غير الكويتية .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن قضية المردود الثاني أصبحت مسألة عامة في المنطقة (الدول العربية اضافة الى ايران والهند وباكستان وبنغلاديش) ففي حالة القطاع الخاص عندما أعطى العاملون خيارا بين البقاء مع تخفيض أجورهم أو ترك العمل وهذا يعني وحسب قانون الاقامة مغادرة البلاد فقد اختارت الغالبية منهم الخيار الأول* .

وقد صاحب هذه الأزمة الاقتصادية انخفاضا في تدفق العمالة المهاجرة ففي الكويت كان انخفاض في اصدار رخص العمل في الفترة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤ بحوالي ٢٩,٨٪ وكان الانخفاض هذا قد بدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ ، وبلغ هذا التغير السلبي في اصدار رخص العمل أوجه في عام ١٩٨٤ ، فكان تغيرا حادا وصل الى ٥٤,٢٪ في اصدار الرخص الجديدة . ولم يقتصر الأمر على انخفاض عدد القادمين الجدد وانما في ترك العمالة المهاجرة للعمل في الكويت ، فقد ازداد عدد الرخص الملغية من ٣,٣٤٨ رخصة عام ١٩٧٧ الى ٥٤,٥٦٧ رخصة ملغية عام ١٩٨٤ .(٢٤)

ان الوضع المفاجىء يدل على أن حدوث هجرة معاكسة يحدث خللا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . ويأخذ هذا بعدا أعمق عندما يحدث هذا في بلدان تعتمد فيه المشاريع على السكان المهاجرين وتشكل القوة الشرائية وزنا ملحوظا في القوة الشرائية العامة .

---

* استطلاع قام به الباحث عن طريق زيارة بعض الشركات والمؤسسات .

(٢٤) Seccombe, J. I., "Economic Recession and International Labour Migration", The Arab Gulf Journal, Vol. 6, No. 1 April 1986, P. 47.

في منطقة الخليج العربية تشكل الهجرة هما من هموم الدول فالمهاجرون يشكلون الأغلبية وأصبحوا محركا رئيسيا في تدوير العجلة الاقتصادية ان الجدول التالي يوضح لنا ذلك ، فالعمالة المهاجرة تشكل أغلبية الدول الخليجية . وهذا يجعل لهم دورا في ادارة العجلة الاقتصادية ومحركاتها . وتصل هذه النسبة أعلاها في دولة الامارات العربية المتحدة فتصل نسبة المهاجرين الى أكثر من ٧٥٪ وأدناها في سلطنة عمان وكانت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٢)

السكان في دول الخليج العربية وطنيون ومهاجرون

الدولة	السنة	اجمالي السكان	العدد	المهاجرون ٪ نسبة المهاجرين الى اجمالي السكان
الكويت *	١٩٨٥	١,٦٩٥,١٢٨	١٠١٥,٥٢٧	٦٠
البحرين	١٩٨١	٣٥٨,٨٥٧	١١٦,٢٦١	٣٢,٤
قطر	١٩٨٠	٢٦٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	٦٧,٣
الامارات العربية المتحدة	١٩٨٠	١,٠٤٣,٢٢٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٥,٠
سلطنة عمان	١٩٨٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	٣٠,٠
الاجمالي		٤,٢٥٧,٢١٠	٢,٣٥٦,٧٨٨	٥٤,٥

المصدر : حسن حماد ، الرصيد السكاني لدول الخليج العربية ، مركز الوثائق والدراسات الانسانية ، جامعة قطر ١٩٨٢ ، جدول رقم ٢٢ .

ان المهاجرين يمثلون تركيبة سكانية تعكس تماما اهداف الهجرة الى هذه المنطقة ولذلك فان نسبة المجموعة النشطة اقتصاديا عالية جدا بينهم كما ان هذه المجموعة تشكل الأغلبية بين القوى العاملة في الدول الخليجية والجدول رقم (٣) يوضح ذلك ويعطي صورة صادقة للبنية السكانية التي تعتبر شكلا لمضمون الهجرة .

ان دور العمالة المهاجرة لا يقتصر على الكم الاجمالي كما انها لا تقتصر ايضا على الكم الخاص في القطاعات الاقتصادية المختلفة وانما على مدى مساهمة هذه العمالة في النشاط الاقتصادي وايضا على دورها في القطاعات المهنية المختلفة التي تشكل دعامات وطيدة لواقع يقوم بعدم سهولة قيام المواطنين بدور رئيسي في هذه المحاولات في مستقبل قريب . كما يؤكد على الاوضاع الصعبة التي ستعيشها هذه الدول في حالة حدوث هجرة معاكسة على نطاق واسع . فالعمالة المهاجرة تساهم بدور رئيسي في كل قسم من اقسام النشاط الاقتصادي وبشكل اغلبية في قطاعات رئيسية وبشكل الحلية ـ ايضا ـ في المهن العالية المستوى . ويوضح لنا الجدول رقم (٤) هذا الدور كما ان الجدول رقم (٥) يوضح لنا اهمية دور العمالة المهاجرة في تقديم اداء عال المستوى في المهن العالية والتي تحتاج لها هذه الدول لمدة طويلة على اساس الواقع الحالي .

* المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الكويت .

ان دول الخليج العربية كانت تنظر بتفاؤل غريب ، رغم القلق الذي يسود عامة الناس فيها من جراء الاوضاع الاقتصادية ودور الهجرة ، هذه الدول كانت تنظر بتفاؤل على اساس التطور المستقبلي لدور النفط وبخاصة الاحتياطي منه دون التعمق في التعامل مع اللعبة السياسية والاقتصادية العالمية ، فكانت زيادة اسعار البترول القياسية في بداية السبعينات البساط السحري الذي علق في هذه الدول فوق واقع الحقيقة المرة التي واجهتها في بداية الثمانينات . ان هذا قد ارتبط بالهجرة وباستمراريتها وتزايدها ولذلك نجد مثلا ان عدد المهاجرين مثلا [٢٦] في الكويت ازداد ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ بحوالي ١٣١٤٨٣ نسمة اي بمعدل نمو سنوي يعادل ٩,٥٪ وبين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، ازداد عدد السكان المهاجرين في الكويت بحوالي ١٩١,١٣ نسمة اي بمعدل نمو سنوي يعادل ٨,٧٪ فبعد الزيادة الكبيرة في اسعار النفط في السبعينات ضخت اموال هائلة في السوق لتمويل المشاريع الكبرى مثل الطرق السريعة والجسور والمجمعات الكبيرة مما ادى الى الحاجة الهائلة للقوى العاملة الجديدة لقد دخلت عمالة مهاجرة في السوق الكويتية ما بين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ تقدر بحوالي ١٦٣٨٧٦ عاملا وكذلك دخل في السوق الكويتية حوالي ، ١٠٥٣٢٠ عاملا ما بين ١٩٨٠ - ١٩٨٥ وهذا يؤكد زيادة في اسعار البترول وازدياد عوائد البترول الكويتية .

في الكويت يعتمد المستثمر الكويتي على ما يضخه المهاجرون في السوق الكويتية والتي تقدر بحوالي ٤٨٥,٧٦٠,٠٠٠* .

ان هذا التعامل بين المهاجرين والاقتصاد الكويتي يجعل للمهاجرين دورا كبيرا كما يوضح لنا هذا دور الهجرة في البناء السكاني والاجتماعي .

جدول رقم (٣)

دور السكان النشيطين اقتصاديا في البناء السكاني في دول الخليج العربية (السنة) ١٩٨٠

الدولة	المواطنون (بالألف)			الوافدون (بالألف)			اجمالي السكان والعمالة (بالألف)		
	السكان	العمالة	٪	السكان	العمالة	٪	السكان	العمالة	٪
الكويت	٥٦٢	١٠٩,٢	١٩,٤	٧٩٣,٨	٣٧٨,٧	٤٧,٧	١,٣٥٥,٨	٤٨٧,٩	٣٦,٠
البحرين	٢٤٢,٦	٤٦,٨	١٩,٤	١١٦,٠	٧٠,٢	٦٠,٥	٣٥٨,٦	١١٧,٠	٣٢,٧
قطر	٨٥,٠	٢٠,٢	٢٢,٤	١٧٥,٠	٩٨,٨	٥٥,٣	٢٦٠,٠	١١٩,٠	٤٥,٠
الامارات العربية المتحدة	٢٢٩,٠	٧٧,١	٣٦,٤	٨١١,٠	٤٦٧,٢	٥٨,٢	١,٠٤٠,٠	٥٤٤,٣	٥٢,٩
سلطنة عمان	١٣٠,٠	١٢٦,٠	٢٠,١	٧٧٠,٠	١٤٧,١	٥٤,٤	٩٠٠,٠	٢٧٣,١	٣١,٨
الإجمالي	١,٧٤٨,٦	٣٧٩,٣	٢٠,٩	٢,١٦٥,٨	١,١٦٢,٠	٥٤,٣	٣,٩١٤,٤	١,٥٤١,٣	٤٠,١

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٣٥ .

(٢٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الكويت .

* يعتمد هذا الاستنتاج على نتائج أبحاث ميزانية الأسرة التي قامت بها وزارة التخطيط ١٩٧٩ والذي اعتمد على عينة بحجم ١٨١٣ اسرة غير كويتية ، حيث توصل البحث الى ان متوسط انفاق الاسرة غير الكويتية الشهري يصل الى حوالي ٣٦٨ دينار كويتي وقد كان عدد الاسر غير الكويتية حوالي ١١٠,٠٠٠ اسرة .

جدول رقم (٤)

مساهمة العمالة الوافدة في القطاعات الاقتصادية المختلفة في بعض دول الخليج العربية

القطاع	*الكويت ١٩٨٠	البحرين ١٩٧٦	الامارات ١٩٧٥	قطر ١٩٧٩
الزراعة والصيد	٥٧	٣٠,٢	٥٢,٩	٥٢,٩
التعدين	٦٤	—	٨٦,٤	٨٨,٧
الصناعة	٩٢,٣	٢٩,١	٩٠,٠	—
كهرباء ماء غاز	٧٤,٧	١٢,٥	٩٧,٥	—
البناء والتشييد	٩٨,٧	٤٨,٧	٩٠	٩٧,٥
التجارة	٩٢,٢	٣٨,١	٨٢,٢	٩٠,٠
نقل بحري ومواصلات	٧٤,٠	٣٦	٨٦,٥	٨٣,٠
خدمات	٦٦,٤	٣٦,٨	٧٢,٥	٧٥,١
الاجمالي	٧٨,٦	٣٧,٦	٨٦,٩	٨٣,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ١٤ .

* المجموعة الاحصائية السنوية ، ١٩٨٣ ، جدول ١٠٤

جدول رقم (٥)

العمالة المحلية والمهاجرة في الكويت والبحرين

موزعة حسب المستوى المهني

المستوى المهني	الكويت*		البحرين**		المجموع
	كويتي	مهاجر	بحريني	مهاجر	
وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في ميادين العلوم	١,٢	٤,٣	١٨,١	٨١,٩	٪١٠٠
وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في التجارة والاداب	٥,٩	٢,١	٤٦,٢	٥٣,٨	٪١٠٠
وظائف فنية تتطلب الدراسة الثانوية او التدريب الفني	١١,٨	١٢,١	٦٤,٥	٣٥,٥	٪١٠٠
عاملون مهرة والنصاف مهرة في الوظائف الادارية	٢٤,٥	١٨,١	٨٠,٢	١٩,٨	٪١٠٠
عاملون غير مهرة والنصاف مهرة في الوظائف اليدوية	١٢,٠	٢٩,٤	٦٠,٠	٤٠,٠	٪١٠٠
وظائف غير فنية	٤٤,٦	٣٤,٠	٥٧,٠	٤٣,٠	٪١٠٠
المجموع	١٠٠,٠	١٠٠,٠			

* نسبة كل مستوى الى الاجمالي .

** نسبة مساهمة العمالة المهاجرة والوطنية الى كل مستوى .

المصدر : اسحق القطب ، خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٨ جدول رقم ١٣

فالهجرة في الكويت كما هي الحال في دول الخليج العربية الأخرى هي حصيلة الحاجة الملحة للقوى العاملة لتقوم بدور اوجدته لهم مشاريع طموحة تعادل طموح شعوب هذه الدول في أن يستفيدوا من عوائد النفط في استثمار عددي تشابكت فيه مصالحهم مع مصالح المهاجرين ، فأصبحت الهجرة قضية عضوية في بنية هذه الدول اجتماعيا واقتصاديا ، سيكون فض هذا التشابك ليس بالامر الهين . وبخاصة وان قضية النفط في هذه الدول امتدت لتتعانق مع قضايا اقتصادية واجتماعية في الدول الام لهؤلاء المهاجرين حيث يستخلص الدكتور سعد الدين ابراهيم ان للبترول دورا سلبيا اكثر مما هو ايجابي على مستوى النسيج الاجتماعي والاقتصادي لمصر حيث يوجد لها اكثر من اربعة ملايين مهاجر اذا اخذنا بعين الاعتبار المهاجرين المصريين في العراق .[٢٧] ومع كل هذا التشابك فالهجرة الى دول الخليج

(٢٧) سعد الدين ابراهيم ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٥ ـ ١٥٠ .

العربية تتصف بانها هجرة محطات وليست مناطق استقرار او كما تسمى احيانا بلدان المهجر ولكنها تطول لبعض المجموعات وتقصر لاخرى . وبذلك فالمهاجرون في الكويت يطلق عليهم بالوافدين على اساس انهم وفدوا الى هذه الدول لفترة معينة يعودون بعدها الى اوطانهم او الى جهات اخرى ولذلك فان معظم هؤلاء المهاجرين لم يقطعوا علاقاتهم باوطانهم وتتمثل هذه العلاقة بالتحويلات النقدية والعينية التي يقوم بها المهاجرون ، كما ان مدخراتهم في بلدانهم واستثماراتهم تعد مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهناك مؤشرات على سلوكيات المهاجر لا الوافد مثل المطالبة المستمرة بازالة القوانين والانظمة التي تميز المواطنين عنهم . مثل الفوارق في الاجور ونظام التملك للعقار وحق الانخراط في المدارس والمعاهد والجامعات بشكل مفتوح والشكوى الدائمة من قانون الاقامة وقانون العمل .

فنظام التملك يضع قيودا صارمة على تملك المهاجر للعقار في هذه الدول كما ان قانون الاقامة يحتم وجود كفيل او ضامن من المواطنين للمهاجر وتجدد الاقامة بمدة اقصاها خمس سنوات تجدد بموافقة الكفيل وهذا يجعل العلاقة معقدة بين المهاجر وبين المواطن الى درجة ان الاقامة اصبحت مدفوعة بمبلغ يجدد هذا الدفع مع كل تجديد للاقامة مع عدم شرعية هذا التعامل .

كما ان قانون العمل لا يتيح للمهاجر العمل الا في ظل شراكة مع المواطن او في ظل ترخيص تجاري باسم المواطن اما اذا كان المهاجر يعمل بادارة حكومية فان عمله هو الضمان لحصوله على اقامة . يواجه المهاجر مشاكل عديدة في حالة رغبته التخلي عن عمله او في حالة استغناء الادارة عنه .

اما التعليم فان نسبة قليلة جدا من ابناء المهاجرين يستطيعون الانخراط في المدارس الحكومية كما ان هناك قانونا حدد تاريخا معينا لقدوم المهاجرين الى البلاد لا يحق له الحاق ابنائه في المدارس الحكومية .[٢٨] اذا قدم الى البلاد بعد هذا التاريخ .

اما الفوارق في الاجور فانها محل تذمر من قبل المهاجرين حيث انهم يختلفون عن المواطنين في عناصر معينة مثل علاوة طبيعة العمل وعلاوة الابناء .

ومع ان هذه المؤشرات تعد من العوامل التي تؤثر في استقرار المهاجرين بشكل عام والعمالة بشكل خاص [٢٩] الا ان هذه الظروف المحيطة بالمهاجرين الى دول الخليج العربية لم تؤثر في استمرارية الهجرة إلى دول الخليج العربية وفي نموها المضطرد ، وهذا يفسر لنا انه مع كل هذه الظروف ان دول الخليج العربية ما زالت تمثل منطقة جذب مقارنة بعوامل الطرد التي تتمثل في بلدانهم الام .

ان الجدول رقم (٦) يبين ان نمو المهاجرين تتطور باستمرار كذلك فان الزيادة الطبيعية للمهاجرين في دول الخليج العربية مؤشر عسلىطول فترة الاقامة .

---

(٢٨) Al-Moosa, A., and Melachlan, K. S., "Immigrant Labour in Kuwait, Croom Helm London, 1985.

(٢٩) Al-Moosa, A., 1986, Vol. 6.

جدول رقم (٦)

الدولـــة	١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ معدل النمو السنوي	١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ معدل النمو السنوي
الكويت	٥,٨	٨,٥
البحرين	٩,٠	١٢,٧
قطـر	٩,٩	٨,١
الامارات العربية المتحدة	٢٢,٨	١٠,٢
سلطنة عمان	٢٠,٩	٥,٩
المعدل الاجمالي	١٣,٠	٨,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ جدول ٢٤

وعلى كل فان مدة الاقامة نظرا للتركيبة التباينة للمهاجرين وعلى اساس الجنسية او المهنة او طبيعة العمل (كالخبراء مثلا) فان مدة الاقامة تختلف تبعا لهذه المجموعات ، فقد تبين من الدراسات والاحصاءات(٣٠) ان اقامة العمال المصريين غير المهرة والعمال من البلاد العربية الاخرى ليست طويلة وتتراوح بين سنة وثلاث سنوات فمتوسط مدة اقامة المهاجر العربي انما هي خمس سنوات كما ان متوسط اقامة المهاجر الاسيوي في قطاع البناء والتشييد قصيرة وترتبط بالمشروع حسب نظام عقود المقاولات الجديدة . وهذه الخصائص تحد كثيرا من قياس ومفهوم الهجرة المعاكسة الى دول الخليج العربية . فهذا الاختلاف في مدة الاقامة مع تطور نمو المهاجرين يعني ان هناك عملية احلال للمهاجرين وبخاصة في قطاع العمال غير المهرة وقطاع عمال البناء والتشييد وكذلك بالنسبة لقطاع المدرسين واساتذة الجامعة والمعاهد والذين يرتبط عملهم بعقود محددة بمدة معينة . ولذلك فالهجرة الى دول الخليج العربية تسير في طريق ذات عدة اتجاهات ويجب ان نوضح شيئا مهما في قضية الهجرة الى الدول الخليجية وهي التعامل مع مجموعة من المهاجرين بشكل منفرد وهي المجموعة الفلسطينية ، فالفلسطينيون في هذه الدول كما في دول اخرى لهم اوضاع خاصة بهم نظرا لقضيتهم السياسية وحالتهم الاستثنائية التي تميزهم عن غيرهم من المهاجرين بجميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية .

فالفلسطينيون يختلفون عن المهاجرين بمدة الاقامة ، وكذلك في خصائصهم الاجتماعية مثل متوسط حجم الاسرة والخصوبة والاعالة والزيادة الطبيعية . وتلعب الخصائص الاقتصادية مثل الانفاق والادخار والتحويلات النقدية دورا في الاختلاف بين المهاجرين ، ولذلك فان المهاجرين الى دول الخليج العربية يتميزون باتجاهات مختلفة بحسب المجموعات الجنسية وهذا من خصائص الهجرة بشكل عام . فكما هو معروف ان اسباب وعوامل الهجرة متعددة وكذلك سمات الهجرة تتعدد وملامحها تتمايز من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي ولكن الشيء الذي يميز الهجرة الى دول

(٣٠) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

الخليج العربية هو التعدد الهائل لجنسيات المهاجرين والذين يصلون مثلا في الكويت الى اكثر من مائة جنسية تتعدد مصادرها الجغرافية من المناطق الحدودية مثل العراق وايران والسعودية الى اقصى مناطق الارض مثل الفلبين واليابان والولايات المتحدة الامريكية ويتبع هذه التعددية في الجنسية تعددية في اللغات والثقافات والعادات والقيم ومستوى الانتاجية واتجاهات تطويرها .

اضافة الى التفوق العددي الاجمالي للمهاجرين على عدد السكان المحليين . وهذا بحد ذاته يشكل عاملا مهما في عملية التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مما يفرض على السكان المحليين ان يتعاملوا مع هذه التعددية الهائلة في كل العناصر التي ذكرناها . فالانسان عندما يسير في الشارع في هذه الدول ، يلاحظ بشكل واضح الاقلية في الزي الوطني واللهجة التي يسمعها . ويلفت نظره المحلات التي تعرض احدث المبتكرات وانواع البضاعة الجديدة قبل ان تصل الى بلدان اقرب لها جغرافيا كما يلاحظ المرء تغييرا سريعا في دول الخليج العربية ، من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة الى الازياء التي تعرض في ارقى عواصم العوالم .

اما من ناحية المواد الغذائية فان المحلات في دول الخليج العربية تقدم كل المواد الغذائية التي تخطر على بال الانسان .

كل هذا يجده المرء مرتبطا بالهجرة والنفط . فدول الخليج العربية لم تفتح ابوابها واسعة على العالم الخارجي الا منذ ما يقارب ثلاثين سنة بمقارنة عما قبله من حياة بسيطة تسيطر عليها تقاليد المجتمع المنغلق على نفسه والذي يعيش على بقعة صغيرة من الارض تعانق مياه خليج ضيق لا يشترك به مع دول اجنبية غير واحدة وهي ايران .

كذلك ادت هذه التعددية الهائلة في كل العناصر المذكورة الى بروز قضايا اجتماعية واقتصادية ، فهناك العزلة الاجتماعية بين السكان المحليين والمهاجرين [٣١] وعزلة اجتماعية بين المجموعات المختلفة للمهاجرين وقد ادت هذه التعددية في العناصر ايضا الى ممارسات سلبية في العمل يتميز بالتعامل المتأثر بالجنسية [٣٢] ففي مؤتمر صحفي لوزير الصحة الكويتي اشار الى ان الاطباء يعاملون المهاجرين من جنسيتهم معاملة خاصة وبذلك فقد برزت ظاهرة سلبية من ظواهر الهجرة وهي التميز الجنسي في التعامل واذا كانت هذه القضية قد طرحت عن طريق مسئول كبير في احدى دول الخليج العربية فلا يمكن ان نعتبرها قضية فردية او انها تقتصر على التعامل التميزي بين الاطباء فقط ، ان القضية التي يطرحها المهاجرون بشكل عام في دول الخليج العربية هي التعامل المميز للمواطنين والذي زاد من هوة العزلة الاجتماعية وحتى في ابسط قضايا التعامل مثل اخلاء مبنى استملكته الدولة ، فالجهات الرسمية تعطي المواطن مهلة ثلاثة شهور لاخلاء المبنى بينما المهاجر يحصل على مهلة شهر واحد فقط . وكذلك بالنسبة للحصول على اجازة قيادة سيارة فان هناك قيودا كثيرة على حصول المهاجر على هذه الاجازة بينما ليست كذلك بالنسبة للمواطن .

لذا فعملية الاستيعاب الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين في هذه الدول غير ممكنة نظرا للاسباب التي ذكرناها قبل قليل كما ان هناك عوامل اخرى تجعل من عملية الاستيعاب غير ممكنة ايضا نظرا لنفس الاسباب فمع ان الغالبية الكبرى من المهاجرين هم من العرب الا ان التأثير المباشر للمهاجرين الاجانب هو اكثر وضوحا فعندما نعرف ان

---

(٣١) فيصل السالم واحد الظاهر ، المسألة في دول الخليج العربية ، ذات السلاسل الكويت ، بدون تاريخ ، ص ١٢٨ .
(٣٢) في مقابلة صحفية لوزير الصحة الكويتي ، نشرت في الصحف المحلية .

متوسط عدد الخدم في الاسرة الكويتية هي ٢,٥ خادم(٣٣) واذا ما عرفنا ان الاغلبية المطلقة بين هؤلاء الخدم هم من غير العرب فلنا ان نعرف مدى التأثير الاجتماعي الذي يحدث للمجتمع المحلي وبخاصة على الاطفال ، فقد لاحظت دراسة عن المربيات في الكويت على الاطفال ان دور المربية دور سلبي في تأثيره على طريقة التعامل واللغة والعادات ، ويكفي ان نعرف ان المربية التي لا تتقن اللغة العربية وتحمل عادات وقيما وتقاليد تختلف تماما عن تلك التي تنتمي المجتمع المحلي . يكفي ان نعرف انها تطعم الطفل وتنام معه وتحتضنه طوال الوقت لتعرف عمق المشكلة . اذا فخصائص الهجرة الى هذه الدول لا تسمح الا لتذويب الملامح المختلفة للمجتمع المحلي وايجاد خليط من الملامح من الصعب اعطاء مجموعة من المهاجرين دورا رئيسا فيها واذا جاز لنا ان نقول هذا فانه في ضوء جغرافية الكويت الطبيعية فانها لا تسمح بتشكيل منفرد لشخصية مجتمع (القليمي) ولنا ان يترك للمستقبل ان يقرر على ضوء المعطيات التي سوف يترسخ في رسم الشخصية المستقبلة لهذا المجتمع . وهذا يعتمد على مدى استمرارية الهجرة وقوة الدفع فيها وخصائصها التي ذكرناها . واذا كانت للقوانين المختلفة ، مثل قانون الجنسية وقانون التملك وقانون الانتخابات النيابية وقانون الانتخابات للمؤسسات الاخرى ، ان القدرة على حفظ الهوية القومية للمجتمع المحلي ، فان احتكاك مجموعات متعددة من المهاجرين مع المجموعة المحلية في مجالات متعددة اضافة الى التعامل اليومي المستمر لا يمكن الا ان يحدث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في كل المجموعات المختلفة . وفي النهاية لنا ان نذكر عاملا آخر في موضوع الهجرة الى دول الخليج العربية وهو ان ما يثار في الادبيات التي تتعلق بالتنمية وهو موضوع الساعة في الربع الاخير من القرن العشرين . وهو التركيز على قضية التنمية الذاتية ، اي التنمية التي تعتمد على القدرات الذاتية للمجتمع والدولة . ولقد اثار المعهد العربي للتخطيط في الكويت هذا الموضوع في موسمه الثقافي ٨٥/١٩٨٦ عندما خصصه لندوة عن التنمية العربية المعتمدة على الذات والتي اكد فيها الباحثون في هذه الندوة على هدف واحد وهو ان التنمية المعتمدة على الذات هي الطريق المأمون للوصول الى تنمية قادرة على الاستمرار بعيدة عن الهزات والتي تأتي في مقدمتها استقرار العمالة وتفاعلها في عملية التنمية .

ودول الخليج العربية تواجه هذا المأزق الذي يتمثل في ان المتوسط (٦٠٪) من قواها العاملة والتي تتحمل عبء عملية التنمية هي من غير المواطنين . وان الاهمية في عملية التنمية تكمن في استمرارية عناصر التنمية وتطويرها المستمر ورفع اداء العاملين فيها والتطوير المستمر للانتاجية ، وهذا مما لا يتوفر في هذه الدول ففي خضم عملية التقشف التي تمر بها دول الخليج العربية نتيجة للانخفاض الحاد في اسعار النفط والذي تبعه انخفاض حاد في عوائده وبالتالي ايضا في مداخيل هذه الدول وقد انهيت اعمال مجموعة من العاملين في اجهزة الدول من المهاجرين الذين امضوا مدة طويلة ، وبالتالي فان قضية الاستمرارية والاستفادة من تطوير الاداء لهذه العمالة غير ممكن في ضوء الهزات التي يتعرض لها سوق العمل في دول الخليج العربية .

والخلاصة في هذا القول ان الهجرة الى دول الخليج العربية تتميز عن غيرها من الهجرات بانها وفي ظل الظروف التي ذكرناها تشكل عمودا رئيسيا في عملية البناء الاقتصادي ، وفي استمرارية هذا البناء في مستوى يحفظ لهذه الدول مستوى مستقرا واضعاف قوى الارتباط بينه وبين النفط وعوائده المتراس للمهاجرين .

---

(٣٣) من دراسة قامت بها وزارة التخطيط سنة ١٩٨٣ .

. كما ان الهجرة الى هذه الدول بزخمها وحجمها اشتركت مع المجتمع المحلي في عملية النسيج الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول ولذلك فان قضية الهجرة الى هذه الدول اضافة الى اهميته وجاذبيته للباحث فانه معقد وخطير لهذا المجتمع الصغير .

دول المغرب العربي :

دول المغرب العربي تمثل حالة نقيضة لحالة الدول العربية الخليجية فقد اوضحت الدراسة ان دول الخليج العربية تمثل دولا مستقبلة للهجرة دولا فتحت ابوابها لهجرة معقدة دولا تمثل محطة استقبال للمهاجرين ، سنرى في هذه الدراسة ان دول المغرب العربي تمثل محطة ارسال للمهاجرين فهاتان المنطقتان العربيتان تلعبان في الهجرة دورا كدورهما في الجغرافيا فدول الخليج العربية تقع في اقصى جنوب غرب الوطن العربي تطل على خليج ضيق يتصف بقسوة البيئة الطبيعية ، قست عليها البيئة الطبيعية في المناخ والسطح والجيولوجيا ، فكانت فقيرة في السكان ، فقيرة في الموارد الطبيعية في باطن الارض عدا النفط الذي اعلن عن مولده متأخرا - اي في نهاية الثلاثينات - فقيرة ايضا في عطائها النباتي واخيرا فقيرة في مواردها المائية الساقطة والجارية والمخزنة .

اما دول المغرب العربي فهي تقع في اقليم مناخي معتدل وهو مناخ البحر المتوسط تطل على بحر يجمع حضارات وثقافات واقتصاديات غنية مختلفة تتمتع نسبة الى دول الخليج العربية بغطاء نباتي غني وتستقبل امطارا غزيرة تحفظ اخضرار الارض وتحتضن عددا من السكان قاموا بدور اقتصادي نشط على اراضيها او عبر حدودها وتحتفظ هذه الارض في باطنها بمصادر اقتصادية تعتمد اقتصاديات هذه الدول كالفوسفات في المملكة المغربية والفحم والحديد والنفط في الجزائر .

الا ان كل ما قلناه عن المغرب العربي يدخل في العموميات فليس المجال متاحا للدخول بشكل مفصل في جغرافية هذه المنطقة . ويمكن القول ان فترة الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها هذه الدول تسببت بشكل رئيسي في تنمية هذه الدول وتطوير مواردها وتأهيل قواها الاقتصادية والبشرية . فتوجيه اقتصاديات هذه الدول لخدمة الدول المستعمرة ادى الى سيطرة قطاع الزراعة على بقية القطاعات وتطورت العلاقة الاستعمارية لتصبح على محطي الخط في كلتا الحالتين لمصلحة الدول المستعمرة فالدول المستعمرة وفي مقدمتها فرنسا التي احتلت الجزائر مائة وثلاثين سنة ، استغلت الموارد البشرية لدول المغرب العربي على ارضها ومن هنا اصبحت هناك قضية بين دول المغرب العربي والدول الاوروبية الاستعمارية مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا حتى بعد الاستقلال وهي قضية الهجرة ، فقضية الهجرة في دول المغرب العربي ارتبطت بعامل جغرافي هو عامل تاريخي ، وهنا تبرز لنا المقولة التي تثير دائما الجدل بين الجغرافيين وطلاب التاريخ حيث للجغرافيين دائما مقولة مفادها ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فعلاقة المغرب العربي بدول جنوب اوروبا علاقة جغرافية وهي التي ادت الى احتلال واستعمار بعض الدول الاوروبية لدول المغرب العربي الى درجة ان فرنسا كانت تعتبر الجزائر جزءا منها ولم تتخلص من ذلك الا بثورة مسلحة شعبية استمرت سبع سنوات .

وهجرة سكان المغرب العربي الى اوروبا هي هجرة وراء فرص العمل بعد ان دفعتهم سيطرة الاوروبيين على الاراضي الخصبة الى الهجرة والى المناطق الفقيرة او الصحراوية وبالتالي بدأوا يبحثون عن الرزق خارج حدود ارضهم ونظرا لطبيعة العلاقة السياسية والاقتصادية مع اوروبا كدول مستعمرة تمكن هؤلاء المهاجرون من الاختلاط بهم واتقان

اللغات الاوروبية . وقد دخلت عوامل متعددة في عمل المغاربة في اوروبا قبل قيام الحرب العالمية الاولى والثانية واهم هذه العوامل حاجة هذه الدول للعمل في سد احتياجات الحرب[٣٤] في عام ١٩٨٠ كان عدد العمال من المغرب العربي (تونس ـ الجزائر ـ المملكة المغربية) يقدر بحوالي مليون عامل بينهم ٩١٠,٠٠٠ في فرنسا . ويقدر عدد المهاجرين من المغرب العربي في فرنسا مليون وخمسمائة الف نسمة (جدول رقم ٧) .

جدول رقم (٧)

المهاجرون من المغرب العربي في اوروبا عام ١٩٨٠

	مجموع العمال في اوروبا	مجموع العمال في فرنسا	جملة المهاجرين في فرنسا
الجزائريون	٦٩٠,٠٠٠	٦٨٠,٠٠٠	١,٠١٥,٠٠٠
التونسيون	٢٣٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
المملكة المغربية	٩٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٢٠٥,٠٠٠
جملة	١,٠١٠,٠٠٠	٩١٠,٠٠٠	١,٥٢٠,٠٠٠

المصدر : Lawless, r., 1982, table no. 1

ويشكل مهاجرو المغرب العربي ٩٨٪ من جملة المهاجرين العرب في فرنسا وخارج فرنسا كما يوجد حوالي ٨٠,٠٠٠ مغربي في بلجيكا و ٥٠,٠٠٠ مغربي ايضا في اسبانيا .

ان الذي يهمنا في دراستنا هذه عن المغرب هو الهجرة المعاكسة اي عودة ابناء المغرب الى الدول الثلاث التي ذكرناها الى وطنهم وتشكل هذه الهجرة المعاكسة هما من هموم دول المغرب العربي على اساس ان هؤلاء المهاجرين كانوا يساهمون في نمو بلادهم في الدخل القومي ، واهم من هذا هو الحد من البطالة التي تعانيها هذه الدول والتي تحاول جاهدة خلق فرص عمل وسط صعوبات اقتصادية وان اكثر الدول معاناة من هذه القضية هي تونس حتى ان قضية الهجرة فيها تدخل ضمن اهتمامات الخطط الانمائية فمثلا في الخطة الخمسية الانمائية الرابعة ، تضمنت الخطة تشجيع الهجرة الى الخارج ، ويقدر عدد المهاجرين في هذا المشروع بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر ، وقد انشئت وكالة تونسية لتنظيم هجرة هؤلاء العمال وايجاد فرص عمل لهم قبل مغادرتهم[٣٥] . وقد قدر عدد الذين عادوا والمقدر عودتهم حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة . لقد تزامنت عدة عوامل للعمل معا على خلق مشكلة الهجرة المعاكسة ، فهناك الازمة الاقتصادية التي تواجه العالم ومنها اوروبا والتي اضطرتها الى تقليص عدد العمال وبخاصة في القطاعات المتقدمة في السلم المهني والتي يتركز فيها العمال المغاربة كما ان دخول اسبانيا والبرتغال السوق الاوروبية المشتركة احدث توجها عند الاوروبيين بتشغيل عمالتها الاوروبية قبل كل شيء . كما ان قبول العمال المغاربة بأجور متدنية عن تلك التي تقبل بها الاوروبيون ادى الى قلاقل ومشاكل بين العمال المغاربة والاوروبيين .

(٣٤) Lawless, R. and others "Return Migration to the Maghreb : People and Policies", Arab Research Centre, London, Paper No. 10, 1982, P. O.

(٣٥) Ibid, 1982, P. 13.

وقد يعزى وقف الهجرة المغربية الى اوروبا ، وخاصة فرنسا ، بل والمطالبة بعودة المهاجرين الى زيادة اسعار البترول في منتصف السبعينات ، هذه الزيادة اثرت على الاقتصاد الاوروبي وعلى فرص العمل وادت الى خروج عدد من المؤسسات الاقتصادية من السوق وزادت البطالة في اوروبا[٣٦] . وقد اتخذت فرنسا قرارا بوقف الهجرة عام ١٩٧٤م . ولذلك تأثرت الهجرة المغربية وبدأت تظهر مجموعة من المشاكل .

ولقد تعرضت العمالة المهاجرة المغربية للبطالة ، فقد تعرض ١٤٪ من العمالة المهاجرة للبطالة في حين كانت النسبة التي تعرضت للبطالة بين الفرنسيين ٤ ، ٨٪ وكانت العمالة الجزائرية من بين العمالة الاجنبية التي تعرضت بشدة للبطالة حيث تعرض ٩ ، ٢١٪ من عمالتها للبطالة[٣٧] .

كل هذا ادى الى اثارة مشكلة المهاجرين المغاربة وبرزت مشكلة الهجرة المعاكسة والتي كانت اول خطوة قامت بها الجزائر هي وقف الهجرة من الجزائر الى اوروبا . وقررت الجزائر منذ ذلك الحين البدء في خطة لاستيعاب المهاجرين الجزائريين في المجتمع الام . واشراكهم في ادارة العجلة الاقتصادية في الجزائر ، ومع كل المحاولات في معالجة هذا الامر عن طريق عقد اتفاقيات بين الجزائر وفرنسا لتنظيم عملية الهجرة الا ان عملية الهجرة المعاكسة اصبحت مستمرة بعد ان صدرت قوانين وانظمة في فرنسا تحد كثيرا من ميزات كان يستفيد منها المهاجر الجزائري . لقد كانت الحملة الموجهة ضد المهاجرين الجزائريين او المغاربة بشكل عام ذات شقين ، الشق الاول هو تضييق الخناق على المهاجرين المغاربة والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة والتي كان يرفضها الاوروبيون . ان كل المؤشرات تؤكد على تصميم الدول الاوروبية على وقف الهجرة اليها ونعرض هنا بعض قوانين الاقامة في فرنسا[٣٨] ففي هذه القوانين شروط تقضي بالطرد الفوري للاجنبي في الحالات التالية :ـ

١ ـ عندما يهدد وجوده الامن العام والمالية العمومية .

٢ ـ عندما يحمل بطاقة اقامة مزورة او مزيفة او مشوهة او موضوعة باسم آخر غير اسمه ، او يمكث داخل البلاد بعد رفض السلطات المسئولة تجديد اقامته ، ويشمل مشاريع القوانين هذه تجديد بطاقات العمل للمقيمين بصفة عادية وذلك بعد اجراء اختيار شخصي على ضوء حالته الفردية والتوزيع الجغرافي للمهاجرين والذي يتحدد سنويا تبعا للوضع الاستخدام واخيرا هناك حالتان تستوجبان سحب رخصة العمل من العامل المهاجر ، وهما :

١ ـ عندما يكون الاجنبي عاطلا عن العمل لفترة تزيد عن ستة اشهر .

٢ ـ عندما يلغي عقد عمله بسبب رجوعه متأخرا من اجازته

(٣٦) Ibid. 1982, P. 17.
(٣٧) Serageldin, I., and others, "some issues related to Labour Migration in the Middle East and North Africa", The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, P. 615
(٣٨) Merod, weekly Magazine, London, February 1986, P. 10.

بل اكثر من ذلك فقد قامت فرنسا بتقديم مشاريع لمساعدة المهاجرين على العودة لاوطانهم وعرضتهم للبطالة حتى يتاح لها فرص تطبيق القوانين الجديدة .

ان هذه الاجراءات وهذا الدافع لهجرة معاكسة عرض دول المغرب العربي لمشكلات اقتصادية في الوقت الذي تعاني من ازدياد البطالة وانخفاض فرص العمل . ان معظم المهاجرين من دول المغرب العربي الى اوروبا والذين غادروا اوروبا او يخططون لذلك يتجهون الى بلدهم الام وليس الى جهة اخرى . وهذا ما يزيد المشكلة تعقيدا بالنسبة لدول المغرب العربية .

تتصف العمالة المغربية في فرنسا بانها تتكون غالبا من العمالة المتدنية (اي العمالة العادية) فهي تشكل طبقتي العمالة المهاجرة وغير المهاجرة . بالنسبة للجزائريين فهي تشكل ٧٣٪ وبين المغاربة حوالي ٧٠٪ وبين التونسيين تشكل ٦٨٪ والعمالة المغربية تعمل في الغالب في قطاع البناء والتشييد والصناعات الثقيلة . اما في قطاع الزراعة فهم يشكلون نسبة قليلة جدا بين العمالة المغربية ككل ، وقد كانت نسبة التونسيين العاملين بالزراعة ٣٠٪ والمغاربة ١٣٪ وهي أعلاها اما نسبة الجزائريين فتشكل اقل نسبة وهي ١٪[٣٩]

ويشكل مهاجروا المملكة المغربية العمالة الاقل مهارة بعضها مهاجروا دول المغرب العربي وهؤلاء يمارسون مهنا تعتبر من ادنى السلم المهني . ويعتبرون اقل عددا من مهاجري تونس والجزائر وبذلك فهم لا يشكلون مشكلة بارزة كما في حالة الدولتين المغربيتين الاخريين . اذا فالهجرة لدول المغرب العربي المعاكسة من اوروبا حدثت وكأنها هجرة قسرية او على الاقل تحكمت فيها عوامل الطرد . وليس لعوامل الجذب اي دور فالصراع بين العمالة الاوروبية والمغربية وصل الى حد استخدام العنف ضد المغاربة واصبح المهاجرون المغاربة غير مرغوب فيهم وتزامن هذا العامل مع تشريع قوانين تحد من الهجرة المغربية بل انها تعمل على التخلص منها .

ان عدد التونسيين في فرنسا ـ هو كما قلنا في البداية ـ اقل من المهاجرين الجزائريين ، فقد قدر عدد التونسيين المهاجرين الى فرنسا بحوالي ٥٢,٠٠٠ الف عام ١٩٦٥ وقد ارتفع عددهم الى ٩٧,٠٠٠ الف عام ١٩٧٠ واستمروا في التزايد الى ان وصل عددهم الى ١٧٤,٠٠٠ الف مهاجر عام ١٩٧٥ ثم بلغ عددهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ الف عام ١٩٧٩ . هذا التزايد لا يعزى الى تزايد حركة الهجرة من تونس الى فرنسا فقط وانما يعزى ايضا الى زيادة طبيعية وانضمام الاسر الى عائلها من جهة اخرى ويختلف المهاجرون التونسيون عن باقي مهاجري دول المغرب العربي بان بقاءهم في بلد المهجر لا تستمر مدته طويلا وقد قدر متوسط البقاء ما بين ٣ ـ ٤ سنوات . وفي دراسة عن المهاجرين التونسيين ابدى ٧٧٪ منهم عدم عزمهم على البقاء بشكل دائم في فرنسا[٤٠]

---

(٣٩) منظمة العمل العربية ـ مكتب العمل العربي ، ١٩٨٠ ، ص٨ .

(٤٠) Mead, 1986, P. 10.

وقد تبين ان السبب في ذلك يعود الى بساطة الاهداف التي يريد ان يحققها المهاجر التونسي مثل بناء بيت او تأسيس عمل خاص في بلده . ومع ذلك فان الحكومة التونسية تتخذ اجراءات من شأنها تخيير مواطنيها في البقاء مدة اطول في بلد المهجر ويتمثل هذا في القانون الذي صدر عام ١٩٨٠ والذي يسمح للمهاجر التونسي باستيراد بضائع معينة مثل السيارات والثلاجات وغيرها بشرط ان يمضي اكثر من سنتين في بلد المهجر كما ان الدولة تساعده في الحصول على مسكن في نفس الشروط . ولقد قدر حجم الهجرة العاكسة بحوالي ١٪ سنويا من مجموع المهاجرين في فترة معينة وتتمثل هذه النسبة بحوالي ٣٫٠٠٠ الى ٤٫٠٠٠ آلاف عائد سنوي . الا ان الهجرة التونسية على تواضع حجمها واجهت مشكلات لم تواجهها بقية الهجرات في دول المغرب العربي ، فبالاضافة الى مواجهته بشكل مشترك مع المهاجرين الجزائريين لمضايقات واجراءات رسمية من قبل السلطات الفرنسية دعمتهم للعودة الى بلدهم . تقول ان الهجرة التونسية واجهت مشكلة العودة القوية من ليبيا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٦ . وقد عانت تونس من العودة الجماعية او ربما يسمى بالهجرة العاكسة ، اجتماعيا واقتصاديا فقد واجهت مشكلة ايجاد فرص عمل هؤلاء العائدين وكذلك مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى .

اما في الجزائر فقد بدأت الهجرة العاكسة عشية استقلال الجزائر ، وقد عالجت معاهدة الاستقلال والتي سميت باتفاقية ايفيان مشكلة الهجرة الجزائرية في فرنسا ولذلك فقد كانت من ضمن اولويات السياسة الداخلية للجزائر المستقلة مواجهة عودة الجزائريين . ان الجزائر وهي التي كانت تجمع شتات نفسها بعد معركة الاستقلال وبعد ان ترك الفرنسيون الاراضي الزراعية والمصانع بدون خطوات تمهيدية مع الوطنية الجزائرية في اهم تركزا الاقتصاد الجزائري في موقف حرج ففي هذا الوقت واجهت الجزائر مشكلات معقدة نتيجة للهجرة العاكسة ومن هذه المشكلات ان الصناعة الوطنية كانت في مراحلها الاولية ولذلك فان عودة عمالة جزائرية مدربة تدريبا عاليا في مجالات صناعية رفيعة المستوى بالنسبة للصناعة الوليدة بل اصبحت مشكلة بحد ذاتها اضافة الى مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى والبطالة . ولكن القضية بالنسبة للجزائريين كانت ذات بعدين ، البعد الاول وطني على اساس اهمية استعادة الجزائر لكفاءة ابنائها في الخارج وكذلك حفاظا على كرامة مواطنيها الذين يتعرضون لمعاملة سيئة والبعد الثاني يتمثل في اتجاه فرنسا وبقية اوروبا للتخلص من المهاجرين الجزائريين . فبالاضافة الى الاجراءات القسرية كانت هناك اتفاقات مع فرنسا تحتم عودة الجزائريين وذلك عن طريق تقديم من فرنسا للمساعدات المالية للعائدين وهذا وقد حددت مدة تلك الاتفاقات بثلاث سنوات انتهت عام ١٩٨٣[٤١] وكان هدف الاتفاقية هو عودة ٣٥٫٠٠٠ الف مهاجر جزائري سنويا ولكن ما تحقق بالعمل هو اقل من ذلك فقد انخفض العدد الى حوالي ٢٠٫٠٠٠ الف بمن فيهم من عاد خارج اطار الاتفاقية .

ان معاناة المهاجرين الجزائريين ربما تكون اقصى من تلك المتعلقة بالمهاجرين من بقية دول المغرب العربي . فالمهاجرون الجزائريون امضوا فترة طويلة في فرنسا وتكونت اسر بالكامل عن طريق الزيادة الطبيعية وترعرع الجزائريون هناك منذ ولادتهم وقد ادى هذا الى مشاكل اجتماعية تتمثل بصعوبة التكيف مع الحياة الاجتماعية في الجزائر وطول مدة

---

(٤١) Lawless, R., and others, 1982, P. 22.

عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي اضافة الى المشاكل الاقتصادية الاخرى مثل العمل والانفاق والادخار . ومع ذلك فان اجراءات معينة اتخذت في الجزائر حيال المهاجرين تتراوح بين التحفيز مثل تسهيل الاستيراد لبعض البضائع وتوفير السكن وفرص العمل للمهاجر العائد الذي امضى ثلاث سنوات في فرنسا وبين فرض ضريبة على الدخل في اوروبا وايتوفيرها في المصارف الجزائرية .

اما في حالة المملكة المغربية فان الهجرة لها ميزات تختلف بعض الشيء عن هجرة التونسيين والجزائريين واول ما تتميز به الهجرة المغربية هي انها في الغالب هجرة في اتجاه واحد لفترة طويلة فمعظم المهاجرين من المغرب يعودون بعد ان يصلوا سن التقاعد(٤٢) وما يميزها ايضا انه لا توجد خطط او برامج حكومية تتعلق بعودة مهاجريها من اوروبا ولذلك فليست هناك اجراءات لتحفيز المهاجرين للعودة واقامة مشاريع لاستيعابهم في مجتمع الام والامر الثالث الذي يميز الهجرة المغربية انها تمارس هجرة موسمية في اوروبا للعمل في النشاط الزراعي ويقضي هؤلاء المهاجرون كل سنة فترة تقل قليلا عن ثلاثة اشهر وهي الفترة التي يسمح بها للسائح في اوروبا ويتراوح عدد المهاجرين الموسميين بين ٥,٠٠٠ آلاف و ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ وعلى العموم يقدر عدد المهاجرين من المغرب الى اوروبا بحوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألف في فرنسا وحدها وقد ارتفع عدد المهاجرين من المغرب من ١٤٢,٠٠٠ ألف الى ١٥٢,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٧ وعن الهجرة المعاكسة من المهاجرين من المغرب قلنا منذ البداية انها ضعيفة ويعود ذلك الى تدني دخول المغاربة في المهجرة بسبب ممارستهم لمهن متدنية وهذا لا يساعدهم على تحقيق اهدافهم التي هاجروا من اجلها ومع ان المهاجرين من المغرب لا يفكرون في البقاء بشكل دائم بالمهجر الا ان اقامتهم تطول هناك(٤٣) لعدة سنوات وليس هنا احصاءات عن عدد العائدين من المهجر الى وطنهم ويذكر Lawles(٤٤) ان هناك تعتيم على هذه المعلومات الا انه يقول في مكان آخر انه ربما يكون عدد العائدين سنويا حوالي ١٠,٠٠٠ آلاف مهاجر . ويعتمد المغرب على عوائد المهاجرين ومدخراتهم في اقتصاده الوطني وقد قدرت قيمة التحويلات بحوالي ٤٢٨ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٩ الا ان هذه التحويلات لا تستخدم في تمويل الاستثمارات في الانشطة الانتاجية مع عدم اغفال اهمية التحويلات على المستوى القومي والفردي كذلك وعلى العموم فان المغرب لا يستفيد من خبرة مهاجريه وما اكتسبوه من تدريب لان معظم العائدين كما قلنا يعودون وهم في سن التقاعد .

ان المهاجرين المغاربة في اوروبا يمثلون بلا شك مجموعة سكانية تختلف عرقيا وثقافيا عن المجموعة الاوروبية وهذه الخصائص تلعب دورا في مدى تقبل المجتمع المستقبل لهجرة المهاجرين ففي اوروبا مثلا نجد ان الالماني والبلجيكي يواجه مواقف في فرنسا تختلف كثيرا عما يواجهه المهاجر العربي او الافريقي سواء في التعامل اليومي او على مستوى التعامل الرسمي فالمهاجر المغربي يشعر بان لونه هو جنسيته في فرنسا وكما قال احد المغاربة في فرنسا « بوجهي ، ماذا يعني الفرق اذا ما كنت احمل الجنسية الفرنسية ام لا ، فانا اعامل هنا دائما كعربي »(٤٥)

---

(٤٢) Ibid, 1982, P. 31.
(٤٣) Ibid, 1982, P. 31.
(٤٤) Ibid, 1982, P. 31.
(٤٥) Mced, 1986, P. 10.

وهكذا فان قضية هجرة العودة أو الهجرة المعاكسة هي الشيء الحتمي بالنسبة للهجرة المغربية ففي دراسة عن الشباب من شمال أفريقيا (المغرب) أوضحت ٧٠٪ من العينة المختارة انهم يرغبون في البقاء في فرنسا ولكن هناك ٢٥٪ فقط يرغبون بحمل الجنسية الفرنسية(٤٦) . والحقيقة أن أسباب الهجرة تبقى هي العامل الذي يحدد مدة بقاء المهاجر أو عودته فالظروف الاقتصادية الصعبة وانتشار البطالة في المغرب العربي من الأسباب التي تدفع بالمغاربة للهجرة الى فرنسا أما على الجانب الآخر فان الظروف التي يعيشها المهاجر المغربي تؤثر أيضاً في بقائه أو عودته فهناك دراسة(٤٧) عن أحوال المهاجرين المغاربة يبنت أن هناك تفرقة بالأجور والحقوق الأخرى مثل السكن وتقلد المناصب كذلك هناك مواجهة اجتماعية بين الفرنسيين والمهاجرين المغاربة وصلت الى درجة العنف ، وقد أوضحت الدراسة ذاتها أن الأسباب الاقتصادية في المغرب العربي كانت وراء استمرارية بقاء حوالي ٨٠٪ في فرنسا لمدة أكثر من عشر سنوات .

بعد أن بينت الدراسة مفهوم الهجرة والهجرة المعاكسة استخدمت منطقة الخليج العربي كنموذج للمنطقة المستقبلة للهجرة واستخدمت دول المغرب العربي كنموذج للمنطقة المصدرة للهجرة في نفس الوقت التي تمثل منطقة مستقبلة للهجرة المعاكسة وقد أوضحت الدراسة كذلك عوامل الجذب والطرد لنوعي الهجرة والمشكلات المحيطة بها .

تنتقل الآن الدراسة لنموذج آخر وهو الهجرة النوعية والتي تتميز بخصائص معينة ونطلق عليها اسم هجرة العقول أو الكفاءات العربية الى الدول المتقدمة ونأخذ بريطانيا كنموذج لهذه الهجرة .

الهجرة العربية الى المملكة المتحدة* :

ترجع الهجرة العربية الى المملكة المتحدة الى أكثر من قرن ولكنها اتخذت أبعاداً مختلفة وتبلورت في السنوات الأخيرة . فقد بدأت الهجرة الى المملكة المتحدة على مستوى الأفراد أو مجموعات صغيرة جداً ارتبطت بأنشطة محدودة مثل النشاط البحري في القرن التاسع عشر ويمثل اليمنيون والصوماليون الرواد الأوائل للمهاجرين العرب وقد كان نشاط هؤلاء المهاجرين يقوم على العمل على السفن البريطانية التي كانت تقوم بنشاط بحري بين بريطانيا والمنطقة العربية والمحيط الهندي . أما المجموعة الثانية والتي تلت المجموعة الأولى فقد كانت تضم رجال أعمال قاموا بأنشطة تجارية ابان إزدهار صناعة الغزل والنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وكان الرواد الأوائل من هؤلاء هم من السوريين واللبنانيين وتلتهم مجموعة ثالثة من اليمن وقد عمل المهاجرون من اليمن في الزراعة وفي المؤسسات الصغيرة في السهل الأوسط البريطاني ـ كانت هذه الهجرات صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ٦٠ ألف مهاجر ينخفض هذا العدد ويرتفع

---

(٤٦) Ibid, P. 10.

(٤٧) The Middle East Magazin, London October, 1984, PP. 15-19.

* يعتمد هذا الجزء من الدراسة على دراسة عن الأيدي العاملة العربية في المملكة المتحدة زودت الباحث بواسطة جامعة لندن ، بدون تاريخ ، ومؤلف . للاطلاع راجع الباحث.

بحسب الحالة الاقتصادية في بريطانيا ولقد استقر العدد في نهاية ١٩٤٥ عند ١٢،٠٠٠ ألف مهاجر عربي معظمهم من اليمن والصومال وسوريا .

لقد بدأت ملامح هذه الهجرة تتبلور ملامحها وخصائصها في بداية السبعينات وأصبحت الهجرة العربية في بريطانيا تشتمل على نوعين رئيسين من المهاجرين ، يتكون النوع الأول من رجال مال واقتصاد حولوا نشاطهم الاقتصادي الى بريطانيا نتيجة للأوضاع غير المستقرة في المنطقة العربية والمشكلات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ والدمار الذي لحق بلبنان نتيجة للحرب الأهلية . أما النوع الثاني فيتكون من الكفاءات العربية من مهندسين وأطباء وأساتذة الجامعات وفي الحقيقة تعتبر هذه النوعية من المهاجرين خسارة كبيرة للقوى العربية في المنطقة البشرية إضافة الى استنزاف الطاقة المادية فقد قدرت ما أنفقته الدول النامية ومنها معظم الدول العربية على ما يزيد على ٤٠ بليون دولار خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مقابل تدريب هذه العناصر فقط وهذه العناصر ما زالت تفضل البقاء خارج الوطن كما قدرت الخسارة في الكفاءات العربية وحدها وحتى عام ١٩٧٧ بما يقارب ٢٤،٠٠٠ ألف طبيب بما يماثل ثلث جملة الأطباء العرب و ١٧،٠٠٠ ألف مهندس تقريبا يعادل حوالي ٩٪ من جملة المهندسين العرب و ٧،٥٠٠ من العاملين في المجالات العلمية ويعادل هذا الرقم ١٢٪ من جملتهم في العالم العربي أما من الناحية المادية فقد قدرت خسارة العالم العربي السنوية نتيجة لهجرة هذه الكفاءات بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار .

يقدر عدد المهاجرين العرب في بريطانيا في الوقت الحاضر بحوالي ربع مليون مهاجر جاءوا من إحدى عشرة دولة عربية هي مصر ، لبنان ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية ، الأردن وفلسطين . اذا أردنا أن نعرف مدى الخسارة في الكفاءات العربية نأخذ السودان كمثل عندما نعرف أن السودان خسر ما بين ١٩٤٤ ـ ١٩٧٩ حوالي ٦٠٪ من الأطباء و ٥٠٪ من المهندسين و ٢٥٪ من أساتذة الجامعات إن هذه الخسارة في الكفاءات العربية تبين لنا مدى الآثار السلبية للهجرة . تشكل بريطانيا منطقة جلب المهاجرين العرب لعدة عوامل : وجود الجامعات العديدة التي اكتسبت شهرة لاهتمامها بالدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ونتيجة أيضاً للعلاقات التاريخية بين بريطانيا والعالم العربي وتعزو الكفاءات العربية سبب هجرتها الى بريطانيا الى الحرية السياسية والاقتصادية وحرية البحث العلمي والى ما تتمتع به لندن كأحد المراكز الرئيسية التجارية في العالم وبخاصة في مجال البنوك ومؤسسات الاستثمار وعلى كل لا يتطلع معظم المهاجرين العرب في بريطانيا الى الاستقرار النهائي وانهاء علاقتهم بوطنهم الأم ، ولكن هناك نسبة منهم تقيم إقامة دائمة في بريطانيا وهي مقارنة بالعدد الكلي للمهاجرين تشكل نسبة ضئيلة . يوضح لنا جدول رقم (٨) أنه بين عام ١٩٧٦ و ١٩٧٨ حصل ٣،٣٤٤٠ ألف على إقامة دائمة في بريطانيا ويشكل المصريون نسبة كبيرة من هؤلاء (١٥٣٢) ومن المغرب ٧٤٢ ومن العراق ٧٤٩ إما في عام ١٩٧٩ يشير جدول رقم (٩) الى أن ١٧٧٥ مهاجراً حصلوا على إقامة في بريطانيا منهم ١٦٦٣ حصلوا على إقامة دائمة واذا أخذنا مثلاً هجرة الكفاءات العربية في بريطانيا نجد أن ٦٣٥٦ طبيباً عربياً يعمل في بريطانيا ويشكل المصريون أغلبية بين هؤلاء يليهم العراقيون . وخلاصة القول في هذا الجزء من الدراسة أن الهجرة العربية الى خارج الوطن العربي تشكل استنزافاً للطاقة البشرية العربية وللمال العربي وإضعافاً لعملية التنمية التي تواجه مشكلة نقص العنصر البشري سواء في تخطيطها وإدارتها أم تنفيذها .

جدول رقم (٨)

عدد رعايا بعض الدول العربية الذين منحوا إقامة دائمة

في المملكة المتحدة ١٩٧٨/٧٦

الدولة	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع
		السنة		
الجزائر	٧٧	٣٧	٨١	١٩٥
مصر	٥٠٢	٤٨٢	٥٤٩	١٥٣٣
العراق	٢٧٦	٢٣٢	٢٤١	٧٤٩
المغرب	٢٤١	١٨١	٣٣٠	٧٥٢
تونس	٥٣	٤٢	١٢٠	٢١٥
المجموع	١١٤٩	٩٧٤	١٣٢١	٣٤٤٤

Source : Control of Immigration statistices, United Kingdom, 1979, cmnd 7875, April 1980.

جدول رقم (٩)

عدد المواطنين العرب الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة

عام ١٩٧٩

الدولة	مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة لدى قدومهم مباشرة				مواطنين عرب منحوا الإقامة الدائمة بعد انتهاء الإقامة المحدودة (٤ سنوات)				المجموع الكلي			
	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع
الجزائر	٤	٥	٤	١٣	٧٩	١٤	١	٩٤	٨٣	١٩	٥	١٠٧
مصر	٦	١٦	٢	٢٤	٣٥٤	١٢٤	٤٦	٥٢٤	٣٦٠	١٤٠	٤٨	٥٤٨
العراق	٤	٥	-	٩	١٤١	٦٦	٢٨	٢٣٥	١٤٥	٧١	٢٨	٢٤٤
الأردن	٤	٧	٣	١٤	٧٦	٢٤	١	١٠١	٨٠	٣١	٤	١١٥
لبنان	٧	٧	١	١٥	٨٤	٣٥	١٧	١٣٦	٩١	٤٢	١٨	١٥١
ليبيا	-	-	١	١	٥٠	١٣	٤	٦٧	٥٠	١٣	٥	٦٨
المغرب	٥	٩	-	١٤	١٣٥	٧٦	٣٢	٢٤٣	١٤٠	٨٥	٣٢	٢٥٧
السعودية	-	-	-	١٢	٥	١	١٨	٢٤	٥	١	١٨	
الصومال	-	٢	٥	٧	٧	٥	١	١٣	٧	٧	٦	٢٠
السودان	٢	-	-	٢	٥٣	١٩	٧	٧٩	٥٥	١٩	٧	٨١
سوريا	-	٤	-	٤	٥٠	١٥	٧	٧٢	٥٠	١٩	٧	٧٦
تونس	٣	٦	-	٩	٦٣	١٣	٥	٨١	٦٦	١٩	٥	٩٠
الاجمالي	٣٥	٦١	١٦	١١٢	١١٠٤	٤٠٩	١٥٠	١٦٦٣	١١٣٩	٤٧٠	١٦٦	١٧٧٥

SOURCE : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmnd 7875 April 1980.

الخلاصـــــــة :

الهجرة ، كحركة سكانية ، ستبقى عنصراً من عناصر الحياة على وجه هذه الأرض . فطبيعة الأشياء في هذه الحياة لا تبقى منطقة جغرافية واحدة تعيش نمطا بمستوى واحد لا يتغير ، والانسان هو المحرك لعناصر الحياة على وجه هذه الأرض ولذلك فان تطور أي منطقة جغرافية بمواردها المختلفة يعتمد على الانسان وقد تكون منطقة معينة مكتفية ذاتياً من ناحية البشرية في فترة زمنية معينة ولكنها قد تعاني سلباً أو إيجاباً في فترة أخرى . فاذا أخذنا الكويت كأقرب مثل لنا ، نجد أنها بمواردها المتواضعة قبل اكتشاف النفط كانت تضم عدداً من السكان لا يزيد عن ١٥٠,٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فان سكانها كانوا يبحثون عن الرزق في أعماق البحر وفي مناطق أخرى ، وبعد اكتشاف النفط بقي سكانها على أرضها واحتاجوا أيضاً الى أكثر من ضعفهم حتى يقوموا بمهمة البناء الاقتصادي والاداري والعمراني . فالهجرة في الكويت ارتبطت كما بينت الدراسة بالقضية الاقتصادية ويدل على ذلك ما تواجهه الهجرة (في منتصف الثمانينات) من قيود لمحاولة تقليل عدد المهاجرين فالحركة السكانية على وجه هذه الأرض تمثل معادلة هائلة كما هو الحال في علم الفيزياء فيتجه السكان الى حيث إعادة التوازن في بقعات من الأرض .

وقد تحدث الهجرة لاعادة التوازن ليس للأرض فقط وانما للانسان نفسه فالانسان بطبيعته يحيا بعناصر متعددة اقتصادية وسياسية واجتماعية والاهتمام بالحرية في حقول مختلفة فاذا ما حدث اختلال في التوازن في هذه العناصر تحرك الانسان جغرافيا حيث يجد التوازن لحياته . فالهجرة هي حركة الانسان والأرض هي مسرح هذه الحركة يتجه الانسان حيث يجد ما فقده أو يكاد يفقده . إن الهجرة قضية قديمة قدم الانسان على هذه الأرض ولنا في دراسة الأجناس البشرية برهان على ذلك يصل الى وقتنا الحاضر وما أعطى الهجرة في وقتنا الحاضر إهتماما كبيرا هو ما حدث من انتشار للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين المجتمعات متمثلة بالمناطق الجغرافية الطبيعية والتي حددت شكل وحضارة الانسان وبذلك صار الارتباط بين الأرض وبين عرق وحضارة معينة . ومن ناحية أخرى هو رسم الخطوط على الخرائط وارتبطت المناطق التي تقع بين هذه الخطوط بجنسية معينة أعطى قضية الهجرة مضموناً معيناً هو التزايد السكاني الرهيب داخل هذه المناطق وأدى التزايد الى عجز الموارد المحلية عن الوفاء باحتياجات السكان ونتيجة لذلك اتجهت بعض المجموعات السكانية الى مناطق أخرى تواجه نقصا في الموارد البشرية أدى الى عجز السكان عن استغلال مواردها . إن حركة السكان هذه ليست مجردة من عناصر أخرى فهي ليست أرقاما فقط مع أن كثيراً من المشكلات ترتبط بهذه الأرقام إن هذه المشاكل التي يواجهها المهاجر والمجتمع المستقبل له هي مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية فهناك مشاكل الاسكان ومشاكل العمل ومشاكل التعليم والصحة والاستثمار وغيرها . ان تطور الادارة بشكل عام والتي كان من ضمن هذه التطور بروز التخطيط كمنهج ووسيلة ويصبح علماً من العلوم يدرس في المعاهد والجامعات كل هذا أعطى للهجرة اهتماماً كبيراً . إن القضية أصبحت مرتبطة بقضايا متعددة وأصبحت الحلول لا ترتبط بالظروف الآنية ولكنها توجه للمستقبل المنظور أن الهجرة أصبحت تشكل هماً من هموم سياسة الدول ومن هنا لم يعد الانسان حرا في تحركه الجغرافي بسبب التشريعات والقوانين والنظم التي تحدد مساري وحجم الهجرة لقد أصبحت قضية الهجرة من الأهمية الى درجة أصبحت في بعض الدول أحد المواضيع في البرامج الانتخابية وخطط التنمية ففي السويد مثلاً يحق للمهاجر الذي

لمضى مدة ثلاث سنوات فأكثر وحتى اذا لم يحصل على الجنسية السويدية يحق له أن يرشح نفسه وينتخب في المجالس البلدية وما لهذا من أهمية حيث يستطيع هذا المهاجر أن يشارك في تطوير الكثير من أوجه حياة الانسان في هذه الدول في الولايات المتحدة تتخذ قضايا الهجرة أهمية كبيرة ولذلك فطريق التجنس للمهاجر يمر بمراحل متعددة حيث يستطيع في النهاية وبعد أن يحصل على الجنسية أن يتقلد أعلى المناصب في هذه الدولة . وفي بريطانيا يحق لكل من يوجد على أرضها أن يحصل على الجنسية البريطانية عندما يبلغ السن القانوني . إن قضية الهجرة ترتبط بالنهاية بعملية التنمية والقضايا الاقتصادية بشكل خاص ولذلك تهتم الدول بقضية الهجرة لأنها تعني إضافة سكانية على أرضها وما يتبع ذلك من توفير لكثير من متطلبات الحياة فبالكويت نجد أن نصف الخطة القومية والهيكلية موجهة للسكان غير الكويتيين مثل الاسكان والطرق والخدمات الأخرى فمن حيث الاسكان نجد أن الوحدات السكنية للمهاجرين تفوق عدد الوحدات السكنية للكويتيين .

أما الجانب الاجتماعي في موضوع الهجرة فهو أعمق بكثير لأنه يهتم بالانسان بشكل مباشر ولذلك تحاول الدول الا يطغى عدد المهاجرين على عدد السكان الأصليين لأن ذلك يؤثر في كثير من العناصر مثل الثقافة واللغة والحضارة والعادات والتقاليد فقضية العزلة الاجتماعية التي تواجهها المجموعات المهاجرة في بلدان المهجر تثير القلق وان محاولات الاستيعاب الاجتماعي تواجه كثيراً من العراقيل لقد عولجت هذه القضايا في هذه الدراسة واتضح لنا ما تتعرض له المجتمعات من مشكلات كثيرة عندما تتعرض للهجرة ومن جانب آخر أوضحت ما يتعرض له المهاجرون في دول المهجر . فالدراسة أوضحت أن الهجرة ليست طريقاً باتجاه واحد وانما طريقان باتجاهين متضادين هما طريق الهجرة الى بلد المهجر وطريق العودة وطريق آخر ليس أسهل من الطريق الأول وليس مجرداً من المشاكل فعودة المهاجرين الى وطنهم أصبحت تشكل قضية من القضايا التي تحظى باهتمام متزايد فعودة المهاجرين تعني توفير فرص عمل هؤلاء وحل لمشكلة البطالة وتوفير للمساكن والخدمات الأخرى وان هذه العناصر تؤثر بعناصر أخرى مثل سعر الأرض ومواد البناء وتوفير المبالغ المطلوبة إما الجانب الآخر فهو بالطبع إجتماعي فعودة المهاجرين من مجتمعات لها خصائص إجتماعية وسياسية مختلفة لها بالتأكيد تأثيرات على المجتمع الأم ولا تقتصر هذه القضية على سلوكيات إجتماعية يكتسبها المهاجر بل تتعداها الى سلوكيات اقتصادية مثل اكتساب عادات الاستهلاك والادخار والانفاق فالمهاجر الذي يعود من بلد تتوفر فيه معظم مستلزمات الحياة الضرورية والكمالية ويتعود على التعامل معها فانه سينقلها معه الى بلده الأم وقد لا يكون هذا سهلاً عندما لا تتوفر مثل هذه المستلزمات .

الهجرة عملية مستمرة استمرار حياة الانسان والنمو السكاني والاختلافات بين المناطق الجغرافية المختلفة واذا كانت الهجرة في وقتنا الراهن تواجه بالنظم والقوانين فان عدم التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق الجغرافية المختلفة سوف يحد من فعالية هذه الأنظمة والقوانين لتستمر حركة الهجرة .

* * *

الهجرة والهجرة المعاكسة في الكويت
دروس الماضي وآفاق المستقبل

محمد صادق

مقدمة :

بينما وفرت عائدات النفط موارد مالية يمكن استخدامها لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عجز العرض المحلي من العمالة ، بسبب صغر حجم السكان من جهة وندرة المهارات من جهة أخرى ، عن تلبية الطلب على العمالة منذ بداية مسيرة التنمية في الكويت في أوائل الخمسينات[١] .

ومنذ البداية تم سد العجز بين العرض المحلي من العمالة والطلب عليها بعمالة وافدة . وأدى نمو عائدات النفط وتزايد وتنوع عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تزايد وتنوع الطلب على العمالة ، خاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في اكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات ، إلى ازدياد عجز العرض المحلي من العمالة وازدياد الاعتماد على العمالة الوافدة لمواجهة احتياجات مختلف القطاعات من مختلف أنواع ومستويات المهارات .

وأدى الانكماش الاقتصادي العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى بالتالي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتباطؤ نمو الطلب على العمالة[٢] .

وبسبب تراجع أسعار النفط في عام ١٩٨٣ ازداد اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى تدهور الأسعار منذ أواخر ١٩٨٥ إلى تدهور الايرادات النفطية . وبما أن الايرادات النفطية كانت ، ولا زالت ، العمود الفقري لايرادات الحكومة ، اضطرت الحكومة إلى تخفيض ميزانية ١٩٨٥/١٩٨٦ بعد اعتمادها لمواجهة الانخفاض في ايراداتها .

---

(١) تم تصدير أول شحنة من النفط الخام عام ١٩٤٦ . وبدأت الحكومة في بناء الهياكل الأساسية وتوسيع الخدمات الاجتماعية خاصة في التعليم والصحة في الفترة التي تلت البدء في إنتاج وتصدير النفط الخام وحصولها على العائدات النفطية . لذا يمكن اعتبار بداية الخمسينات بداية مسيرة التنمية بشكل واضح .

(٢) تزامن تراجع العائدات النفطية مع الحرب بين العراق وإيران منذ أواخر ١٩٨٠ وأزمة سوق المناخ في أواخر ١٩٨٢ . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تباطؤ النمو الاقتصادي .

وأدت هذه التطورات الاقتصادية إلى تنامي اهتمام الحكومة باعتماد سياسات واتخاذ إجراءات نحو توازن سكاني ، وحظي تعديل التركيبة السكانية باهتمام خاص في الخطة الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ ـ ١٩٨٩/١٩٩٠ وشكل المحور الرئيسي لتوجهاتها .

واجه القطاع الخاص ، ولا زال يواجه ، تراجع الطلب على العمالة بإجراءات تراوحت بين الاستغناء عن العمالة الوافدة الزائدة وتخفيض الاجور والمرتبات وإلغاء بعض المزايا(٣) . وقررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين من العاملين في مختلف الوزارات والمؤسسات والهيئات العامة في مطلع صيف هذا العام .

وما لم تتم عملية الاستغناء عن العمالة الوافدة على أساس خطة مدروسة فإنه يصعب تجنب الأثار السلبية التي قد تنجم عنها . لذا تحاول هذه الدراسة المساهمة في إنارة الطريق نحو الخيارات الممكنة لاجتياز المرحلة الراهنة والتقدم بثبات نحو المرحلة المقبلة .

تبدأ الدراسة باستعراض مدى الاعتماد على العمالة الوافدة حسب القطاعات الاقتصادية والمهن . يلي ذلك عرض لنمو السكان والتطورات التي طرأت على مختلف جوانب الهيكل السكاني .

وأخيراً تحاول الدراسة استشراف آفاق المستقبل المنظور بالنسبة لمدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة من جهة وإلقاء الضوء على بعض الأمور التي يستحسن أخذها بعين الاعتبار عند النظر في الخيارات الممكنة لمواجهة المرحلة الانتقالية الحالية والتقدم بثبات نحو المستقبل .

تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة

يبين الجدول (١) حجم ومعدلات النمو السنوية لقوة العمل حسب النوع والجنسية بين سنوات التعدادات ، ومن أبرز السمات التي يواجهها هذا الجدول ما يلي :

١ ـ ارتفاع وتباين معدلات النمو :

بلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل الكويتية ٦,٦٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٢٪ خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ و ٨,٧٪ خلال ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ . ويبلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل غير الكويتية ٨,٨٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٨٪ خلال ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٢,٥٪ خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ . ويبلغ معدل النمو السنوي لمجموع قوة العمل ٨,٢٪ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ وتراوح بين ٤,٧٪ خلال ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ و ١٠,٩٪ خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٥ . وتعتبر معدلات النمو السنوية لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية ومجموع قوة العمل ، على السواء ، مرتفعة ، قياساً على معدلات النمو السنوية السائدة في العالم . فكيف يمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ؟

(٣) لا تتوفر بيانات عن مدى تقليص العمالة وتخفيض الرواتب والأجور وإلغاء المزايا . ولكن من الثابت أن العمالة انخفضت في قطاع التشييد والبناء وأن العديد من الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص قامت بتخفيض الرواتب بنسب مختلفة وصلت في بعض الحالات إلى ٢٥٪ .

إن حجم السكان ، من جهة ، والهيكل العمري والهيكل النوعي ، من جهة أخرى ، تحدد في المقام الأول ، حجم العرض من قوة العمل .

ويمكن تفسير معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، في المقام الأول ، بارتفاع معدلات نمو السكان الكويتيين . ولكن ما الذي أدى إلى ارتفاع معدل نمو السكان الكويتيين ؟ سنحاول إلقاء الضوء على بعض العوامل التي يمكن أن تكشف عن أسبابه عند استعراض نمو السكان . أما معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية فلا يمكن تفسيرها بارتفاع معدلات نمو السكان غير الكويتيين ، إذ أن نمو السكان غير الكويتيين كان نتيجة وليس سبباً لنمو قوة العمل غير الكويتية .

وكما سنبين فيما بعد حدد حجم العمالة الوافدة من جهة ومعدل المرافقة(٤) هنا من جهة أخرى حجم السكان غير الكويتيين ، بمعنى آخر بينما كانت معدلات النمو المرتفعة للسكان الكويتيين السبب الرئيسي في معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، كانت معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية السبب الرئيسي في المعدلات المرتفعة لنمو السكان غير الكويتيين .

٢ ـ زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور :

كما يستدل من الجدول (١) ، فقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور بالنسبة لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء بين عام ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

فقد بلغ معدل النمو السنوي للاناث ١٧,٠٪ و ١٥,٨٪ و ١٦,٠٪ بينما بلغ معدل النمو السنوي للذكور ٦,١٪ و ٨,٣٪ و ٧,٧٪ في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل ، على التوالي ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وفي جملة قوة العمل في جميع الفترات ، وباستثناء ١٩٨٥ ـ ١٩٨٠ ، حيث فاق معدل الذكور معدل نمو الاناث ، ١٢,٦٪ مقابل ١٢,١٪ في قوة العمل غير الكويتية .

أدت زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور إلى ارتفاع نسبة الاناث في قوة العمل ، وبالتالي إلى زيادة تأنيث قوة العمل الكويتية وغير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء . فكما يتضح من الجدول (٢) فقد اتجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بينما اتجهت نسبة الذكور الى الانخفاض باستمرار . فقد تزايدت نسبة الأناث في جملة قوة العمل الكويتية باستمرار وارتفعت من ١,٦ عام ١٩٥٧ إلى ١٣,٢٪(٣) ، كما تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية بين عام ١٩٥٧ و ١٩٧٥ حيث ارتفعت من ١٣,٠٪ بين نفس العامين ، ولكنها انخفضت قليلا ، الى ١٢,٨٪ عام ١٩٨٠ . أما نسبة الأناث في جملة قوة العمل فقد تزايدت باستمرار وارتفعت من ٢,٦٪ عام ١٩٥٧ الى ١٢,٩٪ عام ١٩٨٠ .

---

(٤) يقصد من البسيط معدل المرافقة يساوي ١٠٠ ـ معدل المشاركة . بما أن معدل المشاركة يساوي قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان يكون معدل المرافقة السكان خارج قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان .

(٣) تشمل قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) :
ـ المشتغلون .
ـ المتعطلون الجدد .
ـ المتعطلون الذين سبق لهم العمل .
ويشمل ذوي النشاط المشتغلين والمتعطلين الذين سبق لهم العمل .

جدول رقم (١)

تطور قوة العمل حسب الجنسية والنوع

بين التعـــدادات

	العـــدد					معدلات النمو السنوي				
	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٥٧ ـ ١٩٦٥	١٩٦٥ ـ ١٩٧٠	١٩٧٠ ـ ١٩٧٥	١٩٧٥ ـ ١٩٨٠	١٩٥٧ ـ ١٩٨٠
كويتي ـ ذكور	٢٤٣١٨	٤١٩٢٦	٦٢٣١٤	٨٠٧٦٧	٩٦٥٨٨	٧ر٦	٨ر٦	٩ر٥	٢ر١	١ر٦
اناث	٢٨٤	١٠٩٢	٣٠٥٥	١١٩٨٧	١٤١٧٢	١٤ر٠	٢٣ر٥	٢٩ر٥	١٢ر٦	١٧ر٠
جملة	٢٤٦٠٢	٤٣٠١٨	٦٥٣٦٩	٩٢٧٥٤	١١٠٧٦٠	٧ر٢	٨ر٧	٧ر٠	٤ر٢	٦ر٦
غير كويتي ـ ذكور	٥٢٩٩٣	١٣٣٦٠٣	١٦٢٢٨٦	١٨٥٥٠٩	٣٣٤١٤٤	١٢ر٠	٤ر٠	٢ر٧	١٢ر٦	٨ر٣
اناث	٢٦٩٣	٧٧٧٦	١٤٥٤١	٢٦٣١٩	٥١٥٠٥	٤ر٨	١٣ر٦	١٣ر٨	١٢ر١	١٥ر٨
جملة	٥٥٦٨٦	١٤١٣٧٩	١٧٦٨٢٧	٢١١٨٢٨	٣٨٥٦٤٩	١٢ر٣	٤ر٦	٣ر٨	١٢ر٥	٨ر٨
الجملة ـ ذكور	٧٧٣١١	١٧٥٥٢٩	٢٢٤٦٠٠	٢٦٦٢٧٦	٤٣٠٧٣٢	١٠ر٦	٥ر٠	٣ر٦	٩ر٧	٧ر٧
اناث	٢٩٧٧	٨٨٦٨	١٧٥٩٦	٣٨٣٠٦	٦٥٦٧٧	١٤ر٧	١٣ر٦	١٩ر٢	١٢ر٤	١٦ر٠
جملة	٨٠٢٨٨	١٨٤٣٩٧	٢٤٢١٩٦	٣٠٤٥٨٢	٤٩٦٤٠٩	١٠ر٩	٥ر٦	٤ر٧	١٠ر٠	٨ر٣

المصدر : العدد لعام ١٩٥٧ من :

The Economist Intelligence Unit Ltd.,
Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Vol.XVIII, Study Area 2,
Report Submitted to the Government, May 1974, table 23, P.41.

العدد للاعوام ١٩٦٥ و ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٩٨٠ من المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ جدول ٩٨ ص ١٠٩ .
والنسب المئوية تم احتسابها .

<u>جدول رقم (٢)</u>

<u>قوة العمل حسب النوع والجنسية</u>

(نسب مئوية)

	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث
١٩٥٧	٩٨ر٤	١ر٦	٩٧ر٠	٣ر٠	٩٧ر٤	٢ر٦
١٩٦٥	٩٧ر٥	٢ر٥	٩٤ر٦	٥ر٤	٩٥ر٢	٤ر٨
١٩٧٠	٩٦ر٩	٣ر١	٩١ر٨	٨ر٢	٩٣ر١	٦ر٩
١٩٧٥	٩١ر٩	٨ر١	٨٧ر٠	١٣ر٠	٨٨ر٤	١١ر٦
١٩٨٠	٨٦ر٨	١٣ر٢	٨٧ر٢	١٢ر٨	٨٧ر١	١٢ر٩

المصدر : تم احتساب النسب على أساس الجدول (١) .

إن تزايد نسبة الاناث في قوة العمل له مدلولات هامة ، فهو مؤشر على زيادة عدد الاناث القادرات على والراغبات في العمل من جهة ، وعلى حصول تغير بالنسبة لنظرة المجتمع إلى عمل الاناث ، من جهة أخرى . وكلما ازدادت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل ، كلما ارتفع معدل المشاركة وانخفض بالتالي معدل الاعالة .

٣ ـ تناقص نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل :

أدى التباين بين معدلات نمو قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية بين التعدادات إلى تباين بين نسبة كل منها في جملة قوة العمل كما يتضح من الجدول (٣) .

فبما أن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية زاد عن معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٣٪ مقابل ٧,٢٪ ، بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، فإن نسبة قوة العمل الكويتية انخفضت من ٣٠,٦٪ إلى ٢٣,٣٪ بين العامين . وأدى ارتفاع معدل نمو قوة العمل الكويتية عن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية خلال ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، ٨,٧٪ مقابل ٤,٦٪ وخلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، ٧,٠٪ مقابل ٣,٨٪ ، الى ارتفاع نسبة قوة العمل الكويتية إلى ٢٧,٠٪ و ٣٠,٢٪ ، على التوالي . ولكن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية فاق كثيرا معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٥٪ مقابل ٣,٢٪ ، خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، وانخفضت بذلك نسبة قوة العمل الكويتية وبدرجة كبيرة ، من ٣٠,٢٪ الى ٢١,٩٪ .

جدول رقم (٣)
قوة العمل حسب الجنسية
(نسب مئوية)

سنة التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٣٠ر٦	٦٩ر٤	١٠٠
١٩٦٥	٢٣ر٣	٧٦ر٧	١٠٠
١٩٧٠	٢٧ر٠	٧٣ر٠	١٠٠
١٩٧٥	٣٠ر٢	٦٩ر٨	١٠٠
١٩٨٠	٢١ر٩	٧٨ر١	١٠٠

المصدر : تم احتساب الجدول على أساس الجدول رقم (١) .

٤ ـ تزايد اعتماد مختلف القطاعات على غير الكويتيين :

يتضح من الجدول (٤) إن نسب ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين في مختلف قطاعات النشاط الاقتصادي قد تباينت ، وبدرجات متفاوتة ، بين سنوات التعدادات .

باستثناء عام ١٩٥٧ (حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ وفي التجارة والمطاعم والفنادق ، ٥٠,٥٪ مقابل ٤٩,٥٪ وعام ١٩٧٥ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٣,٠٪ مقابل ٤٧,٠٪ ، كانت نسبة غير الكويتيين أعلى من نسبة الكويتيين في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي وفي جميع سنوات التعدادات . وهذا يعني أن جميع القطاعات اعتمدت وباستمرار ، في المقام الأول ، على العمالة الوافدة .

ويذكر أن نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل انخفضت بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . باستثناء قطاع المناجم والمحاجر حيث ارتفعت فيه نسبة الكويتيين من ٢٢,٤٪ الى ٣٦,٠٪ بينما انخفضت نسبة الكويتيين في جميع القطاعات ، وبدرجات متفاوتة بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . وهذا يعني تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة في جميع القطاعات .

٥ ـ تركز الكويتيين وغير الكويتيين قطاعياً :

يتضح من الجدول (٥) أن قطاع الخدمات استأثر بأعلى نسبة من جملة ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين ، على السواء ، في جميع سنوات التعدادات . بينما ارتفعت نسبة الكويتيين في هذا القطاع من ٥١,٧٪ عام ١٩٥٧ الى ٧٥,٦٪ عام ١٩٨٠ كما انخفضت نسبة غير الكويتيين فيه من ٤٨,٠٪ الى ٤٠,٧٪ بين نفس العامين . واحتلت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع التجارة المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٤,٦٪ عام ١٩٥٧ و ١٢,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٤,٧٪ عام ١٩٧٠ و ٧,٣٪ عام ١٩٧٥ وانحدرت إلى ٤,٤٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والمواصلات ، ٧,٦٪ مكانها عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٤)

ذوي النشاط حسب القطاع والجنسية

(نسب مئوية)

النشاط الاقتصادي / السنة	١٩٥٧ ك	١٩٥٧ غ ك	١٩٦٥ ك	١٩٦٥ غ ك	١٩٧٠ ك	١٩٧٠ غ ك	١٩٧٥ ك	١٩٧٥ غ ك	١٩٨٠ ك	١٩٨٠ غ ك
الزراعة والصيد	٥٧ر٥	٤٢ر٥	٢٨ر٩	٧١ر١	١٩ر٨	٨٠ر٢	٥٣ر٠	٤٧ر٠	٤٣ر٠	٥٧ر٠
المناجم والمحاجر	٢٢ر٤	٧٧ر٦	١٢ر٩	٨٧ر١	٢٣ر٤	٧٦ر٦	٢٦ر٦	٧٣ر٤	٣٦ر٠	٦٤ر٠
الصناعات التحويلية	١٥ر٦	٨٤ر٤	١٠ر٢	٨٩ر٨	١٩ر٠	٨١ر٠	٩ر٢	٩٠ر٨	٧ر٧	٩٢ر٣
التشييد والبناء	٣ر٧	٩٦ر٣	٤ر٤	٩٥ر٦	٧ر٥	٩٢ر٥	٥ر٤	٩٤ر٦	١ر٢	٩٨ر٨
المياه والغاز والكهرباء	(١)	(١)	٢٣ر٥	٧٦ر٥	٢٩ر٤	٧٠ر٦	٢٨ر٠	٧٢ر٠	٢٥ر٣	٧٤ر٧
تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	٥٠ر٥	٤٩ر٥	٢٢ر٣	٧٧ر٧	٢٢ر٠	٧٨ر٠	١٦ر٠	٨٤ر٠	٧ر٨	٩٢ر٢
النقل والتخزين والمواصلات	٤٢ر٤	٥٧ر٦	٢٧ر٤	٧٢ر٦	١٩ر٥	٨٠ر٥	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢٥ر٩	٧٤ر١
التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الاعمال							٢١ر١	٧٨ر٩	٢٢ر٢	٧٧ر٨
خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	(٢) ٣٤ر٩	(٢) ٦٥ر١	(٢) ٣٣ر٩	(٢) ٦٦ر١	(٢) ٣٥ر٤	(٢) ٦٤ر٦	٢٨ر٩	٧١ر١	٣٤ر٢	٦٥ر٨
نشاط غير واضح	٥٧ر٢	٤٢ر٨	٢٦ر٩	٧٣ر١	٢٩ر٤	٧٠ر٦	–	–	–	–
جملة ذوي النشاط	٣٣ر٢	٦٦ر٨	٢٢ر٤	٧٧ر٦	٢٥ر٤	٧٤ر٦	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢١ر٤	٧٨ر٦

(١) ضمن الصناعات التحويلية .
(٢) تشمل جميع الخدمات

المصدر : تم احتساب النسب على أساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ١١١ ص ١٢٠ ، وجدول ١١٢ ، ص ١٢٢ .

وقد احتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في قطاع التشييد والبناء المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٧,٢٪ عام ١٩٥٧ و ١٩,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٨,٠٪ عام ١٩٧٠ ، وانحدرت ١٤,٤٪ ، واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع التجارة ، ١٥,٧٪ مكانها عام ١٩٧٥ ، ولكنها ارتفعت الى ٢٥,٢٪ وعادت واحتلت المرتبة الثانية عام ١٩٨٠ .

وبينما كانت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع النقل والتخزين والمواصلات في المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٦,٥٪ في ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، على التوالي ، انحدرت هذه النسبة إلى ٤,٠٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في الصناعات التحويلية ، ١٠,٢٪ ، مكانها ، المرتبة الثالثة ، عام ١٩٧٠ ، ولكن عادت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والتخزين والمواصلات إلى المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٧,٦٪ في ١٩٧٥ و ١٩٨٠ على التوالي .

واحتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في الصناعات التحويلية المرتبة الثالثة في السنوات ١٩٥٧ ، ٩,٨٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٩٪ والمرتبة الرابعة في السنوات ١٩٦٥ ، ١١,٦٪ و ١٩٧٥ ، ١٠,٥٪ و ١٩٨٠ ، ١٠,٠٪ ، بينما احتلت نسبتهم في التجارة المرتبة الرابعة في السنوات ١٩٥٧ ، ٧,١٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٧٪ والمرتبة الثالثة في السنوات ١٩٦٥ ، ١٢,٩٪ و ١٩٧٥ ، ١٥,٧٪ و ١٩٨٠ ، ١٤,١٪ .

ويتضح مما سبق أن ذوي النشاط الكويتيين تركزوا في قطاعات الخدمات في المقام الأول وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٧١,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ٨٧,٦٪ عام ١٩٨٠ . وأما ذوي النشاط غير الكويتيين فقد تركزوا في قطاع الخدمات في المقام الأول وفي قطاعات التشييد والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٨٢,١٪ عام ١٩٥٧ إلى ٩٠,٠٪ عام ١٩٨٠ .

٦ ـ تركز الكويتيين وغير الكويتيين مهنياً :

وكما كان الكويتيون أقل من غير الكويتيين في مختلف القطاعات كانوا كذلك في مختلف المهن .

فكما يتضح من الجدول (٦) ، باستثناء عام ١٩٧٥ ، حيث كانت نسبة الكويتيين اكبر من نسبة غير الكويتيين ، ٥٠,٦٪ مقابل ٤٩,٤٪ في المهن المتعلقة بالزراعة وتربية الحيوان والصيد ، كانت نسبة غير الكويتيين أكبر من نسبة الكويتيين في جميع أنواع المهن في جميع سنوات التعدادات . وكما تزايد الاعتماد على غير الكويتيين قطاعياً ، تزايد الاعتماد عليهم أيضا مهنيا ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . فباستثناء المهن العلمية والفنية والتي تزايدت نسبة الكويتيين فيها من ٩,٨٪ إلى ٢٠,٦٪ والأعمال الكتابية التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣٧,٤٪ الى ٤٠,٩٪ وأعمال الخدمات التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣١,٠٪ إلى ٣٢,٩٪ ، انخفضت نسبة الكويتيين في بقية المهن بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

وكما تركز الكويتيون قطاعيا في الخدمات في المقام الأول ، وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني ، فقد تركز غير الكويتيين في الخدمات في المقام الأول ، وفي التشييد والبناء والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني ، وكما يتضح من الجدول (٧) تركز الكويتيون في أعمال الخدمات في المقام الأول ، ٣٢,٨٪ وفي مجال الانتاج والعمال العاديين في المقام الثاني ، ٢٦,٣٪ وفي المهن الكتابية في المقام الثالث ، ١٥,٤٪ عام ١٩٦٥ .

جدول رقم (٥)

ذوي النشاط

حسب انواع النشاط والجنسية في سنوات التعدادات

(نسبة مئوية)

السنة	١٩٥٧			١٩٦٥			١٩٧٠			١٩٧٥			١٩٨٠		
النشاط الاقتصادي	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج
الزراعة والصيد	١ر٣	٠ر٨	١ر٢	٠ر١	١ر١	١ر١	٠ر٩	١ر٩	١ر٧	٤ر٦	١ر٢	٢ر٥	٣ر٠	٤ر٦	٤ر٩
المناجم والمحاجر	٤ر٣	٧ر٣	٦ر٣	٣ر٤	٤ر٠	٣ر٨	٣ر٨	٣ر٤	٣ر٠	٢ر١	١ر٥	١ر٦	٢ر٢	١ر١	٤ر١
الصناعات التحويلية	٢ر٦	٩ر٨	٦ر٧	٤ر٢	١٢ر٠	١١ر٠	١١ر٠	١٤ر٠	١٣ر٦	٢ر٦	١٠ر٥	٨ر٣	٣ر١	١٠ر٠	٨ر٩
التشييد والبناء	٠ر٣	١٧ر٣	١١ر٥	٣ر٠	[illegible]	١٥ر٠	٣ر٧	٢٨ر٠	٢٤ر٣	٤ر٠	١٤ر٤	١٠ر٨	٤ر٢	٢٥ر٣	٢٠ر١
المياه والغاز والكهرباء	(١)	(١)	(١)	٤ر١	[illegible]	٣ر٥	٣ر٦	٣ر٩	٣ر٦	٤ر٣	٣ر٥	٣ر٤	٢ر٠	١ر٦	١ر٧
تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	(٣) ١٤ر٦	(٢) ٣ر٢	(٢) ٩ر٦	١٣ر٨	١٢ر٠	١٣ر٠	١٢ر٥	١٠ر٧	١٢ر٨	٧ر٣	١٤ر٧	١٣ر٣	٤ر٤	١٤ر١	١٣ر٢
النقل والتخزين والمواصلات	٣ر٥	٣ر٦	٤ر٣	٦ر٥	٨ر٣	٨ر٦	٤ر٣	٥ر٦	٥ر٣	٥ر٢	٥ر٣	٥ر٣	٧ر٦	٨ر٩	٦ر٣
خدمات التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الأعمال	٥٩ر٢	٤٨ر٠	٤٩ر٣	٦٣ر٠	٥٢ر٠	٤٦ر١	٦١ر٥	٣٨ر٥	٤٦ر٣	٧٣ر٩	٤٨ر٥	٥٥ر٩	٧٥ر٦	٤٠ر٧	٤٩ر٣
نشاط غير واضح	١٢ر٩	٩ر٣	٩ر٦	٠ر٦	٥ر٤	٤ر٢	٤ر٨	٣ر٢	٣ر٩	—	—	—	—	—	—
جملة ذوي النشاط	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

(١) ضمن الصناعات التحويلية
(٢) التجارة فقط

المصدر : نفس مصدر الجدول - ٤ -

بينما ارتفعت نسبتهم في أعمال الخدمات إلى ٣٦,٣٪ واستمرت بذلك في المقام الأول ، وانخفضت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين إلى ١٣,٥٪ وانحدرت إلى المقام الثالث ، ثم ارتفعت نسبتهم في المهن الكتابية إلى ٢٣,٨٪ واحتلت المقام الثاني عام ١٩٨٠ .

وأما بالنسبة لغير الكويتيين ، فكانت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين في المقام الأول ، ٤٩,٥٪ ، وفي اعمال الخدمات في المقام الثاني ٢١,٩٪ وفي المهن العلمية والفنية في المقام الثالث ٨,٣٪ عام ١٩٦٥ .

وبينما انخفضت نسبتهم في عمال الإنتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات إلى ٤٤,٨٪ و ٢٠,١٪ على التوالي ، نرى أنها ارتفعت في المهن العلمية والفنية إلى ١٦,٣٪ ، عام ١٩٨٠ .

ولكن بالرغم من الانخفاض الذي طرأ على نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وارتفاع نسبتهم في المهن العلمية والفنية ، إلا ان نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وفي المهن العلمية والفنية ، بقيت في المقام الأول والثاني والثالث على التوالي عام ١٩٨٠ .

إن نمط التوزيع القطاعي والمهني للكويتيين وغير الكويتيين ودرجة التركيز القطاعي والمهني لكل منها ، لها مدلولات مهمة بالنسبة لمستوى درجة المرونة في إحلال الكويتيين محل غير الكويتيين ، من جهة وبالنسبة لتأهيل وتوجيه الكويتيين نحو مختلف القطاعات والمهن من جهة أخرى .

فكما يتضح من الجدول (٨) ، توجهت معظم الزيادة في قوة العمل الكويتية ، ٨٣,٠٪ إلى قطاع الخدمات بينما توجه فقط ١٧٪ من الزيادة إلى بقية القطاعات بين ١٩٦٥ و ١٩٨٠ .

ويعود سبب الزيادة في قطاع الخدمات ، في المقام الأول ، إلى توجه الكويتيين إلى العمل بالجهاز الحكومي بسبب سياسات التوظف التي تكفل لهم الوظائف بالجهاز الحكومي من جهة وبسبب زيادة إقبالهم على العمل بالجهاز الحكومي عن إقبالهم على العمل في القطاع الخاص من جهة اخرى .

أما بالنسبة لغير الكويتيين فقد توجه ٤٠,٤٪ من الزيادة إلى قطاع الخدمات و ٢٨,٢٪ إلى قطاع التشييد والبناء و ١٤,٨٪ إلى قطاع التجارة و ٩,١٪ إلى قطاع الصناعات التحويلية . وهذا يعني أن الزيادة في غير الكويتيين انتشرت بشكل أكثر توزانا من انتشار الزيادة في الكويتيين .

وبما أن ذوي المهن المتعلقة بأعمال الخدمات والأعمال الكتابية والمهن العلمية والفنية يشكلون عادة نسبة كبيرة من جملة ذوي المهن في قطاع الخدمات (في حدود ٨٠٪) من جهة ، فإن معظم الزيادة في الكويتيين توجهت إلى قطاع الخدمات . من جهة اخرى ، تركزت معظم الزيادة في الكويتيين بنسبة (٨٨,٩٪) في المهن المتعلقة بالخدمات بنسبة (٣٧,١٪) وفي الأعمال الكتابية (٢٨,٤٪) وفي المهن العلمية والفنية كانت نسبتهم ٢٣,٤٪ .

ونظراً لان انتشار الزيادة في غير الكويتيين كان أوسع من انتشار الكويتيين قطاعياً ، كان انتشارهم أيضا أوسع مهنيا . فقد اتجه ٤١,٣٪ و ٢١,٠٪ و ١٨,٩٪ و ١٠,٢٪ من جملة زيادتهم إلى المهن المتعلقة بعمال الانتاج والعمال العاديين والمهن العلمية والفنية وأعمال الخدمات والمهن الكتابية على التوالي .

جدول رقم (٦)

ذوي النشاط حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة / المهنة	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك
١ ــ المهن العلمية والفنية	٩٫٨	٩٠٫٢	١٤٫٦	٨٥٫٤	٢٣٫٣	٧٦٫٧	٢٠٫٦	٧٩٫٤
٢ ــ المديرون والاداريون ومديرو الاعمال	٣٧٫١	٦٢٫٩	٣٤٫٣	٦٥٫٧	٣٦٫٦	٦٣٫٤	٣٤٫٠	٦٦٫٠
٣ ــ الاعمال الكتابية	٣٧٫٤	٦٢٫٦	٤٠٫٧	٥٩٫٣	٤٧٫٠	٥٣٫٠	٤٠٫٩	٥٩٫١
٤ ــ اعمال البيع	٣٠٫٤	٦٩٫٦	٣١٫٠	٦٩٫٠	٢٥٫٧	٧٤٫٣	١٦٫٧	٨٣٫٣
٥ ــ اعمال الخدمات	٣١٫٠	٦٩٫٠	٤٠٫٢	٥٩٫٨	٤٢٫٠	٥٨٫٠	٣٢٫٩	٦٧٫١
٦ ــ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٢٠٫٧	٧٩٫٣	٢٢٫٦	٧٧٫٤	٥٠٫٦	٤٩٫٤	٣٩٫٤	٦٠٫٦
٧ ــ عمال الانتاج والعمال العاديون	١٣٫٩	٨٦٫١	١٣٫٩	٨٦٫١	١٤٫٥	٨٥٫٥	٧٫٦	٩٢٫٤
٨ ــ غير مبين المهنة	٦٣٫٢	٣٦٫٨	٧٥٫٦	٢٤٫٤	١٠٠	—	—	—
الجملة	٢٣٫٣	٧٦٫٧	٢٥٫٩	٧٤٫١	٢٩٫١	٧٠٫٩	٢١٫٤	٧٨٫٦

المصدر : تم احتساب الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ــ ١٩٨٥
الجداول ١٠٩ ص ١١٧ و ١١٠ ص ١١٨ .

جدول رقم (٧)
ذوي النشاط الاقتصادي حسب المهنة والجنسية
(نسب مئوية)

السنة	١٩٦٥			١٩٧٠			١٩٧٥			١٩٨٠		
المهنة / الجنسية	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج
١ ـ المهن العلمية والفنية	٢ر٩	٨ر٣	٧ر٠	١ر١	١٥ر٤	١٠ر٨	١١ر٤	١٥ر٣	١٤ر٠	١٥ر٦	١٦ر٣	١٦ر٢
٢ ـ المديرون الاداريون ومديرو الاعمال	٣ر٤	١ر٨	٢ر٢	١ر٠	٠ر٧	٠ر٧	١ر٢	٠ر٩	١ر٠	٢ر٠	١ر١	١ر٣
٣ ـ المهن الكتابية	١٥ر٤	٧ر٨	٩ر٦	١٨ر٦	٩ر٥	١١ر٩	٢٠ر٥	٩ر٥	١٣ر٧	٢٢ر٨	٩ر٣	١٣ر٤
٤ ـ اعمال البيع	١٠ر٨	٧ر٥	٨ر٣	٥ر٦	٨ر٣	٨ر٩	٧ر١	٨ر٥	٨ر١	٥ر٠	٦ر٨	٦ر٤
٥ ـ اعمال الخدمات	٣٢ر٨	٢١ر٩	٢٤ر٤	٣٧ر٦	١٤ر٧	٢٦ر٣	٣٧ر٨	٢١ر٥	٢٦ر٢	٣٦ر٣	٣٠ر١	٢٣ر٦
٦ ـ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	١ر٨	٣ر٠	٢ر٠	١ر٤	١ر٧	١ر٧	٤ر٥	١ر٨	٢ر٦	٣ر٧	١ر٦	٢ر٠
٧ ـ عمال الانتاج والعمال العاديون	٢٦ر٣	٤٩ر٥	٤٤ر١	٣١ر٧	٤٩ر٥	٤٠ر٨	١٧ر٦	٤٣ر٧	٣٥ر٤	١٣ر٥	٤٤ر٨	٣٨ر١
٨ ـ غير مبين المهنة	٦ر٦	١ر٢	٢ر٥	٣ر٠	٠ر٢	٠ر٩	..	..	...	..	..	..
جملة ذوي المهن	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : نفس مصدر الجدول (٦)

جدول رقم (٨)
الزيادة في جملة ذوي النشاط ، حسب اقسام
النشاط الاقتصادي والجنسية بين
١٩٦٥ و ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١ ـ الزراعة والصيد	٣٢٦٥	٥ر١	٣٨٠٢	١ر١	٧١٦٢	٢ر٣
٢ ـ المناجم والمحاجر	١٠٤٨	١ر٦	ـ١٣٨١	ـ٦ر٠	ـ٣٣٣	ـ١ر٠
٣ ـ الصناعات التحويلية	١٢٥٤	٢ر١	٢١٩٦٤	٩ر١	٢٣٢١٨	٧ر٦
٤ ـ التشييد والبناء	ـ ٥٨	ـ ١ر٠	١٨٣٠٩	٢٨ر٢	١٨٢٥١	٢٢ر٣
٥ ـ المياه والغاز والكهرباء	٤٢٣	٢ر٠	٧٤٨	١ر٢	١١٧١	٤ر٠
٦ ـ تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	ـ٥٥٢	ـ١ر٠	٢٥٩٢٤	١٤ر٨	٢٥٣٧٢	١١ر٦
٧ ـ النقل والتخزين والمواصلات	٥٢١٩	٨ر٢	١٤٩٠٩	٩ر٢	٢٠١٢٨	٦ر٦
٨ ـ التمويل والتامين والعقارات وخدمات الاعمال والخدمات الاجتماعية الشخصية	٥٢٧٥٨	٨٣ر٠	٩٧٨٤٧	٤٠ر٤	١٥٠٦٠٥	٤٩ر٢
جملة ذوي النشاط	٦٣٥٥٢	١٠٠	٧٤١٣٧	١٠٠	٢٠٥١٨٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١١١ ص ١٣٠ والجدول ١١٢ ص ١٣٢

جدول رقم (٩)

الزيادة في جملة ذوي النشاط حسب الجنسية والمهنة بين ١٩٦٥ ـ ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١ ـ المهن العلمية والفنية	١٤٨٣٥	٢٣ر٤	٥٠٤٩١	٢١ر٠	٦٥٣٢٦	٢١ر٥
٢ ـ الاداريون ومديرو الاعمال	٦٤٣	١ر٠	١٦٠٨	٠ر٧	٢٢٥١	٠ر٧
٣ ـ الموظفون التنفيذيون والكتابيون	١٨٠٠٦	٢٨ر٤	٢٤٤٦٢	١٠ر٢	٤٢٤٦٨	١٤ر٠
٤ ـ اعمال البيع	٥٧٠	٠ر٩	١٥٢٤٦	٦ر٣	١٥٨١٦	٥ر٢
٥ ـ اعمال الخدمات	٢٢٤٧٤	٣٧ر١	٤٦٦٢١	١٨ر٩	٦٩٠٩٥	٢٢ر٧
٦ ـ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٣١١٦	٤ر٩	٣٠٦٩	١ر٣	٦١٨٥	٢ر٠
٧ ـ عمال الانتاج والعمال العاديون	٣٦٦٤	٤ر٢	١٠٠٤٤٣	٤١ر٧	١٠٣١٠٧	٣٣ر٩
جملة زيادة ذوي المهن	٦٣٣٠٨	١٠٠	٢٤٠٩٤٠	١٠٠	٣٠٤٢٤٨	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ الجدول ١٠٩ ص ١١٧ والجدول ١١٠ ص ١١٨ .

تزايد السكان غير الكويتيين
والاختلالات الهيكلية السكانية

ان تزايد عدد السكان بمعدلات خارقة للعادة ، من جهة ، وما رافق ذلك من تغيرات بارزة في مختلف جوانب الهيكل السكاني ، من جهة أخرى ، يعدُّ من أبرز التطورات غير المقصودة ، التي شهدتها مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الكويت منذ الخمسينات .

١ ـ سرعة واتجاهات النمو :

ارتفع عدد سكان الكويت من ٢٠٦٤٧٣ عام ١٩٥٧ الى ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ ، أي بمعدل نمو ٧,٨٪ سنوياً .

وكما يتضح من الجدول (٩) تباين معدلات النمو بين سنوات التعدادات بالنسبة لجملة السكان والسكان غير الكويتيين والسكان الكويتيين .

أ ـ جملة السكان :

شهدت الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ، ١١,٧٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو الى ٩,٨٪ و ٩,٦٪ و ٦,١٪ خلال الفترات ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ و ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع إلى ٦,٤٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٤,٥٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

وباستثناء الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ فقد كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الاناث بينما كان معدل نمو الاناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ب ـ السكان غير الكويتيين :

بالرغم من التباين بين معدلات نمو غير الكويتيين وجملة السكان بين سنوات التعدادات ، إلا أن الاتجاه العام لنمو السكان غير الكويتيين اتسق مع الاتجاه العام لنمو جملة السكان .

فكما في حالة جملة السكان ، شهدت الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ١٤,٥٪ سنويا ، ثم انخفض معدل النمو إلى ١١,٥٪ و ٩,٦٪ و ٦,٠٪ خلال الفترات ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، على التوالي ثم ارتفع إلى ٨,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٥,١٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

وكما في حالة جملة السكان ، باستثناء الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، حيث كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الاناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

جـ ـ السكان الكويتيون :

بلغ معدل نمو السكان الكويتيين ٩,٣٪ سنويا خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ ، وكان بذلك أقل من معدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان . وخلافاً لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، لم يكن معدل النمو خلال هذه الفترة أعلى من معدلات النمو خلال الفترات التالية .

وكاتجاه نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، انخفض معدل نمو السكان الكويتيين الى ٨,٠٪ خلال الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ولكنه ارتفع الى ٩,٦٪ خلال الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ثم انخفض الى ٦,٣٪ خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ و ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ حيث كان معدل نمو الذكور أعلى قليلاً من معدل نمو الاناث ، كان معدل نمو الاناث إما أعلى أو مساوياً لمعدل نمو الذكور خلال بقية الفترات .

د ـ سرعة نمو السكان الكويتيين والسكان غير الكويتيين :

باستثناء الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ حيث كان معدل نمو جملة السكان الكويتين ٩,٦٪ سنويا ، مساوياً لمعدل نمو جملة السكان غير الكويتين ، والفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، حيث زاد معدل نمو السكان الكويتيين قليلا عن معدل نمو السكان غير الكويتيين ، ٦,٣٪ مقابل ٦,٠٪ ، كان معدل جملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدل نمو السكان الكويتيين في بقية الفترات .

وكانت معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان الكويتيين ، ٨,٠٪ مقابل ٦,٤٪ و ١١,٢٪ مقابل ٦,٨٪ و ٩,٨٪ مقابل ٦,٦٪ ، على التوالي ، خلال كامل الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٨٥ .

٢ ـ أسباب النمو :

يتأثر نمو السكان بمعدل المواليد ومعدل الوفيات وصافي الهجرة ، وعادة يتغير معدل المواليد ومعدل الوفيات ببطء ، أما صافي الهجرة فأكثر عرضة للتغير بسرعة .

أ ـ السكان الكويتيون :

تراوح معدل نمو السكان الكويتيين بين ٩,٦٪ سنويا و ٦,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ ، واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥ . بينما يمكن اعتبار معدل نموهم خلال الفترة ، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥ ، طبيعياً لا يمكن اعتبار معدلات نموهم خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ طبيعية . إذ بافتراض معدلات وفيات منخفضة جداً ، فمن غير المعقول أن تكون معدلات المواليد كانت مرتفعة لدرجة أتاحت تحقيق معدلات نمو خارقة للعادة خلال هذه الفترة .

فكيف يمكن تفسير معدلات النمو غير الاعتيادية ؟ لا تتوفر لنا بيانات ومعلومات تتيح لنا اجابة قاطعة عن ذلك . ولكن من الممكن اقتراح بعض الأسباب بصفة أولية . فمن الممكن تفسير معدلات النمو المرتفعة جزئياً بتحسن ودقة التعدادات السكانية وجزئيا بالتجنيس .

ب ـ السكان غير الكويتيين :

وأما بالنسبة لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين فكانت في المقام الأول بسبب الهجرة الصافية . فكما ذكرنا سابقا أدت عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادات مستمرة في الطلب على العمالة أكبر بكثير من العرض منها محلياً وكان لا بد من مواجهة العجز المتزايد بعمالة وافدة ، عربية وغير عربية . وأدى تدفق العمالة الوافدة وما رافقها من أفراد أسرها إلى تزايد عدد السكان غير الكويتيين من جهة وإلى زيادة الطلب على العمالة الوافدة لمواجهة ازدياد الطلب على الخدمات من جهة أخرى .

٣ ـ التغيرات الهيكلية :

أدت الزيادات غير الطبيعية للسكان غير الكويتيين بسبب الهجرة الصافية ، في المقام الأول ، إلى احداث تغيرات هامة في مختلف جوانب الهيكل السكاني .

أ ـ تناقص نسبة السكان الكويتيين :

أدت زيادة سرعة نمو عدد السكان غير الكويتيين عن سرعة نمو السكان الكويتيين إلى اتجاه نسبة السكان الكويتيين إلى الانخفاض واتجاه نسبة غير الكويتيين الى الارتفاع .

فكما يتضح من الجدول (١٠) أن نسبة السكان الكويتيين قد انخفضت من ٥٥٪ عام ١٩٥٧ إلى ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ نجد أن نسبة السكان غير الكويتيين قد ارتفعت من ٤٥,٠٪ إلى ٥٩,٩٪ بين نفس العامين . وبينما كانت نسبة السكان الكويتيين أكبر من نسبة السكان غير الكويتيين ، « ٥٥,٠٪ مقابل ٤٥,٠٪ عام ١٩٥٧ » ، أصبحت نسبة السكان غير الكويتيين أكبر من نسبة السكان الكويتيين ، « ٥٩,٩٪ مقابل ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ » .

جدول رقم (١٠)

السكان حسب الجنسية في سنوات التعداد ـ (نسب مئوية)

سنوات التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٥٥ر٠	٤٥ر٠	١٠٠
١٩٦١	٥٠ر٣	٤٩ر٧	١٠٠
١٩٦٥	٤٧ر١	٥٢ر٩	١٠٠
١٩٧٠	٤٧ر٠	٥٣ر٠	١٠٠
١٩٧٥	٤٧ر٥	٥٢ر٥	١٠٠
١٩٨٠	٤١ر٧	٥٨ر٣	١٠٠
١٩٨٥	٤٠ر١	٥٩ر٩	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على أساس نفس مصدر الجدول (٩) .

ب ـ الهيكل النوعي :

يتضح من الجدول (١١) أن نسبة الذكور اتجهت إلى انخفاض بينما اتجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين على السواء .

كانت نسبة الذكور ٥٢,١٪ ، وكانت نسبة الاناث ٤٧,٩٪ من السكان الكويتيين بينما كانت نسبة الذكور ٨٧,٥٪ ونسبة الاناث ٢١,٥٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٥٧ وأصبحت نسبة الذكور ٤٩,٦٪ ونسبة الاناث ٥٠,٤٪ في السكان الكويتيين ونسبة الذكور ٦١,٨٪ ونسبة الاناث ٣٨,٣٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٨٥

وإن كان الاتجاه واحدا بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين ، إلا أن نسب الذكور والاناث بالنسبة للسكان الكويتيين ، وإن تباينت بين سنوات التعداد ، إلا أنها تعتبر طبيعة وتتسق مع الهيكل النوعي الطبيعي للسكان .

أما بالنسبة للسكان غير الكويتيين فقد كان الهيكل مختلاً كثيراً عام ١٩٥٧ . وبالرغم من التحسن الذي طرأ على نسبة الاناث حيث ارتفعت من ٢١,٥٪ عام ١٩٥٧ الى ٣٨,٢٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن الهيكل النوعي بقي مختلا كثيرا . وهذا يعني أن نسبة النوع طبيعية بالنسبة للسكان الكويتيين بينما هي غير طبيعية بالنسبة للسكان غير الكويتيين . . فمجتمع غير الكويتيين مجتمع ذكور . ونظراً لأن سرعة تزايد السكان غير الكويتيين كان أعلى من سرعة تزايد السكان الكويتيين ، أصبح هيكل جملة السكان مختلاً بالنسبة للنوع والجنسية .

ويعود الاختلال في الهيكل النوعي للسكان غير الكويتيين إلى أثر الهجرة الصافية : ففي أول الأمر لم تتخذ هجرة العمالة ، وهي من الذكور ، الطابع الأسري على اعتبار أن الهجرة ستكون مؤقتة . وحتما امتدت فترات إقامة العمالة وابتدأ اتجاه الطابع الأسري لهجرة العمالة وضعت الحكومة ضوابط لاصطحاب أو إحضار أفراد أسر العمالة الوافدة . وبذلك بقيت نسبة الذكور في السكان غير الكويتيين مرتفعة .

جـ ـ تنوع جنسيات السكان غير الكويتيين :

كما يتضح من الجدول (١٢) تشمل قوة العمل غير الكويتية رعايا من مختلف مجموعات دول العالم . وتأتي نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول ونسبة قوة العمل الآسيوية في المقام الثاني في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ . وبالرغم من استمرار نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول إلا أنها انخفضت بشكل بارز بينما ارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية بشكل ملحوظ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وبما أن قوة العمل غير الكويتية تنتمي إلى مختلف مجموعات دول العالم ، فإن السكان غير الكويتيين ـ وكما يتضح من الجدول (١٣) ـ ينتمون إلى مختلف مجموعات دول العالم . وكما أن نسبة قوة العمل العربية تأتي في المقام الأول ويليها نسبة قوة العمل الآسيوية ، تأتي نسبة السكان العرب في المقام الأول ويليها السكان الآسيويون . وكما انخفضت نسبة قوة العمل العربية وارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية ، فقد انخفضت ـ أيضا ـ نسبة السكان العرب بينما ارتفعت نسبة السكان الآسيويين بين « ١٩٧٥ و ١٩٨٠ » .

جدول رقم (١٢)
قوة العمل غير الكويتية حسب مجموعات الدول
التوزيع النسبي

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربيـــة	٦٨ر٩٧	٥٩ر٥٥
آسيويـــة	٢٩ر٤٢	٣٧ر٩٧
افريقيـــة	٠ر٠٥	٠ر٢١
امريكيةواوروبية	٠ر٩٥	١ر٤٤
معطلون جدد	٠ر٦١	٠ر٨٢
الجملـــة	١٠٠	١٠٠

المصدر : المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١٠٠ ص ١١٠ .

جدول رقم (١٣)
السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول
(نسب مئوية)

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربيـــة	٨٠ر١٩	٧٢ر٥١
آسيويـــة	١٨ر٧١	٢٥ر٧٦
افريقيـــة	٠ر٠٨	٠ر٢٠
اوروبيـــة	٠ر٨٢	١ر٢٦
امريكيـــة	٠ر١٦	٠ر٢٥
اخـــرى	٠ر٠٤	٠ر٠٢
الجملـــة	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ – جدول ٣٩ ، ص ٥٥ .

د . الهيكل العمري للسكان ومعدل المشاركة :

يستدل من الجدول (١٤) أن نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في السكان الكويتيين قد تذبذبت قليلا حيث انخفضت قليلا عام ١٩٧٠ ثم ارتفعت قليلا عام ١٩٧٥ ثم انخفضت قليلا عام ١٩٨٠ ، بينما اتجهت نسبة صغار السن في السكان غير الكويتيين إلى الارتفاع تدريجياً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، ثم انخفضت عام ١٩٨٠ . ويعود انخفاض هذه النسبة بين عام ١٩٧٥ - ١٩٨٠ إلى القيود التي فرضت على اصطحاب أفراد أسر العمالة الوافدة . وبسبب اتجاه نسبة صغار السن إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ اتجهت نسبة من هم في سن ١٥ - ٥٩ سنة إلى الانخفاض خلال نفس الفترة ، إذ انخفضت النسبة من ٦٨,٨٪ عام ١٩٦٥ إلى ٦٠,٥٪ و ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ، وعلى عكس ما حصل بالنسبة لصغار السن ، ارتفعت هذه النسبة من ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ٦٥,١٪ عام ١٩٨٥ ، حيث أصبح اصطحاب أفراد الأسر أو إحضارهم أقل سهولة من الفترات السابقة .

وأما بالنسبة للسكان الكويتيين فقد كانت تقلبات نسبة صغار السن أقل منها في السكان غير الكويتيين ، فبينما كانت ٤٨,٩٪ عام ١٩٦٥ نجد أنها ارتفعت قليلا ووصلت إلى ٤٩,٢٪ عام ١٩٨٠ .

وبما أن حجم السكان غير الكويتيين أكبر من حجم السكان الكويتيين فقد تأثر الهيكل العمري لجملة السكان بالهيكل العمري للسكان غير الكويتيين أكثر من تأثره بالهيكل العمري للسكان الكويتيين . لذلك اتجهت نسبة صغار السن في جملة السكان إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، حيث ارتفعت من ٣٨,٠٪ عام ١٩٦٥ إلى ٤٣,١٪ و ٤٣,٤٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ، ثم انخفضت إلى ٤٠,٣٪ عام ١٩٨٠ .

ويؤثر الهيكل العمري والهيكل النوعي على معدل المشاركة (قوة العمل كنسبة مئوية من السكان) ، بافتراض الهيكل النوعي . فكلما ازدادت نسبة صغار السن كلما انخفض معدل المشاركة . وكما يتضح من الجدول (١٥) ، فقد اتجه معدل المشاركة بالنسبة لغير الكويتيين إلى الانخفاض وذلك بين (١٩٦٥ - ١٩٧٥) نظراً لأن نسبة صغار السن فيهم اتجهت إلى الارتفاع خلال نفس الفترة . وبما أن نسبة صغار السن انخفضت عام ١٩٨٠ ، فقد ارتفع معدل المشاركة .

أما بالنسبة للسكان الكويتيين ، فلا يبدو أثر التغير في نسبة صغار السن على معدل المشاركة واضحا . إذ أن اتجاههما كان واحدا بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، وبالرغم من أن نسبة صغار السن ارتفعت عام ١٩٧٥ عما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، إلا أن معدل المشاركة ارتفع بدلا من أن ينخفض ، كما أن اتجاه نسبة صغار السن ومعدل المشاركة كان واحدا بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

دروس الخبرة وآفاق المستقبل

يمكن استخلاص المعالم الأساسية لنموذج تفاعل العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة من مختلف دول العالم إلى الكويت والتي أعطت ثمارا يانعة ، من جهة ، وبعض الثمار غير المرغوبة ، من جهة أخرى .

جدول رقم (١٥)

قوة العمل كنسبة مئوية من السكـــان

	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
كويتـــي	٢١ر٧	١٩ر٥	١٨ر٨	١٩ر٥	١٩ر١
غير كويتـي	٦٠ر٠	٥٧ر١	٥١ر٢	٤٠ر٧	٤٨ر١
المجمــوع	٢٨ر٩	٢٩ر١	٣٢ر٨	٣٠ر٦	٣٦ر٢

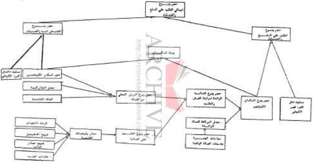
المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩ ص ٢٥ ـ والجدول ١ من هذه الدراسة .

١ ـ النموذج :

يبين الشكل ـ ١ تصوراً مبسطاً لنسيج الترابط بين العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة الوافدة إلى الكويت والآثار التي ترتبت عليها .

بدأت مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بعد أن بدأت عائدات النفط بالتدفق في أوائل الخمسينات . وتأثر مسار وتوجهات التنمية وسرعتها منذ البداية بسرعة نمو عائدات النفط من جهة ، وبمفهوم وأهداف التنمية من جهة أخرى . وفي إطار مفهوم التنمية التي تطلعت الحكومة إلى تحقيقها ، حظي الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل وتنويع مصادر الدخل باهتمام خاص .

يعتمد تحقيق أهداف التنمية على الموارد المتاحة من جهة ، وعلى كفاءة تخصيصها واستخدامها من جهة أخرى . وتوفرت ، بفضل العائدات النفطية ، الموارد المالية اللازمة لتمويل مشروعات متزايدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ونظراً لصغر حجم السكان من جهة ، وندرة المهارات من جهة أخرى ، عجز العرض المحلي من العمالة عن تلبية متطلبات عمليات التنمية منذ مستهل المسيرة . وتم سد العجز باستيراد العمالة اللازمة من دول عربية وغير عربية . ولم تقتصر الهجرة على العمالة ، بل وشملت أيضا أفراد أسر العمال المهاجرين . أي أن حجم السكان غير الكويتيين تأثر بعاملين : حجم العمالة الوافدة ومعدل المرافقة لها . وتأثر معدل المرافقة بسياسات وإجراءات الهجرة التي تبنتها ونفذتها الحكومة ، من جهة ، وبجنسيات العمالة الوافدة من جهة أخرى .



الشكل - ١
نموذج افتراضي يبين مسار وترجمات التنمية
ونتائجها في الكويت

وبما أن حجم ونوع السكان ومستوى دخلهم يحدد حجم ونوع طلبهم على السلع والخدمات ، تأثر إجمالي ونوع الطلب على السلع والخدمات بحجم السكان غير الكويتيين وجنسياتهم ومستوى دخلهم . وأصبح السكان غير الكويتيين عاملا مهما في الطلب على السلع والخدمات وتلبية الطلب على السواء . بمعنى آخر ، أصبحوا عاملا مهما في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات على السواء .

وبسبب الزيادة المستمرة في العائدات النفطية ، وخاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات عندما بدأ الكساد العالمي ، أخذ الطلب على العمالة الوافدة بالارتفاع باستمرار . وأدى تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة إلى تناقص نسبة العمالة الكويتية في جملة العمالة من جهة ، وتزايد نسبة السكان الوافدين في جملة السكان من جهة أخرى . وأصبح الكويتيون يشكلون ١ ,٤٠٪ من جملة السكان حسب تعداد ١٩٨٥ وفقط ٢ ,٢٣٪ من جملة المشتغلين حسب تقدير ١٩٨٣ .

٢ ـ الانكماش الاقتصادي وانخفاض الطلب على العمالة :

تأثر إنتاج وتصدير النفط بالكساد العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات . وبما أن الاقتصاد الكويتي اعتمد ، ولا زال يعتمد ، في المقام الأول ، على قطاع النفط ، بدأ أيضا في الانكماش في مطلع الثمانينات .

فقد انخفض إجمالي الناتج المحلي من قيمته ٧ ,١٧٤٦ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ٤ ,١٥٧٧ مليون دينار كويتي و ٠ ,١٤٩٤ مليون دينار كويتي و ٧ ,١٤٧٣ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي [٦] .

ولكن بالرغم من تراجع إجمالي الناتج المحلي بسبب تراجع الناتج المحلي النفطي ، استمر الناتج المحلي غير النفطي بالارتفاع . فقد ارتفع من ٨, ١٠٥٠ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ الى ٢ ,١١١٤ مليون دينار كويتي و ٧ ,١١٧٨ مليون دينار كويتي و ٣ ,١٢٤٢ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي [٧] .

ويعود استمرار ارتفاع الناتج المحلي غير النفطي بالرغم من استمرار تراجع الناتج المحلي النفطي وبالتالي استمرار تراجع إجمالي الناتج المحلي ، في المقام الأول ، بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢ ، إلى استمرار نمو الانفاق العام [٨] . فمستوى النشاط الاقتصادي خارج قطاع النفط اعتمد ، ولا زال يعتمد ، على مستوى الانفاق العام . ولكن بسبب اتجاه أسعار النفط إلى الانخفاض منذ مارس ١٩٨٣ وتدهورها منذ أواخر ١٩٨٥ ، وبالتالي تدهور الايرادات النفطية ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تلجأ الى تخفيض الانفاق العام ، مما اضطرها إلى تقليص ميزانية عام ١٩٨٥/١٩٨٦ ، بعد اعتمادها .

---

(٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٣ ص ٢٤٢ .

(٧) نفس المصدر السابق .

(٨) ارتفعت جملة المصروفات الحكومية من حوالي ٢٧٠٣ مليون دينار عام ١٩٨٠/١٩٨١ إلى ٣٢٤٨ مليون دينار عام ١٩٨٢/١٩٨٣ ، ولكنها انخفضت الى ٣٠٢٤ مليون دينار عام ١٩٨٣/١٩٨٤ . انظر المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ الجدول ٢٦٧ ص ٢٩٦ .

وكما يتوقع أدى تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى تراجع الطلب على العمالة وتزامن اتجاه انخفاض الطلب على العمالة مع أمرين مهمين فيما له علاقة بالعمالة الوافدة . الأمر الأول ، أنه قد تم إقامة معظم ، إن لم يكن جميع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبما أن مشروعات الهياكل الأساسية أسهمت إسهاماً كبيراً في ازدهار قطاع التشييد والبناء خلال الفترة الماضية من جهة ، ونظراً لأن هذا القطاع اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً ، على العمالة الوافدة واستخدام نسبة كبيرة منها ، من جهة أخرى ، أخذ الطلب على العمالة اللازمة لهذا القطاع بالانخفاض . وأما الأمر الآخر فيتعلق بقوة العمل من الكويتيين .

يتوقف حجم قوة العمل على حجم السكان ومعدل المشاركة وتتوقف نوعية قوة العمل على نوعية ومستوى مهاراتها ، أي نوع ومستوى تعليمها . وكما تبين لنا سابقاً فقد تزايد السكان الكويتيون بسرعة عالية خلال الفترة الماضية ، وتزايد عدد الاناث في قوة العمل من جهة وتراجعت نسبة الأمية وطرأ تحسن ملموس على الحالة التعليمية لقوة العمل وزادت خبرتها من جهة أخرى[٩] . أي أن العرض المحلي من قوة العمل قد تحسن كثيرا ، كما ونوعاً .

فإذا كان النمو الاقتصادي ، الذي ارتبط بنمو عائدات النفط من جهة ، وتزايد عجز العرض المحلي من قوة العمل عن تلبية تزايد الطلب على العمالةمن جهة أخرىقد أديا إلى ظاهرة الهجرة الواسعة وما ترتب عليها من آثار مقصودة وآثار غير مقصودة في الماضي ، هل يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي بسبب تراجع عائدات النفط وانخفاض الطلب على العمالة من جهة ، وتحسن العرض المحلي من قوة العمل ، كما ونوعاً ، من جهة أخرى ، إلى هجرة معاكسة ؟ .

لقد أدت الهجرة التي تمت على نطاق واسع لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى خلق ترابط وثيق بين تواجد الوافدين وتوقعات استمرار وتزايد تواجدهم والعديد من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فما لم تتم الهجرة المعاكسة ، إن كان لا بد من أن تتم ، في إطار رؤيا واضحة وخطة مدروسة تنطلق من إدراك واع وتام لأرض الواقع وحكم سليم على احتمالات المستقبل ، فقد يترتب عليها آثار سلبية غير محسوبة يصعب احتواؤها .

٣ ـ هل ستستمر الحاجة إلى العمالة الوافدة في المدى المنظور :

يبين الجدولان ١٦ و ١٧ المشتغلين عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . ويتضح من الجدولين أن مجموع عدد المشتغلين ازداد بمعدل ٠,٦٣٪ سنوياً بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . بينما ازداد عدد المشتغلين الكويتيين بمعدل ٣,٦٦٪ سنويا وارتفعت نسبتهم من مجموع المشتغلين من ٢١,٢٪ الى ٢٣,٢٪ وقد تناقص عدد المشتغلين غير الكويتيين بمعدل ٠,٢١٪ وانخفضت نسبتهم من ٧٨,٨٪ الى ٧٦,٨٪ خلال هذه الفترة . فما هي احتمالات المستقبل ؟

يتضح من الجدولين أن ثلاث قطاعات ، خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية والتشييد والبناء والصناعات التحويلية ، استخدمت ٧٤,٣٪ من مجموع المشتغلين عام ١٩٨٠ وقد ارتفعت هذه النسبة الى ٧٥,٨٪ عام ١٩٨٣ .

---

(٩) كان ٥١,٦٪ و ٣٩,٠٪ من قوة العمل الكويتية أمي ويقرأ ويكتب على التوالي ، بينما فقط ١,٤٪ من الثانوية و ١,٢٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٦٥ ، وأصبح ٢٥,٣٪ أمي و ١٧,٦٪ يقرأ ويكتب و ٢٣,٧٪ من الثانوية و ٧,١٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٠ . انظر المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ . الجدول ١٠٧ والجدول ١٠٨ ص ١١٦ .

وبناء على ذلك فإن مدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة ، مرهون ، في المقام الأول ، بما يمكن أن يطرأ على الطلب والعرض بالنسبة للقطاعات الثلاثة .

أ ـ قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية :

إن نمو المشتغلين في القطاع بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ لا يعني أنه سيستمر بنفس الاتجاه أو نفس السرعة في المستقبل المنظور .

وعلى الرغم من أن نمو جملة المشتغلين في مختلف القطاعات كان بطيئاً جداً ، « ٠,٦٣٪ سنوياً » ، بلغ معدل النمو السنوي لجملة المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية ٤,٥٪ خلال ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣ . ويعود سبب نمو المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع ، في المقام الأول ، إلى نمو السكان . حيث بلغ معدل النمو السنوي لجملة السكان ٤,٥٪ خلال نفس الفترة .

وبما أن الحكومة اعتمدت سياسات وستتخذ إجراءات لتعديل التركيبة السكانية فمن المتوقع أن تنخفض سرعة نمو جملة السكان إلى ٢,٢٪ ما بين عام بين ١٩٨٥ وعام ٢٠٠٠ [١٠] . وبافتراض استمرار نفس مستوى الخدمات من جهة ونفس مستوى إنتاجية العمالة فيه ، من جهة أخرى ، سيكون نمو جملة العمالة في القطاع في حدود ٢٪ سنوياً .

ومن الممكن مواجهة نمو طلب القطاع من النمو المتوقع في عرض العمالة الكويتية ، ولكن ليس ذلك بالأمر السهل . فحسب بعض التقديرات يمثل المشتغلون في الخدمات الشخصية والمنزلية حوالي ٢٠٪ من جملة المشتغلين في القطاع ، وما لا يقل عن ٩٥٪ منهم من غير الكويتيين [١١] . ومع ازدياد الطلب على هذه العمالة بسبب نمو الرخاء من جهة وظهور قيم اجتماعية من جهة أخرى ، فعدد المشتغلين في الخدمات المنزلية العائلة يعتبر مؤشراً لمكانتها في المجتمع ، ومن غير المتوقع أن يتجه الطلب على هذه الفئة إلى الانخفاض .

ويتضح مما سبق أن حاجة القطاع إلى العمالة الوافدة ستستمر ، ولكن بدرجة أقل ، في المدى المنظور .

ب ـ قطاع التشييد والبناء :

كما يتضح من الجدولين « ١٦ و ١٧ » تراجع عدد المشتغلين في القطاع من « ٩٧٠٩٩ إلى ٨١٣٦٢ » وتراجعت نسبة المشتغلين في القطاع من جملة المشتغلين من « ٢٠,١٪ » إلى « ١٦,٥٪ » بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ .

لقد تأثر ازدهار القطاع في الفترة الماضية ، في المقام الأول ، بازدهار مشروعات الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية ومشروعات الاسكان التي تنفذها الحكومة ، كما تأثر أيضاً ببناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

وفيما يتعلق بالهياكل الأساسية فقد تم إقامة معظمها ، إن لم يكن جميعها ، ولذلك فإن أي توسع فيها سيكون في حدود بسيطة نسبياً . وكذلك الأمر بالنسبة لبناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

(١٠) بافتراض معدل نمو سنوي مقداره ٢,٧٤٪ سيكون عدد السكان الكويتيين ١١٦٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . وبافتراض تغير التوازن السكاني سيكون جملة السكان ٢٣٣٧٦٤٢ عام ٢٠٠٠ . وبما أن جملة عدد السكان ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ يكون معدل النمو السنوي لجملة السكان ٢,٢٪ .

(١١) نعيم الشربيني « العمال الأجانب في البلدان العربية المنتجة للنفط » ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ رقم ٤ ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤-٣٧ .

جدول رقم - ١٦

المشتغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٠

	كويتي			غير كويتي			المجموع		
	العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من	
		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين
١ ـ خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	٧٥٤٦١	٣٤ر٢	٧٢ر٩	١٤٤٩٩٢	٦٥ر٨	٣٨ر١	٢٢٠٤٥٣	١٠٠	٤٥ر٧
٢ ـ التشييد والبناء	١٢٠٦	١ر٢	١ر٢	٩٥٨٩٣	٩٨ر٨	٢٥ر٢	٩٧٠٩٩	١٠٠	٢٠ر١
٣ ـ الصناعات التموينية	٣١٧٩	٧ر٧	٣ر١	٣٨٠٨١	٩٢ر٣	١٠ر٠	٤١٢٦٠	١٠٠	٨ر٥
٤ ـ بقية القطاعات	٢٣٦٢٤	١٨ر٣	٢٢ر٨	١٠٠٢٠٥	٨١ر٧	٢٦ر٦	١٢٣٨٢٩	١٠٠	٢٥ر٧
الجملة	١٠٣٤٧٠	٢١ر٢	١٠٠	٣٨٠١٧١	٧٨ر٨	١٠٠	٤٨٣٦٤١		١٠٠

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩٨ ص ١٠٩ .

جدول رقم - ١٧

المشتغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٣

	كويتي			غير كويتي			المجموع		
	العدد	النسبة المئوية من المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من جملة المشتغلين	العدد	النسبة المئوية من المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من جملة المشتغلين	العدد	النسبة المئوية من المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من جملة المشتغلين
١ ـ خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	٨٧٦١٦	٣٤ر٨	٧٦ر٨	١٦٤٢٨٠	٦٥ر٢	٤٣ر٥	٢٥١٨٩٦	١٠٠	٥١ر٣
٢ ـ التشييد والبناء	١٠٧٣	١ر٣	٠ر٩	٨٠٢٩٠	٩٨ر٧	٢١ر٣	٨١٣٦٣	١٠٠	١٦ر٥
٣ ـ الصناعات التحويلية	٣١٨٢	٨ر٠	٢ر٨	٣٦٤٨٢	٩٢ر٠	٩ر٧	٣٩٦٦٤	١٠٠	٨ر١
٤ ـ بقية القطاعات	٢٢٢٧٤	١٨ر٧	١٩ر٥	٩٦٦٨١	٨١ر٣	٢٥ر٥	١١٨٩٥٥	١٠٠	٢٤ر٣
الجملة	١١٤١٤٥	٢٣ر٢	١٠٠	٢٧٧٧٣٣	٧٦ر٨	١٠٠	٣٩١٨٧٨	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٨ ، جدول ١٣١ ص ١٣٧ .

ومن المتوقع أن ينشأ طلب على العمالة للقطاع لتشغيل وصيانة مشروعات الاستثمار التي بلغت ذروتها في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات . وسيكون مزيج الطلب على المهارات مختلفا عن مزيج الطلب في الفترة السابقة .

ولكن بالرغم من تراجع طلب القطاع على العمالة ووجود أسباب قوية لتراجعه أكثر إلا أن حاجة القطاع للعمالة الوافدة ستستمر في المدى المنظور . فنسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع كانت فقط ٢,١٪ و ٣,١٪ عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ على التوالي . إن ارتفاع النسبة من ٢,١٪ الى ٣,١٪ لا تعني زيادة في عدد الكويتيين في القطاع . إذ أن عددهم قد انخفض من ١٢٠٦ الى ١٠٧٣ . ويعود السبب في ارتفاع نسبتهم من ٢,١٪ الى ٣,١٪ إلى انخفاض عدد غير الكويتيين . ونظرا لان نسبة كبيرة من المشتغلين في القطاع من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٨٠ - ٨٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال في القطاع ضعيفة جدا .

ج . قطاع الصناعات التحويلية :

تراجع عدد من المشتغلين في هذا القطاع من ٤١٢٦٠ الى ٣٩٦٦٤ بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ ، إلا أن عدد المشتغلين الكويتيين ارتفع من ٣١٧٩ إلى ٣١٨٢ .

وبما أن الصناعات التحويلية تشمل المنتجات البترولية والمنتجات غير البترولية يعود تراجع عدد المشتغلين في القطاع إلى تراجع النشاط في قطاع النفط . ومن المعلوم أن تنويع مصادر الدخل من خلال إقامة وتطوير صناعات تحويلية حظي ، ولازال يحظى ، باهتمام متزايد . وقد اعتمد هذا القطاع ، ولازال يعتمد ، على العمالة الوافدة بشكل كبير . ففي عام ١٩٨٣ ، كانت نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع فقط ٨٪ .

وبما ان نسبة كبيرة من المشتغلين في هذا القطاع هم من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٧٠ - ٧٥٪) فان درجة مرونة الاحلال فيه ضعيفة . ولذلك فمن المتوقع أن تستمر حاجة القطاع إلى معظم العمالة الوافدة التي تعمل في القطاع حاليا ، كما من المتوقع أن تنشأ العمالة الوافدة لمواجهة أي نمو في الطلب على العمالة خاصة بالنسبة لعمال الانتاج والعمال العاديين وبعض المهارات النادرة في المستقبل المنظور .

٤ - مواجهة المرحلة الانتقالية :

بينما كان العجز بين إجمالي الطلب على العمالة وعرض العمالة الكويتية يزداد باستمرار ويتزايد الاعتماد على العمالة الوافدة باستمرار تسارع النمو الاقتصادي خلال الفترة الماضية وخاصة بعد ١٩٧٣ وإلى أوائل الثمانينات ، أصبحت الزيادة في عرض العمالة الكويتية أكبر من الزيادة في اجمالي الطلب على العمالة بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ منذ ١٩٨٠ .

فبينما ازداد عدد المشتغلين « ٩٢٣٧ »« شخص » ازداد عدد المشتغلين الكويتيين « ١١٦٧٥ شخص » وانخفض عدد المشتغلين الوافدين « ٢٤٣٨ شخص » بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . وهذا يعني أن زيادة عدد المشتغلين الكويتيين تمت بزيادة عدد جملة المشتغلين (٧,١٪) وبتخفيض عدد المشتغلين الوافدين (٢٠,٩) وإحلال كويتيين محلهم .

ومنذ عام ١٩٨٤ قام العديد من مؤسسات وشركات القطاع الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية بصفة عامة وفي قطاع التشييد والبناء بصفة خاصة ، باتخاذ إجراءات لمواجهة انخفاض مستوى نشاطها وتراجع الطلب على العمالة وقد تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين لديها أو تخفيض مرتباتهم وأجورهم وإلغاء بعض المزايا التي كانت تقدمها لهم في السابق .

وقد قررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين العاملين في الوزارات والمؤسسات العامة والهيئات العامة اعتبارا من مطلع صيف هذا العام . وهذا مؤشر على اعتماد الحكومة سياسة تخفيض حجم العمالة الحكومية .

وربما كان هذا الاتجاه نابعا من شعور الحكومة بأن حجم العمالة الحكومية قد ازداد أكثر بكثير من الاحتياجات الفعلية خلال الفترة السابقة حيث أدت سهولة تمويل الانفاق العام ، بسبب تزايد العائدات النفطية ، إلى سهولة خلق وظائف جديدة باستمرار . وفي ظل تدهور العائدات النفطية واهتمام الحكومة بترشيد الانفاق العام ، فمن الطبيعي أن يكون تخفيض العمالة الحكومية بين الخيارات المتاحة لها .

وبما أن التوقعات تشير إلى استمرار تباطؤ نمو اجمالي الطلب على العمالة من جهة ، ونظرا لاتجاه زيادة العرض من العمالة الكويتية من جهة أخرى ، خلال الثمانينات على أقل تقدير ، يثور السؤال حول أفضل الخيارات الممكنة لمواجهة هذه المسألة بشكل يكفل الحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على ذلك بالنسبة لجميع الأطراف المعنية .

ويتفرع عن هذا السؤال المركزي سؤالان آخران :

الأول : ما هي المعايير التي يتم بموجبها الاستغناء عن العمالة الوافدة ؟ والآخر ما هي السياسات التي ستعتمد بالنسبة لمن سيتم الاستغناء عنهم ؟ .

أ ـ معايير الاستغناء عن العمالة الوافدة :

يتطلب النظر في معايير الاستغناء التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة في القطاع الخاص وفي الحكومة . إذ أن الاستغناء عن العمالة في القطاع الخاص أقل إثارة للنقاش وأقل تعرضا لتعدد وجهات النظر . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة في الحكومة فأكثر مجالا لاثارة النقاش ولتعدد وجهات النظر حوله .

١ ـ في القطاع الخاص :

ذكرنا أن القطاع الخاص واجه انخفاض حاجته إلى العمالة باعتماد اجراءات تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين أو تخفيض المرتبات والأجور وإلغاء بعض المزايا . وهذا يعني أن المعيار ينطلق من التكلفة والمنافع . وبصفة عامة يمكن القول أن القطاع الخاص يطبق هذا المعيار على العمالة الكويتية والعمالة الوافدة على السواء في إطار تحقيق مصلحته الخاصة . ومن الطبيعي أنه في حالة تساوي التكلفة والمنافع بين الاستغناء عن عامل وافد آخر كويتي ، ان يحتفظ بالعامل الكويتي ويستغني عن العامل الوافد . فالتوظيف أصلا في القطاع الخاص يقوم ، في المقام الاول ، على أساس الربح والخسارة وبصفة عامة لا يوظف القطاع الخاص اي شخص ، كويتي او غير كويتي ، إلا في حدود حاجته . كما أن تحديد المرتب والمزايا ، يتم في المقام الاول ، على أساس الربح والخسارة ، اي على اساس مدى الحاجة من جهة والانتاجية من جهة أخرى .

٢ ـ في الحكومة :

يذكر ان مسار وتوجهات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تأثرت بمفهوم وأهداف التنمية من جهة وبالعائدات النفطية من جهة أخرى . وتأثرت سياسات التوظيف في الحكومة بسياسات الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل .

فكفالة الحكومة وظائف عامة للمواطنين أدت ، في كثير من الاحيان ، إلى خلق وظائف للمواطنين دون حاجة فعلية لها . وكادت أن تصبح الوظيفة بالجهاز الحكومي ، في كثير من الاحيان ، وسيلة من وسائل تعميم الفائدة من

عائدات النفط . فراتب الموظف في هذه الحالة بمثابة نصيبه من عائدات النفط ، وربما يتولد شعور لدى البعض أن نصيبه ليس كافيا مقارنا بغيره .

ونظرا لسهولة التوسع في الانفاق العام بسبب الارتفاع الكبير في عائدات النفط في السبعينات تم خلق وظائف كثيرة دون حاجة فعلية لها وتم إشغالها بمواطنين (ووافدين ايضا) وأدت هذه الظاهرة إلى سلسلة من الآثار المترابطة لعل من أهمها :

(١) إضعاف العلاقة بين الكسب والعمل المثمر وبالتالي إضعاف قيم الانتاج والانتاجية والحافز الى العمل .

(٢) تضخم بيروقراطي وبالتالي انخفاض مستوى كفاءة الجهاز الحكومي وانخفاض مستوى إنتاجية المجتمع ككل تبعا لذلك .

(٣) زيادة تدهور التوازن بين العرض من العمالة الكويتية وإجمالي الطلب على العمالة لمختلف القطاعات الاقتصادية وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة .

ويتضح مما سبق أن مسألة اختيار أفضل المعايير الممكنة للتكيف مع الواقع الجديد أقل سهولة منها في القطاع الخاص . فإذا كان لابد من تخفيض حجم العمالة الحكومية ينبغي أن تتم هذه العملية في إطار خطة واضحة توضع على أساس دراسات دقيقة وكافية تعالج المسألة من مختلف جوانبها بقدر كاف من التوازن .

وقبل محاولة إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذه المسألة للتوصل إلى أفضل الخيارات الممكنة لابد من التوكيد على أن احلال الكويتيين محل الوافدين وتوظيف كويتيين مؤهلين لشغل وظائف جديدة يتم اعتمادها بناء على حاجة فعلية لها هو توجه سليم لتمكين العمالة الكويتية من لعب دور أكبر في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي هذا الاطار ينبغي التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف تزيد عن الحاجات الفعلية وبين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف لازالت الحاجة اليها قائمة . إن الغاء وظائف لا تدعو الحاجة الفعلية إلى وجودها والاستغناء عن شاغليها مفهوم ومقبول وإجراء مألوف في جميع دول العالم لمواجهة الانكماش الاقتصادي . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة بالرغم من أن الحاجة الى وظائفهم قائمة فأمر آخر .

فإذا وجد داخل الجهاز كويتي يشغل وظيفة لا لزوم لها وبنفس الوقت مؤهل للاضطلاع بمسئوليات ومهام وظيفة لازمة ويشغلها وافد ، يمكن الغاء وظيفته وإحلاله محل الوافد .

وينبغي التوكيد على هذا الامر لأن وجود عمالة زائدة عن الحاجة لا تقتصر على الوافدين ، بل وتوجد بين الكويتيين بدرجة أكبر . وبنفس الوقت من الممكن أن يوجد وافدون يشغلون وظائف في بعض الوزارات والمؤسسات لا حاجة فعلية لها وهم مؤهلون لاشغال وظائف الحاجة اليها قائمة في نفس الوزارات والمؤسسات أو في وزارات ومؤسسات أخرى ولا يوجد كويتيون مؤهلون لاشغالها .

ويتضح من كل ذلك أن الجانب الفني في المسألة متعدد الجوانب ، وما لم تتم العملية في اطار معايير واضحة يتم اختيارها وتحديدها في ضوء مصلحة العمل قد تكون النتيجة الاستغناء عن من تقتضي المصلحة العامة بقاءهم والاحتفاظ بمن تتطلب المصلحة العامة الاستغناء عنهم .

ولكي تأتي هذه العملية بالثمار المرجوة لابد من أن تتكامل مع إعادة النظر في سياسات توظيف الكويتيين التي تم اعتمادها وتنفيذها في إطار التركيز المفرط على الرفاه الاجتماعي وظله توزيع الدخل من جهة ومراجعة سياسات ومناهج

وبرامج التعليم والتدريب من جهة أخرى ، نحو بناء قوة عمل كويتية بالجهاز الحكومي قادرة على قيادة مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المرحلة القادمة .

وأما الجانب الانساني في مسألة تخفيض العمالة الحكومية لمواجهة تدهور الايرادات النفطية واضطرار الحكومة إلى تخفيض مستوى الانفاق العام ، فأمر آخر وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في اختيار أفضل بديل ممكن . فالوافدون العاملون بالجهاز الحكومي وفي المؤسسات والهيئات العامة ساهموا في مسيرة التنمية ، ومضى على عمل البعض منهم فترات طويلة . وبالرغم من صحة المقولة بأن الوافدين قدموا اصلا وهم يعرفون أنهم مؤقتون وأن عملهم سينتهي بانتهاء الحاجة اليهم ، الا أن الصحيح ايضا أنهم شغلوا وظائف دائمة وأصبح وضعهم « مؤقت دائم » .

ومن جهة أخرى ، ينبغي اعتبار الجانب الانساني لاعتبار آخر ، إذ من غير الممكن أن يتم تخفيض حجم العمالة الوافدة بدرجة كبيرة من خلال الزيادات المتوقعة في عرض العمالة الكويتية في المدى المنظور . وهذا يعني ان اعتماد الجهاز الحكومي ، وبدرجة كبيرة على العمالة الوافدة سيستمر في المدى المنظور . ومن الطبيعي أن النهج الذي سيتم بموجبه تخفيض حجم العمالة سيؤثر على المناخ الذي سيتولد لدى الوافدين الذين سيستمرون في الجهاز الحكومي . وبقدر ما يكون النهج على أساس معايير متزنة فنيا وانسانيا ، بقدر ما يفهم الوافدون الذين لم يأت دورهم للاستغناء عنهم مبررات الاستغناء عن الاخرين وقبولها ، وإلا فإذا كانت المعايير عرضة للطعن يتولد لديهم شعور بضعف الرضى والارتياح ، وقد يؤدي ذلك الى انخفاض معنوياتهم وبالتالي مستوى انتاجيتهم .

ب ـ الخيارات المتاحة لمن يتم الاستغناء عن خدماتهم :

ترتبط إقامة العامل الوافد بالعمل كما ترتبط إقامة مرافقيه من أفراد أسرته باقامته . وهذا يعني أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان الاقامة . وما لم يتمكن من يفقد عمله في جهة معينة من ايجاد عمل في جهة اخرى ، في حدود القوانين والضوابط والشروط المعمول بها من جهة وفي خلال الفترة المسموح له البقاء خلالها بعد انتهاء عمله وإلغاء إقامته من جهة أخرى ، وبالتالي نقل إقامته ، لا خيار له العودة إلى بلده .

نظرا للنمو الاقتصادي وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة خلال الفترة الماضية كان من السهل على من تنتهي خدماته في أي جهة أن يجد عملا آخر في جهة أخرى بسهولة . أما في ظل الانكماش الاقتصادي وتراجع الطلب على العمالة فالامر مختلف تماما . لذا قد يكون من مصلحة جميع المعنيين بالأمر النظر في إمكانية اعتماد سياسة بخصوص العمال المهاجرين تأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

١ ـ لا يواجه من يتم الاستغناء عن خدماتهم سواء في القطاع الخاص أو الحكومة نفس الظروف .

فالبعض منهم مضى على إقامتهم في الكويت فترات طويلة نسبيا وتعودوا على نمط الحياة فيها ، وربما أصبحت جذورهم فيها أقوى منها في بلدانهم الأصلية . أليس من الممكن إتاحة قدر من الاختيار بين العودة إلى بلده أو البقاء في الكويت لمن قضى فترات طويلة قد تزيد عن ربع قرن ؟

٢ ـ تختلف الظروف الاقتصادية السائدة في بلدانهم . فالعامل الاقتصادي كان ، في المقام الاول ، سبب هجرة العمالة الوافدة إلى الكويت . لذلك ستتأثر رغبتهم في العودة إلى بلدانهم أو البقاء في الكويت بالظروف الاقتصادية لبلدانهم .

٣ ـ كما أدت الهجرة إلى ازدهار الطلب على السلع الاستهلاكية والاسكان بصفة خاصة ستؤدي الهجرة المعاكسة ، إذا ما تمت بسرعة ، إلى تراجع الطلب وبالتالي إلى زيادة حدة الانكماش الاقتصادي .

ولكن قد يقال أن الهجرة المعاكسة تتسق مع الرغبة في تخفيف عبء النفقات العامة على الخدمات . هذا صحيح ولكن علينا أن نتذكر أن تخفيض عدد المستفيدين من الخدمات لا يؤدي بالضرورة إلى تخفيض كلفة تقديم الخدمات للفرد بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين . إذ أن هناك تكاليف بغض النظر عن حجم المستفيدين . وفي ظل الادارة الماهرة للخدمات تنخفض كلفة تقديمها للفرد الواحد بزيادة عدد المستفيدين .

٤ ـ تراوحت السياسات التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية بخصوص العمال المهاجرين بين العمل على استيعاب من يرغب منهم البقاء على نحو دائم وتقديم حوافز مالية لمن يختار منهم العودة إلى وطنه(١٢) .

التوجه نحو المستقبل :

ذكرنا سابقا أن تحقيق التوازن السكاني هو المحور الأساسي لمسار وتوجهات خطة التنمية الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ ـ ١٩٨٩/١٩٩٠ . بافتراض استمرار نمو السكان الكويتيين بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠ بنفس معدل نموهم بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ ، ٣,٧٤٪ سنويا ، سيبلغ عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . ويتطلب تحقيق التوازن السكاني ان لا يزيد عدد السكان غير الكويتيين عن عدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ . فاذا افترضنا ان عدد السكان غير الكويتيين سيكون مساويا لعدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ من المفروض ان لا يتجاوز معدل نمو السكان غير الكويتيين ١٪ خلال الفترة ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ .

ان التحكم في نمو السكان غير الكويتيين في حدود معدل ١٪ سنويا يعني هجرة معاكسة يتوقف حجمها على معدل نموهم الطبيعي . بافتراض ٢ ـ ٣٪ معدل نمو طبيعي لهم سيتراوح مجموع حجم الهجرة المعاكسة بين ٣٥١٢٣٨ و ٥٦٦٦٣٠ .

ويمكن التحكم في نموهم في حدود ١٪ لتحقيق التوازن السكاني من خلال تلبية الطلب على العمالة من الداخل ووقف استيرادها من الخارج وقصرها على الحالات التي يتعذر تلبيتها من الداخل من جهة واعتماد سياسات وقوانين وضوابط من شأنها ان ترفع معدل المشاركة وبالتالي تخفض معدل المرافقة من جهة أخرى .

إن التوجه نحو تلبية نمو الطلب على العمالة من العرض المحلي منها من العمالة الكويتية أولا ومن العمالة الوافدة الموجودة في الكويت ثانيا وقصر استيراد عمالة وافدة جديدة على الحالات الخاصة التي يعجز العرض المحلي عن تلبيتها توجه في الطريق السليم .

أما التحكم في معدل المرافقة للعمالة الوافدة فمسألة أخرى . يختلف معدل المرافقة باختلاف جنسيات العمالة الوافدة . وبصفة عامة ، معدل المرافقة للعمالة العربية أعلى بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية .

كان معدل المرافقة للعمالة العربية ٦٣,٨٪ وللعمالة الآسيوية ٣٥,٣٪ عام ١٩٧٥ . ونتيجة لتعديل الضوابط والشروط لاصطحاب أو إحضار أفراد الأسر انخفض معدل المرافقة للعمالة العربية إلى ٥٩,٧٪ وللعمالة الآسيوية إلى

---

(١٢) مكتب العمل الدولي ، أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والسبعون ، مارس ١٩٨٦ ص ٩ .

٣ , ٢٨٪ عام ١٩٨٠ . ولكن بالرغم من الانخفاض بقي معدل المرافقة للعمالة العربية أكبر بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية[١٣] .

وجدير بالذكر أن نسبة العمالة العربية انخفضت من ٦٩,٠٪ إلى ٥٩,٦٪ بينما ارتفعت نسبة العمالة الأسيوية من ٢٩,٤٪ إلى ٣٨,٠٪ بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠ . وأدى ذلك إلى انخفاض نسبة السكان العرب من جملة السكان غير الكويتيين من ٨٠,٢٪ إلى ٧٢,٥٪ وارتفاع نسبة السكان الآسيويين من ١٨,٧٪ إلى ٢٥,٨٪ بين نفس العامين .

يتضح مما سبق أن استخدام العمالة الآسيوية يتسق أكثر مع هدف تعديل التركيبة السكانية . ولكن يستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الآثار التي يمكن أن تترتب على تفضيل العمالة ذات معدلات المرافقة المنخفضة ، العمالة الآسيوية في هذه الحالة .

يؤدي انخفاض معدل المرافقة للعمالة إلى ارتفاع معدل المشاركة لها ، ويتبع ذلك ارتفاع نسبة الذكور وبالتالي انخفاض مستوى النضج السكاني الذي تترتب عليه آثار اجتماعية .

ومن جهة أخرى فإن نمط حياة العامل الذي يعيش في الكويت بمفرده يختلف عن نمط حياة من يعيش وأفراد أسرته . فحجم ونوع طلب من يعيش بمفرده على السلع الاستهلاكية وعلى السكن بوجه خاص يختلف عن حجم ونوع طلب من يعيش وأفراد أسرته . ويتبع ذلك أن نسبة انفاق من يعيش بمفرده من دخله ستكون منخفضة جدا بينما ترتفع نسبة تحويله من دخله للخارج . وهذا يعني أن مساهمة من يعيش بمفرده في تنشيط الدورة الاقتصادية أقل بكثير من مساهمة من يعيش وأفراد أسرته .

ولعل الاهتمام بمسألة معدل المرافقة الوافدة نبع من الاهتمام المشروع بتخفيض عبء كلفة الخدمات . إن تقديم بعض الخدمات مجانا أو لقاء رسوم مدروسة ظاهرة عالية ولا تقتصر على الكويت .

إن عبء توفير الخدمات لا ينخفض عادة بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين بل من المفروض أن تنخفض كلفة توفير الخدمات للفرد بازدياد عدد المستفيدين منها في ظل ادارة ماهرة لها .

وطالما أن الحاجة إلى العمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور يكمن التحدي الكبير في خلق مناخ يسهم في تحسين أوضاعهم وزيادة الاستفادة منهم على السواء .

لقد أدى ما قيل وما نشر عن الاستغناء عن خدمات بعضهم مؤخرا الى خلق مناخ ساده القلق وضعف الشعور بالاستقرار . إن الميل نحو الاستقرار وزيادة الشعور بالارتياح من شأنه أن يرفع من مستوى استقرارهم النفسي ويرفع بالتالي الرغبة في العمل ورفع الانتاجية ، ولعل النظر في إمكانية منح الاقامة شبه الدائمة أو الدائمة خاصة لمن أمضوا فترات طويلة وممن يتضح استمرار الحاجة لهم في المدى المنظور ، من جهة ، ومساواتهم بالمواطنين في المعاملة والرتبات والأجور من جهة أخرى ، من أهم العوامل التي تسهم في خلق وضع أفضل لهم وللكويت على السواء .

* * *

---

(١٣) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٢ ، الجدول ٣٩ (السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول والنوع وسبب الاقامة) ص ٥٥ .

المراجع

١ ـ أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والتسعون ، مارس ١٩٨٦ .

٢ ـ دولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ .

٣ ـ دولة الكويت ، مجلس التخطيط ، إدارة الاحصاء المركزية ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٦٤ .

٤ ـ د. سليمان شعبان القدسي ود. موريس عوض الله جرجس ، «بعض السمات والآثار الاقتصادية للعمالة الوافدة إلى الخليج العربي : حالة الكويت» ، النفط والصناعة ، العدد السادس ١٩٨٥ ، ص ٧ ـ ٣٩ .

٥ ـ نعيم الشربيني : «العمال الأجانب في البلدان العربية المنتجة للنفط : هل ستستمر القفاقة المتدفق ؟» ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١/ رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣١ ـ ٣٧ .

٦ ـ مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العربي للتخطيط ، العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات ندوة «العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي» ، الكويت ١٥ ـ ١٨ يناير ١٩٨٣ .

٧ ـ المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي ، الكويت ١٦ ـ ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ .

٨ ـ The Economic Intelligence Unit Ltd., Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Volume XVIII, Study Area 2, Report submitted to the Government, May 1974.

***

البيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة الدولية

أمل يوسف الصباح

أستاذه مساعدة بقسم الجغرافيا

كلية الآداب

جامعة الكويت

مقدمة

تعد الهجرة الدولية للسكان قديمة قدم الجنس البشري ، إلى جانب أن السجل التاريخي لظاهرة الهجرة كشف عن أن الهجرات الدولية قد نمت وتزايدت ليس في حجمها فقط ، بل في المسافات التي تغطيها من مكان إلى آخر ، وفي مستهل دراستنا لهذه الظاهرة ينبغي أن نعلم أن الهجرات ـ قديما وحديثا ـ كانت عاملا مهما في تاريخ تطور وتقدم الجنس البشري .

ولقد كانت هناك حركات سكانية كبرى تمت في وقت مبكر ـ أي منذ العصر الجليدي ـ وقد اتجهت تلك الحركات من أحد الأقاليم السكانية الكبرى في العالم والمأهولة بأعداد كبيرة بالسكان ، الى مناطق أخرى سواء بالقرب من شمال غرب الهند أم الهند الصينية ، بالاضافة إلى ذلك فقد كانت هناك حركات سكانية كبرى حدثت بعد ذلك الوقت ، إلا أنها قديمة أيضا وشملت قلب العالم القديم وفي كلتا الحالتين كان السبب الرئيسي لحدوث تلك الحركات السكانية يتمثل في التغيرات المناخية التي كان من نتيجتها تكرار فترات الجفاف النسبية . (انظر شكل رقم ١) .

أما الهجرات الحديثة فتنقسم تاريخيا إلى مرحلتين ، وفي المرحلة الأولى منها والتي امتدت منذ الكشوف الجغرافية والاستعمار حتى القرن الثامن عشر ، وفي هذا المدى الزمني الذي يمتد لأكثر من ثلاثة قرون لم تزد جملة المهاجرين طوال هذه الفترة عن بضعة مئات من الألوف ، وهذا يرتبط بكثير من التغيرات مثل وسيلة الانتقال عبر المحيطات والقارات أو المرحلة التكنولوجية بصفة عامة ، ويعد تعمير الأوربيين لقارات العالم الأخرى غير قاراتهم من أعظم الهجرات البشرية في التاريخ والتي تمت في تلك الفترة الزمنية حيث بدأت منذ القرن السادس عشر (أنظر شكل رقم ٢) .

وبذلك نجد أن الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن عشر لم تشهد إلا القليل من الهجرات السكانية الدولية التي كان يسيطر عليها ويكبلها طغيان عامل المسافة ، الا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، حيث أنه منذ القرن الثامن عشر ومابعده وهذه الفترة تمثل المرحلة الثانية وفيها بدا يظهر بوضوح الخط الفاصل بين مجتمع ساكن مستقر وبين مجتمع كثير الحركة أي منذ الثورة الصناعية التي عمت أوربا في تلك الفترة ، والتغيرات التكنولوجية التي أفرزتها هذه الثورة والتي ساعدت وبشكل فعال على اتساع حيز المسافة التي تم بها أو فيها بينها الهجرات البشرية ، بحيث أن تلك الظاهرة لم تشمل الدول الأوروبية التي تحقق بها التقدم الصناعي فقط بل وتعدتها إلى الدول البعيدة عن أوروبا ، وقد حدثت هذه التغيرات ولكن في وقت مبكر في كل من بريطانيا ودول غرب أوربا ، ثم فيما بعد ذلك عمت تلك الظاهرة وبشكل أكثر وضوحا لتشمل بالفعل العالم كله خصوصا وبخاصة في القرن العشرين . (انظر شكل ٣ ، ٤) .

وقد أشار الباحث هاجيت (Haggett)[1] وبأسلوب مختصر لكيفية وقابلية السكان على الحركة في القرن العشرين من مكان إلى آخر فذكر « أن التزايد السريع للحركات السكانية يعد احدى الصفات البارزة التي بدت في هذا القرن ، أي القرن العشرين ، بحيث أن المعلومات المتعلقة في كل من المجالات الرئيسية لحركة السكان والبضائع أيضا ـ قد نمت وتزايدت بثبات أكبر ، نظرا لأثر التقنيات الحديثة التي ساعدت على التقليل من القيمة النسبية للمسافة » ، وهذا يعني أن الحركات السكانية أصبحت في الوقت الحاضر بمثابة حركات عامة وشائعة بالنسبة لغالبية الناس ، بعد أن كانت في السابق مجرد حركات قليلة ، ولا تتم إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن بين كل منها والأخرى التي تليها [2] .

وتكمن أهمية ظاهرة الهجرة الدولية للسكان سواء أكان منها على المستوى العالمي أم على المستوى المحلي ، في أنها تعد العنصر الأساسي الثالث المؤثر في حجم السكان في أي دولة بالعالم ، حيث نجد أن تأثيرها على الحجم السكاني بدولة الكويت أي على المستوى المحلي يعد واضحا ، وبخاصة أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ ، أما العنصران الاول والثاني فيمثلها كل من المواليد والوفيات ، ولذلك فإن أهمية الهجرة الدولية تكمن في الأثر المباشر على نمو أو تناقص السكان في أي دولة ومن ثم فإن تأثيرها ينسحب أيضا على تلك التغيرات التي تطرأ على الخصائص الديموجرافية المختلفة للسكان في تلك الدولة ، إن كان في البلدان أو المناطق الأصلية للمهاجرين (Ares of origin) أو في البلدان أو المناطق المقصودة أو المستقبلة لهم (Destination of Areas) .

بالاضافة إلى ماسبق ذكره فإن أهمية الهجرة تكمن ـ أيضا ـ في تأثيرها على كل من النمو السكاني والقوى العاملة في أي منطقة من المناطق المستقبلة لهذه الهجرة ، أو المرسلة لها .

ويركز العلماء والمتخصصون عند دراسة موضوع الهجرة الدولية على أحد الجوانب المتعلقة بتلك الظاهرة كل منهم بحسب اختصاصه ، فنجد أن علماء الاجتماع يركزون عند دراسة هذه الظاهرة على التأثيرات الاجتماعية والنفسية لتلك الظاهرة على كل من المهاجرين من جهة ، وعلى سكان المناطق المرسلة أو المستقبلة لهذه الهجرة من جهة أخرى ،

(١) Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward arnold, London, 1965, P. 42.

(٢) Zelinsky, W. The Hypothesis of The Mobility Transition" Geographical Review, 61, 1971, P. 219 - 49.

وكذلك يتناولون بالدراسة والتحليل مدى امتصاص التبادل الثقافي للسكان المهاجرين ، أما الاقتصاديون فيركزون عند تناولهم موضوع الهجرة بالدراسة والتحليل على العلاقة المتبادلة بين الهجرة ودورة العمل ، بالاضافة إلى مدى تأثير الهجرة على سد احتياجات الدولة المستقبلة للعمال المهاجرين المهرة وغير المهرة ، وأيضا مدى تأثير الهجرة على النمو الصناعي ، وأخيرا يركزون على دراسة الوضع المهني والوظيفي للمهاجر .

أما المشرعون والسياسيون فعندما يتناولون ظاهرة الهجرة بالدراسة والتحليل فنجدهم يركزون على صياغة القوانين ووضع السياسات ذات العلاقة المباشرة بالهجرة ، ويركزون أيضا ولكن بدرجة أقل شأنا على القوانين التي تسن وتتبع تجاه الهجرة القادمة وبخاصة فيما يتعلق منها بمنح المهاجرين حق الاقتراع (٣) .

ويقدم هذا البحث دراسة تحليلية لمراحل تطور الأساليب المختلفة التي تتبع عادة عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة الدولية للسكان على المستويين الدولي والمحلي ، وبخاصة أن تلك الظاهرة أصبحت شائعة حاليا في وقتنا الحاضر ، بل وتعم جميع أفراد الجنس البشري ، مهما أختلفت مستوياتهم الاقتصادية أو الاجتماعية ، وأصبحت هذه الظاهرة ـ أيضا ـ تحدث في كل لحظة وفي كل مكان وبين أعداد كبيرة من السكان في المجتمع الواحد ، وبناء على ذلك وما لهذه الظاهرة من أهمية وبخاصة في مجالات البحث المعاصر نظرا لما لها من علاقة وطيدة بحياة المجتمعات الحديثة ، فان الهدف الأساسي إذا من هذا البحث يتلخص في متابعة التطورات التي حدثت على أساليب جمع المادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق منها بالبيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة على المستويين الدولي والمحلي ، أي داخل دولة الكويت ، من أجل الوصول الى معرفة الوضع الراهن لهذه البيانات ومدى توفرها ، وكيفية الحصول عليها ، وبخاصة أن لهذه الظاهرة أثرا كبيرا على كل من السكان في الدولة المرسلة للمهاجرين من جهة والدولة المستقبلة لهم من جهة أخرى ، وتتمثل هذه الأهمية في الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة سواء أكان منها الآثار الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، التي تعم كافة المجتمع داخل الدولة على المستويين الدولي ، أو المحلي أي بدولة الكويت التي يعد أبرز أثر لهذه الظاهرة على اجمالي السكان أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥م ، كما ذكرنا قبل قليل .

أما بالنسبة لهيكل البحث فهو ينقسم الى خمسة أقسام يتناول الأول منها تعريفا للهجرة الدولية ، ثم يليه القسم الثاني الذي يقدم من خلاله شرحا مفصلا لأسباب حدوث ظاهرة الهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، يتبعها القسم الثالث الذي يعرض وبشكل مفصل للأساليب التي تتبع عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، يليه القسم الرابع الذي يخصص لعرض وتقييم سجلات الهجرة الدولية ، ثم القسم الخامس والأخير الذي يتناول ـ أيضا ـ بالدراسة والتحليل لسجلات الهجرة وتطورها على المستوى المحلي .

وقد رأينا استكمالا لهذه الدراسة إضافة ملحق يحتوي على الجداول الاحصائية الخاصة ببيانات الهجرة على المستوى المحلي ، بالاضافة الى ملحق آخر يحتوي على الأشكال البيانية والخرائط الخاصة بالهجرة على المستويين العالمي

(٣) Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, The Methods and Materials of Demography, Condensed Edition By Edward G. Stockwell, Bowling Green University, Bowling Green, Ohio, New York, 1976, P. 349.

والمحلي ، لتساعد كافة تلك البيانات في إيضاح الرؤية حول كيفية تطور تيارات الهجرة السكانية في الفترات الزمنية المتتالية على المستويين العالمي والمحلي ، وبخاصة من حيث حجمها واتجاهاتها والاسلوب المتبع في جمع بياناتها .

وفي خاتمة هذه المقدمة لابد من ذكر أنه لايخفى على الباحثين والمتخصصين أمر صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي عالجت ظاهرة الهجرة ، وربما يكون هذا البحث بمثابة الدراسة الأولى من نوعها التي عالجت بالدراسة والتحليل وبشكل مفصل أسلوب جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة ، ان لم يكن بالطبع على المستوى العالمي ، فهو بالتأكيد على المستوى المحلي ، والله الموفق .

١ - تعريف الهجرة :

الهجرة حسب تعريف قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة هي ظاهرة جغرافية يعني بها انتقال السكان من منطقة جغرافية إلى أخرى ، وبالتالي [illegible]م عن ذلك تغير مكان الاستقرار الاعتيادي للفرد ، أي تغير هذا المكان عبر الوحدات الجغرافية ذات الحدود [illegible] اضحة ، وهذا النوع من الهجرة أي الهجرة الدولية هي مركز اهتمامنا في هذه الدراسة ، وقد أوردنا [illegible]يد حتى لا يكون هناك نوع من الخلط بينها وبين أنواع أخرى من الهجرات الشبيهة بالظاهرة التي هي مركز [illegible] هذا البحث ، ومثالا على ذلك أن هناك بعض التغيرات التي تطرأ على مكان اقامة الفرد ولكنها في غالب الأحوال لا تدخل ضمن نطاق التعريف السابق للهجرة ، وبخاصة إذا كان التغير مؤقتا وليس له أي تأثير على مكان الاقامة المعتاد (Usual Residence) ، بالرغم من أن أفراد تلك الظاهرة عبروا حدودا دولية ، إلا انهم في الوقت ذاته من الممكن أن يضموا إلى أولئك الافراد الذين يقومون برحلات قصيرة الأمد يكون الغرض منها الزيارة أو قضاء الاجازة أو انجاز بعض الأعمال ، بالاضافة إلى ذلك فان هناك نوعا آخر من التغيرات التي تطرأ على مكان الأقامة وتتميز هذه التغيرات بأنها دائمة ، وبالرغم من ذلك فإنها تعد مجرد حركات تمت عبر مسافات قصيرة ، بحيث أن مجال تأثيرها يكون عادة على الهجرات الداخلية فقط ، وبالتالي ليس لها أي أثر على الهجرة الدولية ، وبشكل عام فإن استعمال مصطلح مدة الاقامة يقتصر على التغيرات المستمرة في مكان الاقامة وبخاصة تلك التي تتم بين المناطق ذات التصنيف السياسي المحدد بوضوح أو تلك التي تتم بين المناطق الاحصائية .

و مما هو جدير بالذكر أن الدراسات الديموجرافية عادة تتناول بالدراسة والتحليل وبشكل خاص ومركز لنوعين رئيسيين من الهجرة ، هما الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، حيث يعزى السبب المهم و الرئيسي في حدوث هذين النوعين من الهجرة إلى حركة السكان عبر الحدود الدولية ، في النوع الأول ، بينما نجد أن النوع الثاني من الهجرة لا تخضع لذلك لان حركة السكان تتم عبر الحدود الادارية الداخلية ، اللهم إلا في دول المعسكر الشيوعي الذي تخضع الهجرة الداخلية فيه للسلطات الحكومية . ويتم بعد ذلك تصنيف الهجرة الدولية كهجرة من وجهة نظر كل من الدولة المرسلة أو المصدرة للمهاجرين ، وكمهجرين من وجهة نظر الدولة المستقبلة أي التي يصل اليها هؤلاء المهاجرون ، إلا انه عند احتساب مدة الاقامة في حالة الهجرة الداخلية فإنه ينطبق عليها نفس الشروط التي تستعمل في حالة الهجرة التي تتم عبر الحدود الدولية ، ووجه التشابه والاختلاف بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية غير واضح المعايير في بعض الأحوال نتيجة لعدم توفر الحكم الذاتي لبعض الاقاليم ، الآن بعضها الآخر يعد مستقلا ، والأمثلة على ذلك

كثيرة واعتمادا على ما تعرضه البيانات الإحصائية الصادرة من قسم السكان بهيئة الامم المتحدة والخاصة بالحركات السكانية بين المناطق المحتلة في الفترة الزمنية التالية للحروب الألمانية والتي تمت بين بورتوريكو والولايات المتحدة الامريكية ، أو بين فرنسا والجزائر فإن هذه الحركات من الممكن أن تصنف على أساس أنها : إما هجرات دولية أو هجرات داخلية ، حيث أن التطور التاريخي لأي دولة في العالم ربما يشتمل على منطقة غير مستقلة لبعض الوقت ، إلا أن هذه المنطقة تتحول إلى منطقة مستقلة مع مرور الزمن ، وخلال فترة التحول هذه ربما لا يكون هناك أي احتمال لاعادة جدولة الأرقام وتحويلها من هجرة داخلية إلى هجرة دولية ، والمثال الأخير على ذلك أن البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة في المملكة المتحدة كانت تضم إليها الأرقام الخاصة بجمهورية ايرلندا في الفترة الزمنية السابقة لليوم الأول من شهر إبريل عام ١٩٢٣ .

بالإضافة الى ما سبق فإنه حتى في حالة تعريف الهجرة الدولية نجدها تشترك في الكثير من التحديدات والأحكام الخاصة بها مع تلك الأحكام الخاصة بالهجرة الداخلية بل وتنطبق معها كلية ، وبخاصة في حالة الحوافز الاقتصادية (٤) .

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره فمازال هناك اختلاف واضح بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق منها بمصادر البيانات الاحصائية ونوعيتها وقيمتها ودرجة كفاءتها والأسلوب المتبع عند الدراسة التحليلية لهذه البيانات في كل منها (٥) .

٢ ـ أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها :

ذكرنا قبل قليل أن موضوع الهجرة الدولية يعد من المواضيع المهمة جدا ، ولذلك اهتمت به كافة العلوم الاجتماعية ، نظرا لأثر الهجرة الكبير على حجم السكان في أي بقعة بالعالم الناتج عن التدفقات السكانية بنوعيها أي تلك الهجرة المتجهة نحو الداخل (In Flew) أو تلك الهجرة الى الخارج (Out Flew) في كل من الدول أو الاقاليم وبخاصة الآثار الاقتصادية منها ، كذلك يمتد أثر الهجرة على الخصائص السكانية والانماط الاجتماعية للبنية السكانية ، وبناء على ما سبق فان الجغرافيون مدركون تماما لأهمية المشكلات الناجمة عن الهجرات السكانية ، ولذلك يتناولونها بالدراسة والتحليل بوسائل متنوعة ومتغيرة (٦) .

وقبل أن نتناول بالدراسة والتحليل أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها لابد من أن نوضح ونميز بين نوعين من الهجرة لكل منها أسبابه وعوامله المؤثرة في حجم واتجاه هذه الهجرة ، النوع الأول من الهجرة الدولية يتمثل في الهجرة الاختيارية (Valuntary) التي تتم بالمبادرة الفردية من الأشخاص بأن يتحركوا من مكان لآخر بغرض الهجرة سعيا وراء ظروف أفضل ، وهذا النوع هو الذي يعنينا بهذه الدراسة ، أما النوع الثاني فتمثله الهجرة الاجبارية (Compulsory) التي تتم بوساطة قوة خارجية على غير إرادة الافراد مثل عمليات التهجير التي تحدث في بعض

(٤) John T. Clarke, Population Geography, 2 end Edition, England, 1972, P. 140.
(٥) Henry S. Sryock, Jacob S. Siegel and Association, Op. Cit. P. 349.
(٦) G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982, P. 99.

الدول تنفيذا لسياسات معينة ، وهو ما حدث في الاتحاد السوفيتي مثلا ، أو حين قام النازيون بتهجير جماعات مختلفة من بعض الدول الأوروبية إلى دول أخرى ، وقد يفد الناس من دولة ليعيشوا في أخرى هروبا بحياتهم أو عقيدتهم ، ومن أقدم الأمثلة الهجرة الاسلامية الأولى إلى الحبشة ، وفي العصر الحديث نجد صورا كثيرة من هذا النوع مثل اللاجئين الذين فروا من البطش النازي في أوربا أو من فلسطين بتأثير الارهاب الصهيوني ، وكثيرا ما تحدث ظاهرة اللاجئين في أثناء الحروب ، مثل ما حدث في ألمانيا بعد التقسيم ، أو حين انشئت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، أو حين انفصلت بنجلادش عن الباكستان في عام ١٩٧٢ (٧) .

وعنصر الهجرة الدولية الاختيارية لا يعد بمثابة عنصر فسيولوجي كما هو الحال في عنصري الولادة والوفاة « كما ذكرنا في السابق » ، بل هو عبارة عن استجابة البشر لتسلسل التطور الاقتصادي ، كذلك تتم الهجرة نتيجة للحوافز الاجتماعية والسياسية والثقافية المتوفرة داخل البيئة أو المحيط الاجتماعي ، وهذه الحوافز جميعها سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم الثقافية تعطي بدورها أهمية للموقع الجديد والذي تحول بناء على توفر تلك الحوافز أو بعض منها إلى مركز جذب للسكان المهاجرين ، ونتيجة لتلك التغيرات الداخلية للبيئة التي طرأت على هذا الموقع فقد أثر ذلك بدوره على مدى التغير الذي بدا على مبدأ التقييم الشخصي لهذا المكان ، حيث تتولد الرغبة الشخصية في الهجرة ، وبخاصة اذا كان هذا الشخص يشعر بعدم الرضا عن المكان الذي يستقر فيه ، ولابد من أن نذكر أن مدى أثر الرغبة الشخصية على الهجرة سواء أتمت أم لم تتم تكون عادة متفاوتة من شخص الى آخر وفقا للاحتياجات الشخصية ، وبالمقابل أيضا فإن عملية كبح جماح الرغبة الشخصية تجاه الهجرة يعتمد على مدى قوة استياء هذا الشخص أو عدم رضاه من المكان الذي يستقر فيه (٨) . وكمثال على ذلك ، ووفقا لما ذكره الباحث لورد ايفرسلي (Lord Eversley) (٩) من أن أسباب الهجرة الجماعية الضخمة للعمال ، والتي تمت بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية أي تلك الهجرة التي خرجت من الريف واتجهت الى المدن في انجلترا وويلز خلال القرن التاسع عشر ، لا تعزى فقط الى الازدهار الاقتصادي الكبير الذي ميز تلك الفترة ، أو نتيجة للارتفاع الشامل في الرواتب بالمناطق الصناعية أو مناطق التعدين ، وانما ترجع أيضا الى تنامي الاستياء الذي عم بين العاملين بالمناطق الريفية تجاه العمل بالزراعة ، نتيجة لقلة فرص العمل بالريف بالاضافة الى ما سبق فإن هؤلاء العمال كان لديهم الرغبة في الحصول على قدر أكبر من الحركة والاستقلالية التي تكون متوفرة عادة في حياة المدن .

ويدخل ضمن العوامل المسببة للهجرة عاملان غير معروفين أو ظاهرين ، الا أن هذين العاملين أثبتا وجودهما ، وقد تمثل العامل الأول في أن حافز الهجرة يبرز عادة لدى الفرد نتيجة للتغيرات الداخلية التي تحدث في بيئة أو محيط هذا الفرد ، أما العامل الثاني فقد تمثل في أن حافز الهجرة يظهر نتيجة للتغيرات التي تطرأ على الباعث الفردي للهجرة .

(٧) احمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٩٨ .

(٨) Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975, P. 10.

(٩) Eversley Lord, "The decline in The number of agricultural Labourers in Great Britain, Journal of The Royal Statistical Society, 10, England, 1907, P. 280 - 3.

مما سبق ذكره نجد أن هناك تأكيدا على أن عملية تحليل أسباب الهجرة تمثل عنصرا جديرا بالعناية والاهتمام ، حيث أن قرار الهجرة هو قرار شخصي ، يعتمد في الأساس على أن الشخص ذاته هو الذي يقرر ـ اين سينتقل ، ويتعلق قراره هذا بمعايير ، بحيث أن غالبية الأبحاث التي تناولت بالدراسة والتحليل موضوع أسباب الهجرة تؤكد على أن العامل الثاني والذي تمثل في الحافز الفردي يعد السبب الرئيسي لهذه الهجرة (١٠) ، ومع ذلك نجد أنه في الفترة الأخيرة تحول المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتخذ بها قراره على الهجرة ، الى بؤرة الاهتمام كسبب رئيسي للهجرة ، بالاضافة إلى ما سبق نجد أنه على الرغم من أن هناك الكثير من الدراسات العديدة والمتنوعة التي تناولت العوامل المسببة للهجرة بالمناقشة والتحليل ، الا أن الباحث لي (Lee) (١١) تناول بالتحليل والتقييم تلك الدراسات وظهر بنتيجة مفادها أنه يجب على المهتمين والمتخصصين بظاهرة الهجرة توخي الحذر عند مناقشة هذه الدراسات وتفسيرا لكل من أسباب الهجرة ونتائجها ، وحتى وقتنا الحاضر لم نستطع أن نتوصل الى وضع تصنيف ذي صياغة أكثر تحديدا وتركيزا لأسباب الهجرة ، حيث أنه من الممكن اعتبار تلك الأسباب كعوامل مفروضة الا أنه وبشكل عام نستطيع التركيز أكثر على عدد قليل من العوامل المسببة للهجرة ، وبخاصة تلك التي تأخذ مكانة متميزة لأهميتها (١٢) ولكي تكون دراستنا لأسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها أكثر شمولية ودقة ، إلى جانب الأسباب والعوامل السابقة ، سنتعرض بالدراسة التحليلية لعوامل الجذب والدفع المسببة للهجرة ونوردها فيما يلي :

ـ عوامل الجذب والدفع (١٣) :

منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ فسر الباحث هيربرل (Herberle) العوامل المسببة للهجرة وذكر بأنها تكمن أساسا في أن هناك قوى جادة تتفاعل لدى الفرد وتشجعها على مغادرة المكان (الدفع Push) وتغريه على الانتقال إلى مكان آخر (الجذب Pull) ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت الاحتياجات الفردية غير متوفرة أو غير مشبعة في المكان الذي يستقر به الفرد ـ أي في مكان استقراره الأصلي ـ فحينئذ يساور هذا الفرد التفكير المستمر في الانتقال الى مكان آخر ، حتى لو كان هذا الفرد على قناعة تامة من موقعه الحالي أي مكان استقراره الأصلي ، الا أن المعلومات التي تتوفر لدى الفرد ذاته حول امكانية الحصول على فرص أفضل في مكان آخر مما يساعده على الاقتناع الشخصي بأخذ قرار الانتقال ، وعلى أية حال فمن المتعارف عليه أن لكل هجرة عوامل جذب ودفع متعددة قد تتفاعل تأثيراتها ، وبناء على ذلك فقرار الانتقال من مكان الى آخر لايتخذ نتيجة لعامل أو سبب معين من أسباب الهجرة ، بحيث يمكن تمييزه أو فصله عن غيره من العوامل الأخرى ، وبالرغم من ذلك فمن الدراسة والبحث في العوامل المسببة للتدفقات الضخمة للهجرة ، تبين أن الحوافز المشتركة لعامل الانتقال عند الافراد أصبح ثابتا ، وقد استطاع جارنير بيجو (J. Bogue) (١٤) ببراعة تلخيص عوامل الدفع والجذب التي نوردها فيما يلي :

---

(١٠) Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass. 1980.

(١١) Lee, E, S. A Theory of Migration, Demography, 3. 1966, P. 47 - 57.

(١٢) G.J. Lewis, Op. Cit. P. 101.

(١٣) Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration. A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938, P. 932 - 50.

(١٤) Bogue, D.J. Techniques and hypotheses for The STudy of differential Migration: Some notes From an experiment with United States data, Proceedings of the internation Conference, 2, Session 4, No. 114. 1961.

أ ـ عوامل الدفع (Push Factors)

ـ تراجع أو هبوط الثروة القومية أو الاسعار المدفوعة لها ، ونقص الطلب على الانتاج الفردي أو الخدمات في الصناعات الفردية ، كاستهلاك المناجم والغابات والزراعة .

ـ فقدان الوظيفة الناتج عن العجز والاعفاءات ، الذي يتولد عن تراجع الطلب على الأنشطة الفردية أو لاستخدام المكننة أو الآلات الأوتوماتيكية لانجاز الاعمال التي كان يؤديها الأفراد .

ـ المعاملة التي تتصف بالقمع والظلم الناتجة عن أسباب سياسية أو دينية أو لاصول عرقية أو عضوية .

ـ عزل الفرد أو إبعاده عن المجموعة نتيجة الى أن هذا الفرد يكون مؤيدا لعقيدة سائدة ، وبخاصة ان كان هذا التأييد مؤثرا على أسلوب تصرفاته داخل عائلته أو مجتمعه .

ـ الانسحاب من المجموعة لعدم التعاون فيما بينها ، أو نتيجة لعدم توفر الفرص التي تساعد على تنمية الوظائف الفردية أو الجماعية .

ـ الانسحاب من المجموعة نتيجة لحدوث الكوارث كالفيضانات أو الجفاف أو الحرائق أو الزلازل وأخيرا الأوبئة .

ب ـ عوامل الجذب : (Pull Factors)

ـ توفر الفرص الأفضل بالنسبة لبعض المهن أو الوظائف أو العمل في مجال يرغب فيه الفرد .

ـ توفر فرص الكسب كالحصول على دخل أحسن .

ـ توفر الفرص التي تساعد على تحقيق رغبة الفرد الشخصية في مجال علمي معين أو توفر التدريب فقط في الكليات العلمية .

ـ الرغبة في المعيشة بأوضاع بيئية أفضل من حيث المناخ والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى .

ـ الانتقال من أجل اللحاق بعائل (أي المرافقة) ومثال على ذلك هجرة الشخص الذي يرتبط بعلاقة عائلية مع شخص آخر ، أو هجرة الاناث من أجل اللحاق بالزوج .

ـ توفر الأنشطة المتنوعة في المدن الكبيرة ومثال على ذلك تلك الأنشطة التي تجذب قاطني المدن الصغيرة أو القرى ، سواء أكان منها الثقافي أم الفكري أم الترفيهي(١٥) .

وبالرغم من أن نظريات عوامل الجذب والدفع تناقش آراء وأفكار جيدة ، وبخاصة تلك النظريات أثناء مناقشتها لهذه الآراء والفكر تتجرد من العوامل المحددة لنشوء الهجرة ، الا أن هناك عددا من الأبحاث التي انتقدت هذه النظريات نتيجة إلى أنها أظهرت عملية الهجرة وبشكل مبالغ فيه كعملية معقدة جدا ، ومن هذه الأبحاث ما قدمه بيرنلي توماس (Perinley Thomas) (١٦) في بحثه أثناء مناقشته وتحليله لموضوع الهجرة بطريقة مقنعة جدا ، حين ذكر في هذا

---

(١٥) Bague, D.J. Principle of Deography. Wiley, New York, 1969. P. 753 - 4.

(١٦) Thomas, B. Migration and Economic Growth. Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 26.

البحث أن كافة أنواع العوامل المسببة والحاثة على الهجرة ربما تكمن وراء القرار الفردي أو العائلي الذي يحدد على ضوئه مغادرة بلد ما والعيش في بلد آخر ، وليس الهدف من دراسة هذه العوامل وضع قائمة للعوامل المسببة للهجرة فقط ، ولكن الأمل معقود على محاولة فهم ظاهرة أو واقعة الهجرة (Phenomenon of Migration) ، وبشكل أكثر تركيزا من أجل إمكانية التوصل الى وصف البواعث أو الحوافز العديدة التي تمثل عامل دفع للناس لشراء ما يحتاجونه من سلع يرغبون بها ، حيث أنه ليس هناك أسهل من عملية وضع صياغة لقائمة هذه العوامل أي عوامل الجلب والدفع من أجل أن تظهر بشكل مميز وواضح ، لم بعد ذلك تذكر هذه العوامل بشكل وصفي أكثر اسهابا من أجل أن تبدو هذه العوامل بشكل أكثر تركيزا وبصورة محددة .

وردا على الانتقادات والملحوظات السابقة الذكر والموجهة لنظريات عوامل الجلب والدفع ، أبدى الباحث لي (Lee) (١٧) اقتراحا أوضح فيه أن مسببات الهجرة تحتاج لرؤية أو دراسة للعوامل التي تربط بين المنطقة الأصلية أو المصدر من جهة ، والمنطقة المقصودة من جهة أخرى ، بالاضافة إلى أنه أكد على أن هناك حاجة لدراسة وتحليل العوائق التي تعترض عملية اتمام هذه الهجرة ، حتى وان كان مصدرها المهاجرين أنفسهم ، ولذلك فقد اقترح الباحث المذكور ـ أيضا ، دعوة جميع الباحثين والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الهجرة الى العمل على اكتشاف واظهار كل من العوامل السلبية والايجابية الكامنة في كل من المكان الأصلي والمكان المقصود ، وبالتالي ايجاد الاختلافات فيما بينهما ، وبما أن كان القرار الشخصي على الانتقال سوف يعتمد عند تنفيذه على النتائج التي تظهر على تلك الدراسة ، أو بناء على تقييم لكل العوامل الكامنة داخل محيط المجموعة السكانية المتوقعة أو داخل نماذج اجتماعية دون تمييز ، ومما هو جدير بالذكر أن هناك الكثير من العوائق التي تظهر وتكون ذات فاعلية في اعتراض وتقييد هذه القرارات المتخذة تجاه الهجرة كالقيود القانونية ، أو الحواجز العائلية ، أو القلق النفسي ، وأخيرا عائق تكاليف الانتقال ، الا أنه من المستطاع تخطي أو اغفال الكثير من هذه العقبات التي ذكرت قبل قليل ، وبالرغم من ذلك فان بعضها الآخر لا يمكن تخطيه أو اغفاله .

بالاضافة الى ما سبق فان هناك عددا من العوامل المسببة للهجرة منها الحوافز الاقتصادية والعوامل الديموجرافية والعوامل السياسية كما ذكرنا في السابق ، وبالنسبة للحوافز الاقتصادية فقد توصلت الدراسات التي تم اجراؤها على التقلبات السنوية لحجم الهجرة الدولية التي حدثت في القرن التاسع عشر ـ وبخاصة تلك التي تمت بين قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية ـ الى أن هناك علاقة متبادلة وواضحة بين ما جنته الدول المرسلة للمهاجرين من فائدة عمت دورة العمل من جهة ، وتطور التنمية الاقتصادية في الدول المستقبلة للمهاجرين من جهة أخرى ، علاوة على ذلك فان البيانات الخاصة بالحوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال ما تكون تلك الحوافز هي الأمر القاطع والمسبب للهجرة ، حيث أن التباين في المستويات المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب والدول المستقبلة للهجرة من جانب آخر ، تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة ـ كما ذكرنا عند دراستنا لعامل الجلب والدفع قبل قليل ، وكذلك فان عامل التباين في مساحة الأرض التي تشغلها كل من الدول المرسلة والدول المستقبلة للهجرة يعد ذا أثر مشجع على الهجرة ، الا أنه في الوقت الحاضر أصبح هذا العامل غير أساسي كمسبب للهجرة(١٨) .

(١٧) Lee, Op. Cit.

(١٨) John I. Clarke, Op. Cit P. 148.

أما العوامل الثانية فهي العوامل الديموجرافية التي تعد ذات أثر في تعميم التحديدات والحوافز الخاصة بالهجرة ، وفي مقدمتها عامل الضغط السكاني في مناطق معينة في العالم والذي شكل العامل الأساسي المسبب للتوزيعات الرئيسية للهجرات الكبرى في العالم ، وكمثال على ذلك فقد كان للحوافز الديموجرافية المذكورة أثر على الهجرة التي تمت من ايرلندا في القرن التاسع عشر (خلال حادث المجاعة) وكذلك الهجرة التي تمت من ايطاليا وجنوب شرق أوروبا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالاضافة إلى ذلك فقد كان للعامل الديموجرافي المذكور أثر كبير حيث أنه شكل حافزا رئيسا للهجرة التي خرجت من الجزر والدول الصغيرة مثل مالطا وكورسيكا ورواندا وبوروندي وبورتوريكو وترنداد ، وهناك دول صغيرة في العالم تخصصت وبشكل ملاحظ بالهجرة المغادرة ومثالا على ذلك لبنان التي أصبحت حالة مشهورة بين الدول المرسلة للمهاجرين ، وتشغل لبنان مساحة من الأرض قدرها (٤١٠٥) ميل مربع فقط ، يقطنها عدد من السكان مقداره (٢.٦) مليون نسمة ، وقد هاجر منها الى الخارج ما يقدر بـ (١.٥) مليون لبناني موزعين الآن في جميع أنحاء العالم (منهم ٤٠٠ ألف نسمة الى الولايات المتحدة الامريكية ، و ٣٥٠ ألف نسمة الى البرازيل ، و ٢٠٠ ألف نسمة الى الأرجنتين ، وأخيرا هناك عدد كبير من اللبنانيين الذين غادروا الى غرب أفريقيا) ، وقد تخلى غالبية هؤلاء المهاجرين عن جنسيتهم اللبنانية ، الا أنهم ما زالوا يحتفظون بصلات وصل بينهم وبين وطنهم الأصلي ، نذكر منها على سبيل المثال أنهم ما زالوا مستمرين في إرسال جزء من مكاسبهم الوفيرة - التي حصلوا عليها من أعمالهم بالتجارة والبنوك في بلد المهجر - الى أقربائهم الذين ما زالوا مستقرين في وطنهم الأصلي .

ومن الواضح أن تأثير العوامل الديموجرافية لا ينحصر في أنها تعدو كعوامل مسببة للهجرة فقط بل يتعداه الى تأثيرها - أيضا - على السياسات المتبعة تجاه هذه الهجرة ، ويختلف مدى تأثير هذه العوامل على السياسات المتبعة تجاه الهجرة الخارجية أكبر من تأثيرها على الهجرة الداخلية ، وهناك سياسات متنوعة تتبعها الدول تجاه الهجرة ، فمثلا نجد أن هناك عددا قليلا من الدول الرئيسية المستقبلة للهجرة تتبع فعلا سياسة يكون الغرض منها هو تشجيع الهجرة ، وهذا الأمر متناقض لما هو متبع من سياسة تجاه الهجرة المتجهة الى بريطانيا وايطاليا واليابان ، حيث أن هذه الدول الثلاث تعمل على الحد من وفود المهاجرين إليها فتسن الكثير من القوانين التي يكون الغرض منها فرض القيود على هؤلاء المهاجرين ، ومثالا على ذلك تلك الهجرة التي تمت ما بين المانيا وايطاليا ، وكذلك ما بين روسيا ودول شرق أوروبا ، في الفترة الزمنية السابقة للحروب ، وتعد السياسات المتبعة تجاه الهجرة القادمة أكثر أهمية من تلك السياسات المتبعة تجاه الهجرة المغادرة ، ومما هو جدير بالذكر أن هناك تساهلا أكبر تجاه دخول المهاجرين الى أي دولة خلال القرن التاسع عشر عما هي عليه اليوم ، ففي الوقت الحالي أصبحت هذه السياسات أكثر تشددا ، ومثالا على ذلك أن هناك دولا مستقبلة للمهاجرين مثل استراليا التي تضع العقبات أمام الهجرة القادمة ، ومن هذه العقبات أنها منعت المساعدة المالية التي كانت تمنح لهؤلاء المهاجرين القادمين اليها مع أنهم يعدون من ضمن الهجرة المنتقاه ، الى جانب ذلك نجد أنه في هذا القرن أي القرن العشرين تعد غالبية الهجرة القادمة مقيدة أثناء عبورها الحدود الدولية ، وهذا الأمر حدث ويحدث في أكبر الدول المستقبلة لهذه الهجرة ، وكذلك فإن هذه الهجرة مقيدة أيضا من حيث الحجم المحدد لها والذي يخضع عادة للخطط التي تحدد السياسة التي تتبناها كل دولة على حدة وتنتهجها عند معاملتها لتلك الهجرة ، وبناء على تلك الخطط يصبح من الممكن لأي دولة مستقبلة للهجرة القدرة على تحديد حجم المهاجرين المصرح لهم بدخول أراضيها ، وتتبع في استراليا السياسة ذاتها التي تنتهجها الولايات المتحدة الامريكية تجاه دخول المهاجرين الى أراضيها ، حيث نصت تلك السياسة

على اتباع نظام الحصة النسبية (Quora) ، ويتميز هذا النظام بأنه فعال ومؤثر في إمكانية التحيز تجاه المهاجرين الوافدين اليها من شمال غرب أوربا ، حيث تظهر تلك السياسة مدى أفضليتهم لدى السلطات في استراليا على المهاجرين القادمين إليها من جنوب أو شرق أوربا ، والمثال الآخر على تلك النوعية من السياسة التحيزة المتبعة تجاه الهجرة التي توضح أن دول جنوب شرق آسيا تخص حصة قليلة للمهاجرين القادمين إليها من الصين ، والمثال الثالث يتمثل في أن هناك قيودا مفروضة على وفود المهاجرين الملونين إلى بريطانيا ، بالاضافة الى كل الأمثلة السابقة هناك أيضا العديد من الأمثلة الأخرى التي تظهر بجلاء، أن هناك تخطيطا مسبقا تضعه الدولة المستقبلة للهجرة وتتعامل به مع الهجرة الوافدة إلى أراضيها ، ويعتمد هذا التخطيط وبشكل رئيسي على تطبيق سياسة الاختيار ، ففي نيوزيلندا على سبيل المثال تعبر وجهة نظر الاتحادات المهنية عن تخوفها من أن الهجرة الوافدة ، وتدعى بأنها تهدد مستوى الأجور التي يتقاضونها ، ولهذه الاتحادات سلطة ونفوذ على السياسة المتبعة تجاه الهجرة الوافدة ، بالاضافة الى ذلك ففي دول أمريكا اللاتينية نجد أن الوضع على خلاف ما سبق من الأمثلة ، حيث يتضح أن القيود المفروضة على وفود المهاجرين لأراضيها تعد أقل تشددا مما هي عليه في الدول التي تناولتها الأمثلة السابقة .

أما العوامل الثالثة والأخيرة فتمثلها العوامل السياسية حيث أنه من الملاحظ أن الهجرة الدولية آخذة بالتأثر أكثر فأكثر ـ مع مرور الزمن ـ بتلك العوامل ، مما أثر بالتالي على تراجع أهمية عامل الاختيار الفردي ، كمسبب للهجرة ، ويتمثل العامل السياسي في أن هناك عمليات تبادل سكاني واسعة النطاق تمت بين دول عديدة ، ومن أمثلة ذلك العمليات التي تمت بين اليونان وتركيا خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٣ ، كذلك تلك العمليات التي تمت بين رومانيا وبلغاريا في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٤٠ ، بالاضافة الى ما سبق فالعوامل السياسية تتمثل في أن ظاهر الهجرة السكانية بدأت تأخذ مكانها لمواجهة عمليات الغزو المسلح ، كتلك الهجرة التي تمت بين روسيا والصين ، حيث تم هجرة ملايين الأشخاص وقد تم نقلهم على شكل هجرة عمالية قسرية ، كان الغرض منها هو إحلال هؤلاء العمال محل الأشخاص المسجونين ، ونتيجة لما سبق فقد تم انشاء الكثير من الهيئات والمنظمات الدولية التي عملت وما زالت تعمل من أجل المساعدة عند حدوث مثل هذه الحركات السكانية ، وبخاصة تلك الحركات التي تتم بين السكان اللاجئين في كثير من أجزاء العالم ، ومن هذه الهيئات والمنظمات على سبيل المثال كل من منظمة العمل الدولية (INTERNATIONAL Labour Organization) ومنظمة العفو الدولية (U.N. Relief and Rehabilitatio Administration) ومما هو جدير بالذكر أن عدد اللاجئين السياسيين في أوربا يبلغ عشرات الملايين في الوقت الحاضر ، وكذلك الحال بالنسبة لشبه القارة الهندية ، حيث أن هناك ملايين السكان الذين ينوون الانتقال الى الجماعات السكانية الأخرى ، تلك التي يشتركون معها بخاصية الدين ، الا أن ذلك لن يتم الا برفع الحواجز السياسية ، حيث أن عامل الدين ما زال يعد ذا أثر فعال على بعض الهجرات[١٩] .

٣ ـ أساليب جمع بيانات الهجرة عاليا[٢٠] :

عند جمع البيانات الخاصة بالهجرة عاليا فإنه من الممكن أن تشتق تلك البيانات الاحصائية من مجموعة متنوعة من

(١٩) John I. Clarke, Op. Cit. P. 141 - 142

(٢٠) Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 380.

المصادر ، الا أن هناك مصادر رئيسية لجمع مثل تلك البيانات بحيث أنه من الممكن أيضا تبويبها الى ستة أنواع ، وعادة ما تكون تلك المصادر متشابهة ونوجزها فيما يلي :

ـ جمع البيانات الاحصائية الناتجة عن حركة السكان عبر الحدود الدولية ، وتعد هذه البيانات في معظم الأحوال حصيلة ثانوية للعمل التنفيذي الحكومي الذي يؤديه رجال مراقبة الحدود .

ـ البيانات الاحصائية الخاصة بالمسافرين والتي يمكن الحصول عليها من قوائم المسافرين بحرا أو جوا .

ـ البيانات الاحصائية التي يكون مصدرها ادارة الجوازات والتي تقوم بجمعها من خلال الطلبات المقدمة اليها للحصول على الجوازات وشهادات عدم الممانعة ، وأذونات السفر .

ـ البيانات الاحصائية التي يمكن جمعها من السجلات السكانية .

ـ البيانات الاحصائية التي توفرها عادة التعدادات العامة للسكان أو من المسوحات الدورية ، وهذه البيانات تشتمل على الاجابة عن السؤال الذي يتعلق بالمقر السابق للشخص ، ومكان الولادة أو المواطنة .

ـ البيانات الاحصائية التي تجمع بشكل خاص أو استثنائي ، وهذه البيانات تشتق من التحقيق والاستقصاء الدوري عن بيانات الهجرة ، كتلك البيانات الخاصة بمحل الاقامة السابق وعلى الاقامة الحالي ، أو المواطنة ، أو تسجيل الأجانب ، أو عدد المواطنين في الخارج .

بالاضافة الى الانواع الستة التي تعد كمصادر رئيسية تشتق منها البيانات الاحصائية عن الهجرة الدولية السابقة الذكر ، فان الأمر يتطلب ـ أيضا اجراء التقديرات لمعرفة الحجم الكلي للهجرة الخام أو الهجرة الصافية الاجمالية ، أو تقدير حجم مجموعات جنسية فقط وبشكل استثنائي .

أما بالنسبة لمصادر الهجرة المبكرة فبياناتها عادة تجمع من المعلومات المتحصلة من الاكتشافات والتنقيبات الأثرية لحركات السكان ومواطنهم عبر التاريخ ، وكذلك بيانات استثمار الأراضي واشغالها وهجرها كمؤشرات على تلك الحركات .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة نظر قسم السكان بالأمم المتحدة تفصح عن أن المصادر الاحصائية الأربعة الأولى الخاصة بالهجرة والتي ذكرنا أنها تجمع عادة من نقاط مراقبة الحدود تعد من أكثر البيانات أهمية بمقارنتها مع غيرها من المصادر ، ويرجع ذلك الى أن تلك المصادر الأربعة لو توفرت يصبح من المستطاع اجراء قياس مباشر لحجم الهجرة ، ولذلك تأخذ الأمم المتحدة بعين الاعتبار كل ما ينشر من بيانات صادرة عن مراقبة الحدود ، وبخاصة في حالة توفر هذه البيانات تصبح بيانات التسجيل السكاني أكثر فاعلية عند الاستعانة بها للقياس على ضوئها حجم الهجرة الدولية ، وبناء على ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة الحكومات القومية بأن تقوم بجمع وجدولة كافة الأفراد القادمين (Immigrants) والأفراد المغادرين (Emigrate) ، ثم يتم بعد ذلك تقسيم هذه البيانات لتشمل مجموعات سكانية أقل لتبدو أكثر وضوحا مثل تقسيمها الى فئة القادمين وفئة المغادرين ، والغرض الأساسي من توفير البيانات الخاصة بهاتين الفئتين يتمثل في المساعدة على ترجمة وتفسير احصاءات الهجرة التي تصدر سنويا عن أي دولة ، وعلى ضوء ذلك يتم اجراء

المقارنات الصحيحة بين بلد وآخر ، أي أنه يصبح بالامكان استعمال تلك البيانات دوليا بحيث تضاف الى البيانات الديموجرافية الدولية الأخرى[٢١] .

٤ - سجلات الهجرة عالميا : [٢٢]

ان طبيعة ونوعية البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة تكون عادة أكثر ضآلة من تلك البيانات الخاصة بالتركيب أو النمو السكاني ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، نذكر منها أن البيانات المشتقة من الهجرة تتميز بأنها ذات صيغة مركبة أي أنها تتكون من أجزاء وعناصر عديدة ، ولذلك فانه ليس من السهل تحديدها وبالتالي يصعب اظهارها بشكل واضح ، الى جانب أنه من الصعب تصنيفها أو تبويبها ، والتصنيفات الخاصة بظاهرة الهجرة تعتمد أساسا على أمور عديدة منها مدى دوام هذه الهجرة ، وعلى طول المسافة التي خطتها أو قطعتها هذه الهجرة ، وعلى نوعية الهجرة هل هي هجرة منظمة أي هل هي هجرة اختيارية أو أنها هجرة قسرية ، وبالاضافة الى كل ما سبق فان الهجرة تواجه صعوبات أخرى عند تقصي أية حقائق خاصة بها منها على سبيل المثال أنه في حالة عد المهاجرين ، فان هذه العملية بحد ذاتها تواجه صعوبات جمة ، وبخاصة عندما لا تتم هجرتهم عبر حدود دولية واضحة .

أما بالنسبة للهجرة فقد كانت المعلومات الخاصة بها تشتق في الفترة السابقة عن مصدرين هما التعرف على الاختلاف فيما بين الزيادة الناتجة عن الزيادة الطبيعية وهذه تعد الخطوة الأولى ، ثم اجراء الدراسات المقارنة ما بين تلك المعلومات من جهة وبين بيانات التعدادات السكانية المتتالية (Successive Census) من جهة أخرى وهذه تعد الخطوة الثانية .

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة أن هناك بعض التعدادات السكانية التي تتضمن بيانات احصائية هامة ومرغوب فيها عند دراسة موضوع الهجرة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالتغيرات التي تطرأ على مكان الاقامة ، أو مكان الولادة ، وبالرغم من أن البيان الثاني لا يعطي الا دلالة عن الحركة السكانية ، الا أنه في حالة توفر هذه البيانات تتحول الدراسة التحليلية التي يتم اجراؤ ها عن الهجرة السكانية من الأمور السهلة .

وقد توفرت البيانات الخاصة بمكان الاقامة المعتاد ومكان العمل بحيث أصبح بالامكان اجراء دراسة تحليلية مقارنة لتلك البيانات في كل من انجلترا ويلز منذ تعداد عام ١٩٢١ ، وكذلك في تعدادي عامي ١٩٥١ ، ١٩٦١ ، الا أن بيانات تعداد عام ١٩٦١ تناولت فقط عينة سكانية تشكل (١٠٪) من اجمالي السكان - ويستفاد من تلك البيانات الاحصائية عند دراسة موضوع رحلة العمل اليومية ، ومما هو جدير بالذكر أن تعداد عام ١٩٦١ لكل من انجلترا وويلز قد أضيف لبياناته سؤ ال جديد كان الغرض منه يكمن في الحصول على المزيد من المعلومات عن مدى تكرار وحجم واتجاه وخصائص الهجرة الداخلية ، الا أنه يمكن القول وبشكل عام أن البيانات الخاصة بالهجرة الداخلية عادة ما تكون أقل البيانات الاحصائية دقة بين البيانات الاحصائية الديموجرافية .

---

(٢١) op. cit. p. 351.

(٢٢) John I. Clarke, Op. Cit, P. 10 - 11.

وقد لوحظ وبصفة عامة أن البيانات الاحصائية المتوفرة عن الهجرة الداخلية والتي ذكرناها قبل قليل عادة ما تقتصر فقط على عدد قليل من الدول ، علاوة على ذلك ، فان هذه البيانات عادة ما تتصف برداءتها وبالتالي تصبح غير جديرة بالثقة ، حيث أنه وحتى في حالة قابليتها للمقارنة تصبح ضئيلة ، وبخاصة أن كل دولة من هذه الدول التي تقوم بنشر بيانات عن الهجرة وهي دول قليلة العدد ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ يكون هدفها الأساسي هو توفير وتجميع البيانات التي تكون بحاجة اليها من أجل أغراض ادارية أو تنفيذية فقط .

أما الهجرة الدولية فتصنف الى نوعين رئيسيين من الهجرة يمثل أحدهما الهجرة طويلة الأمد أو الدائمة (Permanent) ، ويمثل النوع الآخر الهجرة قصيرة الأمد أو المؤقتة (Temporary) .

والبيانات الاحصائية الأكثر تفصيلا عن الهجرة (Detailed Statistics) تعد قليلة الى جانب أنها مبعثرة أو موزعة أثناء نشرها في مجموعة منشورات قومية عديدة ، أو في مجموعة منشورات تصدرها الوكالات المختلفة ، ولذلك تعمل هيئة الأمم على تسهيل عملية استخدام هذه البيانات بأن تقوم بجمعها ونشرها على هيئة بيلوجرافيا عن كل من المسافرين الدوليين (Internationals Travelers) والمهاجرين وتضم هذه البيانات احصاءات تفصيلية عن أربع وعشرين دولة مختارة (٢٣) ، ومن المستحسن أن تعمل كل دولة على اصدار بيانات احصائية عن الهجرة بشكل مستقل كما أوصت بذلك الأمم المتحدة ، لتكون البيانات ذات قيمة أكبر ، بالاضافة الى أن كيفية الحصول عليها تكون أكثر سهولة .

وتعتبر التصنيفات الدولية الخاصة ببيانات الهجرة عامة وبخاصة فيما يتعلق منها بالتعريفات من أجل أن تكون هناك قاعدة موحدة عالميا عند استعمال هذه التعريفات ، وقد تم ذلك منذ الفترة الزمنية التالية للحرب العالمية الثانية ، حيث بدىء بنشرها ضمن اصدارات عديدة في الأمم المتحدة ، ومثال على هذه الاصدارات الكتاب الديموجرافي السنوي (Demographic Yearbook) الذي ما زال صدوره مستمرا كل سنتين وبشكل دوري ، باستثناء بعض السنوات التي تقع في الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من ذلك فان البيانات الاحصائية للفترة الزمنية المذكورة قد تم نشرها في اصدارات أخرى للأمم المتحدة (٢٤) ، بالاضافة الى ذلك نشرت الأمم المتحدة بيانات احصائية خاصة بالخصائص الاقتصادية للوافدين ممن تعد هجرتهم طويلة الأمد ، ولدول مختارة ضمن اصدار نشر في عام ١٩٥٨[٢٥] .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية خير مثال لتلك الدول التي وفرت البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، بالاضافة الى أنها من أقدم هذه الدول من حيث المبادرة في عملية جمع وجدولة ونشر تلك البيانات ، حيث أصبحت

---

(٢٣) United Nations.: Analytical Bibliography of Statistics on International Migration statistics, 1925 - 1950, Population Studies, Series A. No. 24, 1955.

(٢٤) United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries. 1918 - 1947, Population Studies, Series A. No. 11, 1953.

(٢٥) United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, Statistics for Selected Countries, 1918 - 1954, Population Studies, Series A. No. 12, 1958.

٥ ـ سجلات الهجرة محليا :

منذ منتصف هذا القرن وبالتحديد منذ عام ١٩٤٦ عندما بدأت الكويت بتصدير أول شحنة من النفط ، بدأت الكويت في نهضتها الحديثة ، وحرصت الدولة على استغلال مواردها من النفط في بناء هيكل اقتصادي واجتماعي في البلاد ، وقد أدى ذلك الوضع الى نتائج عديدة من أهمها اتساع سوق العمل في الكويت وتزايد معدلات الطلب على القوى العاملة ، وبذلك لعبت الهجرة الدولية دورا حاسما في التطور الاقتصادي وبالتالي في نمو الحجم السكاني لدولة الكويت ، وفي الجداول رقم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) والأشكال رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) والتي تشتمل على بيانات خاصة بالتطور العددي والنسبي للسكان الكويتيين من جهة والسكان غير الكويتيين من جهة أخرى ، نستنتج أن نسبة السكان الكويتيين آخذة بالتناقص من تعداد لآخر من اجمالي السكان بدولة الكويت ، حيث تراجعت تلك النسبة من (٥٥,٠٪) في عام ١٩٥٧ ، الى (٤٧,١٪) في عام ١٩٦٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ولأول مرة نسبة تقل عن نصف السكان داخل الدولة ، واستمرت تلك النسبة في تراجعها حتى وصلت الى أدنى نسبة لها في تعداد عام ١٩٨٥ حيث بلغت (٤٠,١٪) من اجمالي السكان بالدولة ، وهذا يعني أن أثر الهجرة الى دولة الكويت واضح في تراجع نسبة السكان الكويتيين من تعداد الى آخر حتى أصبحت نسبتهم تشكل خمس اجمالي السكان بالدولة وذلك بحلول عام ١٩٨٥ ، وبالمقابل فقد تزايدت نسبة السكان المهاجرين من (٤٥٪) في عام ١٩٥٧ من اجمالي السكان بالدولة ، الى أن أصبحت نسبتهم تمثل (٥٩,٩٪) في عام ١٩٨٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ما يقرب من ثلاثة أخماس اجمالي سكان الدولة .

وقد وفد السكان المهاجرون الى دولة الكويت من مصادر عديدة ، حيث يبلغ عدد الجنسيات المتواجدة بالدولة حوالي ستين جنسية أو أكثر ، تشكل الجنسيات العربية غير الكويتية غالبية النسبة الخاصة بالسكان المهاجرين ، حيث بلغت تلك النسبة حتى عام ١٩٧٥ ما يقدر بـ (٨٠٪) من اجمالي السكان الوافدين ، الا أنه بحلول عام ١٩٨٠ طرأ تغير ملحوظ على مصادر المهاجرين ، ونتيجة لذلك فقد تناقصت نسبة الجنسيات العربية من النسبة الاجمالية للسكان الوافدين الى (٧٢,٥٪) في عام ١٩٨٠ ثم الى (٦٣,٣٪) في عام ١٩٨٥ ، وبالتالي فقد زادت نسبة الجنسيات الآسيوية غير العربية من (٢٢,٠٪) من اجمالي السكان الوافدين في عام ١٩٦٥ ، الى (٣٥,٠٪) من اجمالي السكان الوافدين ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ثلث النسبة الاجمالية للسكان الوافدين بدولة الكويت .

وقد ساعد على نمو السكان الوافدين في دولة الكويت بالشكل الذي بيناه قبل قليل كل من عنصري صافي الهجرة والزيادة الطبيعية التي كانت تتم بين السكان الوافدين داخل الدولة وفي الجداول رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) حيث تشير بيانات الجداول المذكورة الى أن مكونا النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت أسهما بدور متفاوت في عملية نمو السكان الوافدين من فترة تعدادية لأخرى ، حيث نلحظ أنه خلال الفترات التعدادية التي تخللت التعدادات السكانية السبع من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ ، كان دور صافي الهجرة أكبر في نمو السكان الوافدين في الفترات التعدادية الثلاث الأولى ، بحيث أن دور صافي الهجرة أسهم بضعف الدور الذي أسهم به عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين في المرحلة التعدادية الأولى ، أي خلال المرحلة المتقدمة من بداية وفود السكان الى دولة الكويت ، ويعد هذا الأمر طبيعيا ، وبخاصة أن

الهجرة الى دولة الكويت كانت في بدايتها ، وكانت عملية التنمية في جميع المجالات تعاني من القصور في الايدي العاملة المحلية ، ولذلك فقد كان دور عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين المتواجدين داخل دولة الكويت يأتي في المرتبة الثانية ، واستمر هذا الوضع خلال الفترتين التعداديتين الثانية والثالثة ، الا أن دور الهجرة الصافية كعامل رئيسي في عملية النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت خلال هاتين الفترتين بدأ يتقلص ويتجه نحو الانخفاض ، ومع ذلك فان نسبة إسهامه تعد أكبر مما هي عليه دور عامل الزيادة الطبيعية .

وفي الفترة التعدادية الرابعة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، تفوق فيها ولأول مرة نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية في النمو السكاني للوافدين ، بل ان نسبة اسهامه بلغت ضعف ما يقابله من نسبة اسهام عامل الهجرة الصافية في النمو السكاني للوافدين ، حيث بلغت نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية (٦٣,٩٪) .

وبحلول الفترة التعدادية الخامسة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، نجد أن الوضع تغير كلية بمقارنته بنظيره في الفترة التعدادية السابقة ، وكذلك بالفترات التعدادية الثلاث الأول ، اذ أصبح دور صافي الهجرة أكبر مما كان عليه في تلك الفترات التعدادية في عملية النمو السكاني للوافدين ـ باستثناء الفترة التعدادية الأولى ـ حيث بلغت نسبة اسهامه ما يقدر بـ (٦٣,٩٪) من اجمالي نمو السكان الوافدين .

وأخيراً نجد في الفترة التعدادية السادسة والأخيرة والتي تخللت تعدادي ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، أن الوضع في تلك الفترة التعدادية مشابه لما كان عليه الوضع في الفترة التعدادية الثالثة ، فقد تساوى تقريباً كل من دور صافي الهجرة ودور الزيادة الطبيعية في عملية النمو السكاني للوافدين ، نتيجة لتراجع دور الهجرة الصافية تراجعاً واضحاً في هذه الفترة بمقارنتها بما كانت عليه في الفترة التعدادية السابقة ، مسجلة نسبة مقدارها (٤٨,٧٪) في حين أن النسبة المقابلة للزيادة الطبيعية بلغت (٥١,٣٪) .

مما سبق ذكره تبين لنا أن كلاً من عاملي صافي الهجرة والزيادة الطبيعية بين السكان الوافدين والتواجدين في دولة الكويت قد أسهما بدور كبير ولكن بتفاوت في عملية نمو السكان المهاجرين خلال الفترات التعدادية المذكورة مما أدى الى نمو الحجم الاجمالي للسكان بالدولة من (٢٠٦٤٧٣) نسمة في عام ١٩٥٧ ، الى (١٦٩٧٣٠١) نسمة في عام ١٩٨٥ ، وقد بلغت نسبة السكان المهاجرين (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة في العام المذكور ، كما ذكر قبل قليل .

وهناك الى جانب ما سبق أثر آخر ومهم للهجرة الى دولة الكويت على الخصائص الديموجرافية لاجمالي السكان بالدولة وقد تمثل ذلك الأثر بتطور حجم القوى العاملة بالدولة ، ومن بيانات الجدولين رقمي (٩ و ١٠) واللذين يوضحان التطور العددي والنسبي لقوى العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد ، ومنها نستنتج ما يلي :

ـ سجل الحجم الكلي للقوى العاملة بدولة الكويت زيادة ملحوظة خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٦٥ الى ١٩٨٥ ، حيث بلغ العدد المطلق حوالي (١٨٤٣٠٤) في عام ١٩٦٥ ، وارتفع هذا العدد الى (٦٦٢٥٨٨) في عام ١٩٨٥ ، أي بزيادة مقدارها (٤٧٨٢٨٤) وبنسبة مقدارها (٢٥٩,٩٥٪) خلال الفترة الزمنية المذكورة .

ـ بلغت نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية ما يقدر بـ (٢٣,٣٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، وبالرغم من ذلك فقد تناقصت تلك النسبة من سنة لأخرى حتى بلغت (١٨,٧٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وبذلك نجد أن نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية من إجمالي القوى العاملة بالدولة بلغت ما يقل قليلاً عن خمس إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وهذا الوضع يعطي صورة واضحة عن مدى ضآلة نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية في الفترة الزمنية المذكورة من إجمالي القوى العاملة بالدولة من جهة ، وعن مدى أثر الهجرة بما تمثله من حجم له وزنه على الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة من جهة أخرى .

ـ مثلت نسبة إسهام القوى العاملة غير الكويتية (٩٧,٧٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تعادل ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أرباع الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، ثم تزايدت قليلاً تلك النسبة من سنة لأخرى حتى وصلت الى نسبة مقدارها (٨١,٣٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، مشكلة بذلك حوالي أربعة أخماس القوى العاملة الاجمالية بالدولة في العام المذكور .

ـ وتعد نسبة اسهام السكان المهاجرين بالقوى العاملة متفاوتة من مجموعة جنسية لأخرى ، الى جانب أن هذا التفاوت كان متغيراً من تعداد لآخر ، حيث أن نسبة إسهام مجموعة الجنسيات العربية من إجمالي القوى العاملة الوافدة قد سجل أكبر نسبة بين المجموعات الجنسيات الأخرى العاملة بدولة الكويت ، الا ان تلك النسبة سجلت تناقصاً من تعداد لآخر حيث بلغت (٦٨,٢٪) من عام ١٩٦٥ ، ثم اتجهت نحو الارتفاع البطيء حتى عام ١٩٧٥ حين بلغت (٦٩,٠٪) ، ولكن منذ عام ١٩٨٠ اتجهت هذه النسبة نحو التناقص الواضح حيث بلغت (٥٩,٦٪) ، ثم تراجعت الى (٤٦,٢٪) في عام ١٩٨٥ ، وفي التعداد المذكور سجلت مجموعة الجنسيات العربية وللمرة الأولى نسبة تقل عما يقابلها لدى مجموعات الجنسيات الأسيوية غير العربية ، حيث بلغت النسبة الخاصة بتلك الجنسيات (٥٢,٣٪) من إجمالي القوى العاملة الوافدة في العام المذكور ، مشكلة بذلك ما يزيد قليلا عن نصف إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، يلي المجموعتين الجنسيتين المذكورتين بالمرتبة بقية المجموعات الجنسية غير العربية المتواجدة بدولة الكويت ولكن بنسب قليلة جداً لا تتعدى (١٪) أو ما يقل عن ذلك من إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، وتلك الحقيقة تنطبق على كافة التعدادات السكانية المذكورة .

مما سبق ذكره تبين لنا أن للهجرة دوراً بارزاً في نمو وتطور حجم القوى العاملة الاجمالية بالدولة ، حيث أن عددها المطلق قد زاد من (١٤١٢٧٩) نسمة في عام ١٩٦٥ الى (٥٣٩٠٢٨) نسمة في عام ١٩٨٥ ، أي ما يزيد قليلاً عن نصف مليون نسمة .

خلاصة ما سبق ذكره نجد أن ظاهرة الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي أسفرت عن تغيرات هائلة سواء أكان بالنسبة للحجم الكلي للسكان وتطور نموه داخل الدولة ، أم بالنسبة لحجم القوى العاملة الاجمالية التي تزايدت بشكل سريع ، والتي كان لعامل الهجرة الى دولة الكويت الأثر الكبير في هذا التزايد ، وبخاصة أنهم يمثلون غالبية النسبة الخاصة بالقوى العاملة ، الى جانب ذلك فقد ترتب على ظاهرة الهجرة الى دولة الكويت آثار جمة ، سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الديموجرافية وحتى السياسية على السكان الكويتيين ، وهذا الأمر المهم يدعونا الى دراسة سجلات الهجرة محلياً للتعرف على الأساليب المختلفة المتبعة في جمع البيانات الاحصائية الخاصة بتلك الظاهرة .

وبالرغم من أهمية ظاهرة الهجرة في دولة الكويت ، فان المصادر الاحصائية المتوفرة لدراسة تلك الظاهرة دراسة تحليلية تعد قليلة ، ويمثل التعداد العام للسكان المصدر الرئيسي للبيانات ، ولحسن الحظ فان دولة الكويت بدأت بعملية إجراء العد السكاني في فترة مناسبة ، أي منذ عام ١٩٥٧ ، أي أن دولة الكويت تعد في وضع أحسن من غالبية الدول العربية التي بدأ تطبيق نظام العد السكاني فيها في وقت متأخر ، أو أنها ما زالت حتى الآن لم تجر أي تعداد لسكانها ، بالإضافة الى ذلك فان دولة الكويت قد بدأت بتطبيق نظام لتسجيل الأحداث الحيوية بها منذ بداية الستينات ، وما هو متعارف عليه من أن هذين المصدرين يوفران عادة معلومات غير مباشرة عن الهجرة(٢٨) .

وتتضمن البيانات الاحصائية الواردة بالتعدادات العامة للسكان حجم السكان المهاجرين وجنسياتهم والمجالات الاقتصادية التي يعملون بها ، بالاضافة الى ما سبق هناك بيانات تفصيلية عن الخصائص التعليمية والنوعية والعمرية والحالة الزوجية لهم ، وعادة ما تكون بيانات إجمالي السكان موزعة الى قسمين أحدهما كويتي والآخر غير كويتي ، ثم بعد ذلك تقسم بيانات غير الكويتي الى جنسيات عديدة تصل الى حوالي ستين جنسية أو أكثر ، وكان هذا النظام متبعاً منذ التعداد الأول وحتى التعداد الخامس أي تعداد عام ١٩٧٥ ، الا أنه منذ تعداد عام ١٩٨٠ وتبعه تعداد عام ١٩٨٥ فقد اختصرت عدد هذه الجنسيات ونشرت الجداول الخاصة بتوزيع السكان الوافدين للدولة بحسب الجنسية مقسمة الى سبع مجموعات جنسية فقط هي : عربية ، أسيوية ، أفريقية ، أوروبية ، أمريكا الشمالية ، أمريكا الجنوبية ، أستراليا ، ونيوزيلنده(٢٩) .

مما سبق ذكره يتضح أن بالامكان تعريف الفرد المهاجر الى دولة الكويت بأنه ذلك الشخص الذي يدون بالتعداد على أنه غير كويتي ، اضافة الى أنه لم تكن الكويت حتى سنة ١٩٤٨ قد استحدثت قانوناً رسمياً للمواطنة ، الا أن مجموعة من القوانين والمراسيم ظهرت في الفترة الزمنية الفاصلة ما بين عامي ١٩٤٨ ، ١٩٦٠ فرقت تدريجياً بين المواطن والمهاجر وقد كان الفرق غامضاً قبل عصر النفط بين الكويتي وغير الكويتي ، الا أن هذا الفرق أصبح واضحاً ، والقانون أصبح أكثر تشدداً في التفرقة بين الكويتي وغير الكويتي(٣٠) .

ولقد طبق التنظيم الأول للجنسية الكويتية في الكويت بمقتضى المرسوم الأميري رقم (١٥) لسنة ١٩٥٩ ، المنشور في الجريدة الرسمية رقم (٢٠٣) والصادرة بتاريخ الرابع عشر من ديسمبر عام ١٩٥٩ ، فأصبح بذلك نافذ المفعول منذ ذلك التاريخ ، إلا أنه ادخلت على القانون المذكور عدة تعديلات ، أولها عدل بالمرسوم الأميري رقم (٢) لسنة ١٩٦٠ ، ثم بالقانون رقم (٢١) لسنة ١٩٦٥ ، ثم بالقانون رقم (٧٠) لسنة ١٩٦٦ ، ثم بالقانون رقم (٣٠) لسنة ١٩٧٠ ، وأخيراً عدل بالقانون رقم (٤١) لسنة ١٩٧٢(٣١)

(٢٨) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء . التعداد العام للسكان ١٩٨٠ . تحليل البيانات . الدراسة الرابعة . خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ . الكويت في يولية ١٩٨٣ . ص٦

(٢٩) هذه البيانات مستقاة من التعدادات السكانية لدولة الكويت والتي تم اجراؤها في الاعوام التالية ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

(٣٠) محمد غانم الرميحي . البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي . القاهرة ١٩٧٥ . ص ٦٨

(٣١) حسن الفداوي . الجنسية ومركز الاجانب واحكامها في القانون الكويتي . الكويت ١٩٧٣ . ص٨٤

وبخلاف التعدادات العامة للسكان فانه لا يوجد حتى الوقت الحالي نظام دقيق لجمع بيانات متكاملة عن احصاءات الهجرة الدولية الوافدة لدولة الكويت بخصائصها الديموجرافية الأساسية وبأسلوبها المعتاد والتي تتم عن طريق إجراء المسوح بالعينة للأسر القاطنة ، أو بأسلوب الإحصاء الجاري للأفراد القادمين والمغادرين بوساطة الاستبيانات التي تصمم لهذا الغرض ، والبيانات المتوفرة حالياً عن الهجرة ما هي الا جداول محدودة مسجل بها حركة القادمين والمغادرين موزعين حسب الجنسية والنوع وطريق السفر ، وتشرف على اتمام تلك العملية وزارة الداخلية بالتعاون مع إدارة الطيران المدني ، وتزود الادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط بهذه الجداول بصورة شبه دورية ، وتنشر هذه الجداول بعد ذلك في المجموعة الاحصائية السنوية ، والبيانات الواردة بتلك الجداول لا تفي بالغرض الأساسي المطلوب من إحصاءات الهجرة والتي تكون كمؤشرات ديموجرافية أساسية ، مثل المهنة والحالة التعليمية والعمر وأسباب القدوم أو المغادرة لكل من القادمين والمغادرين ، وعادة ما تستخدم تلك الجداول كمؤشرات إجمالية لاحصاءات النقل « المواصلات » ، بالاضافة الى أنه يستعان بها عند دراسة وتحليل بيانات تلك الاحصاءات للوقوف على مدى علاقتها بالمتغيرات السكانية الأخرى ذات العلاقة بالهجرة الدولية الوافدة الى الكويت أو المغادرة منها ، وبخاصة تلك البيانات التي تتيحها المسوح والاحصاءات السكانية[32] .

ولم يؤخذ بنظام تسجيل الجداول الخاصة بحركة السفر للسكان الوافدين مصنفة بحسب الجنسية الا منذ عام ١٩٦٤ ، ومع ذلك فما زالت الحاجة تدعو الى ضرورة اتمام تسهيل وتعاون إيجابي أكثر بين وزارة الداخلية وادارة الطيران المدني من جهة ، والادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط من جهة أخرى ، من أجل أن تتوفر الأرقام الدقيقة عن حجم وخصائص السكان الوافدين الى دولة الكويت بصورة دورية مفصلة ، ليتمكن كل من الخبراء والمتخصصين من إجراء تقديرات أقرب الى الواقع لتطور النمو السكاني للوافدين ، للتعرف على التغيرات التي من المحتمل أن تطرأ على خصائصهم في المستقبل القريب والبعيد ، اذ أنه في حالة عدم توفر تلك البيانات يكاد يكون من المستحيل وضع الخطط التنموية والاقتصادية والاجتماعية المستقبلية التي يمكن تنفيذها بنجاح ، وبخاصة أن السكان الوافدين أصبحوا يشكلون حوالي (٦٠٪) من إجمالي السكان بحسب نتائج عام ١٩٨٥ ، كما ذكرنا في السابق .

وبالرغم من أنه لا يوجد بدولة الكويت نظام للتسجيل المستمر للسكان ، ذلك النظام الذي يوفر إحصاءات مرضية عن المهاجرين لداخل البلاد والمهاجرين منها ، الا أن هناك عدداً غير قليل من الباحثين والمتخصصين قاموا بإعداد بحوث ودراسات تتعلق بالسكان المهاجرين لدولة الكويت ، وقد تمكنوا من تقدير عدد المهاجرين الوافدين الى دولة الكويت في فترة زمنية تقع ما بين تعدادين متتاليين باستخدام اعداد السكان الاجمالية للوافدين في كل من هذين التعدادين ، بالإضافة الى بيانات أخرى توفرها عادة التعدادات أو غيرها من المصادر[33] .

---

(٣٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، دليل نظام الاحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت ، يونيو ١٩٨١ ، ص ٤ .

(٣٣) من الدراسات والبحوث الحديثة التي اتبع بها الطريقة المذكورة عند تقدير اعداد السكان المهاجرين الى دولة الكويت في الفترات التعدادية المختلفة مايلي :

- مساعد حسن الصميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ ، ص ٧٧ ـ ٩٦ .
- وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ١ .
- مساعد حسن الصميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة ، (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في اغسطس ١٩٨٥

وقد تم حساب صافي الهجرة الى دولة الكويت بتلك البحوث والدراسات وبخاصة في السنوات الأخيرة بالطرق التالية :

أ ـ حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود : ومن المعروف أن مصدر هذه البيانات وزارة الداخلية ، وقد تم حساب صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود لكل سنة بطرح عدد المغادرين خلال السنة من عدد القادمين خلال نفس السنة ، حيث أنه اذا كانت مثل هذه البيانات على درجة معقولة من الدقة فيمكن استخدامها كأحد مؤشرات صافي الهجرة الى دولة الكويت .

ب ـ تقديرات صافي الهجرة ما بين التعدادات . وقد أعدت هذه التقديرات بطريقة الاحصاءات الحيوية ، حيث حُسِب مقدار التغير السكاني ما بين التعداد والتعداد التالي له ، ثم حُسِب مقدار الزيادة الطبيعية للسكان خلال الفترة ما بين التعدادين وبطرح مقدار الزيادة الطبيعية من الزيادة الاجمالية التي تمت في اعداد السكان نحصل على تقدير صافي الهجرة .

وبالرغم من عدم جواز الاعتماد على صافي الحركة للسكان غير الكويتيين عبر الحدود كمقياس لقيمة صافي الهجرة ، إلا أنه يمكن استخدام قيمة صافي الحركة وكونها سالبة أو موجبة للدلالة على اتجاهات التغير في صافي الهجرة نحو الزيادة أو النقصان ، وبخاصة عند دراسة صافي الهجرة لمجموعة معينة من الجنسيات ، مثل الجنسيات العربية أو الأسيوية أو عند دراسة صافي الهجرة لجنسية معينة ، وتتبع هذه الطريقة في الحالات التي لا يتاح لها بيانات تمكن من تقدير صافي الهجرة بطريقة الاحصاءات الحيوية(٣٤) .

وبذلك نجد أنه في حالة استخدام الطرق غير المباشرة لتقدير صافي الهجرة الى دولة الكويت فمن الأفضل استخدام الطريقة الثانية التي تعتمد فيها على البيانات التي توفرها التعدادات العامة للسكان وكذلك الاحصاءات الحيوية عن السكان المهاجرين ، أما الطريقة الأولى والتي تعتمد فيها على بيانات حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود ، وكما يوضحها كل من (الجدولين رقما ١١ ، ١٢) ، فلا يمكن الاعتماد على نتائجها وبخاصة أنه عند استعمالها أسفرت بياناتها عن أن حجم صافي الهجرة كان مقداره سالباً في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٦٩ ، وبالتحديد في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ ، بالاضافة الى عام ١٩٧٩ ، وأخيراً في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤(٣٥) ، وربما تصدق تلك الحقيقة في السنوات الثلاث الأخيرة المذكورة ، الا أنه لا يمكن حدوثها بالنسبة لفترة السبعينات وبخاصة أن تلك الفترة الزمنية شهدت حدوث هجرة ذات حجم كبير ، ومن مصادر عديدة ، لم يرد ذكرها في السابق ، منها على سبيل المثال دول جنوب وشرق آسيا ، وبالتحديد تلك الهجرة القادمة الى الكويت لأول مرة من كل من كوريا الجنوبية والفلبين وقد تميزت تلك الهجرة بالاضافة الى ما سبق أن غالبية أفرادها يتركزون في الأعمال الانشائية ، أي في قطاع التشييد والبناء ، الى جانب ما سبق فان تلك الهجرة تميزت عما شهدته

(٣٤) ساعد الصيم ، المرجع السابق ، ص ٤٠٤ .

(٣٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية للاعوام ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٥ .

الكويت من هجرات في أن مدة الاقامة للوافدين تعد مؤقتة ، حيث أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من تنفيذ المشروع الإسكاني الذي قدموا للكويت من أجله .

بالاضافة الى ما ذكرنا في السابق فان هناك عدة عوامل تجعل من البيانات الاحصائية الخاصة بحركة القدوم والمغادرة مضللة ولا يمكن الوثوق بها وبالتالي لا يعتمد عليها عند احتساب صافي الهجرة ، وفي مقدمة هذه العوامل ، ذلك العامل الذي يتمثل في أن هذه البيانات الاحصائية تغفل تسجيل البدو والمتسللين الذين يخترقون الحدود دون علم سلطات الدولة ، وبخاصة أن الداخلين الى دولة الكويت بطريقة غير مشروعة عادة ما يتهربون من اختراق الحدود بطريقة رسمية ، ولهذا يغفل تسجيلهم مع القادمين في حين يتم تسجيلهم كمغادرين فقط أثناء خروجهم من البلاد مما يعطي في النهاية أرقاماً مضللة لصافي الهجرة ، خاصة بالنسبة للجنسيات الايرانية والعراقية والسورية التي عادة ما يكثر بين سكانها دخول البلاد بتلك الطريقة .

بالإضافة الى ما سبق فان الطريقة الثانية أيضاً لتقدير حجم صافي الهجرة ما بين التعدادات والتي يعتمد عند استعمالها على كل من بيانات التعدادات العامة للسكان وبيانات الاحصاءات الحيوية بنوعيها ـ أيضاً ـ نوع من الشك ، نتيجة الى أن حجم صافي الهجرة يتأثر بالأخطاء التي تحدث في كل من عملية عد السكان وعملية التسجيل الحيوي ، الا أنه يبدو أن عمليات عد السكان في تعدادات ١٩٧٥ و ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ، وكذلك التسجيل الحيوي خلال الفترة ذاتها مكتملة تقريباً ، وهكذا فان أرقام صافي الهجرة الداخل والعدة باستخدام طريقة الاحصاءات الحيوية لن تكون عرضة لاخطاء خطيرة ، وبخاصة أنه أثناء عملية عد السكان في التعدادات الثلاث المذكورة كان هناك زيادة في التركيز على طلب الاثبات المستندي للجنسية الكويتية ، مما قلل من حالات الادعاء بالجنسية الكويتية[٣٦]

خلاصة ما سبق ذكره يتضح أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الى الكويت تشتق من مصدرين أساسيين هما الادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط وإدارة الجوازات والجنسية والإقامة بوزارة الداخلية ، مما توفره الادارة الأولى من بيانات تتضمنها كل من التعدادات العامة للسكان ، والمجموعة الاحصائية السنوية ، والمجموعة السنوية للإحصاءات الحيوية ، وأخيراً التقارير والمسوحات السكانية ، ومما توفره الإدارة الثانية من بيانات خاصة بالقادمين والمغادرين موزعين بحسب مجموعات الدولة التي ينتمون اليها ، وكذلك حركة الركاب في الموانىء البرية والبحرية والجوية ، بالاضافة الى كل من البيانات التي تتعلق بحالات منح الجنسية الكويتية وحالات منح تصاريح الإقامة للوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها ، ومما هو جدير بالذكر أن كافة تلك البيانات تقوم بجمعها وتبويبها الادارات المختصة بوزارة الداخلية وبخاصة نقاط الحدود البرية والبحرية والادارة العامة للطيران المدني وأخيراً الادارة العامة للجوازات والجنسية والإقامة ، وقد كان هذا النوع من البيانات يصدر عن وزارة الداخلية حتى عام ١٩٦٥ ، إلا أنه بعد ذلك التاريخ أصبح مجلس التخطيط ـ وزارة التخطيط الحالية ـ هو الذي يتولى نشر واصدار مثل تلك البيانات معتمداً في ذلك على سجلات وزارة الداخلية

(٣٦) وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٥

بالإضافة إلى هذين المصدرين هناك مصدر ثالث للبيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية الى الكويت وتمثل هذا المصدر في مراقبة الاستخدام بإدارة تنظيم القوى العاملة بوزارة الشئون الاجتماعية والعمل وفي مطلع عام ١٩٨٠ أصبح يطلق على تلك الإدارة إدارة عمل محافظة العاصمة ، بعد صدور القرار رقم (١٩٩) لسنة ١٩٧٩ ، وقد تولت الادارة إصدار تصاريح العمل على مستوى الدولة (٣٧) ، ويصدر عن الادارة المذكورة تقديراً سنوياً يختص بنشر بيانات تحليلية وإحصائية عن تصاريح العمل في القطاع الأهلي وقطاع الأعمال النفطية ، ويتمثل الهدف الأساسي من نشر تلك البيانات في توضيح كل ما يتعلق بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ، وتعد تلك البيانات كمؤشر لمعرفة مدى الطلب على هذه القوى ، وما يحدث بها من متغيرات وبخاصة عندما تنشط قطاعات معينة كما حدث في قطاع التشييد والبناء في منتصف السبعينات ، حيث كان الطلب مركزاً على العمالة الوافدة من أجل العمل في القطاع المذكور ، وكذلك تعد تلك البيانات كمؤشر للتعرف على المهن والتخصصات التي تزود بها سوق العمل في الكويت من الدول المختلفة المصدرة للعمالة ، وما اذا كان هناك ثمة علاقة بين مصدر معين ومهن بذاتها ، أي التوقف على مدى العلاقة ما بين الجنسية والمهنة ، كما حدث في عامي ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ حيث شهدت هاتان السنتان تغيراً جذرياً في خريطة الدول المصدرة للقوى العاملة والوافدة الى دولة الكويت وحين أصبحت القوى العاملة غير العربية في موقف المتحدي أمام القوى العاملة العربية الوافدة ، وقد بلغت تلك الظاهرة مداها في الثمانينات . (كما أوضحنا فيما سبق) .

خلاصة لكل ما سبق ذكره فان الهدف الأساسي من عمل الادارة المذكورة يتلخص في تنظيم عملية استخدام القوى العاملة الى الكويت من أجل الاستفادة بأفضل الطاقات البشرية المتاحة في أسواق العمل الخارجية ، وكذلك إجراء التقديرات المستقبلية الصحيحة للاحتياجات الفعلية من قوة العمل الوافدة على أسس اقتصادية ، معتمدة في ذلك على حصيلة وفيرة من الحقائق المحيطة بسوق العمل المحلي ، وقد اعتبرت تلك الحقائق بمثابة المؤشرات الأساسية لاتجاهات سوق العمل بالكويت وتطوراته ومتغيراته لوضع خطة تحو المضي في اصدار تصاريح جديدة للعمل في اتجاهات اقتصادية معينة .

وتتضمن التقارير السنوية المذكورة بيانات إحصائية ودراسات وتحليلية خاصة بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ـ كما ذكرنا في السابق ـ ، بالاضافة الى عمل تقديرات للاحتياجات المستقبلية لتلك العمالة ، والبيانات المنشورة في تلك التقارير عن تصاريح العمل توضح أن هناك عدة أنواع من هذه التصاريح هي كما يلي : التصاريح بالدخول للعمل ، التصاريح بالعمل لأول مرة ، تجديد تصاريح العمل ، الغاء تصاريح العمل أو تحويلها ، وأخيراً الالغاء النهائي لتصاريح العمل ، وجميع تلك الأنواع من تصاريح العمل مجدولة ومصنفة بحسب النشاط الاقتصادي والجنسية والمجموعات المهنية والنوع والعمر والحالة الاجتماعية وأخيراً الأجور .

(٣٧) وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقدير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ ، المقدمة .

وقد اهتمت وزارة الشئون الاجتماعية والعمل بتطوير البيانات التي تتناولها هذه التقارير بالدراسة والتحليل نتيجة الى أن القوى العاملة المستجدة سنوياً والوافدة الى الكويت تتزايد من سنة لأخرى ، بحيث أن نتائج تعداد السكان لعام ١٩٨٠ تظهر أن السبب الرئيسي لاقامة السكان الوافدين بدولة الكويت هو المرافقة (مرافقة الأقارب العاملين بالدولة) وبنسبة قدرها (٥١,٤٪) ، بينما تبلغ نسبة المقيمين للعمل (٤٧,٩٪)[٣٨] . ولذلك فقد ركزت الوزارة المذكورة على تطوير قانون العمل في القطاع الأهلي وتنظيمه ، بحيث صدر قانون في عام ١٩٨٤ أضيف بمقتضاه عمل إجراءات جديدة عند إصدار تصاريح العمل للقوى العاملة الوافدة للعمل في القطاع الأهلي ، منها أن المادة الأولى منه تنص على قصر إصدار تصاريح العمل على قطاعات اقتصادية معينة[٣٩] .

وفي حالة دراسة الهجرة الى دولة الكويت هناك بيانات صادرة عن وزارة الداخلية خاصة بحالات منح الاقامة للسكان الوافدين الى دولة الكويت ، وقد لا تفيد البيانات المذكورة الباحثين والمتخصصين بالدراسات السكانية عند قياس حجم صافي الهجرة ، الا أن هذه البيانات تكون بمثابة مؤشر مهم عند دراسة مظاهر استقرار القوى العاملة الوافدة ، وبخاصة أن دراستنا التحليلية للقوى العاملة بدولة الكويت والتي تناولناها قبل قليل اسفرت عن أن القوى العاملة غير الكويتية تشكل ما يزيد قليلاً عن أربعة أخماس القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تمثل غالبية القوى العاملة بالدولة حتى عام ١٩٨٥ ، لذلك أخذت الدولة على عاتقها مسئولية إصدار التشريعات الخاصة بالاقامة وما يتعلق بها منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٧٥ ، وتعد جميع القرارات الصادرة بهذا الشأن عامة بشأن شروط جواز دخول الأجانب لأراضي دولة الكويت والاقامة فيها ومنحها وسلبها .

وفي بيان الجدول رقم (١٣) نستنتج أن نصيب مجموعة الجنسيات العربية الغير الكويتية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الصادرة والممنوحة للسكان الوافدين في الفترة الزمنية الممتدة في عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ ، قد اتجه نحو التناقص وبشكل واضح فبعد أن كانت تلك النسبة تشكل (٦١,٢٪) من إجمالي تصاريح الاقامة الممنوحة للوافدين في عام ١٩٧٣ ، أصبحت هذه النسبة تشكل (٣٥,٦٪) أي الثلث فقط في عام ١٩٨٢ ، ممثلة بذلك المرتبة الثانية ، وقد احتلت تلك المجموعة هذه المرتبة منذ عام ١٩٧٩ ، بعد أن كانت ممثلة للمرتبة الأولى في السنوات السابقة للعام المذكور . في حين أن مجموعة الجنسيات الاسيوية غير العربية كانت ممثلة للمرتبة الثانية في عام ١٩٧٣ وبنسبة تقدر بـ (٣٦,١٪) ، الا أن هذه النسبة اتجهت نحو الزيادة من سنة لأخرى حيث أنها فاقت ما يقابلها لدى مجموعة الجنسيات العربية منذ عام ١٩٧٩ ، ممثلة ـ بذلك ـ للمرتبة الأولى واستمرت تلك المجموعة ممثلة لهذه المرتبة حتى عام ١٩٨٢ وبنسبة تقدر بـ (٥٣,٥٪) أي أن نصيب مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الممنوحة زاد عن النصف بقليل في العام المذكور .

أما نصيب بقية المجموعات الجنسية غير العربية كالافريقية والأمريكية والأوروبية وغيرها فقد كان محدوداً جداً ويقل في معظم الأحوال عن نسبته (١٪) في جميع السنوات المذكورة .

---

(٣٨) مساعد حسن العسيم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٤٤

(٣٩) وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٨٤ ، الكويت في فبراير ١٩٨٥ ، ص ٣ ـ ٤

خلاصة لما سبق ذكره يتضح أن دولة الكويت تعد حديثة العهد بالنسبة لوفود المهاجرين اليها ، حيث بدأت ظاهرة الهجرة الدولية الى دولة الكويت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، الا أنها ساهمت بشكل فعال في نمو حجم السكان وبالتالي أثرت وبشكل واضح على كافة الخصائص الديموجرافية السكانية ، ولم تبدأ الكويت بتدوين أو تسجيل بيانات تلك الظاهرة الا منذ عام ١٩٥٧ ، حين أجرى التعداد الأول للسكان بالدولة ، ثم تبعه بعد ذلك استمرار هذه العملية كل خمس سنوات وكان آخرها تعداد عام ١٩٨٥ ، وبخاصة أنه كما علمنا في السابق من أن بيانات التعداد العام للسكان تعد المصدر الرئيسي لاحصاءات الهجرة الى دولة الكويت أو منها ، أما المصدر الثاني فقد مثله البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية ، وبخاصة تلك البيانات الوثيقة الصلة بحركة السكان والتي تجمع بوساطة الرجال القائمين على مراقبة نقاط الحدود والمطارات ، بالاضافة الى تلك البيانات الخاصة بحالات منح الاقامة للوافدين والتي في حالة تحليلها تعد بمثابة مؤشر هام لمدى استقرار القوى العاملة ، وأخيراً فان المصدر الثالث يتمثل في احصاءات الهجرة التي توفرها وزارة الشئون الاجتماعية والعمل والخاصة بتصاريح العمل الممنوحة للقوى العاملة الوافدة في القطاع الأهلي .

خلاصة لما سبق ذكره يتبين لنا أن هناك جهات رسمية عديدة تعمل على جمع وجدولة ونشر البيانات الخاصة بالهجرة الدولية القادمة الى دولة الكويت أو المغادرة منها ، وقد تمثلت هذه الجهات بثلاث وزارات هي وزارة التخطيط ، ووزارة الداخلية ووزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، وبناء على ذلك نوصي بأن يكون هناك جهة رسمية واحدة فقط تتولى تلك العملية ، ومن الأفضل أن تكون تلك الجهة ممثلة بوزارة التخطيط ، وبخاصة بالنسبة لجمع هذه البيانات والتأكد من صحتها وبالتالي تبويبها ونشرها ، لتكون أكثر فائدة بالنسبة لكافة المهتمين بظاهرة الهجرة الدولية سواء أكان منها القادمة أم المغادرة من دولة الكويت وفي مقدمتهم المسؤولون عن التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بمن فيهم العاملون في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص ، أو الباحثون والدارسون لتلك الظاهرة ، بالاضافة الى ما سبق نوصي ـ أيضاً ـ أن يكون هناك قسم خاص يعنى بشئون الهجرة ويكون تابعاً للادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط يعمل على جمع كافة البيانات الاحصائية المتعلقة بالهجرة ، وينشرها ضمن إصدار خاص يكون على هيئة مجلد يحتوي على جميع البيانات الاحصائية للهجرة ، حتى يكون أكثر فائدة وقيمة عند دراسة تلك الظاهرة من قبل جميع المهتمين بهذه الظاهرة ، وحتى يتمكنوا من خلال دراستهم ومناقشتهم لتلك الظاهرة من حيث تحليل مسبباتها والتغيرات التي تطرأ على حجمها من فترة زمنية الى أخرى ، والعوامل المؤثرة على حجم الهجرة الدولية الى الكويت سواء أكان منها ، الداخلية أم الخارجية ، حتى يستطيع المهتمون بتلك الظاهرة بجميع فئاتهم الوصول الى فهم أكثر للعوامل المحددة لمختلف نوعيات الهجرة الوافدة الى دولة الكويت بشكل أكثر سهولة عند استخدام هذه البيانات .

أما التوصية الثالثة التي تختتم بها هذا البحث فتتلخص في أنه على الجهات الرسمية الثلاث المعنية بظاهرة الهجرة في الوقت الحالي والممثلة في وزارات التخطيط والداخلية والشئون الاجتماعية والعمل أن تعطي مزيداً من الاهتمام نحو تسجيل البيانات الاحصائية المتعلقة بتلك الظاهرة ، لتكتسب مزيداً من الدقة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بشمولية هذه البيانات ، بحيث أنه في حالة تسجيل تلك البيانات لا تغفل أي مجموعة سكانية وافدة الى البلاد أو مغادرة منها ، نتيجة لما يمثله حجم السكان المهاجرين من إجمالي السكان داخل الدولة ، وكما ذكرنا فيما سبق من أن هؤلاء السكان أصبحوا

يمثلون نسبة تقدر بـ (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة كما أظهرتها نتائج التعداد الأخير ـ تعداد عام ١٩٨٥ ، وهذه النسبة ليست كبيرة من حيث حجمها فقط ، بل تتعدى ذلك بكثير لمالها من آثار بالغة وواضحة على الخصائص السكانية داخل الدولة ، سواء أكان منها الاجتماعية أم الاقتصادية بل وحتى السياسية ، وما يتطلبه كل ذلك من زيادة سريعة في الخدمات المختلفة التي تقدمها وتوفرها الجهات المعنية وفي مقدمتها وزارات الدولة المختلفة وبجميع أجهزتها والمؤسسات التابعة لها .

ملحـــق الجـــداول

فهرست الجداول

جدول رقم (١)

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)

في سنوات التعداد من (١٩٦٥ ـ ١٩٨٥)(٣٩)

سنة التعداد والعدد والنسبة / السكان	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠*		١٩٨٥	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
كويتيون	٢٢٠٠٥٩	٤٧,١	٣٤٧٣٩١	٤٧,٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧,٥	٥٦٥٦١٣	٤١,٧	٦٨١٢٨٨	٤٠,١
غير الكويتيين	٢٤٧٢٨٠	٥٢,٩	٣٩١٢٦٦	٥٣,٠	٥٢٢٧٤٩	٥٢,٥	٧٩٢٣٣٩	٥٨,٣	١٠١٦٠١٣	٥٩,٩
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠,٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠,٠	٩٩٤٨٣٤	١٠٠,٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠,٠	١٦٩٧٣٠١	١٠٠,٠

(٤٠) التعدادات العامة للسكان في السنوات المذكورة .

* النسب حسبت .

جدول رقم (٢)

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في تعدادات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤٠)

سنة التعداد / العدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠
كويتية	٢٢٠٠٥٩	١ر٤٧	٣٤٧٣٩٦	٠ر٤٧	٤٧٢٠٨٨	٥ر٤٧	٥٦٥٦١٣	٧ر٤١	٦٨١٢٨٨	١ر٤٠
عربية	١٨٧٩٢٢	٢ر٤٠	٣١٢٨٤٩	٤ر٤٢	٤١٩١٨٧	١ر٤٢	٥٧٤٤٩٥	٣ر٤٢	٦٤٣٨١٤	٩ر٣٧
اسيوية	٥٤٥٠٤	٧ر١١	٧١٩١٧	٧ر٩	٩٧٨١٣	٨ر٩	٢٠٤١٠٤	٠ر١٥	٣٥٥٩٤٧	٠ر٢١
اوروبية	٣٨٣٩	٨ر٠	٤٨١٦	٧ر٠	٤٢٨٠	٤ر٠	٩٩٨٤	٧ر٠	١١٩٠٨	٧ر٠
أخرى *	١٠١٧	٢ر٠	١٦٠٨	٢ر٠	١٣٠١	١ر٠	٣٧٥٦	٣ر٠	٥٣٤٤	٣ر٠
غير مبين	—	—	٧٦	—	٢٦٨	—	—	—	—	—
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	٠ر١٠٠	٧٣٨٦٦٢	٠ر١٠٠	٩٩٤٨٣٧	٠ر١٠٠	١٣٥٧٩٥٢	٠ر١٠٠	١٦٩٧٣٠١	٠ر١٠٠

(٤٠) المصدر السابق .

* أخرى وتشمل الجنسيات الافريقية غير العربية والأمريكية والاسترالية والغير مبينة .

جدول رقم (٣)

التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها

في تعدادات ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤١)

سنة التعداد / العدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠
عربية	١٨٧٩٤٢	٧٦ر٠	٣١٢٨٤٩	٨٠ر٠	٤١٩١٨٧	٨٠ر٠	٥٧٤٤٩٥	٧٢ر٥	٦٤٢٨١٤	٦٣ر٢
اسيوية	٥٥٠٠٤	٢٢ر٠	٧٢٩١٧	١٨ر٦	٩٧٨١٣	١٨ر٧	٢٠٤١٠٤	٢٥ر٨	٣٥٥٩٤٧	٣٥ر٠
اوربية	٣٨٢٩	١ر٥	٤٨١٦	١ر٢	٤٢٨٠	٠ر٨	٩٩٨٤	٠ر٨	١١٩٠٨	١ر٢
أخرى	١٠١٧	٠ر٤	١٦٠٨	٠ر٤	١٣٠١	٠ر٢	٣٧٥٦	٠ر٩	٥٣٤٤	٠ر٥
غير مبين	—	—	٧٦	—	١٦٨	—	—	—	—	—
الجملة العمومية	٢٤٧٢٨٠	١٠٠ر٠	٣٩١٢٦٦	١٠٠ر٠	٥٢٢٧٤٩	١٠٠ر٠	٧٩٢٣٣٩	١٠٠ر٠	١٠١٦٠١٣	١٠٠ر٠

(٤١) المصدر السابق.

* أخرى تشمل السكان والوافدين من مجموعات الدول الافريقية غير العربية والامريكية واستراليا ونيوزيلندا

* النسب حسبت.

جدول رقم (٤)
صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من (١٩٤٨ - ١٩٨٥)

صافي الهجرة والمجموعات المعنية / الفترة التعدادية	الدول العربية		الدول الاسيوية		الدول الاوربية		الدول الامريكية ودول أخرى		غير مبين		الجملة	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
٤٨ - ١٩٥٧	٤١٨٨٨	٦٤ر٩	٢٠٢٠١	٣١ر٠	٢٢٤٣	٣ر٠	٩٧	٠ر١	—	—	٦٤٥٠٩	١٠٠ر٠
٥٧ - ١٩٦٥	١٥٨٩١٤	٧٦ر٤	٤٥٤٨٨	٢١ر٦	٣٠٢٧	١ر٥	٤٩٣	٠ر٢	١٤	—	٢٠٧٩٨٦	١٠٠ر٠
٦٥ - ١٩٧٠ (٤٣)	٢٨١٢٥١	٧٨ر٣	٤٤٨٠٢	١٩ر٤	٤٤٤٦	١ر٩	٩٢٦	٠ر٤	—	—	٣٣١٤٣١	١٠٠ر٠
٧٠ - ١٩٧٥	١٦٥٥٦٧	٧٥ر٠	٥٠٦١٢	٢٢ر٩	٣٤٢٨	١ر٦	١٠٥٣	٠ر٥	٢٥	—	٢٢٠٦٨٥	١٠٠ر٠
٧٥ - ١٩٨٠ (٤٤)	١٥٥٣٠٨	٥٢ر٦	١٠٦٢٩١	٣٩ر٤	٥٧٠٤	٢ر١	٢٢٨٧	٠ر٩	—	—	٢٦٩٥٩٠	١٠٠ر٠
٨٠ - ١٩٨٥	٦٨٣١٩	٣٠ر٥	١٥١٨٤٣	٦٧ر٩	٥٩٢٤	٢ر٩	١٥٨٨	٠ر٧	—	—	٢٢٣٦٧٤	١٠٠ر٠

(٤٣) أحمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) الكويت ١٩٨٨ ، جدول رقم (٣) ص١٥ .

(٤٤) وزارة التخطيط ، المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٨٨ والتعداد العام للسكان ١٩٨٨

جدول رقم (٥)

الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)

للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤

الواقعات الحيوية والجنسية والعدد والمعدل / السنة	المواليد أحياء				الوفيات				الزيادة الطبيعية			
	كويتيون		غير كويتيين		كويتيون		غير كويتيين		كويتيون		غير كويتيين	
	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل
١٩٦٥	١١٧٩٣	٥٩,٧	١٠١٥٧	٤٥,٠	١٦٠٦	٨,١	٨٥١	٣,٣	١٠١٩٠	٥١,٦	٩٣٠٦	٣٧,١
١٩٦٦	١٢٨٨٣	٥٠,٩	١١٢٤٩	٤٠,٩	١٩٣٦	٧,٢	١٠٤٧	٣,٨	١٠٧١٧	٤٢,٧	١٠٢٠٢	٣٧,١
١٩٦٧	١٤٦٣٤	٥٠,٨	١٣٣٦٠	٤٥,٥	١٨٣٢	٦,٧	١٢٨٩	٤,١	١٢٨٠٢	٤٤,٢	١٢٤٩١	٤١,٣
١٩٦٨	١٥٧٦٢	٥٣,٦	١٣٦٦٤	٥٣,٢	١٩٢٩	٥,٩	١٤١٧	٤,١	١٣٨٣٣	٤٧,٠	١٥٨٤٧	٤٨,٠
١٩٦٩	١٧٩٦٨	٥٥,٨	١٧١٧٠	٤٣,٢	١٨٧٨	٥,٨	١٥٠٠	٤,١	١٦٠٨٢	٤٩,٩	١٥٦٧٠	٤٢,٣
١٩٧٠	١٦٦٢٠	٤٦,٣	١٧٦٢٤	٤٤,٥	٢٠١٥	٥,٤	١٧٤٠	٤,٣	١٤٦٠٨	٤٠,٥	١٥٩٠٢	٤٠,٢
١٩٧١	١٦٦٦٧	٤٨,٩	١٧٨١٢	٤٢,١	٢٢٢٥	٦,٠	٢٠٠٧	٣,٥	١٤٤٤٢	٤٢,٩	١٦٦٨٤	٣٨,٥
١٩٧٢	١٩٩٢٩	٥٠,٣	١٨٨٥٨	٤٤,٩	٢٥٥٣	٦,٦	١٥٩٠	٣,٥	١٦٣٧٦	٤٣,٧	١٧٨١٤	٣٧,٥
١٩٧٣	٢١١٤٠	٥٠,٥	١٨٨٤٥	٤٠,٠	٢٨٤٠	٦,٧	١٧٧١	٣,٧	١٨٥٠٠	٤٣,٨	١٧٠٦٤	٣٦,٣
١٩٧٤	٢٢٧١٤	٥٠,٥	١٨٤٢٧	٣٧,٨	٢٣٧٨	٦,١	١٧٦٥	٣,١	١٩٣٣٦	٤٣,٩	١٦٦٣٢	٣٤,٨
١٩٧٥	٢١٣٢١	٥١,٦	١٩١٥٠	٣٦,٣	٢٦١٧	٦,٢	١٨٦١	٣,٥	٢١٥١٤	٤٥,١	١٧٢٥٩	٣١,٥
١٩٧٦	٢٤٩٢٨	٥٠,٨	٢١١٠٤	٣٦,٦	٢٧٥٢	٥,٦	١٩٠٤	٣,٣	٢٢١٧٨	٤٥,٠	١٩٢٠٠	٣٣,٣
١٩٧٧	٢٤٧٩٠	٤٨,٥	٢٢٠٧٤	٣٨,٤	٢٥٥٠	٦,١	٢٢١٥	٣,٥	٢٢٦٤٠	٤٣,٧	١٩٨٥٩	٣٦,٧
١٩٧٨	٢٥١٢٨	٤٩,١	٢٢٨٨٩	٣٣,٣	٢٨٦٨	٥,٥	٢٠٦٨	٣,٠	٢٢٢٦٠	٤٣,٥	٢٠٨٢١	٣٠,٦
١٩٧٩	٢٥٤٩٩	٤٦,٤	٢٢٧٧٤	٣٠,٩	٢٩٤٣	٥,٥	٢٠٨٥	٢,٨	٢٢٥٥٦	٤١,٠	٢٠٦٨٩	٢٧,٩
١٩٨٠	٢٦٩٦٨	٤٢,٣	٢٥١٢٢	٣٠,٢	٢٩٠٣	٥,٥	٢٠١٩	٢,٥	٢٤٠٥٥	٤٢,٢	٢٣١٠٣	٢٣,٥
١٩٨١	٢٧٩٩٤	٤٧,١	٢٥٠٥٣	٢٧,٥	٢٦٨٩	٤,٦	١٩٨٩	٢,٢	٢٥٣٠٩	٤٢,٥	٢٣٠٥٥	٢٥,٣
١٩٨٢	٢٩٠٠٤	٤٧,٤	٢٥٢٥٣	٢٦,٥	٢٨٢٨	٤,٦	٢١٦٤	٢,٣	٢٦١٣٦	٤٢,٨	٢٣٠٨٩	٢٤,٢
١٩٨٣ (١٥)	٣٠٠٣٦	٤٧,٣	٢٥٥٨٨	٢٤,٣	٢٦٦٣	٤,٢	١٩٩١	١,٨	٢٧٣٦٩	٤٣,١	٢٣٥٩٤	٢٢,٥
١٩٨٤ (١٦)	٣٠٤٤٨	٤٦,٣	٢٥٨٠٦	٢٦,٥	٢٥٢٤	٣,٨	١٩٣٣	٢,٠	٢٧٩٢١	٤٢,٤	٢٣٨١٣	٢٤,٥

(١٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة السنوية للاحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ ، الجدول رقم (٢) و (٣٢) ، ص ٢ ، ٩٤ .

(١٦) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة الاحصائية الشهرية للاحصاءات الحيوية ، مارس ١٩٨٦ ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ ، جدول رقم (٢) و (٨) ، ص ٨ ، ٩ .

* حسبت المعدلات

جدول رقم (٦)

مكونات النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) (٤٦)

السكان ومقدار الزيادة في الفترات التعدادية / سنة التعداد	السكان الوافدين: العدد	السكان الوافدين: النسبة	مقدار الزيادة بين التعدادين: العدد	مقدار الزيادة بين التعدادين: المعدل السنوي	مقدار الزيادة الطبيعية بين التعدادين: العدد	مقدار الزيادة الطبيعية بين التعدادين: النسبة	الهجرة الصافية بين التعدادين: العدد	الهجرة الصافية بين التعدادين: النسبة
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥ر٠						
			٦٦٨٦١	١٣ر٦	٢١٤٥٢	٣٢ر١	٤٥٤٠٩	٦٢ر٩
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩ر٧						
			٨٧٥٦٨	١١ر٨	٣٨٧٣٠	٤٤ر٢	٤٨٨٣٨	٥٥ر٨
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢ر٩						
			١٤٢٩٨٦	٩ر٦	٧٠٠٤٣	٤٨ر٢	٧٢٩٤٤	٥١ر٤
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٢ر٠						
			١٢١٤٨٣	٩ر٥	٨٣٤٧٦	٦٣ر٤	٤٨٠٠٧	٣٦ر٦
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥٢ر٤						
			٢٦٥٥٩٠	٨ر٧	٩٧٨٢١	٣٦ر١	١٦٧٧٦٩	٦٣ر٩
١٩٨٠	٧٩١٢٢٩	٥٨ر٣						
			٢٢٣٦٧٤	٥ر١	١١٤٦٥٣	٥١ر٣	١٠٩٠٢١	٤٨ر٧
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩ر٩						

(٤٧) الأرقام المطلقة مستقاة من التعدادات العامة للسكان .

* المعدلات والنسب محسوبة .

جدول رقم (٧)
تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (٥٧ - ١٩٨٥) (٤٧)

السكان / سنة التعداد	عدد السكان الوافدين	الوافدون الى جملة السكان	مقدار الزيادة بين التعدادين	معدل النمو السنوي بين التعدادين	معدل الزيادة الطبيعية بين التعدادين	معدل الزيادة غير الطبيعية بين التعدادين
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥ر٠				
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩ر٦	٦٦٨٦١	١٣ر٢	٣ر٢	١٠ر٩
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢ر٩	٨٧٥٦٨	١١ر٨	٣ر٢	٨ر٦
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٣ر٠	١٤٣٩٨٦	٩ر٦	٤ر١	٥ر٥
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥٢ر٥	١٣١٤٨٣	٥ر٩	٣ر٦	٢ر٣
١٩٨٠	٧٩٢٣٣٩	٥٨ر٣	٢٦٩٥٩٠	٨ر٢	٣ر١	٥ر١
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩ر٩	٢٢٣٦٧٤	٥ر١	٣ر٤	٢ر٧

(٤٧) المرجع السابق
* المعدلات حسبت

جدول رقم (٨)

تطور معدلات النمو السنوية للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمس

معدلات النمو السنوية والمجموعات الجنسية / الفترات التعدادية	معدلات النمو السنوية								
	الكويتيون	عربية	آسيوية	افريقية	أوروبية	أمريكية الشمالية	أمريكية الجنوبية	استراليا ونيوزيلندة	مجموع الجنسيات غير الكويتية
٥٧ – ٦٥	١٨ ر ٢	١٤ ر ٧	٩ ر ٢	١٩ ر ٥	٢ ر ٤	١٢ ر ٢	١٢ ر ٢		١٢ ر ٠
٦٥ – ٧٠	١١ ر ٦	١٠ ر ٧	٥ ر ٧	١٠ ر ٢	٤ ر ٧	١٢ ر ٥	٦ ر ٥٠		٩ ر ٦
٧٠ – ٧٥	٧ ر ٦	٦ ر ٠	٦ ر ٢	[illegible]	٣ ر ٣٠	٤ ر ٣٠	١٠ ر ٣	٦ ر ١	٥ ر ٩
٧٥ – ٨٠ (٤٨)	٤ ر ٠	٦ ر ٥	١٥ ر ٨	١٩ ر ٥	١٨ ر ٥	١٩ ر ٩	١٦ ر ٧	٣٣ ر ٤	٨ ر ٢
٨٠ – ٨٥ (٤٩)	٤ ر ١	٢ ر ٤	١٤ ر ٩	٥ ر ٥	٣ ر ٩	١١ ر ٨	٦ ر ٨	١ ر ٦	٥ ر ٦

(٤٩) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٤ ، العدد الثاني والعشرون ، الكويت في اكتوبر ١٩٨٥ ، جدول رقم (٩) ص ٢٥

(٥٠) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، الجزء الأول ، الكويت في ابريل ١٩٨٦ ، جدول رقم ٢٨

جدول رقم (٩)

التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد

مجموعات الدول / سنوات التعداد والعدد والنسبة	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥١)		١٩٨٥ (٥٢)	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الكويتية	٤٣٠٢٥	٢٣,٣	٦١٦٨٢	٢٥,٩	٨٦٩٣٢	٢٩,٠	١٠٢٤٧٦	٢١,٢	١٢٣٥٦٠	١٨,٣
العربية غير الكويتية	٩٦٣٧٢	٥٢,٣	١٢٠٢٨٨	٥٠,٤	١١٦٧١٨	٤٩,٠	٢٣٨٥٨٥	٤٨,٩	٢٤٩٠٢١	٣٧,٩
الاسيوية غير العربية	٤٠٢٩٢	٢١,٨	٥٠٣٨٢	٢١,١	٦٢٨٨٤	٢٠,٩	١٤٥٧١٦	٢٩,٨	٢٨١٨٠٦	٤٢,٥
الافريقية غير العربية	٢٧٠	٠,٢	٣٠٥	٠,١	١٠٧	—	٨١٠	٠,٢	١٠٢٨	٠,٢
الامريكية والاوروبية	١٩٠٧	١,٠	٢٤٨٣	١,٠	٢٠٣٣	٠,٧	٥٥١٩	١,١	٧١١٣	١,١
غير مبين	١٢	—	٤٧	[illegible]	—	—	—	—	—	—
متسللون	٢٣٣٦	١,٢	٣٣٢٢	١,٤	١٩٢٤	٠,٤	٢١٧٩	٠,٤	—	—
جملة غير الكويتيين	١٤١٢٧٠	٧٦,٧	١٧٦٨٢٧	٧٤,١	٢١١٢٧٨	٧١,٠	٣٨٥٢٤٩	٧٨,٨	٥٣٩٠٢٨	٨١,٧
الجملة العمومية	١٨٤٣٠٤	١٠٠,٠	٢٣٨٥٠٩	١٠٠,٠	٢٩٩٢٠٩	١٠٠,٠	٤٨٧٧٢٣	١٠٠,٠	٦٦٦٥٨٨	١٠٠,٠

(٥١) وزارة التخطيط، الادارة المركزية للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥، المرجع السابق، جدول ١٠٩، ص ١١٠، ص ١١٣، ١١٤.

(٥٢) وزارة التخطيط، الادارة المركزية للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣، العدد العشرون، الكويت في نوفمبر ١٩٨٣، جدول ٩٢، ٩٣، ص ١٠٦.

(٥٣) وزارة التخطيط، التعداد العام للسكان ١٩٨٥، المرجع السابق، جدول رقم (٦).

- قوة العمل (١٢ سنة فأكثر) في عامي ١٩٦٥، ١٩٧٠.
- قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) في الاعوام ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥.

* حسبت النسب.

جدول رقم (١٠)

التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥

سنوات التعداد والعدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥٣)		١٩٨٥ (٥٤)	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الدول العربية	٦٢٣٧٢	٤٤ر٢	١٢٠٧٨٧	٦٨ر٣	١٤٦٦٦٨	٦٩ر٠	٢٢٨٤٤٥	٥٩ر٦	٢٥٩٠٣١	٤٦ر٢
الدول الاسيوية	٤٠٣٩٢	٢٨ر٦	٥٠٨٤٣	٢٨ر٠	٦١٥٨٦	٢٩ر٤	١٥٥٧١٦	٣٨ر٠	٢٨١٨٠٦	٥٣ر٣
الدول الافريقية	٢٧٠	٠ر٢	٣٠٥	٠ر١	١٠٢	[illegible]	٨١٠	٠ر٢	١٠٢٨	٠ر٢
الدول الامريكية والاوروبية	١٩٠٧	١ر٤	٢٤٨٣	١ر١	٢٠٣٢	١ر٠	٥٥١٩	١ر٤	٧٢٦٣	١ر٣
غير مبين	١٢	٠ر٠	٤٧	[illegible]	—	—	—	—	—	—
متعطلون	٢٣٣٦	١ر٧	٢٣٣٩	١ر٠	١٩٩٤	٠ر٦	٣١٧٩	٠ر٨	—	—
الجملة العمومية	١٤١٢٧٩	١٠٠ر٠	٢٣٦٨٣٢	١٠٠ر٠	٢١٢٧٢٨	١٠٠ر٠	٣٨٣٧٥٩	١٠٠ر٠	٥٢٩٠٢٨	١٠٠ر٠

(٥٣) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٢ ، المرجع السابق ، جدولا رقم ٩٢ ، ٩٣ ، ص ١٠٦ .

(٥٤) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق .

● قوة العمل (١٢ سنة فأكثر) في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

● قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) في اعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

● حسبت النسب .

جدول رقم (١١)

حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات (١٩٦١ - ١٩٨٤)

حركة السكان غير الكويتيين وصافي الهجرة / السنة	حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود: قادمون	مغادرون	صافي الحركة	صافي الهجرة في الفترة ما بين التعدادات
١٩٦١	٢١٩٠٧١	٢٢٧٧٤٢	٨٦٧١ −	
١٩٦٢	١٨١٩٥٠	١٦١٧٤٨	٢٠٢٠٢ +	٨٢٩٩ −
١٩٦٤	٢٦٠٧٨٨	٢٨٨٦١٢	٢٧٨٢٤ −	
١٩٦٥ (٥٥)	٥٧٥٩٧١	٥٧٥٦٥٠	٣٢١ +	
١٩٦٦	٦٤٦٤٣١	٦١٥٦٤١	٣٠٧٩٠ +	
١٩٦٧	٩٠٢٢١٨	٧٦٥٥٣٤	١٣٦٦٨٤ +	٢٩٤٦٥٢ +
١٩٦٨	٧٦٢٧٢٣	٦٤٣٠٢٨	١١٩٦٩٥ +	
١٩٦٩	٦٢٠١٦٩	٦١٢٢١٧	٧٩٥٢ +	
١٩٧٠	٦١٧٨٦٣	٦٥٨٨٧٥	٤١٠١٢ −	
١٩٧١	٦٥٣٢٩٥	٦٨٠٤٠٥	٢٧١١٠ −	
١٩٧٢	٦٨٨٨٢٣	٧٩٠٤٣٩	١٠١٦١٦ −	٢١١٩٨٢ −
١٩٧٣	٦٦٩٣٢٢	٧٠٨٠١٠	٣٨٦٨٨ −	
١٩٧٤	٧٥٧٥٤٨	٧٧١٢٢٩	١٣٦٨١ −	
١٩٧٥	٩١٨٦٦٠	٨٦٤٤٣٠	٥٤٢٣٠ +	
١٩٧٦	١٠٤٧٣٤٤	٩٧١٧٢٧	٧٥٦١٧ +	
١٩٧٧	١٣٠٧١٩٢	١١٦٢٢٦٣	١٤٤٩٢٩ +	٣٢٠٩٢٧ +
١٩٧٨	١٣٤٩٣٧٩	١٢٧٧٢٠٦	٧١٩٧٣ +	
١٩٧٩	١٣٦١٢٢١	١٣٨٧٠٠٣	٢٥٧٨٢ −	
١٩٨٠	١٢٦٥٧٣١	١٢٦٥٣٧٠	٣٦١ +	
١٩٨١	١١٨٧١٦٩	١٠٩٥٣٥٦	٩١٨١٣ +	
١٩٨٢	٩٠١٥٩٨	٩٦٠٦٤٦	٥٩٠٤٨ −	٦٩٥٨٣ −
١٩٨٣	٧٩١٠٥٦	٨٢٣٢٥٩	٣٢٢٠٣ −	
١٩٨٤ (٥٦)	٨٩٩٧٩٤	٩٣٠٢٣٠	٣٠٤٣٦ −	
			الاجمالي	٢٦٥٧١٥ +

(٥٥) من عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٥ الأرقام المطلقة للقادمين والمغادرين مستقاة من المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٦٦ ، جدول ١٨ ، ص ٣٩ .

(٥٦) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية للأعوام ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

* الأرقام المطلقة لصافي الحركة وصافي الهجرة حسبت .

جدول رقم (١٢)

صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات (١٩٧٢ - ١٩٨٤)

مجموعات الدول / السنوات	١٩٧٢ (٥٧)	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢ (٥٨)	١٩٨٣ (٥٩)	١٩٨٤
الدول العربية	− ٨٩٦٦٤	+ ٦٥٠٥١	+ ٤٢٧	− ٣٣٠٠٣	+ ٤٢٠٣٧	+ ١٢٢٦٥٨	+ ٧١٤٥٥	− ٩٣٨٤	+ ٨٥٥٨	+ ٨٧١٢٣	− ٢٨٨٠٢	− ١٤٠٧٧	+ ٦٦٦٣
الدول الآسيوية	− ١١٨٩٠	− ٥٣٥٥	− ١٢٣٦٨	− ١٥٥٥٦	+ ٢٢٤٥٤	− ٨٨٨٠	− ١٣٧١	− ١٩٩٦١	− ١٥٩٤٨	− ١٢٦٠٨	− ٢٤٧٩٣	− ١٠٨٨٥	− ٢٠٢٣٩
الدول الافريقية	+ ١٠	− ٦٩	+ ١١٥	+ ١٨٦	+ ١٣٩	+ ٣١	+ ٧٣	+ ٤٢	+ ٣٩	+ ١١٩	− ١٨٣	− ٥١٦	− ١٠
الدول الاوروبية	− ١٣٦١	+ ١٥٠٤	− ١٦٦٦	− ٩٠٢٣	+ ٥٠٧٢٥	+ ٣٥٩١	+ ١٧٨٨	+ ٨٢٩	+ ٢٢٤٥	+ ١٢٩٣٤	+ ٢٤٤٦	− ٥٩٨٣	− ٤٥٢٦
الدول الامريكية	+ ٣٨٤	+ ٣٣٦	− ٥٠٨	− ١٥٨٩	+ ٤٥٠	+ ٨٣٢٠	− ٣٩٠	− ١١٤٥٩	+ ٣٠٨	+ ٤٦٠٣	− ٧٢٠	− ١٠٦٩	− ٧٣٩
دول أخرى	− ٧٦	+ ٢٨٢	− ٣٥	+ ٣٢٤	+ ٩٥	− ٣٢٢	− ٤٥	+ ٣	+ ٣٢٢	+ ٨٨٣	− ١٥٨	− ٢٦٨	+ ٥
جملة غير الكويتيين	− ١٠١٨٩٦	− ٩١٧١٢	− ١٣٦٨١	+ ٥٤٦٦٠	+ ٧٥٥٣٢	+ ١٤٢٩٢٩	+ ٧٠٩٣٢	− ٢٨٧٨٣	+ ٦٦١	+ ٩٤٨٤٢	− ٥٩٠٨٨	− ٢٣٣٠٧	− ٢٠٤٣٤

(٥٨) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ، ١٩٨٢ ، العدد التاسع عشر ، الكويت في ديسمبر ١٩٨٢ ، جدول رقم ١٨٧ ، ١٨٨ ، ص ٢٢٩ .

(٥٩) وزارة التخطيط ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدول رقم ١٨٥ ، ١٨٦ ، ص ٢١٨ .

(٦٠) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جدول رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ص ٢٢٦ .

جدول رقم (١٣)

نسب حالات منح تصاريح الاقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات ١٩٧٣ - ١٩٨٢

السنة	التوزيع النسبي لتصاريح الاقامة (٦١) ٪							مجموع تصاريح الاقامة (عدد)
	عربية	اسيوية	افريقية	اوربية	امريكية	اخرى	المجموع	
١٩٧٣	٦١ر٢	٣٦ر١	٠ر٢	٢ر٢	٠ر٢	—	١٠٠ر٠	٣٤٧٨٢
١٩٧٤	٦٧ر٥	٢٨ر٨	٠ر٥	٢ر٠	٠ر٦	٠ر٦	١٠٠ر٠	٤٦٤٣٥
١٩٧٥	٦٠ر٩	٣٤ر٨	٠ر٤	٢ر١	٠ر٦	٠ر٦	١٠٠	٧٢٤٣٥
١٩٧٦	٥٥ر٧	٣٩ر٢	٠ر٢	٢ر٨	٠ر٧	٠ر١	١٠٠	٨٠٢٤٠
١٩٧٧	٥٦ر٨	٣٨ر٤	٠ر١	٢ر٣	٠ر٩	٠ر٥	١٠٠	١٢٨٧١٩
١٩٧٨	٥١ر١	٤٤ر٨	٠ر٢	٣ر٠	٠ر٦	٠ر٢	١٠٠	١٤٠٦٤١
١٩٧٩	٤٢ر٤	٤٩ر٦	—	٢ر٠	٠ر٧	٥ر٢	١٠٠	١٠٢١٠٩
١٩٨٠	٤٥ر٣	٤٦ر٩	—	٢ر٨	٠ر٦	٥ر٤	١٠٠	٩٩١٦٢
١٩٨١	٤١ر٨	٤٩ر١	—	٢ر١	٠ر٦	٧ر١	١٠٠	٩٤٧٦٧
١٩٨٢	٣٥ر٦	٥٣ر٠	—	١ر[illegible]	٠ر٥	٨ر٨	١٠٠	١٤٥٨٤١

(٦١) حسبت النسب الواردة في الجدول بالرجوع إلى المصدر التالي :
وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدول رقم (٣٢) ، ص(٤٣) .

ملحق الخرائط والاشكال البيانية

فهرست الخرائط والاشكال البيانية



شكل (١)

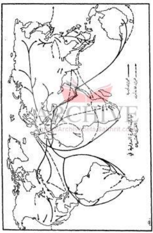
المصدر -

— Samuel N. Dicken, Forrest R. Pitts, Introduction To Cultural Geography, u.s. of America, 1970, Figure 3.2,p. 37.



شكل (٢)

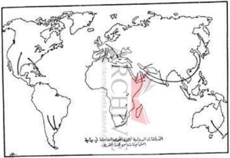
المصدر: Op. Cit. Figure 4.1, p.68.



شكل (٣)

المصدر :

— Charles Whynne Hammond, Elements Of Human Geography, Second Edition, London, 1985, Figure 6.3, p.61.



شكل (١)

المصدر :

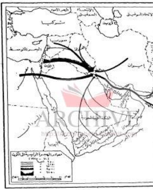
— James L. Newman, Gordon E. matzke, Population, Patterns, Dynamics, and Prospects, U.S. Of America, 1984, Figure 7.13, p.183.



شكل (٥)

مصدر هذه الخريطة :

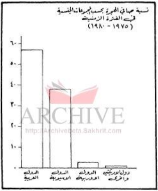
- أحمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٤) ، الكويت ١٩٨٤ ، شكل رقم (٦) ، ص٤٧ .



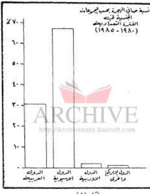
شكل (٦)

مصدر هذه الخريطة :

- احمد حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، شكل رقم ٧ ، ص ٤٩ .


نسبة صافي الهجرة بحسب المجموعات الجنسية
في الفترة الزمنية
(١٩٧٥ - ١٩٨٠)
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
الدول العربية
الدول الاسيوية
الدول الاوربية
دول الامريكتين واخرى

شكل (٦)


نسبة عمالي الهجرة بحسب المجموعات
الجنسية في
الفترة التعدادية
(١٩٨٠ - ١٩٨٥)
٧٠٪
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
الدول العربية
الدول الاسيوية
الدول الاوربية
الدول الامريكية واخرى

شكل (٨)

المصادر

أولا : المصادر العربية :

١ - احمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٦) ، الكويت ١٩٨٥ .

٢ - احمد علي اسماعيل ، اسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٣ - حسن الهداوي ، الجنسية ومركز الاجانب واحكامها في القانون الكويتي ، الكويت ١٩٧٣ .

٤ - محمد غانم الرميحي ، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٥ .

٥ - مساعد حسن الصميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة . (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في اغسطس ١٩٨٥ .

٦ - مساعد حسن الصميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ .

٧ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٠ ، تحليل البيانات ، الدراسة الرابعة ، خصائص وتقديرات سكان الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ - ١٩٠٨ ، الكويت في يولية ١٩٨٣ .

٨ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، تعدادات السكان بدولة الكويت للاعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

٩ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعات الاحصائية السنوية للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

١٠ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، دليل نظام الاحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت في يونيو ١٩٨١ .

١١ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة السنوية للاحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ .

١٢ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة الاحصائية الشهرية للاحصاءات الحيوية ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ .

١٣ - وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ .

١٤ - وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة للاعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ .

ثانيا : المصادر الاجنبية :

1 - Bogue, D.J. Principle of Demography, Wieley, New York, 1969.

2 - Bogue, D.J. Techniques and Hypotheses for the study of Differential Migration: Some Notes from an Experiment with United States data, proceedings of the international conference, 2, session 4, No. 114, 1961.

3 - Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass, 1980.

4 - Charles Zhyrne Hammond, Elements of Human Geography, second Edition, London, 1985.

5 - Eversley Lord, "The Decline in the Number Agricultural Labourers in Great Britan" Journal of the Royal Statistical Society, 10, England, 1907.

6 - G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982.

7 - Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965.

8 - Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, the Methods and Materials of Demography, condensed Edition by Edward G. Stockwell, Academic Press, Ohio, New York, 1976.

9 - Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration: A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938.

شخصيات وآراء

اللغة المحكية في أدب الجاحظ

عمر الدقاق

قد يكون سائداً في بعض الأذهان أن العرب القدامى ، ولا سيا في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، كانوا على الاطلاق أرباب فصاحة وبلاغة ، ينظمون الشعر ويرتجلون الخطب ، ويتحدثون في حياتهم دون خطأ ولا لحن . هذا الاعتقاد ، إن صح في جملته ، فإنه غير صحيح على إطلاقه ، وهو ينطوي من بعض وجوهه على نظر .

وفي اعتقادنا أن الرواة الأوائل في مستهل حركة التدوين الناشطة عند العرب ، كانوا على قدر من الحيرة تجاه عدد وافر من النصوص التي كانت تنطوي على عبارات تفتقر إلى الاطراد والاتساق من الوجهة اللغوية النحوية . ثم ما لبثت هذه التركة الحافلة أن آلت إلى اللغويين والنحاة وجعلتهم في غمار ركام هائل من كلام العرب ، منظومه ومنثوره . وما كان أشق عليهم أن يلموا جنبات هذا الخليط من كلام القبائل وبقايا لهجاتها ، ويشرعوا في تلك المهمة التاريخية العسيرة ، مهمة الجمع ثم التقعيد .

ومعلوم في تاريخ التراث العربي أن أبا عمرو الشيباني وحده ، جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري أيضا جمع شعر خمس وعشرين قبيلة ، عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .

ومع ذلك ، ومن خلال تلك الجهود العلمية الدائبة ، بدا جليا أن أولئك النحاة واللغويين ، برغم إنجازاتهم الباهرة على ذلك الصعيد ، قد لقوا عنتا في تلك المسيرة العلمية الوعرة . لقد استوعبوا أساليب التعبير عند العرب وأفلحوا في استقرائها ، حتى تم لهم نظمها في قواعد مطردة جمة ، بفضل جنوحهم إلى منهج علمي سديد تمثل باعتمادهم مبدأ القياس . على حين استعصت عليهم في الوقت نفسه أساليب قليلة أخرى ، فظلت خارج إطار التقعيد ، وكأنها الأطيار التي انشقت

عن سربها، وانحرفت عن مسارها لتحلق في أجواء مغايرة. وقد ارتضت جمهرة نحاة الكوفة هذا الواقع اللغوي الموروث، ولم تجد فيه شذوذا ولا انحرافا، بل جعلته في منزلة تقارب منزلة المطرد. وما من ريب في أن منطلق كثير من قدامى اللغويين في هذا الصدد، إنما كان حسن الظن المطلق بالعرب السالفين إلى مدى يقارب العصمة، وأن كلامهم يتسم إطلاقا بالصحة والسلامة والكمال، لأنهم أهل فطرة وذوو سليقة. على حين كان ثمة علماء آخرون، ولا سيما من أصحاب المذهب البصري أقرب إلى الحقيقة، إذ عدوا بعض ما كان من هذا القبيل شاذا لا يعتد كثيرا به. وأغلب الظن أن جمهرة النحاة، تحت تأثير مشاعر الاجلال تجاه الأجداد الأقحاح، لم يشاؤوا الذهاب إلى أبعد من هذا المدى، حين كبر عليهم أن ينسبوا إلى بعض العرب الخطأ ويصموهم باللحن، مع أن مثل ذلك قد يعرض لأي ناطق، ولا شيء يمنع وقوعه في العقل ولا في الواقع. والمرء - مهما تبلغ منزلته من الشراية - غير معصوم من الزلل، وما كل القدامى على مستوى عال من سلامة القول، كما أنهم ليسوا جميعا على قدر رفيع من بلاغة التعبير.

ومن جهة أخرى فإن فقهاء اللغة العرب أنفسهم لم يسووا، في مجال الاحتجاج، بين قبائل العرب ويجعلوهم على صعيد واحد. لقد عمدوا إلى تصنيف هذه القبائل في سلم الفصاحة، فأحلوا بعضها في منزلة عالية، كما أباحوا الاستشهاد بأشعارها على نحو مطلق، على حين وقفوا تجاه قبائل أخرى موقف المريب، وتحرجوا من الأخذ بكلامها والاستشهاد بأشعارها. وكان منطلقهم في ذلك كله ركينا، قوامه دراسة موطن القبيلة على الصعيد الجغرافي، وملاحظة مدى صفاء لغتها تبعا لبعدها أو قربها من تخوم الأعاجم، واحتمال احتكاكها بهم، وتأثر لغتها

بلغاتهم. ولهذا كانت قبيلة هذيل التي سكنت في ربوع مكة والطائف - وهي تمت إلى قريش بأقوى نسب - في رأس القبائل التي يوثق بشعرائها ويحتج بأقوالهم في مجال اللغة والنحو والتصريف، شأنها في ذلك كشأن قريش وقيس وأسد وتميم، وبعض كنانة وطيء... على حين امتنع هؤلاء العلماء عن الأخذ بأشعار إياد وتغلب، كما أحجموا عن الاستشهاد بشعراء لخم وغسان لمجاورة المناذرة والغساسنة بلاد الأعاجم من فرس وروم.

كل ذلك يعني أن نظرة النحويين واللغويين إلى أسلافهم العرب لم تكن - برغم إجلالهم الشديد لهم - نظرة واحدة مطلقة، وإنما كانت نظرة مفاضلة وتقويم، أساسها التعليل والتحليل.

ومن الطبيعي في كل مجتمع أن ينطوي أفراده على تباين في المدارك العقلية، وفي الطباع النفسية، والأحوال المعيشية، وأن يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني. وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والنحوي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الاسلام وإلى عهد الفتوح الذي شهد احتكاكا كبيرا بين العرب وسائر الأمم.. حتى أن من الأعراب من كان يتلو بعض آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطىء ينم عن جهل بمضمونها. وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المسلمين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن، فغضب الخليفة لذلك وأزاحه عن الامامة.

وفي كتب السالفين أخبار جمة في موضوع اللحن واللاحنين ولا سيما ما كان يصدر عن بعض الكبراء في تلك العصور المتقدمة. من ذلك أن زياد بن أبيه - والي العراق - أوفد ابنه عبيدالله إلى الخليفة معاوية، فكتب إليه معاوية: «إن ابنك كما وصفت، ولكن قوم من

لسانه »[1]، وكانت فيه لكنة إذ نشأ مع أمه بين أعاجم البصرة . وقد قال عبيدالله مرة لأعوانه : « افتحوا سيوفكم » ويريد : « سلوا . . . »[2] .

كذلك سأل معاوية جماعة من أهل العراق عن حال ولده عبيدالله وكان واليهم ، فقالوا : « ظريف ، على أنه يلحن »[3] .

وروي أن بشر بن مروان والي الكوفة وشقيق عبدالملك ، قال مرة لغلامه ، وكان عمر بن عبدالعزيز حاضرا : « ادع لي صالحا » فصاح الغلام : « ياصالحا » ، فقال له بشر مصححا : « ألق منها ألف » عندئذ تدخل عمر بن عبدالعزيز لدى سماعه الخطأ ، فقال مصححا : « وأنت فزد في ألفك ألفا » . وبشر أموي قرشي .

وقيل يوما لأبي حنيفة : « ما تقول في رجل أخذ صخرة ، فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده ؟ » قال : « لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » أي بجبل في مكة اسمه أبو قبيس . . . . .[4] . وقد عقد الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » فصلا أورد خلاله الكثير من أخبار اللاحنين في تلك العهود القديمة .

وقد لاحظ الجاحظ أنه[5] : « لأهل المدينة ألسن ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة . واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . فالجاحظ يميز بين الفصاحة ـ وهي تكاد تقتصر على أهل البادية لنقاء لغتهم ـ وبين البلاغة ، وهي سمة أو موهبة قد يتحلى بها أهل المدن ، فيبدعون عبارات جميلة وصورا طريفة برغم فشو العامية بينهم ، وقلة تمرسهم بأصول اللغة وقواعد النحو .

ويبدو أن سمة الفصاحة غدت في عهد مبكر من العصور العربية مطلبا بعيد المنال حتى لقد عز وجود من كانوا بارئين من اللحن بين الفصحاء ، ولا سيما من أهل المدن ، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال[6] : « لم أر قرويين أفصح من الحسن البصري والحجاج ، وكان أبو عمرو ـ على ما زعموا ـ لا يبرئهما من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه » .

وما اللغة العربية في هذا المجال ـ شأنها في ذلك كشأن سائر اللغات ـ سوى ظاهرة اجتماعية ، وهذا نمت وازدهرت ونضجت ، كما اعتراها في الوقت نفسه بعض الفساد وشابها شيء من الخلل . كذلك بوسعنا أن نرجح ـ تبعا لذلك ـ أنه كانت هناك في بواكير الوجود العربي لغتان أو لهجتان ، أو بكلمة أدق ، كان هنالك على هذا الصعيد اللغوي مستويات ، إذ لم يكن يخلو كلام بعض السالفين من الغرابة اللفظية . وهذا كله لا يسمح بالاعتقاد أن لغة العرب القدامى كانت على درجة واحدة من الاطراد والاستواء ولا من السلامة والنقاء .

كان شعر الفرزدق في عصر بني أمية يمثل الطابع الرصين بجزالة ألفاظه ، فنعته النقاد بأنه كمن ينحت من صخر ، على حين كان شعر جرير في الطرف الأسلوبي الآخر . لسهولة لفظه ورقة عبارته ، فنعته النقاد بأنه يغرف من بحر . وكان طبيعيا في هذا الصدد أن تروق أشعار الفرزدق صفوة الرواة وخاصة العلماء ،

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢ : ٢١١ ت : عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٤٨ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١١ .
(٣) كتاب الأمالي ، أبو علي القالي ١ : ٥ دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٢ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٨٩ .

لما تنطوي عليه من قوة سبك وما تحتويه من جزالة لفظ ، على حين كانت جمهرة الجيل عهدئذ تأنس بشعر جرير لما ينطوي عليه من سلاسة وعذوبة ، ورقة وسهولة ، وهكذا سارت أبياته بين الناس ، وأخذ كل فرد يترنم بها لأنها ألصق بالشاعر ، وأقرب إلى الطبع ، وأجرى على اللسان . وهذا يعني أن لغة الشعر ازدادت قربا من أذهان العامة ومداركهم ، واشتد اختلاطها بنفوسهم وأذواقهم . . .

ثم بلغت هذه الظاهرة أشدها في العصر العباسي ، حين جنح الشعر المحدث إلى مزيد من الرقة واليسر ، كما مالت أوزانه وقوافيه إلى الاقتضاب والخفة .

وإن ما لقيه شعر جرير من سعة الذيوع والانتشار في العصر الأموي لقيه بعد ذلك أيضا شعر البحتري في العصر العباسي ، وذلك بفضل سهولة شعره وملاءمته لغالبية الأذواق . أما شعر معاصره ـ أبي تمام ـ الذي قد يشبه من بعض الوجوه شعر الفرزدق ، فكان ينطوي على قدر من غرابة الألفاظ وجزالتها فضلا عن عمق المعاني وبعد الصور ، وهذا ما حد من سيرورة شعره بين جمهرة الناس وكاد يقصره على الصفوة من المثقفين والخاصة من العلماء . وربما كان من مؤشرات ذلك بالنسبة إلى شعر أبي تمام موقف أبي العميثل تجاهه ، حين تصدى له خلال إلقاء بعض شعره وقال على ملأ من المجلس : « يا أبا تمام لم لا تقول ما يفهم . . . ؟ » . وهذه في حقيقة الأمر كلمة حق برغم أنه ربما أريد بها باطل . كما ينبغي هنا ألا يحرفنا عن هذه الحقيقة ما تنطوي عليه عبارة الشاعر أبي تمام من استهواء ، من خلال جوابه الذكي ورده المسكت حين قال على البداهة : « ولكن ، لم لا تفهم ما يقال . . . ؟ » . فأبو العميثل برغم ما قد ينطوي عليه من تحامل إنما كان يعكس في كلامه آراء كثيرين ممن لم يجدوا أنفسهم في شعر أبي تمام .

وثمة أمثلة متناثرة في كتب المتقدمين تشير إلى هذه الثنائية في الأدب ، ثنائية العسر واليسر ، من مثل قول أحد الأعراب حين استمع إلى أبيات عويصة المعاني لأحد المحدثين فعسر عليه فهمها وتذوقها ، فقال بامتعاض : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » .

وكانت فئة الرجاز في العصر العباسي تمثل أشد الأوساط الأدبية محافظة وأكثرهم تشبثا بجزالة اللغة وغرابة ألفاظها ، وكأنهم البداة الذين استعصوا على التحضر ، وهكذا كانوا يعيشون في الظل ، ويحيون على هامش الحياة الأدبية الموارة ، لقلة احتفال جمهرة الجيل بمنظومهم وإشاحة وجهه عنهم . فكانت أراجيزهم أبعد من أن تكون فنا شعبيا يستهوي جماهير الناس .

أما تيار الشعر المحدث فقد غدا بسماحة عبارته دافقا ، إذ تجلى لدى غالبية شعراء ذلك العصر ، مثل بشار وأبي العتاهية ثم البحتري وابن الرومي ، وسائر الشعراء المحدثين الذين سارت أشعارهم على ألسنة جيل المتأدبين . وقد ذهب بعض هؤلاء الشعراء إلى مدى أبعد حين جنحوا إلى نظم المقطعات ، وزهدوا في نظم المطولات ، وحين آثروا البحور القصيرة المجزوءة دون أن يقتصروا على البحور الطويلة التامة ، وأكثر أولئك المحدثين ولا سيما الذين عاشوا في قلب المدينة وفي صميم الحضارة راقهم نظم مقطعات من خفائف الشعر ، مواكبة منهم لتيار الحداثة ، وكان قوامها إيثار السهولة في اللفظ والتبسط في التعبير . ومن هذا القبيل قول بشار بن برد في امرأة اسمها « حبى »[7] .

(٧) ديوان بشار ، ٩ : ٢٧ تحقيق الطاهر بن عاشور . القاهرة ١٩٥١ .

قل لحبى قريبي أنت نفسي وحياتي
وهمومي حين أغدو وحديثي في صلاتي

وقول أبي العتاهية في أرجوزته « ذوات الأمثال »[٨]:

إن الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

أو قوله في موضوع الزهد :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح ؟ . .

فهذه أشعار منظومة ولكنها شديدة القرب من لغة الحديث . ولعل أبا العتاهية كان يمثل قمة هذه الظاهرة ، أو ذروة هذا التيار ، حين حاول أن يتخذ في شعره من السهولة والرقة والوضوح مذهبا ، وحرص على أن يسوق معظم مقطعاته وقصائده في هذا المنحى . والذي يزيد في أهمية ذلك أن هذا الشاعر كان يعي طبيعة النزعة الفنية المحدثة في أدب هذا العصر ولا يفتأ يقول[٩]: « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت » .

مشاكلة لغة الحديث في الأدب

وفي مضمار النثر العربي حدث ما يقارب ذلك في العصر العباسي أيضا ، حين تبدلت حاله ، فتوارى التجهم والتقعر ، وساد اليسر والترسل ، كما انزوت الخطابة بقوة نيرانها ، وتألقت الكتابة برقة جنباتها . ويعد الجاحظ أبرز من يمثلون هذه الظاهرة في النثر العربي ، حتى باتت بفضل كتاباته ولا سيما في نوادره عن البخلاء أشبه باتجاه سائد وتيار غالب . وقد خطا الجاحظ في مضمار السهولة واليسر ومجال العفوية والطبع شوطا واسعا ، ولا سيما حين كان يقتضيه الحال رواية الكلام منسوبا إلى أهله من أوساط الناس أو من عامتهم أو من سوقتهم . ولعل أكثر ما يرد على قلمه من هذا القبيل ما كان يدور على ألسنة الناس في لغتهم المحكية عبر حياتهم اليومية . ومما جاء في بخلاء الجاحظ على لسان سويس بن عمران[١٠] فيما نعهده من لغة الحديث : « طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة » ، ثم يقول : « لولا أنك تريد أكثر » ، ويقول : « معك رغيف ومعي رغيف » . ويقول : « ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه » .

وأهمية العبارة لدى الجاحظ أنها تشف عن طبيعة نفوس أصحابها وتنم على وضعهم الاجتماعي ، فالثوري مثلا يقول لعياله[١١]: « كلوا الباقلا بقشوره ، فإن الباقلي يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله » وكأن في هذا الكلام نمطا من الحكمة البسيطة المستمدة من تجربة العيش يسوقها الثوري في إطار تسويغه لظاهرة الحرص أو البخل لديه محاولا من خلال ذلك إقناع عياله بأن المرء يكون آكلاً حقا ومنتفعا تمام الانتفاع بطعامه إذا أكل الباقلا مع قشورها ، ولكنه حين يكتفي بأكل اللب ويرمي القشر فقد مني بخسران ، وكأنه أصبح مأكولاً لأنه بذلك خسر من حر ماله .

ويدأب الجاحظ على إسماعنا كلام أصناف من الناس الذين يسعون إلى رزقهم ويعيشون في حاراتهم ويتحادثون في بيوتهم ، كأن يقول واحد منهم : « هات شيئا من قلية »[١٢] ، أو يقول سواه : « تعشيت البارحة

(٨) قيل إن هذه الأرجوزة بلغت ثلاثة آلاف بيت ، غير أن ما بين أيدينا منها بضع عشرات من الأبيات موجودة في آخر الديوان ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٤ .
(٩) البيان والتبيين ١ : ١١٥ .
(١٠) كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ١٨ ـ ١٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٨ .
(١١) البخلاء ١٠٣ .
(١٢) البخلاء ٩٧ .

في البيت »(١٣)، أو يطلب غيره حاجة من الآخر: « أعرني مقلاكم »(١٤). وقد يحاور رجل جاريته بأبسط الكلام وتجيبه بمثل ذلك، كشأن يوسف بن كل خير بعد أن تغدى فأتاه ضيف فرحب به وقال: « ياجارية هاتي لأبي الحسن غداء »، فقالت: « لم يبق عندنا شيء »(١٥).

وعلى هذا الغرار من لغة الحوار الوجيز الذي يدور عادة بين اثنين يقبل خراساني عابر على ابراهيم بن السندي وهو يتخلى في ركن منعزل داخل بستان، فيسأله ابن السندي بدهشة(١٦): - « تريد ماذا ؟ » فيقول: - « أريد أن أتغدى ». إنها عبارات مقتضبة تتوالى سريعا بين المتحاورين على هذا النحو من السرعة والبداهة. ومن هذا القبيل من اللغة المحكية ببساطتها وعفويتها قول كاتب لكاتب دولة: « اكتب لي خطين وريحني منه ».

وكثيرا ما نتبين في كلام المتحاورين الذين ينطقهم الجاحظ ملامح لغة خاصة لفئة من المجتمع لها صفاتها وأساليب عيشها وأنماط سلوكها. فقد ينشب شجار بين رجلين لتباين في الذارع وتعارض في المواقف، من مثل ما حدث لاثنين كانا وحدهما في زورق فشرع البخيل واسمه رمضان يأكل ويلتهم زاده، ورفيقه ينظر بشره لا يستطيع له دفعا، ثم قال رمضان وقد أحس بنظراته: « أنا رجل حسن الأكل لا آكل إلا طيب الطعام. وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة وأنك ستصيبني بعين، فاصرف عني وجهك . . . »(١٧). فعبارة « عينك مالحة » أو « ستصيبني بعين » وما إليها، ليست من صور التعبير عند الشعراء ولا الكتاب، ولكنها من صور اللغة المحكية لدى جمهور الناس. ومن هذا القبيل قول الثوري لمن معه(١٨): « الشحم يفرح القلب، ويبيض الوجه، والنار تسود الوجه » أو قول آخر جلس إلى خوان فأعجبه ما رأى فوقه من خبز شهي: « كل رغيف في بياض الفضة » . . . وما إلى ذلك من صور التعبير المعهود في لغة الحياة اليومية.

والجاحظ مراعاة منه لواقع حال شخوصه، وأكثرهم من عامة الناس، يدير على ألسنتهم ألفاظا قد تبدو للوهلة الأولى عامية وما هي بذلك، إنه يؤثرها لما تنطوي عليه، فضلاً عن دلالتها، من إيحاء ينم على طبيعة المتحدث، كما آثر كلمة « نشال » على كلمة لص في إيراده لقول أحدهم(١٩): « الفتى لا يكون نشالا . . . » أو استخدامه كلمة « قدام » في قول الآخر(٢٠): « رغيف كل منا قدام صاحبه . . . » وأيضا استعماله عبارة « تحلحل لي من »(٢١). فلكل من هذه الألفاظ ظلال لا تتوفر في سواها من المترادفات الأخرى.

ويمضي الجاحظ في اصطناع اللغة المحكية مشاكلة لحال شخصياته الواردة في نوادرهم ومواقفهم، فيبلغ في ذلك مدى بعيدا حين ينطق بعضهم بألفاظ دارجة على

(١٣) البخلاء ٤١.
(١٤) البخلاء ٤٣.
(١٥) البيان والتبيين ١: ١٦٦ تحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة ١٩٦٨.
(١٦) البخلاء ٢٨.
(١٧) البخلاء ٩٣.
(١٨) البخلاء ١٠٣.
(١٩) البخلاء ٦٣.
(٢٠) البخلاء ١٠٣.
(٢١) في القاموس المحيط: « حلحلهم أزالهم عن مواضعهم وحركهم فتحلحلوا » والعبارة في البخلاء ١١٦.

لسان العامة كقول أحدهم[٢٢]: « ياهيثون . . . إن كثرة المضغ تقوي الأسنان » .

وقد يستلهم الجاحظ بعض الصور التعبيرية الحلوة المستمدة من حياة الناس في المكان الملائم من سياق الكلام . ففي محاولة بعضهم لاقناع صاحب لهم بخيل وهم يمازحونه بأن يدعوهم مرة إلى طعامه ، أرادوا أن يهونوا عليه الأمر بأنها ستكون دعوة وحيدة في العمر ، ولن يتكلف سواها بعد ذلك ، فقالوا له[٢٣]: « اجعلها دعوة ليس لها أخت » . وهذا تعبير طريف في اللغة اليومية الدارجة .

وحكى الجاحظ خبر رجل لم يأمن العودة ليلاً إلى منزله ، وخاف أن يتبعه أحد فيضره[٢٤] ، ففكر في أن يدق الباب على صاحبه ـ أبي مازن ـ ليبيت في أدنى بيته أو في دهليزه ، وحين بصر به أبو مازن ، وقف واجما لا يحير بكلمة ، كأنما أتاه ملك الموت . فأخبر الرجل بين ماهو فيه ، وأنه إذا انصدع عمود الصبح خرج من عنده مع أوائل المدلجين . غير أن أبا مازن أراد أن يتظاهر بالثقل وأن وجومه إنما هو بسبب السكر ، وأنه لا يعي ما حوله ، وحين عاد الطارق إلى الكلام لم يجد من صاحبه سوى عبارة واحدة يرددها على مسمعه : « سكران والله ، أنا والله سكران » . ثم أغلق الباب ودخل . والعبارة الأخيرة أوردها الجاحظ على نحو ما ينطق بها المخمورون .

وقد يجري الجاحظ على ألسنة شخوصه شيئا من عبارات السوقة التي تنطوي أحيانا على قدر من الألفاظ الصريحة . فقد تحدث يوما يحيى بن عبدالله بن أسيد مع صحبه ، وأبدى سخطه على الذين شهروا به وعابوا أرغفته بأنها أرغفة صغار أي تنم على بخله ، على حين أنها في زعمه كبار وأن رغيفا واحدا كفيل بأن يملأ الجوف فلا يحتاج معه إلى المزيد ، فقال بانفعال[٢٥]: « يزعمون أن خبزي صغار ؟ أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟ » .

والجاحظ ، وقد أوتي ملكة التعبير الصلب والبيان المشرق ، غدت اللغة طيعة بين يديه ، فراحت الألفاظ تنثال عليه بغزارة ، والعبارات تتدفق عليه بيسر . وكثيرا ما يكون لديه اللفظ بمفرده موحيا وينطوي على هالة أو ظل مما يرفعه وحده إلى مقام الصورة . ولعل هذا أبين مايكون في صدد إيراده خلال عباراته لجملة من الأفعال أو المصادر فيها أيضا معنى الحدث . وقد أورد الجاحظ خبر وليمة دعي إليها مع شيخه أبي إسحق النظام وقطرب النحوي وأبي الفتح مؤدب منصور بن زياد ، ولما كان الداعي بخيلا لم يجدوا أمامهم فوق الخوان سوى الخبز . وحين طال عليهم الانتظار عمدوا إلى ما أمامهم من الأرغفة « فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يعدوا بشيء ، فيتموا أكلهم ، والأيدي معلقة ، وإنما هم في تنقير وتنتيف »[٢٦] . ولنا أن نتصور القوم وهم بين الجوع والشبع يعمدون إلى تلك الكسر من الخبز ينقرونها بأناملهم أو ينتفون جزئياتها كما يفعل العصفور بمنقاره أو القط بأظفاره .

وعلى هذا الصعيد يقص لنا الجاحظ خبرا مشابها يتصل أيضا بتجربة أخرى له مع أحد البخلاء حين خرج مع شيخه أبي اسحق النظام إلى ناحية من المدينة ، وتجاوزوا الخندق ، حتى إذا مروا بمنزل الوليد القرشي ،

(٢٢) البخلاء ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢٣) البخلاء ٤٢ .
(٢٤) ينظر في كتاب البخلاء ٣٩ .
(٢٥) البخلاء ٥٤ .
(٢٦) البخلاء ٥٤ .

مضى معهم . ثم تشعبت بين المتحادثين أطراف الكلام حول مسائل جمة ، ولم يشعروا إلا وقد انتصف النهار واشتد القيظ ، فلاذوا قليلا بظل جدار ، ثم وجدوا أنهم في « ساعة تذيب كل شيء » ، فاقترح الجاحظ أن يقيلوا عند صاحبهم القرشي ، يأكلون ما حضر ، ومن ثم يعودون بعد أن يستريحوا ويبتردوا . غير أن الاقتراح لم يرق القرشي . فصاح لتوه : « هذا لا يكون أبدا » . ثم وصف الجاحظ حال القرشي البخيل ومعه صحبه ، حين مضوا يحدثونه في الأمر ، فقال يصوره[٢٧]: « فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا » .

ولسنا الآن بصدد ما قد يذهب إليه الظن للوهلة الأولى تجاه كلمة « نتر » من أنها عامية أو غير فصيحة لكثرة دورانها على ألسنة الناس وندرة ورودها على أقلام الناثرين ، أو في كلام الشعراء ، ولكن ما يعنينا هو أن الجاحظ نفسه قد عمد إلى تصوير مسالك هذا القرشي البخيل ، من خلال لحظة غضب وانفعال ، بما يوازي تلك الحركة السريعة التي قام بها صاحبها ، وذلك أيضا بكلمة واحدة هي : « ونتر يده » إذ النتر في معاجم اللغة هو انتزاع الشيء بقوة أو جذبه بشدة . وفحوى ما نود تبيينه أن كلمة نتر التي تكاد تتركز في معناها مرحلة النهاية في هذه الأقصوصة ، أو يتجلى فيها حل عقدة الحدث ، تبدو لقارئها بمنزلة الصورة الوامضة لما تنطوي عليه من دلالة ومن إيحاء .

ولعل دلالتها وإيحاءها يكتسبان لدينا مزيدا من الثراء والقضاء حين نطلق لمخيلتنا العنان ، فنتصور كيف كان حال القرشي مع صحبه في وضع من الهدوء والانسجام والانبساط وما كانوا فيه من تلاصق الكتف بالكتف وتشابك اليد باليد ، ثم انقلاب ذلك الوضع رأسا على عقب فيما بدر من سورة الغضب المفاجيء ، ونتر اليد المباغت .. وما كان من نكوص القرشي ومفارقته الصحب .

استملاح العجمة اللفظية

وعلى صعيد آخر ، وفيما يتصل أيضا بوجه من وجوه اللغة العربية ، بوسعنا أن نتبين ظاهرة أخرى لم يكن بوسعها - تبعا لطبيعتها - أن تبلغ قوة التيار ، ولكنها ذات دلالة خاصة في مجال طرافة التعبير وجماليته .

فحين تكاثر الأعاجم وتمازجت ثقافاتهم مع ثقافة العرب ، نجم عن ذلك التعايش تأثيرات لغوية وتعبيرية متبادلة ، ولا سيما بين العرب والفرس شطري المجتمع الاسلامي الجديد . وأصبح من المستحب لدى ذلك الجيل ترصيع الكلام بين الحين والحين بكلمة أو عبارة من لسان الفرس ، باعتبار ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة الوافدة التي تجلت أيضا في اصطناع شباب ذلك الجيل لبعض ملابس العجم ومآكلهم ومشاربهم ، ومجاراتهم لهم في كثير من تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم ...

وقد لا يبدو مستغربا بعد ذلك مثلا أن نجد الجاحظ - وهو من هو في نزعته العربية - قد أدخل قدرا غير يسير من الألفاظ والعبارات الفارسية في كتبه ورسائله . وهذا الترخص في التعبير ، الصادر عن رجل هو في قمة الفصاحة وذروة البيان له دلالته الاجتماعية ، وله أيضا دلالته الفنية التي تنطوي عليها طبيعة الأداء وخصوصيته . وقد حفلت كتابات الجاحظ عن البخلاء بعدد وافر من الكلمات الاعجمية مثل : البرنكان والسكرجة والجردقة والفالوذج والجوسق والبرينشد والقلنسوة والشطرنج والقيراط والنرد والقنديل[٢٨] ...

(٢٧) البخلاء ٣٨
(٢٨) يمكن رؤية هذه الألفاظ وغيرها في كتاب البخلاء تباعا في الصفحات ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٧٨ ، ١٠٨ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ٧١ . تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٤٨

وإذا جنحنا للوقوف عند بعض نصوص البخلاء على سبيل التخصيص وجدنا الجاحظ يورد بصدد حكاية العراقي والتاجر المروزي قوله حين تجاهل معرفته بصاحبه العراقي الذي كان يستضيفه ويكرم مثواه : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » . وقد آثر الجاحظ أن يشفع هذه العبارة لأهميتها ، ولأن حل عقدة أقصوصته يتركز فيها بالعبارة الفارسية الأصيلة التي فاه بها المروزي بلسانه على هذا النحو : « أكراز بوست بارون بيائي تشناسم » .

على أن للألفاظ الدخيلة في أدب الجاحظ ، ولا سيما في كتاب البخلاء حيزا واسعا ، ونحن واجدون في حكاية ابراهيم بن السندي[٢٩] ، عددا من الألفاظ الأعجمية ومعظمها في مجال الأطعمة والأشربة التي لم يكن للعرب عهد بكثير منها ، ثم دخلت حياتهم في إبان النضج الاجتماعي والتقدم الحضاري . فابن السندي هذا ـ كما حدثنا الجاحظ ـ « وكان في غداة كل جمعة يحمل معه منديلا فيه جرذقتان وقطع لحم سكباج مبرد وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أشنان . . . » فالجرذقتان رغيفان من الخبز الغليظ ، والسكباج مرق يعمل من اللحم والخل ، والأشنان نوع من الأحماض تنظف به الأيدي . . وكلها ألفاظ أعجمية شاعت على ألسنة ذلك الجيل . على أن ما يهمنا في هذا الصدد هو ما ذكره الجاحظ أيضا خلال هذه القصة . فقد بسط ابن السندي زاده الذي أعده بعناية في زاوية من البستان بعيدا عن الأنظار . وكان أن عبر بقربه مار ألقى السلام عليه وهو ماض في طريقه ، فوجد ابن السندي أنه من اللباقة واللطف أن يقول له : « هلم عافاك الله » . فما كان من الرجل العابر إلا أن انعطف نحو ابن السندي مبادرا إلى تلبية دعوته ، ولما وجد ابن السندي أن الرجل جاد في مشاركته زاده انبرى له بقوله : « مكانك ، فان العجلة من الشيطان » . وانتصب ابن السندي واقفا ، واندفع نحو الرجل محاولا أن يثنيه عن عزمه ، ثم راح يعطيه درسا في آداب السلوك وقال له : « الأيين فيما نحن فيه إذا كنت أنا الجالس وأنت المار أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام ؟ فإن كنت لا آكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت على حالي . وإن كنت آكل فهاهنا آيين آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول هلم . وتجيب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف . . . »[٣٠] .

ولعل الجاحظ آثر هذه الكلمة الفارسية الحضارية « الأيين » فيما يبدو لنا ، لأنه وجدها معبرة عن واقع حال صاحبها ، ولم يشأ أن يورد على لسان صاحبه البخيل كلمة عربية في نحو معناها مثل : اللباقة ، أو حسن التصرف ، أو أصول التعامل ، أو آداب السلوك . . .[٣١] لأن تلك الكلمة الدخيلة هالة وظلالا لاتتوفرفيا عداها من الكلمات . إنها كلمة عصرية تنم على التقدم الاجتماعي والتطور الحضاري . وسواء أكان صاحبها عربيا يصطنع مظاهر عصره للتمدن أو فارسيا في أصله يحتفظ بخصائص لغته ، كما يشير إلى ذلك اسمه ، فإن الدلالة الموحية باقية في هذا النمط المستحدث من التعبير .

وهذا التسامح لدى الجاحظ في تقبل بعض الكلمات من لغة الفرس واعتماده إياها في كتاباته قد يعد بدعا في لسان الضاد ، أو تفريطا بمقام العربية من وجهة نظر

(٢٩) البخلاء ، تحقيق الحاجري ، ص ٩٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣٠) البخلاء ، ضبط طه الحاجري ٧٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣١) لعل كلمة (الاتيكيت) في بعض لغات الغرب الحديثة تقارب في دلالاتها كلمة (الأيين) .

متزمنة . غير أن ألفاظا جمة ، فارسية واغريقية وهندية وحبشية قد توغلت في حياة العرب ، ودارت على ألسنتهم ، وذلك وفق عوامل التأثر والتأثير التي تنتظمها سنن اللغات الجارية وقوانينها السائدة . ونحن نقع على هذه الألفاظ في عهود مبكرة من حياة العرب ، ومن خلال الشعر الجاهلي نفسه . بل إن القرآن الكريم قد انطوى أيضا في بعض آياته على ألفاظ أعجمية مختلفة الأصول ، مثل : « استبرق وقرطاس وسلسبيل وسرابيل وجهنم وفردوس . . . » ونحوها كانت قد دخلت العربية في أوقات سالفة ، وقد عني بدراستها وحصرها العديد من فقهاء العربية[٣٢] .

الترخص تجاه اللحن في اللغة

ثم شهد المجتمع الاسلامي في العصر العباسي تسربا ذا شأن لكثير من الألفاظ الأعجمية نتيجة لما تم من تلاحم اجتماعي وتمازج ثقافي بين العرب والفرس ، فبالاضافة إلى شيوع كثير من المسميات الحضارية التي دخلت حياة العرب مع أسمائها على صعيد المآكل والمشارب والملابس وغيرها . . . كانت ألفاظ أخرى تدور أيضا على ألسنة الناس ، وربما انعكست في كتاباتهم ، وذلك أيضا على سبيل التظرف .

والتظرف في الكلام قد يبدو باللفظ الخاطىء أو الملحون . كما يبدو أحيانا في اللفظ الأعجمي أو الدخيل . والعرب أنفسهم ، على تشددهم المعهود في اللغة وفي الأداء ، كانوا يستطيبون من المرأة الحسناء والفتى المليح ما كان من هذا القبيل ، كاللثغة في النطق . فعلى حين كان العرب يعدونها من الأمور التي تنتقص من الفصاحة وحسن الأداء . وتعاب على الخطباء والمتكلمين . . .[٣٣] فإنهم كانوا في الوقت نفسه يشيدون بها لدى القيان والغلمان ، ويرون فيها زينة تظرف الكلام . وفي شعر أبي نواس أبيات من هذا القبيل يقول في بعضها واصفا أحد سقاة الخمرة من الغلمان في حانة ، وكان ألثغ[٣٤] .

بأبي ألثغ لا جمجته
فقال لي خنج وإخنات
لما رأى مني خلاقي له
كم لقي النات من النات

فقد أثبت الشاعر عبارة « كم لقي الناس من الناس » كما نطق بها الساقي تظرفا واستملاحا كذلك تنطوي كتب الأدب على طرائف جمة وأخبار كثيرة تتصل بهذا الموضوع ، من مثل ما جاء في كتاب « الأمالي » من شعر جاء في وصف مالك بن أسماء بن خارجة كلام إحدى الغواني[٣٥] :

وحديث ألذه ، هو مما
تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
نا ، وخير الحديث ما كان لحنا

ومما علق به « القالي » في معنى اللحن قوله عن ابن الأعرابي : « قد لحن الرجل يلحن لحنا فهو لاحن إذا أخطأ . . » . وكان العرب يتقبلون اللحن من الحسناوات الأعجميات ويغتفرون منهن الخطأ ، بل

(٣٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب « المعرّب » لأبي منصور الجواليقي تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ هـ .
(٣٣) يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى ما كتبه الجاحظ بإسهاب في كتابه : « البيان والتبيين » ٧٠ ـ ٧٤ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .
(٣٤) ديوان أبي نواس ، ٥٥ تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .
(٣٥) كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ١ : ٥ طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ وأيضا : البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٤٧ .

يستملحونه . ومن هذا القبيل أيضا قول شاعر كان يستملح كلام جاريته ، وكانت فيما يبدو أعجمية[٣٦] :

أول مـا أسـمـع منهـا في السـحـر
تـذكـيـرهـا الأنثـى وتـأنيـث الـذكـر

ويوضح الجاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية المحدثة فيقول :[٣٧] « واللحن من الجواري الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر » ، ثم يقول : « وكانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ، مقدودة مجدولة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح » .

ويبدو لنا من جهة أخرى أن نطاق الترخص في اللغة قد اتسع خلال الحقبة العباسية المذكورة ، ولا سيما في مجال النثر بعد أن تفشت العجمة وضعفت السليقة ، فلم يعد الخطأ أو اللحن في الكلام من الأمور الخطيرة التي تشين المرء كما كان عليه الحال في العصر السالف ، حين كان مثلا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لا يفتأ يتهيب الارتجال والخطابة على ملأ من الناس ، وهو من هو في الفصاحة واللسن ، ويقول : « شيبني صعود المنابر » .

على أن أبا عثمان الجاحظ ، بما اتسم به من سعة أفق ورحابة فكر ، ينتقل بمفهوم الترخص من نطاق الخبر العارض ودلالته المحدودة إلى مجال أشمل ، ومدى أوسع ، وذلك من جهتين : الأولى أنه ارتقى بمدلول التظرف ليغدو من بعد باعثا فنيا ، يبتغيه القارئ أو السامع في التعبير نفسه بهدف جمالية المتفردة . وقد تم ذلك لأبي عثمان بفضل ما فطر عليه من ميل إلى الدعابة والمرح . ثم حرص الجاحظ ـ من جهة أخرى ـ على أن يجد لتلك الظاهرة اللغوية الأسلوبية مسوغاً نظريا يضفي به عليها صبغة منهجية . فالجاحظ ، بجنوحه المعهود إلى التقصي ، ودأبه على بلوغ الاستنتاج العقلي والنظرة المجردة يمضي في هذا المجال ، معتمداً على أخبار مروية بعينها ، ثم يخلص منها إلى اعتماد الفكرة المنشودة .

قص الجاحظ ـ في كتابه « الحيوان » ـ مرافقته مرة لأستاذه أبي إسحق النظام ، أحد أعلام الفكر الاسلامي . وكانا يسيران معا في طريق بظاهر البصرة ، فشاط عليهما كلب ، ولزمهما مسافة . . . ثم تخلصا منه بعد لأي ، ومضى النظام في حديثه وقد انعطف به نحو الكلب وكأنه يداعبه[٣٨] :

« . . . إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، وإن كنت بهيمة ، فاسكت عنا سكوت البهائم . . . »

والذي يعنينا في هذا الصدد ان الجاحظ لم يعمد الى رواية هذا الخبر لمجرد الاطراف فحسب ، بل اتخذ منه منطلقا لمعالجة قضية فنية ، ومحاولة لاستخلاص نظرية نقدية . فقد بسط رأيه من خلال تعليقه التالي :

« . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : « إن كنت سبع » ، ولم أقل : (إن كنت سبعا) . وأنا أقول إن الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فاذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

(٣٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٦٥ تحقيق هارون ، مصر ، ١٩٦٨
(٣٧) البيان والتبيين ١ : ١٤٦
(٣٨) كتاب الحيوان ١ : ١٣٦

وأهمية هذا الرأي تتوى في أن الجاحظ ، وهو عمدة الفصاحة ، وقمة البلاغة في لغة العرب ، يكاد يكون متفردا في مجال النقد الأدبي من خلال هذا اللحن الخاص ، تفرده على صعيد الفكر والأدب واللغة والبيان . إنه لم يشايع اللغويين والنحاة في قصر نظرتهم على اللفظ من الوجهة اللغوية ومن حيث صحته وخطئه ، فلم يأنف من الخطأ الأساسي في اللغة ، ولم ينكر الخروج على أصول النحو ، لأن للخطأ أحياناً في اعتقاده وجها يحسن تقبله ، بل إنه على العكس من ذلك ، استملح هذا اللحن ، كما استملحه النظام شيخه الكبير قبله ، فلم يشأ أن يتقعر أو يتفاصح في كلام يتوجه به إلى حيوان أعجم ، وفي معرض التفكه والتظرف ، حين جنح للمباسطة والممازحة مع ذلك الكلب الشارد . . .

ومنطلق الجاحظ في رأيه جمالي فني وليس بنحوي لغوي ، إذ البلاغة لديه هي أن تناسب العبارة مقتضى الحال . وأنه لكل مقام مقال .

كان على الجاحظ أن يختار واحدا من أمرين : فإما صحة اللفظ وفصاحته ، فيستهجن تبعا لذلك مقالة شيخه النظام لأنها وردت على ذلك الشكل الخاطىء ، وإما بلاغة التعبير وجماله ، فيستحسن كلام النظام ، على ما فيه من خلل . . ولكن الجاحظ ضحى بسلامة اللفظ في سبيل حسن الأداء ، وآثر جمال الأسلوب على صحة اللغة . وفحوى ما ذهب إليه في هذا الصدد ، أن الفصاحة في ذاتها ليست غاية في فن القول وإنما الغاية في البلاغة ، أي في طرافة العبارة ومدى تأثيرها في النفس ومبلغ قدرتها على الايحاء . وهذا قوام العمل الأدبي .

ولكن هل كان هذا مجرد رأي عارض للجاحظ ساقه بصدد خبر مروى طاريء . . ؟

لقد تناول أبو عثمان هذه القضية أيضا في كتاب آخر له ، وهو البخلاء ، وعمد منذ أن استهل كتابه إلى تنبيه جمهرة قرائه بقوله[٣٩] :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الأعراب ينقض هذا الباب ويخرجه من حده . . » .

فالجاحظ يرمي من ذلك إلى ضرورة المحافظة على النص المحكي والكلام المروي برغم خطئه أو انحرافه عن القاعدة ، لأنه بذلك يكون أدل على صاحبه ، وعلى طبيعته وشخصيته وفكره وثقافته وبيئته . . . ولا سيما أن أكثر ما يرد أو يروى في هذا المجال صادر عن فئة عامة الناس عرفت بالبخل ، وكان لها في صدد ذلك طرائف ومواقف وأيضا طرائق تعبير .

أما حين يكون البخيل من فئة مغايرة ، مثل فئة العلماء أو الكتاب أو الشعراء أو نحوهم . . . فالأمر يختلف في نظر الجاحظ ، لأن هؤلاء يمثلون وسطا ثقافيا خاصا ، ولغتهم تكون تبعا لذلك مختلفة أيضا ، وقد انتبه الجاحظ إلى هذا الفارق ، فلم يجعل رأيه مطلقا ، بل قال مستدركا :

« . . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه . . . » .

ولعل هذا الكلام يكتسب أهمية خاصة حين نلاحظ أن الجاحظ تناول هذا الموضوع ، موضوع الصحة والخطأ في معرض التعبير الأدبي ، في كتاب : البخلاء ، وعلى هذا النحو من التجريد والشمول ، وعمد إلى تنبيه قرائه إلى ذلك في خطبة كتابة . لقد رأى الجاحظ أن نظرته هذه أجدر ما تكون بالتطبيق في هذا الموضوع

(٣٩) البخلاء ٤٠

الذي يتصل بظاهرة البخل ، وبكلام البُخلاء وطرائفهم ونوادرهم وملحهم . وبتعبير آخر ، أدرك الجاحظ بثاقب فكره ومرهف حسه ، أنه في كتابه البخلاء يتناول موضوعاً خاصاً ينطوي على كثير من الطرافة ، وأن مادة كتابه مستمدة في غالب الأحيان من جماعة شعبية تتحدث غالبا بلغتها غير المعربة ، وألفاظها الملحونة ، فضلا عن خصوصية تعبيرها وأدائها .

وعلى صعيد آخر من كتاباته الجاحظ نجد هذه القضية ، قضية اللغة المحكية المبسطة والملحونة ، مطروحة أيضا في كتاب البيان والتبيين ، ألصق كتب أبي عُثمان بشؤون الفصاحة والبلاغة ، والخطأ واللحن ، وكل ما يتصل بقضايا المبنى والمعنى والأساليب وطرق الأداء . . . إنه يقول في هذا الصدد[40] :

« ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من نوادر الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها . فإنك ، إن غيرتها ، بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين . . . خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير فيها لفظاً حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا . فإن ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم أياها واستملاحهم لها . » .

هذا النص ينطوي على شطرين ، أولها يتعلق بنوادر الاعراب ، وهذه النوادر لا بد لها في رأي الجاحظ أن تبقى معربة فصيحة كما كانت عليه في الأصل ، لأن كل تغيير يلحق بها من لحن أو تسكين أو ما شاكل ذلك من كلام المولدين يفسدها ويزيل رونقها .

أما الشطر الآخر من قول الجاحظ في هذه المسألة فهو منصب على كلام من سماهم : (البلديين والعوام والحشوة والطغام) ، ولا بد لنوادرهم وملحهم في رأيه أيضا أن تروى على صورتها ، وكما حكاها أصحابها ، ولو كانت خاطئة أو ملحونة ، إذ أن أي تعديل في مبناها أو تقويم لاعوجاجها ، من قبيل إعراب كلماتها أو اصلاح ماكان من لحن في لغتها كفيل أيضا بأن يفسد إمتاعها ويذهب بروائها .

والمحوى رأي الجاحظ في الحالين أن جمال التعبير غير مقتصر على فصاحته ، ولا مرتبط بصحة ألفاظه ، إنه قد يوجد في الكلام الصحيح وجوده في الكلام الملحون . وهو يؤكد ما ذهب إليه في موضع آخر إذ يقول أيضا[41] :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ . ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء . فالسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال »

ثم يمضي الجاحظ في تعميق فكرته وتوسيع رأيه بقوله : « وإن كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس ، ويكربها ويأخذ بأكظامها . . »

(٤٠) كتاب البيان والتبيين ١ : ١٤٥ - ١٤٦ ، وانظر هذا الرأي أيضا في كتاب الحيوان ١ : ٢٨٢

(٤١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

كذلك عاد الجاحظ إلى إثارة هذه المسألة النقدية حين قال[٤٢] :

« وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الاعراب . . . ولكل صناعة شكل . »

مقومات اللغة المحكية

ولعله بوسعنا الآن ، وبعد استقراء كلام الجاحظ وإيراد نصوصه الجلية بصدد هذه القضية الحادثة أو اللغة المحكية ، أن نخلص إلى جملة من الحقائق الأساسية التي تتمحور حول شخصية المتحدث ، وطبيعة المتلقي ، وطابع اللغة المحكية ، وظاهرة التندر ، ثم الواقعية اللغوية :

أ ـ شخصية المتحادثين أو المتحاورين :

من المعهود أن شخصية الأديب التي ينطوي عليها العمل الأدبي ، قصصيا كان أو تمثيليا أو نحو ذلك من فنون القول ، لا تتكشف سماتها وتتجلى أبعادها إلا من خلال كلماتها وعباراتها . والجاحظ ، من خلال آرائه في هذا الصدد ، يعتقد أيضا أن حوار المتحادثين هو الذي ينم على طبيعتهم ، وينبىء عن شخصيتهم ، ويشي بحال نفوسهم ، أي أن لغة المرء صورة لذاته ، من خلالها تنعكس طباعه ، وتتجلى أفكاره ، كما أنها تكشف عن ملامح بيئته ، وتشف عن شريحته الاجتماعية .

وفي هذا الصدد أيضا يعتقد الجاحظ ، تبعا لذلك ، أن لكل طبقة من الناس ، أو لكل فئة أو جماعة متميزة منهم ، لغتها وعباراتها وأساليبها وطرق أدائها ، وأن اللغة ـ ولا سيما المحكية ـ لا بد لها أن تحمل سمات متكلمها وخصائصه الذاتية .

وواقع الأمر ، وعلى حسب معطيات علم الاجتماع وقوانين علم اللغة ، أن هنالك في كل جيل مستويات من اللغة تبعا لوجود مستويات في مقابل ذلك لقطاعات الناس التي تتكلمها . أو لا بد هنالك ، على الأقل وبصورة مجملة ، من وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير داخل مجتمع ، وهذا ما ساد في الأفهام من وجود لغة للخاصة ولغة للعامة . . .

ويفضي بنا ذلك إلى أن من مقتضيات الفن التعبيري ، كما ينشده الجاحظ ، أن يحرص الكاتب على إنطاق المتكلم بلغته هو ، بحيث يتكلم المتحدث بلهجته الخاصة ، وطريقة أدائه المتفردة ، وعباراته المتميزة . وإلا كان هنالك نوع من القسر الذي ينطوي أيضا على التزييف والافتعال ، وعلى التكلف والتصنع . وحين يطالب الجاحظ بأن تتم رواية الملح والطرائف والنوادر وما إليها كما صدرت من أصحابها ، أو كما حكاها أهلها ، فإنما يرمي إلى احترام تلك الخصوصية التعبيرية في اللغة المحكية ، حتى ولو كانت ملحونة أو عامية ، بحيث يمكن الحفاظ على سماتها الأسلوبية المتفردة ، وملامحها المتميزة في الأداء .

وإذا كان مذهب الجاحظ صحيحاً ، وهو صحيح يؤيده واقع تطور المجتمعات ، وتدعمه معطيات علم اللغة وعلم السكان ، فمعنى ذلك أنه يسري أيضا على لغة المسرح والتمثيل في عصرنا ، إذ لا بد لهذه اللغة أيضا ـ على حسب مفهوم الجاحظ ـ أن يخرج الكلام فيها « مخرج كلام المولدين والبلديين . . » . فهنالك فئات كثيرة من الناس يشكلون شطرا كبيراً من المجتمع

(٤٢) كتاب الحيوان ٣ : ١١٤

كاللين دعاهم ابو عثمان « بالبلديين والعوام والحشوة والطغام . . . » . وهؤلاء ينبغي خلال رواية شؤونهم والحكاية عنهم ، والمحافظة التامة على خصوصية لغتهم . إذ أن المحادثة أو المحاورة في مجال القص هي العنصر الأساسي في تحريك الحدث وتطويره ، بالاضافة الى أنه وثيق الصلة بالشخصية نفسها ، شديد الالتحام بها ، انطلاقا من أن هذه الشخصية لا تتجلى ملامحها وسماتها إلا حين تنطق ، أي من خلال اللغة المحكية نفسها .

ب ـ الجمهور المتلقي وطبيعة المخاطبين :

وهذه الحقيقة الثانية التي نستمدها من مذهب الجاحظ في اللغة المحكية تتصل في الوقت نفسه ، ومن جهة أخرى ، بطبيعة المرء المتلقي ، قارئاً أو سامعاً أو مشاهداً . والجاحظ حين ينطلق من كون اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين المتحدثين والسامعين ، يعتقد أنه من مقومات الأداء الفني قدرة هذا الأداء على أن يبلغ الأسماع والقلوب ، محتفظا بنكهته ومذاقه وحرارته وحينئذ يكون للفن تأثيره المنشود في النفوس ، بفضل ذاتيته وتفرده . وهذا هو الهدف البارز الذي حرص الجاحظ على توفره في العبارة المؤداة ، وهو ما سماه « الامتاع » كما سلف من كلامه . فإمتاع الجمهور هو الغاية لدى الجاحظ ، كما أنه هو الغاية أصلا من إنشاء العمل الأدبي ، بل الابداع الفني جملة وفق أسس النقد وأصوله . ولذلك حذر الجاحظ من مغبة تغيير صورة التعبير ، سواء في الملحة والنادرة أو في معرض الجد من الكلام ، لأن هذا التغيير هو الذي « يفسد الامتاع بها » ، أي أن جمهور المتلقين هم الذين سيصيبهم الغبن في النهاية ، فتفوتهم المتعة المنشودة . أو أن ذلك وفق تعبير الجاحظ « يذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها » وذلك حين يحال بينهم وبين تلقي ذلك الأداء بصورته المحكية .

جـ ـ لغة التحادث والعبارة المحكية :

والحقيقة الأخرى التي يمكن استخلاصها أيضا من كلام الجاحظ تتصل بالنص نفسه ، أي بطبيعة اللغة المحكية ، وهي تنطوي على مفهوم بالغ الأهمية على صعيد النقد . فالجاحظ ، بفكره الثاقب ، خرج على المفاهيم السائدة في عصره ، ولا سيما في عرف اللغويين والبلاغيين والنحاة . . . الذين افترضوا التلازم المطلق بين مفهومي الفصاحة والبلاغة ، أي بين صحة اللفظ وجمال التعبير . فكانوا يطردون من محراب الأدب كل تعبير ينطوي على اللحن أو الخطأ ، دون النظر إلى ما عدا ذلك من عناصر جمالية أخرى ذات شأن في العمل الأدبي . وقد غلبت هذه النظرة أول الأمر على كثير من النقاد العرب بسبب كون غالبيتهم من النحويين ومن فقهاء اللغة وعلمائها ، فضيقوا الأمر على الأدب ونقاده وربما كان امتداداً لآرائهم تلك ، ازدراؤهم بالأدب الشعبي ، بل تنكرهم له طوال عصور مديدة ، بدعوى هبوط لغته عن الفصحى .

ويبدو أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، أي بعد عصر الجاحظ بأكثر من قرن ، كان ، على جلال قدره ، ضحية هذا الفهم السائد ، حين وصم كتاب « ألف ليلة وليلة » بأنه « كتاب غث بارد الحديث » [٤٣] .

لقد رفع الجاحظ مفهوم خصوصية التعبير إلى ذروة عناصر العمل الأدبي ، وجعلها عمدة في فن القول ، لأن هذه الخصوصية ناجمة من خصوصية طبيعة المرء نفسه . فكما أن لكل امرىء ملامح وجهه ، وبصمات يده ، ونبرات صوته ، فإن له أيضا منحى تفكيره

(٤٣) كتاب الفهرست ، الفن الأول من المقالة الثامنة ، ص ٣٠٤ طبعة فلوجل ، بيروت ١٩٦٤

وأسلوب تعبيره ، وطريقة أدائه . ولعل هذا معنى وجود لغة مكتوبة شاملة هي اللغة الرصينة التي تحكمها الأصول ، وتنظمها القواعد ، إنها اللغة المعتمدة على صعيد الأدب والفكر والتراث . وإلى جانبها ثمة لغة أخرى محكية توازيها ، وتنطوي على شيء من حرية الحركة والتغير والامتداد ، وهي ما يسمى باللهجة ، وهذه تبقى متصلة بأصل اللغة ، كما تلتحم الأغصان بجذع الدوحة الوارفة . وواقع الأمر ، وعلى حسب ما يجنح إليه علم اللسانيات ، أن وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير ، هو ظاهرة طبيعية في اللغات كافة . وقد عرف العرب لهجات كثيرة متباعدة ومتقاربة في عهود ما قبل الاسلام ، ثم عرفوا بعده لهجات أخرى متميزة بين العامة في الأمصار ، فكانت هناك عامية الشام ، وعامية العراق ، وعامية مصر ، وعامية المغرب والأندلس . وليس الالتفات إلى وضع علم النحو والعروض في عنفوان فصاحتهم وتألق بلاغتهم ، سوى مؤشر ينذر ببروز أخرى مغايرة ، كانت تدب في حياة الناس ، وتوازي في الوقت نفسه اللغة الأصيلة .

ومن ذلك خلص الجاحظ إلى أن اللغة ، سواء أكانت فصيحة أم ملحونة ، صادرة عن خاصة الناس أم عامتهم ، ما هي إلا ظاهرة اجتماعية ، تنبثق من الحياة نفسها وتواكبها في مسيرتها ، ولذلك تغدو جديرة بالاعتبار ، ولا سيما من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني .

تحديث التعبير

لعلنا نستطيع الآن أن نخلص في هذا المجال إلى أن افكار الجاحظ النقدية كانت تدور في مجملها حول محور واحد ، هو جانب التندر أو التظرف أكثر من سواه في الأدب . وظاهرة التظرف نشأت من جذور اجتماعية واسعة المدى في عصر الجاحظ ، وغدت من أبرز الظواهر التي خالطت حياة الناس داخل المجتمع الاسلامي خلال الحقبة العباسية ، تبعا لشيوع اللهو وتفشي المجون . وأنه في طليعة أسباب سيادة هذه الظاهرة ، ما نعمت به البلاد من استقرار سياسي في ذلك العهد ، وما استتبع ذلك من ثراء العلاقات الاجتماعية في إطار اتساع المدن وتوطد المجتمع الحضاري . ويغلب على الظن أن الناس ، في ظل هذه الحياة الجديدة المتفتحة ، قد تجاوزوا ، خلال مجالسهم وأسمارهم ، نوادر الأعراب والبداة ، مما كان معهودا قبل ذلك الحين ، أو ما كان يتداوله الرواة ، ويعنى به المؤلفون قبل هذا العصر .

لقد دخلت هذه الملح والنوادر في طور جديد ضمن الاطار الحضاري السائد ، فاختفى مفهوم « التندر » الذي كان مقتصرا على فئة الأعراب أو البداة ، وبات يفيد عبر الحياة الاجتماعية الرحبة معنى « التظرف » ، كما غدا من مقومات هذا التظرف السامه بقدر من التمدن ورقة الحاشية .

وهذا ما رمى إليه الجاحظ حين قصر كلامه أو كاد على نوادر المولدين وملحهم وأشعارهم ، في مقابل الاهتمام المعهود بالأعراب ، إذ المولدون هم الشطر الآخر الرحيب من المجتمع العربي ـ الاسلامي الذي أوجدته تلك الحياة الحضارية الجديدة خلال العهود العباسية ، نتيجة لعوامل التمازج الثقافي ، والاندماج البشري بين عناصر السكان الذين اختلفت أصولهم ، وتباينت مصادرهم . إنهم الجيل المستحدث الذي أخذ يتنامى باطراد في مقابل الشطر الآخر المتضائل من ذلك المجتمع الضيق وهو مجتمع البادية .

هؤلاء المولدون ، لم يعودوا ، بطبيعة الحال ، عربا فحسب ، بعد أن فقدوا الكثير مما كانوا يتسمون به ، من صفاء العنصر السالف . إنهم الخليطة الاجتماعية الجديدة التي وجد الجاحظ نفسه مدعوا إلى أن يهتم بها ويخصها بالقول . وما هذا الاهتمام في واقع الأمر ، الا وجه آخر من الاهتمام الشامل بالظواهر الجديدة المحدثة منذ مطلع العصر العباسي . وهو يذكر بما كان سائدا قبل حين لدى علماء العربية ورواة أخبارها وأشعارها ، من أجلال لكل قديم وازراء بكل جديد ، ولا سيما في طور الرواية والتدوين والتقعيد وإرساء الأسس الموروثة . غير أن هذه الحال من التعامي والتجاهل ما كان يوسعها أن تدوم أكثر مما دامت ، بعد أن حفلت رحاب الفكر بكل جديد مبتكر وبديع مستطرف . وهكذا بات العلماء يجدون أنفسهم في موقف غير صحيح ، ويتبينون أن سلبيتهم لم تعد تجدي . فبدأوا يتزحزحون عن مواقفهم المتزمتة إزاء طغيان الابداع المحدث وتألقه . وكان من نتيجة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو شيخ رواة العربية وزائدهم[44] ، أخذ يتخلى عن موقفه المعهود ، وراح يقول بلهجة من اقتنع اخيرا : « لقد كثر هذا الشعر المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته »[45] . ولكن هذه الرغبة لم تترجم إلى حقيقة علمية مطلقة إلا بعد حين ، وفي عصر تال ، وفي جيل الجاحظ وابن قتيبة وجه التحديد . فقد نظر هذا الناقد الرائد ابن قتيبة « بعين العدل على الفريقين » ورأى أن « الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم[46] » .

ومرد خطورة هذا الرأي إلى أن ابن قتيبة بمنطقه السليم نزع عن الشعر القديم حالة القداسة وجعله مع الشعر المحدث في كفتي الميزان ، إذ لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالجودة ، وحصيلة هذا النحي إنما كانت في حقيقة الأمر لصالح الشعر المحدث ورفع شأنه .

ومضى الجاحظ مع ابن قتيبة في تيار الحداثة إلى شوط أبعد ، ولا سيما على صعيد التطبيق ، من حيث ابتعد ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » نفسه عن كثير مما سبق ان نادى به في مقدمته النقدية الهامة لهذا الكتاب .

فالجاحظ في صدر كتاب البيان والتبيين الذي كاد يقصره على موضوع الفصاحة والبلاغة عند العرب ، جنح لرواية نماذج من الشعر ما كان لغيره أن يقبلها من أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن كانوا من طينته . إنه شعر محدث حفل بألفاظ فارسية ، وما كان ذلك هينا على المشتغلين بلغة العرب وأشعارها ، وهم يرون تلك الألفاظ الدخيلة تقتحم محراب أعرق فنون القول عند العرب في منحى هازل عابث . فانطلاقا من مقولة الجاحظ بأنه لكل مقام مقال ، وأنه للجد موضوع وللهزل موضوع قال[47] : « وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني يمدح الرشيد : »

من يلقه من بطل (مسرند)
في زغفة محكمة بالسرد

---

(٤٤) أبو عمرو ، هو زبان بن العلاء ، أحد القراء السبعة ومن الأئمة الرواد في البصرة ، راوية كبير لأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم . كان استاذ الخليل والأصمعي وأبي عبيدة . وقد تنسك آخر أيامه فأحرق كتبه ، عاش بين ٦٥ - ١٥٤ هـ ، ٦٨٤ - ٧٧٠ م
(٤٥) كتاب الشعر والشعراء ١ : ٦٣ لابن قتيبة ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، ١٩٦٦
(٤٦) كتاب الشعر والشعراء ، المقدمة ، ابن قتيبة ١ : ٦٣
(٤٧) البيان والتبيين ١ : ١٤١ - ١٤٢

تجول بين رأسه و (الكرد)
لما هوى بين غياض الأسد
وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر (آب سرد)(٤٨)

كذلك أورد الجاحظ أبياتا غيرها من هذا القبيل لشاعر آخر قال فيها(٤٩) :

لـزم الـغـرام ثـوبي
بـكـرة في يـوم سـبت(٥٠)
فـتـمـايـلـت عـليـهـم
مـيـل زنـكـي (بمسـتي)(٥١) ـ (٥٢)
قـد حـسـا (الـداذي) صـرفـا
أو عـقـارا (بـاخـسـت)(٥٣)
إن جـلـدي دبـغـتـه
أهـل صـنـعـاء (بـجـفـت)(٥٤)

ويبدو أن أمثال هذه الظاهرة الفنية معهودة في أطوار التمازج الثقافي والازدهار الحضاري حين تبلغ عوامل التأثر والتأثير بين الشعوب مدى بعيدا . ومن هذا القبيل ما نجده في عصرنا الحاضر من جنوح بعض اليافعين إلى إدخال كلمات أو عبارات أجنبية خلال أحاديثهم المشتركة ، وذلك على سبيل التعالم أو التفرنج . أو مانقع عليه أيضا في أحيان أخرى من خفائف الأشعار التي تنطوي على جمل أو قواف أجنبية ، تركية أو أرمنية أو انجليزية أو فرنسية ، مقحمة في سياق النظم لتلقي في الأسمار أو يتغنى بها في المحافل . وتعرف بالنمط الفرنجي ـ العربي (فرانكو ـ آراب) ، وذلك على سبيل الأطراف أو الأضحاك أو بقصد التفكه والتظرف .

لقد اعتنق الجاحظ مفهوم الحداثة في فنون القول وأغنى تيار التحديث في كتبه ورسائله متجاوبا مع منازع عصره .

وفي هذا المجال من منحى الحداثة أو التحديث لدى الجاحظ مضى في كتبه ورسائله موليا اهتمامه أدب المولدين وأخبارهم ، كما خص أيضا بالقول لغتهم المحكية التي طرأ عليها تبدل مواز لتبدل تلك الخليطة الاجتماعية نفسها ، والتي كان من أبرز لغتها إهمالها لاعراب الكلمات وتحريك أواخر الألفاظ ، بالاضافة إلى دوران اللحن والخطأ ، وأيضا العامي والدخيل على ألسنتها . كما أنسى لأحاديثها ومحاوراتها أو لطرائفها ونوادرها منحى خاصا أو مذاق طريف غدا جديرا بالرواية . وذلك كله هو الذي دعا الجاحظ إلى إطلاق مقولته النقدية : « إن الاعراب يفسد نوادر المولدين » .

أما الجانب الآخر في هذا الموضوع الذي يتصل بطبقة العوام فهو أن الجاحظ حين خص بالقول أولئك المولدين وكلامهم ، إنما تناول في الوقت نفسه الوجه الهازل من حياتهم ، هذا الوجه الذي كان يتجلى في طيبهم

(٤٨) السرند في الفارسية : البطل الذي يطلب ويعلو . والزغلة : الدرع الواسعة المحكمة . السرد . نسج الزرد في الدروع . وأما الكرد فأصلها في الفارسية الكرد أي العنق ، ومازالت الكلمة شائعة عند العرب المعاصرين في بلاد الشام في قولهم (الكردان) وهي تعني نوعا من الحلي الثمين على شكل قلادة مدلاة على الصدر تحمل قطعة من الفضة المرصعة باللؤلؤ والماس . وأما الكلمة الفارسية الأخيرة (آب سرد) في الأبيات فتعني الماء البارد .
(٤٩) البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والأبيات لشاعر اسمه أسود بن أبي كريمة .
(٥٠) الغرام جمع غريم وهو المطالب بالدين ، وهذا جمع لم يذكره الأوائل .
(٥١) الزنكي : الزنجي بالفارسية .
(٥٢) الداذي : نبات طيب الرائحة مسكر . وباخست : الشرب على الريق ، والكلمة أيضا فارسية .
(٥٣) مستي : بالفارسية تعني كثرة السكر وامتلاء الشراب .
(٥٤) بجفت : فارسية أيضا وتعني ثمر البلوط .

ومـزاحهم وفي مجـالسهم وأسـمـارهـم وفي ملحـهم ونوادرهم . وقد استتبع هذا الأمر من الجاحظ أن يبين أهمية ارتباط الكلام غير المعرب بموضوع النوادر ، وأن يحكم أيضا التلازم بين الشكل أو اللفظ الملحون وبين المضمون أو المعنى الهازل .

وحين آثر الجاحظ هذا المنحى في صدد اصطناع اللغة المحكية باعتبارها أداة تعبير ملائمة في مجال الموضوعات الهازلة ، فإنه في الواقع قد فتح الباب أمام لون جديد من الطرائف والقصص ، أو نمط مستحدث من أنماط الأدب العابث طالما دأب المؤلفون والنقاد من قبل على عدم الاعتراف به ، وعلى طرده من محراب الأدب ، لما قد تنطوي عليه لغته أحيانا من الخلل ، وما قد يعتريها من شوائب . وهذه النظرة القاصرة أو الفكرة المتزمتة قد هيمنت على الأدب العربي في واقع الأمر على أوسع نطاق ، فلم يكن ثمة في رحابه أي حيز ذي شأن لأنماط تعبيرية أخرى مثل القصص الشعبي والزجل . والموشح الأندلسي نفسه ، برغم طرافته ، ظل عددا من الأجيال يشق طريقه العاثر بصعوبة ، دون أن يعترف به أنصار القريض فنا من فنون القول . حتى أن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد ، حين أخرجوا الموشح الفصيح من دائرة فنهم ، واعتبروه بمثابة امتداد للقريض ، وأنه لا شخصية له . بل إنهم أمعنوا في التحدي بعد أن تمكنوا من فنهم الجديد ، وثبتوا فيه أقدامهم ، إذ اشترطوا أن تكون (الخرجة) مسوقة باللغة المحكية ، أي باللهجة العامية . والخرجة في فن التوشيح ، وهي خاتمة الأسطر فيه ، أو قفله الأخير بمثابة عمدة الموشح وبيت القصيد فيه . وقد أوضح ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » هذا الطابع المتميز للخرجة من حيث صفته وأهميته بقوله[٥٥] :

« والشرط فيها أن تكون حجاجية[٥٦] من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن[٥٧] ، حارة محرقة ، حادة منضجة . . وهي ابراز الموشح ، وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره . . . »

فالخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ويستملح ، بل يشترط فيه أن يكون عامياً أو أعجمي اللغة ،[٥٨] وبذلك يستحق العمل الأدبي أن يدخل في فن التوشيح ، « فإن كانت الخرجة معربة الألفاظ على منوال ما تقدمها ، خرج الموشح ـ في رأي ابن سناء الملك ـ من أن يكون موشحا[٥٩] . وهذا الرأي مماثل لما قاله الجاحظ وهو « أن الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده » وانه « إن كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهٍ ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته . . . » . وما يراه الجاحظ من منطلق في أنه[٦٠] قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم من الألفاظ »

فابن سناء الملك حين تقبل ورود الخرجة فصيحة معربة فهو إنما فعل ذلك لأنها مسوقة في مقام الجد ولا

---

(٥٥) دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ، دمشق ١٩٤٩ .
(٥٦) حجاجية ، أي نسبة إلى الشاعر ابن حجاج الذي عرف بمجونه ، وقد عاش في بغداد خلال القرن الرابع الهجري .
(٥٧) قزمانية ، أي منسوبة إلى ابن قزمان أشهر زجالي الأندلس .
(٥٨) المراد بالكلام الأعجمي عند ابن سناء الملك هو الأجنبي أو غير العربي .
(٥٩) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٢
(٦٠) البيان والتبيين ١ : ١٤٥

سيما في معرض المديح ، هذا الغرض الرئيسي في الشعر العربي . فهو على غرار الجاحظ أيضا يراعي في الكلام أن يكون مناسبا لمقتضى الحال ، وأن : « الخفيف للخفيف والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح[٦١] . . » ، « ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل . . » . ولما كانت الخمرة والطبيعة والمرح والطرب والغناء والموسيقى . . . هي الأجواء الموائية لمضمون الموشحات ، غدا من الطبيعي أن تغلب على الخرجة هذه السمة المرحة وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبذل ما يضفي عليها الدعابة والطرافة ، وبذلك تكون مسك الختام ؟ فتترك أثرها في النفوس وتثير الضحك . وقد تستدعي ارتشاف الكؤوس على نغمات العازفين وإيقاع الراقصين . « إنما - كما قال ابن سناء الملك - العاقبة ، وينبغي أن تكون حميدة » . وهذا حسن فيها أيضا أن تكون « غزلية جدا ، هزازة ، سحارة ، خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة . . »[٦٢] .

وعلى هذا الصعيد المشترك من تلازم اللحن الموسيقي والخرجة الأعجمية في لغة الموشح قد نجد - كما أسلفنا - شبيها لهذه الظاهرة الموسيقية اللغوية أيضا في بعض أغنيات المرح أو العبث في عصرنا الحاضر .

وما الموشح في حقيقة أمره إلا ظاهرة لغوية أدبية وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأندلسي الحديثة ، ولغته الجديدة ، ثم انبثق عن هذا المجتمع فن الزجل الشعبي ، المرآة الأخرى لحقيقة الحياة الاجتماعية واللغوية والفنية في الأندلس .

والملاحظ أن كلام ابن سناء الملك الذي أورده بعد أكثر من ثلاثمئة عام من كلام الجاحظ حرص فيه أيضا على طابع التلازم مضمون الخرجة المنطوي على الهزل والخفة والمرح أو المجون والسخف ، وبين الشكل اللغوي الذي يتجلى في عبارة الخرجة ، من حيث كونها عامية هزازة للنفس باعثة على الضحك - حتى أن نعت اللفظ في هذا المجال بالسخف قد ورد بنصه أيضا لدى كلا المؤلفين ، الجاحظ وابن سناء الملك . وفحوى ذلك أن الخرجة في الموشح ، من جهة ، والنادرة التي عناها الجاحظ من جهة أخرى هما معا مغترفتان من صميم الحياة اليومية ومنحوتتان من واقع لهجتها العامية المبتذلة .

كذلك يمكن القول أن النادرة والخرجة - من حيث كونهما صورتي تعبير - هما أيضا من طبيعة واحدة قوامها التظرف . وبعبارة أخرى ، إن الصبغة الكوميدية هي القاسم المشترك لهما . وما التظرف في حالتي النادرة والخرجة سوى التعبير الخفيف الهازل الذي هو أقرب إلى جنس الكوميديا ، هذا الجنس الذي يرتكز إلى حد كبير على الحوار السمح الدافق الذي يشاكل لغة الحديث في حياة الناس .

حين استملح الجاحظ ، بفكره المتفتح وذوقه الرفيع عبارة « إن كنت سبع » برغم خطئها اللغوي البارز ، آخذا بالجانب الجمالي ومضحيا بعنصر السلامة اللغوي ، فمعنى ذلك أنه جعل الفن في المقام الأول ، وأنه للضرورة الجمالية أيضا أحكام . لقد قر في نفس الجاحظ أن التعبير المحكي والبسيط في حياة الناس

(٦١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

(٦٢) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٢ ، ابن سناء الملك

اليومية على خطئه أو ابتذاله . . . إنما هو المعول عليه في هذا الصدد . أما التفاصح أو التشدد في تطبيق قواعد لغة الكتابة والخطابة والشعر ، وجعلها تسري بقسريتها أيضا على الأحدوثة المروية أو النادرة المحكية ، فهذا في رأي الجاحظ بمثابة وضع الأمور في غير مواضعها ، إذ يحمل الكلام معدولا عن جهته ، واللفظ خارجا من حده .

ويكاد يكون محور كلام الجاحظ بصدد موضوع الطرف والنوادر المحكية هو أن للموضوعات الجادة والمضامين الرصينة لغتها الفصحى ، وألفاظها الجزلة ، وأنه أيضا للمحالات الهازلة والمواقف العابثة كلماتها الملحونة وعباراتها اللينة . ومعنى ذلك أنه في مجال الكوميديا ومواطن السخر والإضحاك ينبغي محاكاة واقع حياة الناس الهازلة ، واعتماد لغتهم المحكية على علاتها ، لأنها على أية حال لغة الواقع وصورة الحياة .

هذا الفهم المحدد والدقيق لدى الجاحظ لطبيعة اللغة المحكية في إطار المضامين الهازلة يقارب إلى حد كبير المفهوم السائد في النقد الحديث حول واقعية اللغة ، باعتبارها وجها بارزا من واقعية الأدب . إذ أن اعتماد لغة الحديث أو الحوار الجارية في معرض مسرح الكوميديا ، وأيضا اصطناع اللغة الدارجة على الألسن خلال الحياة اليومية ، برغم ما قد تنطوي عليه من خطأ أو ابتذال أو سخف . . . كل ذلك منضو داخل مفهوم مشاكلة اللغة للواقع ، ولا سيما في الأدب التمثيلي الهازل أو الكوميدي ، وذلك على خلاف ما ينبغي أن تكون عليه هذه اللغة في الوجه الآخر المقابل ، من فصاحة ورصانة وجزالة ، على صعيد الأدب التمثيلي الجاد أو التراجيدي .

في سبيل لغة ثالثة : ملامح نظرية نقدية

وبعد : فإنه إلى أي مدى ، في ضوء ما تقدم ، وعبر المنحى النقدي للجاحظ يستطيع الباحث أن يتلمس ملامح نظرية أو مذهب أدبي على صعيد الفكر الجاحظي ؟

لعلنا نستطيع استجلاء ملامح هذا المذهب النقدي الجاحظي ومقوماته من خلال الوقوف عند النقاط التالية :

أ ـ إن الجاحظ ، في فكره النقدي ، قد تفهم بعمق جدلية الشكل والمضمون ، من حيث تلازمهما وتفاعلهما على صعيد التأثير المتبادل والمشترك ، ومن حيث عدم قيام أحدهما إلا بوجود الآخر ، فهما بمنزلة شفرتي المقص لا يتم القطع بأحدهما بل بكلتيهما . وكل محاولة لرواية النادرة على غير صورتها ، كإعراب لغتها المولدة أو تعديل عباراتها المحكية ، إن هي إلا تشويه لواقع الحال ، وإفساد لخصوصية المقال .

ب ـ استطاع الجاحظ بحدسه الصادق ونظره الثاقب أن يرى في اللغة كائناً حيا ، إنها في نظره ـ ونتيجة الملاحظة والمعاينة والاستقراء ـ أداة تعبير غير ثابتة ولا جامدة ، بل متغيرة متبدلة ، وهي قابلة للتكيف تبعا لتغير أحوال العصر ومعطيات العيش وطبيعة المجتمع . .

ومن هذا المنطلق الركين الذي صدر عنه الجاحظ ، وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنبثقت لديه هذه الرؤية النقدية العامة التي ترى أيضا أنه إذا كان فن القول مرتبطا

بالمجتمع وموازيا له ، وأن المجتمع متعدد الطبقات ، فإنه من الطبيعي تبعا لذلك أن تتجلى طبيعة التعبير في أشكال متعددة ، ما دام المجتمع نفسه طبقات متعددة . وهذا ما جنح إليه الجاحظ في قوله بأصرح عبارة وأوضحها[٩٣] :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي » .

أما عبارة أبي عثمان الأخيرة التي تفيد أن جميع هذا الكلام برغم تباين مستوياته عربي ، فإن لها بعدا نقديا آخر قوامه أن صحة الكلام وحدها ، أو حتى فصاحته نفسها ليست العنصر الوحيد في تقويم العمل الأدبي ولو كان هذا الكلام في المقياس العام كلاما عربيا . وهذا مفهوم دأب الجاحظ على تأكيده من خلال آراء عديدة له سلفت على نحو جانبي أو أساسي . وهذا ما يفضي بنا إلى بسط الأمر في النقطة التالية .

جـ - ويجمل ما خلص إليه الجاحظ أيضا أن فنية العبارة قضية منفصلة عن صحة اللغة ، وليس بينهما تلازم ولا ترابط . وهذا رأي خطير في مجال النقد الأدبي ، مؤداه أن اللغة الملحونة والعبارات العامية ، شأنها كشأن اللغة الصحيحة والعبارات الفصيحة من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني . وهذه السماحة في نظرة الجاحظ إلى اللغة ، مؤداها أنه لم يكن متزمتا في التعامل مع الألفاظ ، يعتبرها مجرد أوعية لحمل المعاني ونقل الأفكار ، بل رأى فيها رموزا ترمي إلى دلالات ، وتنطوي على هالات . وهذا الفهم الرحيب لأبعاد الكلمة وظلال العبارة هو الذي جعله - برغم حرصه البالغ على صحة الكلام وسلامة التعبير - يتقبل الخطأ واللحن ، بل يحبذه ويستملحه ، إذا دعا إليه داع من دواعي الفن .

كل ذلك يعني في مفهوم النقد الحديث ، حرص الجاحظ على سمة الواقعية اللغوية التي ينبغي لها في رأيه أن تبسط ظلها على المتكلم والمتلقي معا . وما هذه الواقعية اللغوية في حقيقة الأمر سوى وجه آخر متألق من ذلك المنحى الواقعي الذي حمل الجاحظ لواءه في الأدب .

د - أطلق الجاحظ مقولة نقدية هامة ، حين ذهب إلى أنه « لكل صناعة شكل[٩٤] » . وفحواها أنه ينبغي أن يكون لكل جنس أدبي شكله الفني الذي يلائمه . إذ الصناعة في مصطلح الأقدمين تعني في مفهوم النقد الحديث الفن بعينه ، أو الجنس الأدبي ، على أساس أن الصناعتين الأشهرتين عند العرب تتجليان في الشعر والنثر ، وهذان أيضا أبرز فنون القول ، وبمقتضى ذلك ، فإن ما عناه الجاحظ هو أنه لكل جنس أدبي خصوصيته الأسلوبية . وهذا المفهوم إنما ينبثق من المنطلق النقدي الشامل الذي اعتمده الجاحظ أصلا وهو أنه لكل مقام مقال .

هـ - لقد تناول هذا الناقد العربي قضية اللغة المحكية في مجال التندر والتطرف ، على أنها قضية نقدية تتصل بلون أدبي متميز يغاير سائر الأنماط التعبيرية . ثم عمد إلى تحليل طبيعة هذه اللغة وإظهار سمتها الخاصة بها

(٩٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤
(٩٤) كتاب الحيوان ٢ : ١١٤

التي تميزها من حيث النطق والأداء عن الأساليب المعتمدة في اللغة الكلاسيكية .

وقد اعتمد الجاحظ في أطلاق آرائه على نماذج تعبيرية عديدة ، ونصوص أدبية معينة ، يتصل أكثرها بالمضمون الساخر أو الموقف الضاحك ، من مثل قصص البخلاء ونوادر المولدين ، ثم جنح لشفعها بما تقتضيه من حكم أو تعليق على هذا الصعيد النقدي . . .

على أن هذه المسألة الأدبية أو القضية النقدية التي تعالج طبيعة الصورة التعبيرية في معرض الملحة أو النادرة ، لم تكن ـ فيما يبدو لنا ـ طارئة في كتابات الجاحظ ، ولا عارضة على فكرة ، بدليل أنه تناول هذا الموضوع عددا من المرات خلال أبرز ثلاثة من كتبه ، وهي : كتاب والحيوان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب البيان والتبين . وهذا الأمر يعني بجلاء أن الجاحظ كان يولي هذه المسألة اهتمامه ، وأن مسألة اللغة المحكية في معرض السخرية والهزل كان لها ـ من منحاها الأسلوبي وأدائها الفني ـ حيز واضح في فكر الجاحظ النقدي .

ولعله يوسعنا الآن القول أن هذه الالتماعات التي ومضت في ذهن الجاحظ تشكل أساسا صالحا لمذهب نقدي ، قوامه الترخص اللغوي لغاية فنية . وهذا في واقع الأمر منحى خطير انتهجه الجاحظ بصدد ظاهرة لغوية اجتماعية انبثت في عصره ، ودارت على لسان جيله . وخطورة هذا المنحى تثوى في أن الجاحظ قد جنح ، من غير تحفظ ، إلى التسامح بصدد اللغة الدارجة على الأفواه ، كما استحسن ، دون حدود ، ما كانت تنطوي عليه تلك الصيغ التعبيرية المولدة من ألفاظ دخيلة أو عامية أو خاطئة . وما ذلك أصلا إلا لأنه أديب قبل أن يكون لغويا ، وفنان قبل أن يكون عالما . وآية ذلك موقفه السلبي الجريء تجاه النحاة والرواة ومن إليهم . إذ قال[٦٧] : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » . وهذا الموقف الجلي ينم على أن الجاحظ على كونه من أعلام اللغة والرواية لا يعد نفسه في زمرة اللغويين والرواة ، بل إنه يقف في الصف المغاير لهم ، وينتقدهم ويأخذ عليهم قصور فوقهم من الوجهة الفنية تجاه مقومات الجمال التي قد تنطوي عليها حلاوة الأشعار ، وطرافة الأخبار ، حتى لكأن غايتهم لا تتعدى اقتناص الشاهد ، والتماس البرهان . وفي هذا وحده إدانة شديدة لهم .

ومجمل القول أنه ما كان لهذه المواقف النقدية التي انطوى عليها فكر الجاحظ أن تصدر عن رجل يعيش في وسط علمي محافظ ، لم يكن أصحابه المتشددون يقبلون فيه أي تفريط بالعربية ، لغة الجدود الأوائل ، ولسان الكتاب المبين ، ولولا أن أبا عثمان نفسه كان ينطوي على جملة من الصفات . منها :

١ ـ المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الجاحظ على صعيد الفكر العربي ـ الاسلامي ، وأيضا في مجال اللغة والأدب .

٢ ـ انفتاح عقل الجاحظ وتحرره الفكري ، وانتماؤه إلى تيار الاعتزال الذي كان أبو عثمان نفسه أحد كبار أعلامه . وقد عرف المعتزلة في الاسلام برحابة آفاقهم ، واتسام عقولهم بقدر وافر من حرية الفكر .

٣ ـ كون الجاحظ عربي النزع ، وهذا ما عصمه من أية شبهة ، ومكنه من أن يقول ما لم يجرؤ على مثله سائر

(٦٧) البخلاء ٢٠ ـ ٢١ .

معاصريه أو سالفيه . لقد كان في منجى من أن تصمه تهمة الشعوبية المنتحلة ، وهو في طليعة خصومها ومناوئي دعاتها .

وهكذا أحل الجاحظ الفن في منزلة أعلى من منزلة اللغة ، واكتفى بجعل اللفظ ، أي لفظ - على الصعيد الأدبي - مجرد وسيلة تعبيرية لغاية أسمى وأجل . وفي الوقت نفسه وضع الجاحظ اللغة في إطارها الحيوي الصحيح ، حين رأى فيها ظاهرة اجتماعية متطورة ، تتمخض عن اللغة المحكية أو المنطوقة التي تنبض فيها حياة الناس ، وتتجلى على ألسنتهم من خلال ما تدور به أحاديثهم ومحاوراتهم وأسمارهم . وهذه اللغة المحكية - كما يراها الجاحظ كذلك - إنما تتسم أيضا بما تتسم به اللغة المكتوبة الفصيحة من ألق وطرافة وإبداع .

* * *

حضرة المحترم
أنسنة السردي الايديولوجي

وقال يخاطب ربه :

« اغفر لي أفكاري يارب ، انها قاسية

مثل الحياة ، وهي جزء منها ليس الا . . »

نجيب محفوظ

محمد امسويرقي

مشروع منهج نقدي :

يعرض الخطاب الروائي « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ سيكولوجيا ، وفلسفة ، ورؤية شخصيات الى العالم ، مزيحا الستار عن وعيها ولا وعيها المتجسد في سلوكها العملي الدال . والرواية بادخالنا ، كقراء ، الى وعن هذه الشخصيات ولاوعيها في علاقتها ، وعلاقاتها بالفضاء والزمان ، فهي تكشف في ذات الآن عن سيكوكوجيا السارد ، وفلسفته ، ورؤيته للعالم متجلية في أحكامه التقويمية ، ووجهات نظره حول جميع الشخصيات سواء الدائمة الحضور أو الكثيرة الغياب ، وحل وجهات نظرها المتغيرة حسب الأحوال والظروف اذ من خلال مقول الظروف اذ من خلال مقول السارد يبدو اللامقول .

والاشكالية المطروحة هي كيف يتعامل الناقد مع ثنائية الشخصية والسارد لتحقيق الحداثة في النقد العربي الطامح الى تحديث أدواته الاجرائية ؟ غالبا ما كان النقد القديم يتتبع الشخصية ويهمل السارد ويسير النقد البنيوي الجنيني في نفس الاتجاه مضيقا الاهتمام بعلاقة الشخصيات ولا يعير أي اهتمام للسارد الى أن برز الاتجاه البنيوي بعد الشكلاني فاهتم بالبنية السردية ، وزاوية الرؤية ، والمنظور السردي ، ووجهة النظر ، والمكونات الروائية من فضاء وزمان وشخصيات أو ما أسماه الحكاية والحكي الا أنه يؤجل الحديث عن السارد والمسرود له . واننا نقترح لتحديث نقدنا العربي رصد علاقة أخرى بنيوية وجدلية هي علاقة السارد بالشخصية . بما أن السارد يصاحب الشخصيات في حركيتها عبر طول الرواية ، وبما أنه يشكل الظل بالنسبة الى الشخصية فينبغي أن يكون الاهتمام شاملا لكل من السارد والشخصية في علاقتها . كيف ؟ أيصرح بأفكار الشخصية ويسكت عن أفكار الراوي ؟ أيكشف الناقد عن وجهة نظرها ويلتزم الصمت عن وجهة نظر السارد ؟ اذا فعل فهو أحادي البعد لان اختيار احدهما دون الأخرى امر مستحيل لأنه مهما حاول فانه سيعجز لامحالة لأنها مترابطان ، ومتلازمان ، وكثيرا ماتنصهر هذه في تلك لانها وجهان لعملة واحدة : الخطاب

الروائي . ان العلاقة بينها جدلية تتناق وكل أحادية وثنائية .

وهذا المشروع النقدي غير ثنائي مادام ينسف صرح كل ثنائية في طموحه أن يكون جدليا يتعامل مع كل ثنائية كوحدة كيتية جدلية ديناميكية انا سندرس ، كدوريت كون ، علاقة السارد بأي شخصية على مستوى الحكاية المحكي . انه منهج جدلي يعرض وجهات نظر السارد من خلال وجهة نظر الشخصية ابتداء من المحكي الابتدائي حتى نهاية الرواية . انه منهج علمي بنيوي جدلي ممكن . اننا نقترحه في نقد الاعمال الروائية لأنه لايتوافق والأحادية (تناول الشخصية وحدها) ولايتزامن والثنائية (تناول الشخصية وحدها ثم تناول السارد وحده) بل هو يتزامن بين الشخصية والسارد ابتداء من الشروع في الممارسة النقدية . ان الناقد في واقع الأمر ، لن يخوض في الحديث عن احدى وجهتي النظر حتى يجد نفسه يتحدث عن الأخرى . والفصل بين الشخصية والسارد لايتأتى الا في التنظير النقدي ، أما في الممارسة النقدية ، فكل فصل بين مكونين هو تشويه لهما معا .

ان سارد « حضرة المحترم » يجعل وجهات نظر الشخصية هي الأطروحة ، ووجهة نظر شخصية أخرى أو وجهة نظره هي النقيض في معظم الرواية . ولن يفوتنا ونحن نستجليها أن نبرز المقاطع السردية القليلة التي تتطابق فيها وجهات نظر الشخصيات بوجهة نظر السارد . ولايسعنا والحالة هذه الا تشكيل التركيب الأطروحة الجديدة - بينها بجلاء لأن النقيض يتواجد في الخفاء . ان السرد يحمل ضمنيا اللامسرود . ومهمة الناقد هي انتاج خطاب نقدي يبرز اللامسرود من خلال المسرود الى أن يقيض له نقد النقد الذي هو النقيض الضروري للتركيب/ الأطروحة الجديدة / وتتمظهر الشخصية في الرواية باللغة التي تتشكل بصيغها المختلفة سيميائية ايديولوجيتها الرسمية وايديولوجيا السارد المستقلة كفعل السرد ، والحكي ، والقص ، والرواية ، والمحكي والحكاية ، ووجهات النظر ، وأحكام القيمة والخلف ، والغياب ، والصمت ، وزاوية الرؤية أو المنظور السردي ، والرواية بضمير الغائب التي تشير الى وجود راو ، وشخصية وقارىء ممكنين ومحتملين والعلم والعناصر الذي يساعد على استجلاء تمظهرات الايديولوجيا هو السيميائية ، والجهاز المفاهيمي ، ومصطلحاته الاجرائية الذي اختزله فليب هامون في مصطلحه النقدي الذي أسماه شعرية المعياري .[١]

تمظهرات الايديولوجيا :

تتمظهر الايديولوجيا في الخطاب الروائي في عدة صيغ ، وتتجلى آثارها في اشارات متعددة : في العقيدة الدينية وميتافيزيقاها ، في الاخلاق ، في السلوكات الخاضعة لما بعد تشكيلها للنفس ، والذهن ، والوعي واللاوعي ، وفي تحريف رغبات الذات الطبيعية وللأفكار الناتجة عن الرغبات ، وفي العقلانية ، والمثالية ، والرومانسية ، والفردانية ، والسلفية ، والطوباوية ، وارادة الفرد للقوة والسلطة ، وفي الخرافة ، والأسطورة ، وفي تقديس الذات الفرد والحكومة ، وخطابها فتوحدهما مع الآلهة المقدسات فتمتزج هذه بتلك ، وتغيم الحدود ، وتتلاشى التخوم ، ويحل خيال الوادع هذه في تلك فينعدم التمييز ، وفي تقسيم الناس الى مستويات ، وأصناف ومراتب وفق معيار التراتبية ، فيقدس تبعا لذلك المال ، والرأسمال ، والعمل والملكية والأشياء ، والبشر ويتشيأ الانسان ، ويزهد في الراحة والحياة ، والحب والجنس ، والعلم والتحرير والحرية ، والمعرفة والسياسة والفلسفة ، والادب ، والفنون والحقوق في اطار الخضوع لمعايير العقل العقل ومقاييس العقلانية القامعة ، والتخلي عن الطوباوية الممكنة المؤسسة سعيا وراء طوباوية مستحيلة لا أساس لها ، ونسيان الجسد ، وشروط بقائه ، والقلب وعواطفه ،

١ - فليب هامون « نص وايديولوجيا » ط ١ : P.U.F باريز 1984 وقد كان هذا المرجع القيم السند الأساسي بالنسبة الينا في انجاز هذا المقال ، وقفنا ان نشير اليه فيما سبق تجنبا للتكرار .

والجنون وثورته ، والشعب ارادته في التغيير وتحطيم الاتساق ، ورغبته في التحول ، والتموقف بالقول بالقول والفعل المسئول . وتتجلى الايديولوجيا أيضا في التقويم انطلاقا من قواعد ومحكات ، وفي شكل لغة ، وأقوال ، وآراء ، ووجهات نظر ، وأفكار ، وتنظرات الشخصية أو السارد وتنظريات ، ومعرفة تقنية ، وجمالية ، وصناعة وفنية وثقافية ، ومهنية وكتابية ، والنشائية تخضع للقوانين المسطرة ، وللأعراف ، والأوضاع والمواضعات الاجتماعية ، والأذواق ، والرؤ ى الى العالم والفلسفات . .

شخصية الشخصية الرئيسية :

في الصفحات الأولى من رواية « حضرة المحترم » يقدم السارد الخطاب الايديولوجي السائد كأنه اشارة Signe مكتوبة على لافتة تلعب هذه الاشارة في الخطاب الروائي وظيفة اشارية مكثفة كما تلعب اللافتة في الحياة الواقعية الوظيفة ذاتها ، فهي تقرأ وتحفظ ، ولاتحلل ويسير القارىء العابر وفقها دون مناقشتها . انها تبدو كمثل كحكمة كقانون ، كوثيقة ادارية ، كمذكرة رسمية ، وتتخذ شكل جميع الصيغ التعبيرية القصيرة النثرية والشعرية ، وإن هذه الاشارة لتشكل في الرواية أفق إنتظار بالنسبة الى القارىء . ونظرا للعلاقة الجدلية بين فن التخييل والواقع ، فإن الايديولوجيا الرسمية تلقي بهذه الاشارة كما يلقي الفلاح بالبذرة آملا في أن تنضج وتؤ تي أكلها في أرض وعي الناس حتى تنمو وتترعرع وتتفتح وتثمر في لا وعيهم لتجني هي بعد ذلك ، وبسهولة ، ثمارها ولا يهمها حينئذ مصير السائرين والعاملين وفقه / والسارد الواعي بهذه الاشارة وبخطورتها هو الذي يتكفل تحت ظل الايديولوجيا المستقلة التي يساهم الانتماء اليها الى جانب الثقافة الواسعة والتراكم المعرفي في تجذيرها وتفجيرها في وجه الذي يصارع لاوعي المؤدلجين المتشبثين بالايديولوجيا الصنم . . بمهمة كشف وفضح أثر . ايديولوجيا سائدة الخطر على حياة ومصير الانسان المؤدلج الذي يؤنسنه السارد باعطائه صورة شخصية روائية يشكل الخطاب الايديولوجي القاتل بنيتها المحكية والحكائية ، فتتحرك وفقه وكأنها طفل يلعب بمسدس معبأ وكشخص مفتون لايرى سوى موضوع فتنته . هل بامكاننا الحديث هنا عن السحر ؟ .

قال الرسول متعجبا يوما : « ان من البيان لسحرا ! » نعم ، لاساحر في التاريخ لايستخدم اللغة في سحره أو أثناء عملية السحر واليوم نتساءل : أين يكمن سر السحر ؟ أفي الخطاب أم في المواد الكيميائية ؟ لقد أدرك الرسول أنه كامن في البيان . ان للغة قوة تشبه قوة السحر أو هي ذاتها السحر . وأي لغة هي تلك الساحرة ؟ انها اللغة التي تبعث المتعة ، وتحقق اللذة ، والنشوة في السامع / القارىء ، فيغدو وقد أسكرته اللغة بجمالها ، وبيانها وحقيقتها ، وموسيقاها التي تستحوذ على النفس ، فتؤ ثر في الاحساس وتثيره فيمسي السامع / القارىء كالمنتشي الذي يهتز ، ويترنح ، ويغني ويردد مقرأه أو بعض مقاطعه ، ويتمايل راقصا منتشيا . ، وتحمله اللغة في تغريبها الى عالم من الخيالات ، والأحلام ، والرؤ ي . انه فعل تخدير اللغة الذي يفوق تخدير الخمرة ، والأفيون ، والحشيش ، والهيروين ، والكوكايين ، والمورفين . . يمكن أن يكون تخدير هذه المواد آنيا ثم ينقضي ، ولكن تخدير اللغة يدوم ويستمر مدى الحياة . وكلاهما قاتل فالادمان يقتل في أقصر لحظات العمر . وتناول كمية محدودة تناولا طبيا قد يساعد على الحياة كذلك النص البياني . فهو كالمخدر يصعب علينا تحديد زمن قتلة رغم معرفتنا أن نتيجته الحتمية هي الموت . فالمدة التي سيموت فيها الشخص تحت تأثير سحره وتخديره تتغير من شخص الى آخر ليس كل نص بياني قاتلا . فالقاتل هو الخطاب الأيديولوجي الساحر . انه سر سحره كامن في أنه يعمق الخطاب الماضوي الموجود في الأذهان . انه ينفذ الى ذهنية الشخصية فينتقر فيها فيغدو مكتوبا ، محفورا منقوشا على رخام الذاكرة فتتأدلج الشخصية ، وتتخدر ، فيسرى فيها التخدير سريان السحر في ذات المسحور فتعمل بحسبه فتتشخص الأيديولوجيا السائدة وتصبح حية تسعى وتلتهم شخصيات أخرى لاتحكي بدون شخصية .

ان السارد يستقصي عبر النص الروائي جميع المظهرات الممكنة للأيديولوجيا السائدة ويتخذ لها شخصية كمرآة ذات أوجه متعددة مكسورة تعكس صورا متعددة لها . انه يسردن الخطاب الأيديولوجي أو يؤنس السردي الأيديولوجي من خلال شخصية الشخصية ليفضح الأيديولوجيا المخدرة وأثرها القاتل والمبيد للأفراد والجماعات وتفرقتهم بعد تكتلهم متوسلا بالشخصية / النموذج دون أن يغفل ، كبيوي علاقاتها بالشخصيات الأخرى ، وبالزمان ، والمحيط والظروف والأحوال لتكتمل صورتها وتلتحم بنيتها . ونجيب عقوط ، ككاتب روائي يخلق شخصية أخرى تتكفل بالسرد وهو السارد وعلى الناقد في ممارسته النقدية للعمل الروائي أن يرصد علاقة الشخصية بالسارد كشخصية فلكل منها ايديولوجيته أو قد يلتقيان ، بوعي أو غير وعي ، في ايديولوجيا واحدة كما اشرنا . وان نجيب عفوظ لسيميائي كبير اذ تتبع تجليات الايديولوجيا السائدة والمستقلة ويسجل راصدا سيميائياتها التي تشكل عالما كبيرا يغمر المؤدلجين ، ويجرفهم تيارها ، فيتخبطون في أمواجه المتلاطمة كغرقى يصارعونها كل حسب طريقته حبا في النجاة بحياته ، صراعا ينم عن مغامرة فردانية مؤدلجة . والدليل على نهجه المنهج السيميائي ذا الرؤية الثاقبة قول السارد في « حضرة المحترم » : « وتراءت دنيا من المعالي والمؤثرات » (ص : ٥) . وليست غاية هذا الفضح هو السخرية فحسب ، بل الغاية هي ادراكه أو وعي حدة مفصلة الخطاب الايديولوجي ومضائه ، وشدة وقعه الذي يشبه وقع الرصاص في الرؤوس والصدور ، سواء جاء على شكل كلمة ، أو جملة أو عبارة ، أو نص ، وفي جميع مرافق الحياة : في الشارع في العمل ، في المقهى ، في وسائل النشر السمعية والبصرية ، ووسائل الاعلام . وخطورته تكمن في اختزاله حياة المؤدلجين الذين يغدون حماة الايديولوجيا السائدة ، والمبشرين بها ، والمدافعين الأوائل عنها رغم سلبها حقوقهم ، وتجهيلهم ، وحرمانهم من ملذات الحياة . انها تحمل في طيها موتهم العاجل . فخطابها ساحر ولكنه كشهريار يمنح اللذة والموت في آن واحد أو ينغص اللذة بالموت الذي ينتظر الفتاة الجاهلة انه كالفراش المنمنم ذي المنظر الخلاب ولكنه يخفي تحته هوة سحيقة في قعرها أفاع سامة تلدغ الساقط فيها ، أو حراب اسنتها الى فوق تودي بحياة كل من حاول الجلوس عليه . انه كالقصر الملغوم المهدى .

ان الاشارة التي ذكرناها آنفا تومي من الآن فصاعدا الى ما ستتمخض عنه الرواية في خطها الانحداري من وجهة نظر السارد ، والتصاعدي من وجهة نظر الشخصية ذلك الخط الذي يرسم المراحل التي ستقطعها الشخصية المؤدلجة والدائمة الحضور في الخطاب الروائي الذي له أيضا سحره الخاص الا أن هذا السحر يبعث النشاط والحياة في القارىء الممكن كالغذاء والدواء والارتواء الجنسي والفكري ، وهذا القارىء سيهتز سكران منتشيا بكاس الحياة انه النص المضاد لاثما قاله ولكن بما لم يقله والذي نستشفه من خلال ماقيل . انه النص / الحياة رغم عرضه للايديولوجيا السائدة / الموت ان الشخصية في رحلتها التراجيدية التي تلمح الى السقوط والانهيار ثم الموت لاتني تأدلجها . ان الرحلة الى الحياة تحمل معها الموت العاجل . وكما قال لوكاتش ابتدأت الطريق وانتهت الرحلة . انها رواية او سيرة الشخصية الاشكالية الذاتية . ان موت بيومي في آخر الرواية ناتج عن الحرمان من مباهج الحياة ان هذه الشخصية قدمتها الايديولوجيا الرسمية قربانا لمعبد الدولة ولمقصلتها اللامرئية هروبا من المقصلة المرئية الخاصة بالسياسيين وذوي الرأي التحرري ، المناضلين والفلاسفة والعلماء المناهضين لها .

والاشارة الساحرة المخدرة والقاتلة قول السارد راويا عن عثمان بيومي الذي يرددها بهذه الصيغة هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام هذا هو المثل الاعلى المتاح لابناء الشعب ولامطمح لهم وراء ذلك تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة .. سابعة سادسة .. خامسة .. رابعة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مديرعام . معجزتها

تتحقق في اثنين وثلاثين عاما وربما تحققت في أكثر من ذلك » . (ص : ١٠) . ان هذا الخطاب مؤدلج يميز بين رؤيتين الى العمل / الوظيفة :

١ ـ رؤية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا السائدة التي قسمت العمل تقسيما تفتيتيا الى درجات تختفي وراءها الاستغلال ، والاستلاب وسراب الحياة .

٢ ـ رؤية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا العقائدية .

وتبرز الرؤيتان من خلال التقييم الظاهر في النص / الشعار المؤدلج الذي يرسخ ايديولوجيا الطبقة المالكة لوسائل الانتاج عن طريق الاعتماد على العقيدة وتشويهها كما يبدو ذلك من سجل الفرقان ولغته التي تتخذها كقناة يعبر منها الخطاب المؤدلج الى الأذهان دون مقاومة لأنه حق العقيدة تدلجت وانصهرت الايديولوجيتان فشكلتا ايديولوجيا واحدة سائدة . ويتجلى التقويم وأحكامه من خلال النعوت ، والصفات والأحوال ، والكنايات والألقاب وفق قواعد الثنائيات والمراحل الموجودة بين طرفي الثنائية كالسعادة والشقاء والتألق والانطفاء ، والمثل الأسفل والأعلى والجنة والنار ، والكبرياء(الكبر + الرياء) والدمامة ، والعادي والخارق ، والتحقق وعدمه ، والقناعة والطموح : طريق سعيدة ـ تنتهي متألقة ـ المثل الأعلى ـ سدرة المنتهى ـ الكبرياء البشري ـ معجزتها تتحقق [٢] والخطاب المؤدلج يؤكد بسحره الغامض والخيالي والميتافزيقي والأسطوري ، التحقق وينفي الطموح المختلف بصورة اطلاقية : « ولامطمح لهم وراء ذلك المؤدلجون ، هم الذين يبتكرون هذا الخطاب كبنية فوقية لما يسطرونه من قوانين صارمة على الشعب والحامية لمصالحهم الاقتصادية ومن تشريعات استغلالية اجرامية وقاتلة بتطوير العمل وجعل القيم المضادة مجرد أوهام : « ثامنة .. سابعة .. سادسة .. خامسة .. رابعة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مدير عام » . والأرقام المتباعدة كالمتقاربة والمتجاورة تشكل ثنائيات وتراتبية . ومن أجل الفتات ، والبقايا ، والفضلات ، والنفايات تستغرق هذه الدرجات حياة الانسان القصيرة بكاملها ، ويحكم عليها باعدام عاجل قبل الاعدام المؤجل الذي حكمت به عليه الطبيعة معجزتها تتحقق في اثنين وثلاثين عاما . وربما تحققت في اكثر من ذلك ولايفوت السارد أن يدلي بوجهة نظره المضادة اللاتواصلية ، والكاشفة للحقيقة العارية ، على هذه الدرجات بصيغة تواصلية : « أما الساقطون في وسط الطريق فلا حصر لهم » (ص : ١٠) . الموت المعجل الذي يعدم الناس قبل الموت المؤجل ـ حسب رؤية السارد الواعية وحيا ممكنا ـ يتخذ أشكالا متعددة والقابا متنوعة ، مموهة (بالكسر) ، خادعة ، اغرائية تراتبية : صاحب السعادة ـ المدير العام . ويكني عن الاعدام السابق وانه بلغة الفرقان بكنايات سحرية مخدرة لها مفاهيم في تصور ذهنية المؤدلج ميتافزيقية : : الرحمة الالهية ـ سدرة المنتهى ـ حيث تنتهي حياة الموظف في الواقع وهو جالس على شوكة الوظيفة وخياله فيما لم يعرفه ولن يعرفه وانما يتصوره ويرسم له في خياله صورة غائمة وعائمة وهلامية ـ والمثل الاعلى ـ والمعجزة التي ترتبط في ذاكرة الشعوب بالأنبياء الذين يجعلهم الخطاب المؤدلج فوق البشر . ومفهوم المعجزة في المحكي مفهوم السنن لاسيما اذا نظرنا الى العلاقة التنقيضية التي وضعت كلمة « المعجزة » بعد لفظ « مدير عام » . ومعناها أن هذه المكانة مكانة الهية ، وخاصة بالله أوتيني أما الانسان فهو عاجز عن بلوغها في زمن الايديولوجيات السائدة التي تحث على الاهتمام بها وتشغيل الفكر بحلم الوصول اليها في زمن الوصولية . أما المفهوم الدلالي المعروف فهو يعني الفعل الخارق الذي يفوق القدرة البشرية وهو مفهوم ميتافزيقي خرافي أسطوري . ولايخفى من هذه الألقاب الماكرة ، والمضللة ، والأحكام القيمية المطلقة التي لاتحدها النسبية الواقعية سوى الفقر والعوز والحاجة الدائمة الملحة والموت المعجل لأن أجرة العامل .

٢ ـ نحن نؤكد على طول المقال .

الوظف زهيدة ويعوض عنها بالخطاب الوهمي المؤدلج ، والروح المجرد ، المثال ، والرحمة والجنة ، والسعادة المرجأة كتعويض عن المادي والمحسوس والسعادة المرجوة الواقعية والضرورية وما الفتات المتقزز سوى البديل الحتمي لهذه الترقية السيزيفية الملهوفة واللاهثة من أجل لاشيء والمحترقة شوقا الى العدم لاحتراق الأجور بنار الأسعار واحتراق المأجور :

« اني أشتعل يا ربي . .

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام . وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نور باهر ، فاحتوا ها بقلبة وشد عليها بجنون ، كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة » (ص : ١) . ان السارد يجعل من بيومي - Bio O Vie من بيومي ولكن = Maisأو أو Moitie O mi وهكذا يغدو اسم بيومي من حيث التحليل التجنيسي التصحيفي « حياة » ولكن . . «

أو « نصف حياة » أو « حياة ناقصة » - الفراشة التي احترقت لما حاولت المستحيل وهو اقتباس من الشمعة نارها . إنه يحكم عليه بأنه محلق في الأحلام أي رومانسي طوباوي وأنه منبهر بمحرق سحر الايديولوجيا المحرقة بعدما حلت فيه فحل فيها . إنه الحلول الايديولوجي . وقد شبه السارد هذا السحر وهذه الفتنة بالنار المقدسة . وبيومي المنبهر بالنور يقبس النار كالبدائي والمؤدلج ولكن نورها أعشاه فأرداه أعمى لا يدرك النار البروميثية التي تحمل معنى الحياة الحقيقية وإدراكه خاطىء لأنه يرى معنى الحياة في الموت . والانبهار والتقديس يستلزمان التضحية الشيء الذي أفضى به ، في مسيرته الطموحة إلى المجد الزائف ، إلى التقتير ، والادخار ، والحرمان القاتل ، والبخل المتشدد خوفا مما قد تسفر عنه الأيام المؤدلجة المضطربة - وهي دائما تسفر عن شيء غير متوقع - وهي التي تغرس

الأوهام ، وتزرع الاستيهامات فتنمو ، وتنضج ، وتثمر ، فتحصد ، وتستحوذ على الانتاج كله فتجمع الشخصية المؤدلجة ، كلاقطة ، الهشيم لأن الايدولوجيا المؤسطرة أسطرت الذات فأسقطت الذات نفسها على الأسطورة فأعدمت الحاضر والواقع . ولن تزول الأسطرة إلا بزوال الايدولوجيا المؤسطرة .

يقول السارد عن عثمان بيومي وعن سيرته الذاتية الدالة على الوضعية الاقتصادية الخاصة والعامة في الزمن المؤدلج .

لن نفهم أي سيرة إلا اذا ربطناها بالظروف الاقتصادية لأن السيرة داخل العمل الأدبي ومن ثم ربط هذه البنية السيرية الدالة بالبنية الاقتصادية العامة للمجتمع الذي يعيش فيه - :

« إنه ينفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن أن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه ، وأمان ضد الخوف في عالم مخيف » (ص : ٢٩) .

إن النص يوضح أن الشخصية تخضع لايدولوجيا التوفير كإضافة أخرى على إيدولوجيا تفتيت العمل والأجرة ، ومضاعفة الحرمان ، وعدم الاستقرار النفسي والتردد ، والحيرة ، والانتقاء المستمر ، والاختيار الدائم ، والعجز عن الاتفاق والثبات في مكان واحد كمياه المستنقع ، والتمسك والاقتناع بطعام واحد كالبهيمة إلى حد لا يغني الغذاء عن الدواء والدواء عن الغذاء لعدم القدرة في اقتنائها معا . والخطاب المؤدلج يصدح / ينعق بالتوفير بنسبة الربح الغامضة والمغرية والضئيلة لتضخيم الرأسمال .

هناك ثلاثة دلائل على مخالفة السارد للشخصية المؤدلجة :

١ ـ أن طبيعة الحكاية هنا مزدوجة . إن المرء عندما يحكي بضمير الغائب عن شخص آخر أو شخصية تخييلية ، ويعرض وجهات نظره ، وسلوكاته ، وأفعاله ، فإنه يقوم بفعل الحكي كي يستخلص القارىء نقيضها . والرواية بضمير ال « هو » الدالة على الشخصية تتضمن في ذات الوقت ضمير « أنا » السارد ، وضمير « أنت » القارىء ، وكأن الراوي يقول للقارىء دون أن يصرح بذلك : « إني لست مع وجهات نظره وسلوكاته وأعماله ، وإني لأخالفه في كل ذلك فما رأيك أنت ؟ » .

٢ ـ سمة الاسناد ، والايعاز ، والاضافة ، والنسبة بضمير الغائب لتبرئة ساحة أنا السارد وأنت القارىء .

تقييم السارد للعالم بنعته بصفة « مخيف » انطلاقا من معيار الخوف والاطمئنان ، وهي صفة تحتمل ضمن ما تحتمل من دلالات حافة دلالتين تحددان رؤيتين الى العالم :

أ ـ رؤية الشخصية الحرفية القاموسية الضيقة لوعيها الزائف المؤدلج والسلفي : « الجزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه : ـ هكذا عاش الخلفاء الراشدون » (ص : ٧٢) .

ب ـ رؤية السارد الواسعة لوعيه المحتمل بحيث أن ما يخيفه هو عالم الايدولوجيا المفرقة والمشتتة للناس وبحيث يغدو المخيف هو غياب التضامن التاريخي .

إن بيومي يحرم نفسه بل هو مدفوع الى الحرمان لتأجيله ، من كل متعة ، ولذة ، وجمال في الأشياء ، والأجسام ، والأجساد ، والأصوات ، والروائح ، والأطياب ، والأطعمة والألحان ، والمشاهد الخلابة ، والأسفار ، والرحلات ، والاكتشافات ، والاختراعات ، والمناظر الجذابة والمتغيرة حسب الفصول ، والأزمنة والأقطار ، ومن دفء الشمس وبرد الشتاء وبرودة المياه وثلجها صيفا ، وأنواع الشراب في الحان وغير الحان إلى أن ماتت حواسه فأضحى جثة لا يعنيها في شيء ما تبقى لديها من حركة وعي مؤدلج زائف .

إن الايدولوجيا السائدة حرباء معكوسة . إنها تلون بلونها كل ما تمر به من ثقافات كالتاريخ ، والحضارة ، والأخلاق ، والعلوم بشتى أصنافها ، والفلسفة ، والأدب . إن هذه الثقافات المؤسساتية تتلتلج الى حد يتعذر التعرف عليها كما يتعذر التعرف على الحرباء في الأشياء . لا يدركها من ثم أحد من خبرها ، وخبر حربائيتها المقلوبة . فالتاريخ مثلا يتشكل بتشكلها ، وتنصهر الأخلاق في بوتقتها إلى حد أنها تجعل الوظيفة فوق كل المهن الأخرى كالتجارة ، والصناعة ، والسياسة ، والجندية ، والبحرية . . . ، وتضرب هالة من التقديس حولها فتبعدها من الأرض في عليائها بعد أن موقعتها في السماء بحيث يستحيل الآن عليها معرفتها وجهلها مرجعها بإلاله فلا يكاد المرء يميز أحدهما عن الآخر إلا إذا تيقن كاتب ساخر يضحك ويضحك من المقدسات بعد إنزالها من سماء الوهم الى أرض الحقيقة والواقع . يقول سارد « حضرة المحترم » : « الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد » (ص : ١١٣) . وهكذا يعدم التاريخ الحقيقي ، تاريخ الشعوب ، والحضارة التي شيدوها ، شنقا أو إغتيالا

إن الايدولوجيا السيدة تستمد قوتها ونورها المضلل ، وبريقها الخادع من العمل المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف والذي يجهل الراحة ، ولا يفكر فيها ، كما لا يقارن زمنها بزمن العمل الذي يتندى فيه جسده عرقا ، ويرهق فيه ذهنه تفكيرا ، ولا يدر هذا العمل على العامل / الموظف سوى التلف ، ولا « يرد عليه » أصحاب وسائل الانتاج المتحمسون للخطاب المؤدلج « رزقه » .

الراحة حق من حقوق كل انسان .

لن يتنازل المؤدلج عن شيء أعمته الايديولوجيا التعتيمية عن رؤيته . فقوتها مستعارة من قوته ، ونورها مقتبس من نوره فأصبحت قوته من « قوتها » ونوره من « نورها » . ولأجل هذا ولتنوير الظلامية الكامن في نورها الخادع يدعو السارد القارىء لدراسة الموظف / العامل دراسة اقتصاد ـ اجتماع ـ نفسية كي يتعرف هذا الاخير على واقعه وليغيره ويعمل على تغييره ، وتغيير وضعية العمال التي ستغير وضعيته . لا يزال الموظف لغزا محيرا ، ومستعصيا على الدراسة التي تقتضي تضافر الجهود لينفرد كل دارس بزاوية وحسب اختصاصه .

« وحضرة المحترم » تدرس وفق اختصاصها الابداعي الروائي وعي الموظف نفسه وهو بنية فوقية صغيرة شكلتها الايديولوجيا السيدة البنية الفوقية الكبيرة التي تشكلها معا البنية التحتية المختارة .

لايمكن للبنية الفوقية المؤدلجة أن تنقد ذاتها إلا إذا وعت ذاتها ووعت الأيديولوجيا السيدة والبنية التحتية المتوحدة في كل أبعادها ، وقارنتها بالبنيات التحتية المناقضة لها .

لا نريد هنا إعادة القول في العلاقة الجدلية بين المادة والفكر .

لن يغير الفكر الواقع إلا إذا كان واعيا به ، وبالفكر الناتج عن الواقع أي ان يعي الفكر ذاته وأن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه الذي يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه .

يقول السارد بأسلوب المحكي الذاتي المجلوب في خطاب تتعانق فيه الايديولوجيا الحرة والايديولوجيا السيدة : « وقال لنفسه إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . والموظف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربا أو سياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو في مصر الموظف . وإن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا أب موظف متقاعد الى ابن موظف ناشىء . وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية ، ووادينا وادي فلاحين طيبين يمنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رؤوسهم ترتفع لدى انتظامها في سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون إلى فوق إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة في السماء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحي وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء .... » (ص ١١٣)

إذا كانت الشخصية والفلاحون يقدسون الوظيفة إلى حد عبادة الموظفين « الكبار » ، فإن السارد يجل الفلاحين ويمجد الأرض ويعظمها ويكن لها كل التقدير . ولكل من السارد والشخصية أحكامه التقويمية . فالسارد يحكم على الفلاحين والأرض بالصفة التي يحددها النعت التخصيصي الذي يفضل قيمة من بين القيم الأخرى : الطيبين ـ الطيبة . أما الشخصية فهي تحكم على الوظيفة بالأحكام التقويمية الأخلاقية ، والتقنية ، والمعرفية ، والنفسية ، والعقائدية : خدمة للناس ـ حق للكفاءة ـ واجب للضمير الحي ـ كبرياء للذات البشرية ـ عبادة الله ـ وفق معايير الخدمة وعدمها ، للناس أو للحيوان والأشياء ، الحق او غيره ، الكفاءة أو العجز ، الواجب أو غيره ، الضمير وعدم الضمير ، الحي أو الميت ، الكبرياء أو الدناءة ، العبادة أو الكفر ، الله أو الشيطان . ويبدو أيضا أثر الأيديولوجيا في تاريخ الموظف الذي يحكم عليه حكما قيميا وفق معيار الجدة والقدم ، والواقع والمثال ، وجود التعاليم وانعدامها ، أخلاقية وغير أخلاقية ، والتعيين أو الانتظار ، الالهي أو الشيطاني ، الالهي أو الانساني ، الطقوس أو غيابها الدينية أو غير الدينية ، إدارية أو لا

إدارية ، مالية أو غير مالية ، منظمة أو فوضوية : أقدم موظف في تاريخ الحضارة ـ المثل الأعلى ـ التعاليم الأخلاقية الاولى وصايا موظف ـ فرعون موظف ـ معين من قبل الآلهة ـ طقوس دينية ـ تعاليم إدارية مالية ـ تنظيمية . وأن الفلاحين / الموظفين يتطلعون إلى فوق مما يدل على أن هناك (تحت) و (فوق) بل توجد كل الثنائيات التي ينبغي تدمير قلاعها وحصونها . والسارد يدعو الى أن تقام البحوث حول الموظف لمعرفة واقع الوظيفة ، ولادراك أنها مقدسة دون سائر الوظائف ، وأنها تتبع النظام الوراثي منذ الفراعنة . ولو استحضرنا علائق الغياب في ذاكرتنا عن فرعون ، وعن تجبره ، وطغيانه وتألهه ، واستبداده الذي سكت عنه الخطاب المؤدلج واكتفى بالاشارة الى نظمه كالنظام الاقتصادي المتدهور الذي يتخذ الدين والأخلاق ايديولوجيا سائدة للاستغلال ، لاكتملت لدينا دلالات علائق الحضور في الجملة الخاصة بفرعون ، ولأدركنا أن التاريخ يعيد نفسه بصورة أبشع . وتتمظهر إيدولوجيا السارد المتمثلة في الحذف ، والبياض الذي تركه مفضلا الصمت والسكوت . يتجلى الحذف في قوله : « إن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا » حيث حذف « لنا » بين حفظها والتاريخ لأنه يرغب في أن تحفظ لنا . ويتجلى صمته وسكوته عما يشبه هذا القول : « كما يحدث في مصر الآنه الذي كان بإمكانه أن يأتي بعد الجملة التي تحدثت عن فرعون في حذف هذا القول . ويبقى الصمت مستمرا إلى أن جاء يوسف القعيد فمزق الكمامة ليجهر في حرية واستقلال بهذا القول عنوانا لرائعته « يحدث في مصر الآن » . أما السارد « حضرة المحترم » فهو يقفز على الثغرة التي أحدثها في المقطع السردي إلى وصف الفلاحين الذين ينحنون لتمتطي الحكومة ظهورهم ، ويركعون لها لتأليههم إياها بدل الانحناء إجلالا وإكبارا للأرض الجديرة به .

إن الارض إلهة كل الآلهة تحت الشمس .

ما أحوج الوظيفة إلى عبادة الأرض وتقديسها !

والفلاحون في استهاماتهم المقدسة (بالكسر) للوظيفة والمؤدلجهم يتوقون إلى المستحيل ، والأسطوري في يوتوبيا تنسيهم الممكن / الأرض / الواقع / الانسان / الجميع ، وتشخص أبصارهم إلى « المناصب العليا » كما تشخص إلى اله الخلود . لو كانوا غير مؤدلجين لعلموا أن أصحاب « المناصب العليا » أقزام لا حول ولا قوة لهم إلا قوة الفلاحين ، والعمال ، والموظفين ، والحرفيين ، والصناع ، والعاملين ـ باختصار ـ كل عمل باليد والفكر ، وقوة الأرض ، وثروتها هو الذي يمجد المناصب ، ورواتبها ، ولزهدوا في هذه المناصب ، ولسخروا من الموظفين « الكبار » الذين يعيشون عالة على الفلاحين وغيرهم .

إن قوة الشعب هي قوة الحكومة .

إنها حكومة لرقم ثانيا .

إن الشعب هو الدولة في الحقيقة والواقع .

إذا يخلت الأرض فلتقم على التعب والوظيفة والتأثم .

إذا انتزعت الأرض عنوة أو مراوغة عن طريق الضرائب ، والغلاء ، والزيادة في الأسعار وفي ساعات العمل ، فالنضال حتمي لاسترجاعها فورا .

إن الصعود في ذلك المقطع السردي مجازي يعني صعود الأرواح / النفوس إلى السماء قبل أوانها وقبل موت الجسد حسب ثنائية الروح والجسد . وهو أمر مستحيل إذا تحطمت هذه الثنائية ، إنه صعود مبكر وغير طبيعي ناتج عما عاناه صاحبه من عذاب ومرارة وشقاء الجري وراء السراب . إنه بلغة مجازية موت مستعجل رغم حركة الأجساد بغية تحقيق الآمال الخادعة ، والأماني الضائعة . ووجهة نظر الشخصية المؤدلجة (المؤدلجة غير لوجهة النظر) تنم عن رؤيتها الاحادية

إلى الوظيفة . إنها تعتبر العمل منفصلا عن الراحة بكل ما تحمل كلمة « راحة » من شحنات دلالية ، وتعد الراحة منفصلة عن العمل مما يجعل الرؤية موسومة بالثنائية حتى . تتجلى هذه الثنائية في ورقة العمل التي اتخذتها الشخصية دستورا وشعارا لها ومشروعا لسلوكها المستقبلي . إنه نص يطفح بالعلائق الاستبدالية اللغوية الدالة على التراكيب إذ يسود فيها جذر العمل وغياب الراحة . لا وجود ولو لاشارة بسيطة إلى الراحة ، والتسلية ، والعبث الجاد أو الجد العابث ، والاقبال على الحياة والحب . إنه نص تنبثق منه العقلانية المعايشة لتعبيره ، والكاشفة عن حضورها المكثف والمستقر في وعي الشخصية كما تنبجس منه البراجماتية والايديولوجيا القاتلة والبخيلة التي لا « نفع » فيها ولا « متعة » ترجى منها لأنها تشغل الفرد الذي يقضي عمره في دراسة لنيل شهادة التخرج إلى الشارع أو القبر قسرا لا اختيارا تاليه التضحية والتموقف من أجل الجميع أو في سبيل الانسان :

١ ـ القيام بالواجب بدقة .

٢ ـ دراسة اللائحة المالية التي يشار اليها وكأنها كتاب مقدس .

٣ ـ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .

٤ ـ دراسة خاصة للغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى العربية .

٥ ـ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .

٦ ـ الاعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادي في عملي .

٧ ـ العمل على كسب ثقة الرؤساء وحبهم .

٨ ـ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذي شأن ، صداقة مفيدة زواجاً موفقاً من شأنه تمهيد الطريق للتقدم » (ص ١٥) .

يعبر هذا النص عن أن « حضرة المحترم » تقدم بنية ملتحمة ، فعلى مستوى الحكاية ، فان سلوكه الشخصية يخضع بحرفية بلهاء للخطاب الايديولوجي الرسمي الذي جاء في صيغة الاشارة التي سبق ذكرها . فهي تسير وفقه في تفكيرها ، وتصورها ، ومعرفتها ، ورؤيتها للتاريخ ، والاقتصاد ، والدولة ، والدين ، والعمل / الوظيفة . . . وعلى مستوى المحكي ، فهذا الشعار في العمل والحياة » وكما يتجلى ذلك من بنوده الثمانية التي تطابق عدد الدرجات الثماني المسطرة في الاشارة المؤدلجة والباعثة على التأدلج ، تفريع عن الاشارة المؤدلجة منسجم معها كباقي التفريعات التي ستليها في شكل مقاطع سردية ، وحوارات ، ومحكيات وأوصاف ، ووجهات نظر السارد والشخصيات التي يوزعها تجيب أيضاً بتقيد هندسية معمارية ورياضية وفق عدد ٨ ، فالشخصيات / النساء ثمان :

١ ـ أم حسني .
٢ ـ سيدة .
٣ ـ قدرية .
٤ ـ ست سنية .
٥ ـ أصيلة الناظرة .
٦ ـ أنسية رمضان .
٧ ـ إحسان إبراهيم .
٨ ـ راضية عبد الخالق ، والشخصيات / الرجال كذلك ثمان :

١ ـ سعفان بسيوني .
٢ ـ حمزة السويفي .
٣ ـ بهجت نور .
٤ ـ حسين جميل .
٥ ـ إسماعيل قاقة .

٦ ـ عبد الله وجدي .

٧ ـ مهندس .

٨ ـ طبيب .

وسيلتقي عثمان بيومي ، ويتحاور ، ويدلي بوجهات نظره وفق وجهات نظر هذه الشخصيات بالتبادل لتداخل الشخصيات / النساء بالشخصيات الرجال بناء عليها تتغير فصول الرواية .

إن النادلج معايش لهذه الورقة ونستشف ذلك من المقلانية الأخلاقية التي تقسر الفرد على تقديم الواجب وتوبيخه على إهماله فغدا ذلك معياراً يقوم من خلاله : **القيام بالواجب** ، ومن خلال معيار معرفة أو جهل التقنية : **بدقة** ، ومعيار الأمانة والخيانة : **بأمانة** ، ومقياس التقديس والتدنيس : تقديس الوثيقة المالية ، وقاعدة الوقاحة والليونة ، وسيلة مهذبة ، وقانون الأخلاقيات : تديني ـ خلقي ـ الكرامة ، والعرفية حسب قاعدة العلمي والأدبي : مساعدة أدبية ، وضابط النجاح والفشل : زواج موفق ، وسنة التقدم والتخلف : **طريق التقدم** ، ومحك الثقة وعدم الثقة : **ثقة** ، والحب والكراهية : **محبتهم** .

أما قاعدة العمل فهي التي تهيمن على المشروع .

إن إحدى مقولات سارتر هي أن الانسان مشروع . ولكنه يمكن أن يكون مشروعاً لمشروع لم يختره بكامل الحرية والوعي . وسيمارس حريته ووعيه عندما سينظر في مشروعه نظرة ناقدة تجعله يميز بين مشروعه كانسان حر ومشروع غيره الذي يستعبده .

وبيومي ليس بمشروعه كانسان مستقل بل هو مشروع غيره . إنه مستعبد من طرف المشروع الأيديولوجي المسيطر الذي يخضع الناس للعمل فقط : **ورقة عمل ـ القيام ب ـ دراسة (ثلاث مرات) ـ التزود ـ يعملون من منازلهم ـ اجتهادي في عملي ـ العمل على ـ مساعدة ـ تقدم . . .**

ومعيار الربح والخسارة : **الحصول ـ المفيدة ـ كسب ـ الاستفادة ـ الفرص المفيدة ـ صداقة مفيدة** ، والطابو TABOU الخاضع لمعيار المعرفة العقلية والعليا : **الشهادة العليا** . والغاية منها هي الترقية . والظل الذي ينوب عن الترقية وفتات الترقية هي الشهادة التي يفوق مجهودها مقابلها المادي ، إلى حد الزهد في الجانب الأساسي وهو الحياة والانسياق وراء التفكير في الذات الفردية المؤدلجة وطموحاتها الزائفة ما دامت بعيدة عن قضايا الناس جميعاً :

« ـ هل ما زال ينقصك تعليم ؟

ـ الشهادة العليا .

ـ لماذا ؟

ـ مساعدة لا بأس بها للترقي » (ص : ١٨ ـ ١٩) .

ويختزل معنى حياة الشخصية في الوظيفة ، في العمل « المقدس » . فالعمل في نظرها كوني ، إنه يعني الإله ، والحكومة وذاتها الواحدة والوحدة المجسدة لروح الإله .

إن الأيديولوجية الرسمية هي التي تتحدث عبر ذات الشخصية سواء بصيغة المناجاة أو بصيغة المحكي الذاتي المجلوب والتلقائي ، أو في حوارها مع باقي الشخصيات وعرض وجهات نظرها . إن الشخصية مبشرة بها وتستند ، دون وعي منها ، إليها في كل اتصال تقيمه مع غيرها . وهي نموذج للمؤدلجين الذين يتم التواصل بينهم لتوحدهم ووحدتهم وانحلالهم اللاواعي تحت ظل وحدة الخطاب المؤدلج (بالفتح وبالكسر) بنفاذه إلى ذهنياتهم كما فرق بينهم لدعوته الرومانسية والفردانية والمثالية فأمسوا ذواتاً متشظية كل واحدة تسير في طريقها الخاص كالكواكب المتباعدة محاولة تأكيد الذات التي ألغتها الأيديولوجيا الرسمية بتأكيد ذاتها هي . وكل تأكيد للذات ما هو إلا تقليد جديد لذاتها في صورة تقليد للفرد / الإله كما حدث ذلك لجوليان

سوريل في رواية استندال « الأحمر والأسود » : « قال إن حياة الانسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينبض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأديه الجهود والاخلاص والابداع . إنها مقدسة ودينية ، بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الانسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا » (ص ٢٢) . وهذا مقطع سردي مؤدلج يدعن لمعيار الحياة والموت ، الحياة الخاصة أو العامة ، الخفقان أو الخمود ، الجهد أو الخمول ، الاخلاص أو الغش ، الابتكار أو التقليد ، التقديس أو التدنيس ، التدين أو الكفر ، تحقق الذات الجماعية أو الفردية ، الجهاز المقدس أو المدنس ، الدولة أو الشعب ، جلال أو انحطاط ، الكلمة العليا أو الدنيا .

وتأكيداً لذات الفردية في الفكر المثالي والوعي الرومانسي المؤدلج يفضي بصاحبه الى جهل العلاقات البنيوية الاجتماعية التي تحقق تأكيد الذات تأكيداً اجتماعياً وإنسانياً ، ويؤدي به الى الكدح كالعبد في الاقطاعية والرأسمالية رغم الاختلاف الجذري الموجود بينه وبين العبد الذي كان جسده يلهب بالسياط ، ويكره على العمل ، ويجبر على إنجازه مهما كانت قساوته ، والآلام التي يسببها له ، فيتقبله مرغماً . أما المؤدلج فانه يتقبله « إختيارياً » أي برغمه الخطاب المؤدلج الذي استقر في ذهنه فغدا سجين هذا الخطاب ، وأسير نسقه والنسق الذي صدر منه الخطاب . إنه يشقى دون ضرب أو جلد وإنما برضى تام بوضعه المزري وهو لا يدرك مصدر الشقاء ، والتعب ، والحرمان ، والقلق الوجودي الذي يستشعره بين الفينة والفينة . به يفكر ، وبه يشعر ، وحسب قوانينه يسير في عزلته أو مع الآخرين . إنه لا يرى سوى العمل الشاق الذي لا ولن يستريح ما دام يعمل حتى في أماكن الراحة .

قال بعض الفلاسفة إننا لا نرى الأشياء إلا حسب تجاربنا . وهذا يعني أن العين زجاجة حسية وحاسة عضوية تربطنا بالعالم الخارجي . وإذا كانت التجارب هي التي تشكل بنيتنا الذهنية ، فهذا يعني أننا لا ندرك الأشياء كما هي ، وإنما نخلع عليها من تجاربنا ، من ذهنتنا ، من ذواتنا . إذن فالذهن هو الذي يرى الأشياء من خلال التجارب التي انطبعت على صفحته . والنسيان الذي يصاحب جدلياً عملية التذكر والتفكير هو الذي ينتخب مرجعاً أو موضوعاً من بين المراجع أو الموضوعات ليفكر بها . وإذا كان الخطاب الأيديولوجي السائد هو الذي يشكل بنيتنا الذهنية في جميع مراحل حياتنا التي لا تتجاوز ربع أو نصف قرن ، فاننا لن نتعامل مع العالم الخارجي إلا عبر هذه الذهنية ، وعن طريقها التي تقلب عملية الادراك . كان الخطاب المؤدلج ينفذ الى الذهن في السنين الأولى ، سنين التعلم التقليدي والمؤسساتي ، عبر زجاجة العين فتشكل إطاراً « ثقافياً » وتراكماً « معرفياً » ، فأصبح الذهن في مرحلة « النضج » يرسل الخطاب المؤدلج على العالم الخارجي كما ترسل الكاميرا الأشعة التي تتحول الى صور على الشاشة ، من خلال زجاجة العين ولكن الصور تعود اليك عبر العين فيعيدها الى العالم مؤدلجة وعبر عضو التعبير أيضاً / اللسان في شكل خطاب شفوي أو كتابي مؤدلج يتولد عن الخطاب الأول حاملاً سماته كالوليد الذي يحمل سمات الأب أو الأم أو هما معاً .

تتجلى سمات هذا الخطاب في خطاب بيومي الذي يعرض السارد وجهة نظره : « إنه يحتقر المواعظ التي تحث على الكسل ويعدها تجديفاً بذي الجلال » (ص ٣٧) فليس بيومي هو الذي يحتقر المواعظ التي تحث على الكسل / الراحة وإنما الأيديولوجيا السائدة التي شوهت الخطاب العقائدي عندما أثابته فيها ووجهته في اتجاهها . إننا لنصادفها معاً في كل مقطع سردي يصدر

عن يـومي المؤدلـج وإن اختلفت الصيغ مما يمنح الخطاب الروائي تماسكه واتساقه . و (ذي الجلال) كناية تشير إلى الإله الذي يتجسد في الفرد / الإله . ويخبرنا الراوي عن يـومي بصيغة المحكي الذاتي المجلوب المؤدلج الذي يطغى في « حضرة المحترم » على المحكي الذاتي التلقائي المؤدلج : « قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصير » (ص ٣٧) . طبعاً فوجهة النظر هذه تنسجم مع الخطاب المؤدلج بل هي تفريع آخر له وهي لا ترغب سوى في العمل المستمر الذي يشبه اللاعمل / البطالة لأن راحته لن تتحقق لا على المدى البعيد ولا على المدى القريب فتبقى الراحة هي اليوتوبيا والأسطورة المعاصرة التي تحتاج الى الطريق الذي يتسم وفق معيار ايديولوجي والذي يستند إلى قاعدة الطول والقصر ، والذي لا نهاية له لأنه ينسب إلى الارادة الالهية ، ولأنه يناسب حلم الدولة التي ترغب في أن تطول مدة حكمها ، وتحتجز وراثة الحكم إلى ما لا نهاية بابعاد الفكر والتفكير الذي سيتساءل : بمن يحكم ؟ في اللوراثيات والأساطير ، وهكذا تقسو الشخصية المؤدلجة على نفسها لأنها مغتربة عن ذاتها ، ومكونات وعيها ، وحاجاتها ، ولا تدرك العامل الاقتصادي المحدد للخطاب المؤدلج والكامن وراء قلقها ، وحيرتها . إنها تعمل / تموت في حين يحيا منتجو الخطاب المؤدلج لتبرير كسلهم ، وعدم إنتاجهم ، وراحتهم ، وترفهم ، ولذة عيشهم ، وفراغهم ، ومتعتهم ، وإقبالهم على الحياة اعتماداً على قوته المتجسدة في قوة عمله وقوة إنتاجه : « وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يخف ، ورسخت قدمه في عمله حتى شهد له سعفان بسيوني ـ رغم إخفاقه معه ـ بالمواظبة والكفاءة والاستقامة وكان يقول عنه :

ـ انه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفي أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . وهو يؤدي عمله . ويؤدي عن المتأخرين أعمالهم . فالكلام عن نجدته لا يقل عن الكلام عن قدرته » (ص ٣٧) . وهنا يشير السارد وفق أحكام قيمية تعتمد معايير القدرة والعجز ، والمعرفة والجهل ، والتقنية والتلفيقية ، وقواعد السلوك الأخلاقية كالتقدم والتأخر ، والرسوخ والتذبذب ، والمواظبة والتقاعس ، والكفاءة والعجز ، والحضور والغياب ، والعمل والراحة ، والاستقامة والشغب ، والانجاز والاهمال ، العبادة وتركها : وتقدم في كل شيء ـ ورسخت قدمه في عمله ـ الكفاءة ـ الاستقامة ـ أول الحاضرين آخر الذاهبين ـ في أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة ـ يؤدي عمله ـ يؤدي عن المتأخرين أعمالهم ـ نجدته ـ قدرته .

ويندمج في تصوره العمل بالعبادة كالأدلوجة (عبد الله العروي) ، ولو لم يترك له فرصة للعبادة الحق ، بل لا داعي لها إذا كان العمل عبادة حسب الدلالة العايشة لهذا القول : « ـ لا يخلو عمل الانسان من عبادة » (ص ٣٨)

وعثمان بيومي لا يعد ولو موظفاً بل يعد خادماً للرؤساء بل عبداً لهم . والطرق المؤدية إلى المناصب « العليا » تنفتت حسب معايير الطول والقصر ، والأهمية والتفاهة ، والشرف والدناءة ، والفائدة والخسارة ، والتقدير والتحقير ، والخدمة والتمرد ، والاذعان والتموقف . والسارد يرفض هذه المعايير وهذا الخنوع المفرط الذي يسلب الشخصية كينونتها . ويشير خطاب بيومي الى ذلك .

لكل كلمة نقيض حتى كلمة نقيض ذاتها .

اختر كلمتك ولا تدع الكلمة تختارك أو تختار من خلالك .

يحكي السارد عن بيومي قائلاً : « إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا ، إن عمله في الادارة ـ على ضخامته وتقدير الجميع له ـ لن يكفي وحده ، فلا أقل من تقديم

الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وقواته الشريفة ، ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس الى ما يطمح اليه . ولكنه عزاء يتزود به في طريقه الطويل » (ص ٥٩) - لن نتحدث من الآن فصاعدا عن التفريعات لأن كل خطاب هو تفريع لخطاب سابق حتى نهاية الرواية - لا تقف وجهة نظر بيومي عند هذا الحد ، بل تتعداه الى مستوى اختيار العمل مرادفاً للبطولة . ما البطولة ؟ .

إنها معيار تتجلى فيه التراتبية بين البطل واللا بطل في عصر الأيديولوجيا اللا بطلة . إن البطولة التي يقيمها بقيمة تعود إلى معيار الحق والباطل ، هي التسابق ، والتنافس ، والتناحر على المناصب العمل كي لا تقف عجلة الآلة المنتجة واليد التي تسيرها ، ووسائل الانتاج المنتجة بشكل من الأشكال عن العمل بالاضراب عنه والذي يأتي كاجابة منطقية عن السؤال :

لن تعمل ؟

والذي يؤدي الى توقف الانتاج ، والمفضي الى انهيار هرم الربح ، ونقلص القبض ، وانحطاط الجاه ، وإضعاف القوة ، وإزالة السلطة ، وأنسنة الآلهة ، وإطفاء الاستثارة ، ويشيء تفكير الطبقة العاملة في الحركة في اتجاه الوعي الممكن ، وانتاج خطاب أيديولجي بطل معايش للواقع المعيشي . إن الأيديولوجيا اللا بطلة تدفع بالفرد المؤدلج إلى الزهد في الحياة ، والنظر اليها من خلال الموت العاجل الذي لا يعيه ، ومن خلال الوعود بأن التعويض سيكون في العالم الآخر . والمحصلة هي الخيال الملهي عن المادي والواقعي الذي يحتاجه الفرد في هذا العالم .

حتى وعود العالم الآخر في الحقيقة والواقع هي وعود من أجل هذا العالم هناك علاقة جدلية بين العالمين . يكفي استبدال الإله بالجميع لأنه يحث في « خطابه » على الاهتمام بالجميع .

وخير تعريف صادق يحدد هوية مثل هذه الشخصية المؤدلجة هو ما قاله عن نفسها كاذبة :

- إن الأيديولوجيا السائدة لا تكون صادقة إلا حينما تكشف عن كذبها الذي تعتبره صادقاً -

« ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور في ساقية . . . » (ص ٣١ - ٣٢) .

« - لا خير في هذه هي الحقيقة . . . » (ص ١٠٠) .

« - لا يحرك منظري فمرضي ليس في القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماماً عن الزواج » (ص ١٠٥) .

وداعية الأيديولوجيا السيدة هذا يرفض الى حد الحنق واليأس ، بناء على قاعدة الإيمان والكفر الحقيقيين أو الزائفين ، الراحة حتى حينما يحيق به المرض أو يشرف على الهلاك كما يتضح ذلك من حواره مع الطبيب البطل الذي يتحدث نيابة عن السارد البطل معارضاً آراء بيومي المؤدلجة :

« - ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعباً . إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئاً آخر ، يلزمك راحة تامة ، شهر على الأقل .

هتف :

- شهر !

- وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غداً . .

وجمع أدواته في حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول :

- احفظ كلامي عن ظهر قلب . .

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة » (ص ١٤٩) (. . .)

« ولكن الطبيب قال له :

- ما يهمني هو صحتك لا وظيفتك !

(. . .)

ـ الزمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها . .

ـ لم أسمع بذلك من قبل . . » (ص ١٥٧) .

إن الأيديولوجيا السائدة ضد العلم الذي يدرس الظاهرة وما يحقق استمرارها ويصارع ما يسعى في انهيارها ، وهي تنظر الى الظاهرة من زاوية عقائدية غير علمية . أما أيديولوجيا السارد المستقلة فهي تقرن العمل بالراحة ولو الراحة التي تواكب الزمن الموضوعي ، والزمن الكوني ، والطبيعي ، وأن يقترن بالراتب الموفر والمحقق لراحة العمل ، وراحة الجسد ، وراحة حاجيات المرض ومقتضياته ، وراحة حاجيات العافية ، كما تريد من العمل أن يتوقف ، على الأقل ، وكمرحلة أولى ، حسب توقف النهار والليل ، والبرودة والحرارة تبعاً لظروف المناخ التي تسمح بالعمل إن وجد . تعبر هذه الأيديولوجيا المستقلة عن نفسها من خلال وجهة نظر السارد : « إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم » (ص ١٠) .

ويبومي لا يتناقض مع ذاته عبر طول الرواية . فطموحه كما حددته له الأيديولوجية السائدة لا يتغير وإن تغير التعبير عنه ولا يتغير الطريق الذي رسمته له . فهو يصر على المضي فيه : « وظل على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالي . وقال إن العجز أحياناً عن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة » (ص ١٥٨) . ويعكس هذا الخطاب المعايير الأخلاقية المنحدرة عن تأدلج بيومي للتالي الذي يجهل في طموحاته الفردية طبيعة الجسد وواقعيته في حاجياته عبر مراحل العمر : إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ـ الحياة الشاقة المقدسة ـ الجهاد والعذاب ـ الأمل البعيد المتعالي ـ العجز (. . .) لا يزعزع الثقة به ـ ولا المرض ـ ولا الموت نفسه ـ الاصرار على المضي نحوه ـ وجود النبل والمعنى في الحياة .

وما فعلته الأيديولوجيا السائدة في سرياليتها القانونية بالتاريخ تفعله بالأدب . إنها تجرده من وظيفته المعرفية ، والتعبيرية ، والتحريرية ، والفلسفية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والانسانية ، ومن مخالفته لها واختلافه عنها ، ومفارقته ، ومناقضته لها وافتراقه عنها . قال « كاتب » في ظل الأيديولوجيا المسيطرة من الكتبة ، من المتشيئين ، ووسيلة من وسائل إنتاجها دون أن يعي ذلك أو يشعر به ، ويصبح تاجاً في علائق الانتاج ، ويضحي ما كتبه أداة لترويج خطابها ، وسلعة كاسدة في سوقها الذي يحاول احتضان باقي الفنون غير المؤدلجة . ويعرض الراوي هنا مستوى الشخصية المعرفي ، وقدرتها الجمالية في الكتابة والتي يبين التطلع رؤيتها على هيكل المعرفية ، والسلفية : « واهتم بالشعر خاصة ، وحفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، إنه لخسران فادح أن يفشل في نظمه ، ولكنه على أي حال خير طريق لاتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المنشود ، والأسلوب الجزل مطلوب ، فليه يحدثه بذلك ، واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع تلك المعارف مفيدة ، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية، فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف » (ص ٢٣) . إن « معرفة » بيومي لا تنحصر في الشعر فحسب كمعرفة ذاكرية كالراوية الذي يرافق الشاعر ، يحفظ عنه ما يقوله ويردده أو كالنظام الذي ينعدم عنده حس الابداع ، والقدرة في الابتكار ، والخلق الشعري لغياب العواطف ، والاحساسات ، والانفعال النفسي المرهف الذي يحرك خوالج النفس

لاتصال الشاعر بالعالم وتناقضاته ، وإمساكه بقضايا الناس ، ويستند ذلك عند بيومي الى معايير المعرفة والجهل ، والاهتمام والاهمال ، والحفظ وعدم الحفظ ، والقلة والكثرة ، والشعر والنظم ، والنجاح والفشل : **أهتم بالشعر - حفظ منه الكثير - حاول نظمه ولكنه فشل -** ، ورؤيته الى الشعر رؤية تقليدية تخدم الأيديولوجيا السائدة تأسيساً على معايير الوسيلة أو عدم الوسيلة ، التقرب أو الابتعاد ، الكبراء أو الصغراء ، التألق أو عدم التألق ، الاحتفال أو عدمه ، الرسمي أو العادي : **إن الشعر كان وما يزال وسيلة للتقرب من الكبراء - التألق في الحفلات الرسمية** ، بل تمتد حتى الى النثر . وهو يستفيد من الشعر ليسرع في النثر / الخطابة . ومعرفته التقنية في الكتابة / الانشاء معرفة تتأسس على معايير محافظة كالمثانة والليونة كما يتضح ذلك من المصطلح النقدي التقليدي : الأسلوب الجزل ، ومعيار معرفة اللغة العربية والأجنبية ، والنفعية والوصولية : **إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء - جميع تلك المعارف مفيدة - ترتفع قيمتها في بورصة المضاربات البلهوانية** . إن عثمان بيومي امتداد للشاعر القديم البوق ، والداعية والمبشر ، والمقلد ، والوصولي الذي فقد شخصيته ، وسلبت منه كينونته وذابت في كينونة الممدوح ، ولم يبق منه سوى المظهر . ذهب الانسان وبقي اللا إنسان الذي يتحرك كالآلة التي تخضع للتوجيه المسبق . إن الركام المعرفي الماضوي لدى الشخصية المؤدلجة ينبع من / يصب كله في الأيديولوجيا المتحكمة في النفسيات ، فتشل الفكر كما تشل العنكبوت كل حشرة تدخل في مجال نسيجها ، فتبتلعها . إنها تؤجل بهذا الصنيع الوعي الممكن / الحياة ، وتستعجل الوعي المستحيل / الموت .

والأدب في مفهوم السارد في التراكم المعرفي الواسع فن كجميع الفنون ويحتضن عدة أجناس أدبية ، وهو إنساني ، ولا ينفصل في مضمونه عن الحياة ، والحرية المسؤولة . وهو كلام مقدس كالانسان وهو ألصق به ، بل هو الذي يميزه عن سائر الكائنات . فهو منه وإليه . لا يرمى به عند قدم أي صنم أو إله .

لا تفضيل بين الأجناس الأدبية .

كلها تتيح للانسان فرصة التعبير الحر عن قضاياه ، وحرية إبداع أشكال جديدة .

يتناول السارد عمل بيومي ، ومعرفته وتقنيته الشكلية ، وركامه المعرفي الضيق . وينظر بيومي إلى كل ذلك نظرته إلى الأشياء المطلوبة وفق قواعد نفعية في غياب المتعة التي يشير اليها بجمال الحجرة الضيق كمجاز عن ضيق الشخصية النفسي والمعيشي والحياتي : « كان يعمل بجنون في الوزارة ، ويتبحر في المعرفة في حجرته الصغيرة » (ص ٤٦) . إنه موظف محروم من الفضاء الكافي سواء في الوزارة أو في منزله حيث يسبقه العمل إليه ويسخر منه : « ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله وليزيدبالتالي من مدخراته . ونجح في ذلك نجاحاً لا بأس به » (ص ٤٧) ، وعمل الترجمة يخضع لمعيار بيومي في الزيادة والنقصان ، والانفاق والادخار ، والنجاح والفشل والذي يقوم بالجيد أو باللابأس به ، وتعدد أو قلة القدرات وفق معيار الاستطاعة والعجز .

« أهنئك على نجاحك الذي ينطق بتعدد قدراتك » (ص ٥٠) لا تطابق بين المجهود المبذول والمقابل المادي المخذول . إن الايديولوجيا المتحكمة هي العزاء الخيالي الذي يتمظهر في اللغة . لا يستهلك بيومي كتعويض عن القدرة الجمالية والأدبية الشكلية سوى الخطاب المؤدلج منذ بداية حياته الى نهايتها ، ذلك الخطاب الذي يتغير أسلوبه ولغته وفق النظام النسقي الدال على أحكام القيمة المؤدلجة (بالفتح والكسر) التالية :

١ ـ أبدى اعجابه : أبدى سعادة المدير اعجابه بأسلوبك في الترجمة (ص ٥٨) .

٢ ـ ممتاز : « دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟ » (ص ٥٨ ـ ٥٩) .

٣ ـ جيد : « أسلوبك جيد » (ص ٦٤) .

٤ ـ مما تغبط عليه « أما أسلوبك فمما تغبط عليه » (ص ٦٦) .

٥ ـ فذ حقا « يهمني أن تراجع الأسلوب : أسلوبك فذ حقا . . (ص ٨١) .

٦ ـ مجرد ابتسامة يحظى بها : « وحظي ـ عند كل لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها المقربون » (ص ٨١) .

ولاغترار بيومي بالابتسامة كحظوة ، فإنه سيرضخ خانعا ، ذليلا ، قانعا ، مقموعا ، لاستغلال أكثر بشاعة وأكثر تدليلا وادلجة .

أ ـ سيعمل على مراجعة أسلوب لا مضمون أو محتوى كتاب ضخم سيستغرق فيه مدة شهر كامل .

ب ـ سيعزز بل سيعمل على تحذير الايديولوجيا السائدة من وجهة نظر تاريخية ماضوية :

« هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديوي اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام ! نظر عثمان الى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

يهمني أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا .

تلقى التكليف بسعادة شاملة . وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة ، وفي شهر واحد أعاده الى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة ، بذلك قدم الخدمة التي تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا (ص ٨١) . وهكذا يغترب عنه عمله الذي قرره في ورقة عمل مشروع حياته المؤدلج ، بعد أن مارسه وأنجزه ، واغترب هو أيضا عن عمله فضاعت مجهوداته كلها هباء . وما حدث له في المراجعة يحدث له في إعداد مشروع الميزانية : « أما هو فكرس كل قواه لاعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ، ومتابعة المعلومات المطلوبة من ادارة الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . . وأعد المشروع مقدمة مثالية حازت اعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين » (ص ٨٠) . إن هذا المقطع السردي يعرض قدرة بيومي التقنية الادارية ، والتنظيمية ، والمعرفية ، والبيانية ، والكتابية ، في إصدار الفتاوي ، وتفوقه ، وانتصاره لتجربته ، وخبرته المشفوعة بالعلم والمعرفة في الشؤون الادارية الحكومية وفق معايير النظام والفوضى ، والدقة والملاحظة العابرة ، والكمال والنقص ، والخطأ والصواب ، والعلم والجهل ، والمثالية الواقعية ، والاعجاب والنفور ، والقمة والحضيض ، والانتصار والانهزام ، والخفاء والتجلي ـ ومع ذلك يحيق به القلق الذي ينخر ما تبقى من قواه لأن الترقية بطيئة تعاكسها سرعة الموت التي يحمل جسده الشوك بطرقها القاتلة أكثر من أجساد غير المؤدلجين . لاعتبار بيومي وكأنه لا وجود له . إنه مشيأ . قوة عمله هي التي تحظى بالاعتبار . يشيأ ثم يهمل كشيء لا نفع فيه في مكان غير لائق به : « كل هذا يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفاني الجليل ؟ ألم يعلموا بأنه انسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائقة في الادارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشؤون الحكومية ؟ خبرة نيرة منزوية في وظيفة وكيل ثان للادارة كأنها مصباح كهربائي قوة خمسمائة شمعة ثبت في جدار مرحاض زاوية بقرية (ص ١١٣) . والأحكام التقويمية هنا تستند الى قاعدة الخارق والمألوف ، والشافه

والجليل ، والعلم والجهل ، والعمل والبطالة أو الكسل ، والعادي والرسمي ، والعامة والخاصة ، والريادة والتقليد ، والنير والمظلم كما يبدو ذلك من الصفات التي حشرها السارد في هذا المقطع .

ان الصورة الأدبية أكثر الأشكال الأدبية أدبية وتعبيرا عن أيديولوجيا السارد المستقلة .

والصورة الأدبية في هذا المقطع السردي تجسم ، في تعدديه وغنى وثراء دلالاتها الخافة التي نحاول مقاربة بعضها ، ما يلي :

١ ـ التناقضات التي تسم مجتمع الايديولوجيا السائدة .

٢ ـ الضوء الذي يمكن أن ينير ساحة فسيحة الأرجاء يوضع في مكان قد تنيره شمعة واحدة ، هذا على مستوى المشبه به . أما على مستوى المشبه :

٣ ـ أن منتجي الايديولوجيا السائدة يستفيدون في صمت من معرفة غيرهم استفادة ناقصة لأن الطاقة المستفاد منها ليست في محلها المناسب لها كي تكون الاستفادة أكثر .

٤ ـ لا أحد يتلقى مكافأة مادية تناسب مجهوده .

٥ ـ الضياع مصير كل مؤدلج .

ومثل بيومي يوما فأجاب مجليا معرفته وتخومها الدالة على معرفة تختص بسير الشخصيات الجاهزة في فردانيتها التي تنسجم مع فردانيته ، وباللغات كلغات الهدف منها هو الترجمة .

« ماذا تقرأ ؟

ـ الأدب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية .

ـ هل لك قدرة على الترجمة ؟

ـ إني أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس .

(ص ٤٥) .

حتى الفلسفة تلونها الايديولوجيا الحربائية المعكوسة بلونها فتشجع فكرا وتهمل آخر ، وتعتني بفلسفة وتهمل أخرى مسخرة في ذلك كل قواها المادية والبشرية حتى ولو كان هذا الفكر خاصا بمفكر واحد ، وهذه الفلسفة خاصة بفيلسوف واحد . حتى الكتب السماوية تلحقها انتقائيتها . إنها تشوه في تقلبها الفلسفة التشويهية التي تمجد القوى الحقيقية لا القوى الضعيفة المستفيدة من القوى الحقيقية كي تجعل من ضعفها قوة ، وتستبدل عجزها إرادة وقوة موحدة ، ومتكتلة ، ومتضافرة ، ومتراصة ، وجماعية ، ونضالية . إن نيتشه لا يعتبر قوة فالفرد قوة بل ضعفا الى أن تنضم وتتضامن مع قوى الجماعة . يقول السارد عن فردانية بيومي حامل لواء الايديولوجيا السيدة « انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال » . (ص ٦٥ ـ ٦٦) . ان بيومي المؤدلج يؤمن إيمانا مزدوجا .

أ ـ ايمانا غيبيا .

ب ـ ايمانا أسطوريا .

فالايمان الاسطوري يتجلى في طموحه الى القوة والمجد الزائفين لأنهما فرديان ومستحيلان نظرا لهذه الفردية . فبيومي ليس في يده شيء كي يحافظ عليه سوى الخطاب الايديولوجي الذي ينظر الى الحياة والمجد ، والمحافظة والاستمرار من معيار القوة والضعف ، والايمان والكفر ، والفردوس والجحيم ، والنضال والانخذال الفردي أو الجماعي .

والايمان الغيبي ينسب الى الله الخلق من أجل القوة والمجد . وما الحياة سوى جسر الى الفردوس . وهذه وجهة نظر مؤدلجة أيضا ما دامت تدافع عما تدافع عنه الايديولوجيا السيدة من غيبيات وأساطير ، وما تشجعه من ذاتية وأنانية في الفرد المؤدلج الذي تغدو القوة في

واقع الأمر في تصوره أمرا سهلا مع أنه ضعيف في وحدته وعـزلته ، وتفـرده ، وأنه يخضـع لقوة الخـطاب الايديولوجي المهيمن وسلطته . ان بيومي تيولوجي يمجد العالم الآخر . انه العالم الدائم في نظره . وأن هذا العالم خلق من أجل ذاك . أما في فلسفة نيتشه الجدلي فالعالم الآخر خلق من أجل هذا العالم . لا بديل لهذه الحياة . فإن كانت هنا حياة كانت هنـاك حياة . وإن وجد هنا جحيم وجد هناك جحيم .

الموت من أجل هذه الحياة حياة في هذه وفي تلك .

لتحقق الحياة بإرادة القوة الجماعية .

ان الضعيف المندمج في قـوة الجماعـة قـوي .

والضعيف في عزلته مهما طلب القوة ضعيفا .

ان القوي اذا تخلت عنه الجماعة ضعيف .

حول ضعفك الى قوة لتحول القوى الى ضعف . في الجماعة يتحول ضعفك الى قوة .

ان السارد يدرك ، كميشال فوكو ، خطورة سلطة الخطاب الايديولوجي العقـلاني على حرية الاتصال الشعورية الطبيعية ، والبيولوجية والسلوك الناتج عنها . إنها تجعل شخصيته معقدة ، ومضطربة ، وضعيفة الى حـد التفسخ والاستـلاب والـلاانسـانية . انها تحسر انسانيتها الطبيعية واللاواعية والواقعية ، وتتعقد نفسيته وتتشـرخ ، وتتمزق ، وتفقـد التـوازن والانسجـام . وتجردها هـذه السلطة القمعية من بعـد الحياة في تعدديتها ، وعلويتها ، وجنونها ، وشغبها . وأي حياة يحياها السـائر في ظلامية التـأدلج ؟ هـل يجديه البكاء والحسرة ؟ يرحب السارد أيضا ، من زاوية فوكـوية ، بالجنون كمرادف للحياة بكل ملذاتها دون أن تتجـاوز ملذات الآخر . فالجنون هو الذي يهب الحياة غرابتها وحقيقتها ، وجوهرها ، وجمالها ، التي يعجز العقل ـ في غياب اللاعقل ـ عن تحقيقها . والجنون هو الذي يدمر صروح ، الأحاديات والثنائيات وقلاعها .

الجنون هو الحرمان من الجنون .

يدل على ذلك المأساة التي تستشعرهـا الشخصية الاشكـالية والتي تنبثق من التسـاؤلات التي جاءت في صيغة محكي ذاتي تطرح قضية تحديـدها بمصطلحات نقدية أكثر دقة . إذا اعتمدنا الجهاز المفاهيمي لدوريت كـون قلنا انها صيغـة محكي ذاتي مجلوب لأن النـاقـدة حددت تمظهرها في صيغة « قال لنفسه » أو ما في معناها ولم تول الاهتمام هنا الا الى الشخصية التي ينقل عنها السارد خطابها الى القارىء . إنها قدمت الشخصية عن السـارد دون أن تغفله . إنها تجاوزت البنيـوية الجنيتية برصد علاقة السـارد بالشخصيـة ورصد مـواقفها ولم تقتصر مثلها على علائق الشخصيـات وحدهـا . وقد سجلت أيضا التنافر والتناغم بين السـارد والشخصية . وفي المقطع السردي الذي سنسوقه فلن تخدعنا صيغة « قال لنفسه » التي يعرف بها المحكي الـذاتي المجلوب لأن السـارد لا يخليـ عن الشخصيـة خطابها بقـدر ما يسوق خطابه الذي يعبر عن وجهة نظره هـو . إنها صيغة المحكي الذاتي المتنافر أو المونولوج التلقائي للسارد في مقابل المونولوج التلقائي للشخصية ، وهو الذي لم تطلق عليه دوريت هذا المصطلح . « وقال لنفسه إنـه لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع للايمان والكفر ، للمجد والخزي ، للحب والخداع ، للصدق والكذب ، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟ كيف يشم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل ؟ (ص ١٥٦) . وهذا الجنـون ، في نسفه للثنائيات ، يشكل مع العقل وحدة والعقلانية المؤدلجة أو الايديولوجيا المعقلنة هي التي تراه بلا عقل في جنونها اللاعقلاني مع أنـه جنون عقـلاني . وكهيجلي متأخر ، يعتبر بيومي الوظيفة أساسا ودعامة في تشييـد صـرح الـدولة المقـدس وهي لا تتميـز عن الآلـة ، والعمل ، والحياة ، والموت في تصوره المؤدلج : « ان

الدولة هي معبد الله . وبقدر اجتهادنا فيها تتقرر مكانتنا في الدنيا والآخرة » (ص ١٦٩) . إنها الدولة التي تجسد الفكرة للطاقة لله الموجود - في نظره - في السماء اللامرئية . إنها الفكرة المجردة من التناقض ، إنها تامة وكاملة ولا تنتظر النقيض . إنها نهاية الجدلية ونهاية الحياة . إنها الموت ما دامت الدولة تمثل روح الله على الأرض ولا يمثلها الشعب المناضل .

ومن منظور لوكاتشي - هيجلي أيضا فإن بعض أفراد الشعب هم الذين يجسدون روح الله وليست الدولة . فلنقرأ بإمعان دقيق وتأمل عميق هذا الحوار الذي يمكن اعتباره بنية دالة لأنه يعبر عن الصراع النموذجي الذي تدور رحاه بين أيديولوجيتين يمكن اعتبار الأولى ، حسب النهج الجدلي ، أطروحة والثانية نقيضها القريب جدا والمرحلي لأن الثانية تبدو كامتداد للأولى ويشكلان معا التركيب الذي ينتظر أو يسعى الى التحول الى النقيض الجديد . فاعتبار الدولة من روح الله لا يختلف اختلافا جذريا عن اعتبار بعض أفراد الشعب من روح الله . والنقيض الجديد هو أن يكون عدد أفراد الشعب الذين يشخصون « روح الله » كبيرا وفي مستوى تحقيق التغيير والتحويل وتدمير ثنائية الروح والجسد المثالية . ان الاختلاف اللوكاتشي الهيجلي اختلاف ضروري ومرحلي ولو أن الهيجلية قائمة في كلا الاعتبارين ويدعمان معا الايديولوجيا المثالية السائدة . انها يعيدان خطابها السلطوي المؤسطر في رومانسية حالمة تقلب الحقائق الى أن يقيض لها ماركس فيقيمها على حقيقتها فيتحول ، نتيجة لذلك ، منظور لوكاش الى منظور لوكاتشي - ماركسي كنقيض جذري للهيجلية والهيجليين .

« الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الارض !

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدري مدى إيمانه ولا مضمونه .

قالت : إنه لمعنى جديد بالقياس الي ، ولكنني سمعت كثيرا أن روح الشعب من روح الله » (ص ١٤٧) .

والموقف اللوكاتشي - الماركسي هو موقف السارد الذي يؤمن ايمانا راسخا في أن وعي الشعب الممكن والواقعي بظروفه المادية والفكرية الواقعية هو الذي سيقوده ، من منظور مادي جدلي ، الى تغييرها بالتموقف منها .

الشخصية في علاقاتها بالشخصيات - الرجال :

ان السياسة لا تعد هما من هموم بيومي المؤدلج . انه لا يعتبرها علما بل لغوا وسفسطة وأوهاما ضائعة . إنه يتصور نفسه عالما . والمؤدلج أساس هذا التصور .

إن الحياة مظهر والاشياء كينونة .

إن الادلجة تخييم للوعي وتحجير للفكر .

إن المؤدلج قد قولب بيومي . إن فكره فكر جليدي ، لاهولي ، مثالي ، غير مادي وغير جدلي . في حديثه عن السياسيين يعيد الخطاب المؤدلج . لا رأي للشخصية المؤدلجة . فوجهة نظرها في مجال السياسة هي وجهة نظر ذلك الخطاب انه تصور الخطاب للسياسيين وتصور بيومي فرع من تصور الخطاب . والسارد في سرده للخطاب المؤدلج المتفرع عن الايديولوجيا السائدة يتماهى تماهيا متنافيا بالشخصية أو يتنافر وإياها كما يتضح ذلك من صيغ الخطاب الثلاث الآتية :

١ - بضمير الغائب .
٢ - بالمونولوج التلقائي .
٣ - بالمحكي الذاتي المجلوب .

وهي صيغ متباينة تجعل تماهي السارد بالشخصية في مستويين مختلفين :

أ ـ في الحكي بضمير الغائب وبالمونولوج الداخلي المجلوب يتم التناغم بين الشخصية والسارد .

ب ـ في الحكي بالمونولوج التلقائي الذي يتميز بالتساؤلات تستقل الشخصية بحديثها دون تدخل السارد رغم عدم وضع كلامها بين مزدوجتين . إنه الأسلوب الحر المباشر : « وفي أوقات الفراغ قربه اليه ، وأفضى اليه بخواطره حتى السياسة صارحة فيها برأيه وأهوائه . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الأعراض عن اهتمامه أو معالنته بحياده البارد الزاهد (. . .) عجيب استغراق الرجل في هذه الشؤون ، وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم اليها ؟ أليست لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ولكن قال لنفسه بازدراء غير قليل انهم الناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محددا ، وإيمانهم الديني ايمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من أجله . وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم في لغو وسفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغفلهم الأوهام ، ويمضي الزمان وهم لا يعملون » (ص ٢٥) . إذا كانت الشخصية المؤدلجة ذات الموقف الجليدي تعيد بببغاوية ساخرة الخطاب المؤدلج الساخر من السياسة والسياسيين تأسيسا على معايير الكفر والايمان ، والمعرفة والجهل ، والعمق والسطح في الايمان ، والتفكير وعدم التفكير ، والجد والعبث ، والقول والسفسطة ، والعمل والكسل ، والحقيقة والوهم ، فإن السارد ، على النقيض من ذلك ، يتموقف هادما أحكام القيمة ، وكل ثنائية . فما الحزب ، والاضراب ، والتموقف من الاحداث والايديولوجيا السائدة سوى مفاهيم وعي ممكن وواقعي .

الرواية فعل .

الرواية تموقف .

وفعله هذا في أنسنة الايديولوجيا السيدة فعل من يأخذ بلورة فيتتبع جميع تألقاتها اللانهائية ليسجل منها ما يراه كافيا لتوضيحها وإلقاء الاضواء على حقيقتها . انه يتتبع الشخصية الايديولوجيا السائدة في جميع مراحل حياتها الواقعية أو التي توهم بالواقع . « قال لنفسه ان الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه ، وهو يصر على عدم الاكتراث بها ، ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا ومصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الانسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه ، وبما يتطلبه في هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق في تخبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومته الموت حتى اللحظة الاخيرة . » (ص ٤٩) . إن بيومي يتهم ، في تأدلجه ، ذوي العقول المستقلة والأوعاء الحرة بالجنون كما اتهم بذلك الجماعات الثقافية التي تخرج عن المعايير ، وتخرق الضوابط ، وتزيغ عن التقليس وتنسف الثنائيات كلها . إن هذه الاحادية والثنائية في الرؤية الى العالم والذات في فردانية مؤدلجة هي التي اختزلت ركامه المعرفي وحصرته في نطاقها وفي دائرة الأنا فانطوت الذات على نفسها المؤدلجة . وهذه وجهة نظر السارد في الشخصية : « أجل انه منغمس دوما في الداخل ، في أفكار محدودة وخيالات تغذيها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا » (ص ١٤٦) وتتمظهر ايديولوجيا السارد المستقلة نسبيا في أحكامه التقويمية على الشخصية . وترتكز هذه الأحكام على معايير الانغماس والانبثاق ، والداخل والخارج ، والأفكار المحدودة والتي لا تخوم لها ، والخيالات الغريزية والمجردة التأملية ، في الله والشيطان ، والجد والهزل ، الدنيوي والأخروي ، والمقدس والمدنس ، والخير والشر في صراعهما وتصالحهما ، والفساد والصلاح ، والرؤية والعمى .

يمسك نجيب محفوظ في « حضرة المحترم » على واقع الوظيفة العمل في ظل الايديولوجيا القائمة ، وعلى واقع الفئة الاجتماعية المالكة لوسائل الانتاج والمنتجة للخطاب الايديولوجي القائم . والفئة المستغلة (بالفتح) تعتقد أنها متعزلة لا تؤثر ولا تتأثر .

كل وجود مؤثر ومتأثر بوجود وعدم .

كل محايد يبني مؤدلج .

لا وجود للاستقلال .

العزلة ، التفرد ، الحياد ، أوهام .

ان الفرد يمسه النظام الاقتصادي الموحي كما تمسه الايديولوجيا المبررة لهذا النظام أو ذاك ولو كان في مغارة أو تحت مياه البحر .

ان الهروب من السياسة سياسة .

اذا لم تكن سياسة مضادة فلقد كانت وما تزال سياسة قائمة .

إن السياسة ايديولوجيا والايديولوجيا سياسة .

« عرف الثورات ، ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان (. . .) واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا والهيا في آن واحد لا علاقة له في تصوره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة » (ص ٢١ - ٢٢) . هذه وجهة نظر السارد في بيومي الواهم والذي « يعرف » بل يجهل أن غايته لها علاقة بالسياسة والايديولوجيا السائدة هي التي جعلته ينظر اليها من خلالها . وايديولوجيا السارد المستقلة والمختفية وراءه هي المشاركة في النضال ، والوعي بالانتماء ، واختياره ، دون أن يفرض عليه ، بحرية ، والتموقف من الأحداث لانسانيته التي تهمها حقوق الجميع وحريته في ممارسة امكانياته ، ويذوب الانا في النحن . والنحن ليس المالك لوسائل الانتاج والمشتت للنحن العريض الذي نقصده الى أنوات متفرقة كأنا بيومي المنعزل في فردانيته التي تقتات من ذاته كقدرية : « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة الجميع . الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع » (ص ٧٨) . تتردد في هذا الخطاب المؤدلج الأقوال المبتذلة السائرة cliche.s: الاعتماد على النفس - شق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع - ووجهة نظر بيومي هذه تطفح بالثنائية بين الفرد والمجتمع واللاهوتية ، والفردانية : الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد الشيء الذي يبعده مسافات ومسافات عن وجهة نظر السارد الجدلية . الشخصية تقول « نعم » للايديولوجيا السائدة والسارد يقول لها « لا » . ومفهوم السياسة عند الشخصية المؤدلجة هو ما يحقق رغبتها الفردية العاجلة ، الجزئية ، والآنية ، والاصلاحية السطحية التي تشمل كل المجالات . وبيومي يريد أن يدرك بلا سياسة ما يدركه غيره لها كالمناصب العليا : « حفلة الاذاعة الأخيرة ، الأشعار ، صراع الأجيال (. . .) وما يدري الا وهم يتكلمون في السياسة ! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطرمة برموزها الرنانة : الحرية . . الديمقراطية . . الشعب . . الجماهير الكادحة . . المذاهب الثورية . . التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد . .

وقال لنفسه ان الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟ !

ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! حسن . . أي ثورة تضمن له الشفاء وانجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة ؟ ! » (ص ١٥٤) .

أيمكن لسياسة مؤدلجة أن تبحث عن سياسة ؟

ان بيومي يحكم على الصراعات السياسية وفقا لمعيار الاضطرام والخمود ، والرنة والهمس . ان الخطاب المؤدلج يشوه في حربائيته القلوبية كل خطاب . انه

يستخدم أيضا لغة الخطاب الايديولوجي النقيض الصادر عن الأحزاب السياسية والمعارضة ليعبر بسهولة الى أذهان المثقفين ليتأدلجوا ويقبلوا ، وليتحملوا ثلاث كوارث دفعة واحدة فوق كارثة التأدلج : الزيادة في الأسعار ، الزيادة في ساعات العمل ، تجميد الأجور . انه يراهن عليهم لا على المؤدلجين الذين يشكلون الأغلبية الساخطة والشاكين ، اعتمادا عليهم ، لا تستجيب الدولة لمطالب النقابات المعارضة . ويبدو أيضا تأدلج بيومي من تقييمه للصراعات السياسية تبعا لمعايير الأهمية والتفاهة ، والسعادة والشقاء ، والانسان والحيوان ، والأمل واليأس ، والحقيقة والحلم ، والقوة والضعف ، والجهل والمعرفة ، والوحدة والاختلاط . . « قطيع تائه في مراعي التعاسة يعلقون الأمل على الاحلام لضعف نفوسهم وجهلهم بمآل الوحدة عبادة . » (ص ١٥٤) .

ثانية : ما الأنانية ؟

كثيرا ما تمر بنا هذه البديهية ومع ذلك لا تدرك دلالاتها الحافة مثل الوحشية ، وإرادة القوة الفردية ، والتسابق ، والتنافس ، والاجرام ، وإرادة القتل نية أو فعلا .

النية تساوي الفعل . وحكم النية هو حكم الفعل . اذا نويت القتل فقد قتلت .

تعبر نية القتل عن ذاتها في الرواية في شكل مناجاة تلقائية بين النفس وذاتها لتأدلجها ، ولا يطلع عليها سوى السارد بحكم « الرؤية مع » التي تخول له التساوي ، والتطابق ، والتناغم مع الشخصية فضلا على تجربته الواسعة التي تسهل عليه التخييل ، والتصور ، والنفاذ الى نفسية الشخصية والتسلل الى وعيها لاستجلاء خفاياه . إن بيومي لأدلجته يتمنى - كي يحقق مطامحه المستحيلة - الموت لأحب الموظف ليحل محله ، وكي يحتل كرسيه لمصلحة شخصية تافهة هي

الترقية أو خيالية « المدير العام » وهو منصب سياسي أو حسيس : « لم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتهنيته بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجحود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الديني ، ومضى في طريقه لا يرى شيئا . وربما عنه تركز تفكيره في الدرجة الخاصة التي ستخلو بعد أيام . » (ص ٦٢) . ان هذا الوصف الدقيق لنفسية بيومي واحساساته وشعوره ، وآماله ، ونواياه ، وسلوكه يكشف هواجس بيومي المؤدلجة والمؤسسة على معايير أخلاقية ، وسلوكية ، وعقلانية ، وذاتية نلمسها من خلال اللغة الموظفة في المقطع السردي ، نية وعدم نية الزيارة ، دافع حقيقي أو زائف ، والعاطفة والعقل ، الخوف أو الشجاعة ، الجحود أو الاعتراف حضور أو غياب الضمير والورع الديني .

ما الضمير ؟

بلغة بيومي هو الأنا الجمعي . بلغتنا هو الأنا المؤدلج الذي يمارس الرقابة الشديدة على اللاوعي ، وهذه البنية النفسية والذهنية التي تظهرها هذا السلوك حددتها الايديولوجيا السائدة والوضعية الاقتصادية كما حددت رغبته الملطخة بالدم : « وربما عنه تركز تفكيره في الدرجة الخاصة التي ستخلو بعد أيام » . إذا كان بيومي يلهث وراء الدرجات فإن الغلاء يسبقه درجات . إذا كان يتمنى التقاعد والاحالة على المعاش لسحقان الذي يدل لقبه « بنسيوني » Pensionne على ذلك ، فإنه يتمنى لحمزة الذي ينبغي أن يتبعه كما يدل على ذلك لقبه « السويفي » Suivie أو Suivant من فعل suivre، الموت . والسارد يلمح بدل أن يصرح بتلك إحدى وظائف الأدب الكبرى : « أما في الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل إن ضغط الدم نذير خطير ولا علاج ، وقيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحي على الأقل عن مهامه

الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه » (ص ٦٩ ـ ٧٠) . وبعد فترة أصبح حزة السويفي محالا ولكن عاودته أزمة ضغط دم جديدة فعادت الوساوس ذاتها لتنهش كالجوارح كبد عثمان بيومي فتمنى للمدير أكثر مما تمناه للوكيل الأول : « وتؤكد لديه أن الوكيل والمدير أصغر منه سنا ، وأن الدرجات لن تحلو إلا بمعجزة مجهولة أو بوفاة عاجلة ، أو بحادث يقع في الطريق » (ص : ١١٠) . ويأمل أن يصاب عبدالله وجدي بمرض الموت : « وجعل يقول لنفسه : عبدالله وجدي في حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد » .

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بدالة عبدالله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفي ، ويردد فيما بينه وبين نفسه :

ـ ما أكثر الأمراض التي يتعرض لها أمثاله ! (ص : ١٢٩) .

ثم يقتل نية موظفا مثله وهو حزة السويفي : « وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للادارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حزة السويفي ، بأن يرقى أو يحال على المعاش أو . . . يموت !! » (ص/ ٦٥) . والعبارة التي أكدناها « ثلاث نقط استشافية » تومىء إلى أخلاقيات بيومي و « يموت » دالة على طموحه الآثاني المجرم .

بطل أو لا بطل ؟

إن البطل في الرواية ليس دائما هو الشخصية الرئيسية ، فالبطل في بعض الروايات شخصية ثانوية كرواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ . والبطولة درجات ، وأشكال تتغير بتغير الظروف والمواقف كمظاهر وتبقى البطولة هي هي وككينونة . في الوقت الذي يجعل فيه السارد بيومي في ظرف حرج كي يختار ، ويتخذ موقفا بطوليا ، ويتزوج ، ويحقق نصف حياته أو بعضا منها ، يحدث اللامتوقع إذ يفقد ، لتأدلجه ، الارادة ، والحزم ، والاقدام ، واتخاذ القرار ، والشجاعة ، فيضمحل الفعل البطولي ، ويتلاشى موضوع الرغبة ، وتكبت الرغبة . لو اعتمدنا منهج جريماس البنيوي الوظيفي العاملي لتبين لنا أن في « حضرة المحترم » ذاتا تحل الايديولوجيا السائدة فيها فتلعب دور المعاكس داخل الذات التي تغدو مزدوجة ، ويصبح الموضوع هو الجنس/ الزواج/ حب/ علاقة/ امرأة ، وهذا الموضوع ثنائي أيضا لانه يلعب دور الموضوع والمساعد في نفس الآن . أو تغدو الايديولوجيا السائدة هي الذات والموضوع في نفس الوقت ، ذاتا ترغب في ذاتها . وهنا ينعدم بيومي . في عجز بيومي يستحوذ على موضوع الرغبة بطل يجب هنا أن نعتبره في عداد الأبطال لولا أن نعترف له بالبطولة . هذا هو ما وقع فعلا لبيومي المؤدلج مع الجيل الجديد غير المؤدلج نسبيا مادام يحقق رغبته ، وإرادته بشجاعة متحديا الظروف ، ومرهصا بإيديولوجيا حرة جادة ، جاءه يوما حسين أفندي جميل وقد علم بعلاقته بآنسة رمضان :

« ـ الحق أنه لولاك لتقدمت لخطبتها .

(. . . . . . .)

ـ أنت شاب سيء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ماذا شاهدت يامسكين ؟ ولكن هكذا هم المحبون ، طالما عاملتها كابنة من صلبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد ! فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

ـ إني أعرف متى وكيف أكتم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبهم ! فقال وهو يتنهد :

أحسنت . . أحسنت . .

ثم موجة من الأسى تجتاحه :

سلكت سلوكا خليقا بالرجال . .

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان ، قال :

مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب » . (ص : ١٠٣) .

ويبدو التأدلج في اللغة الأخلاقية : أسأت الى سمعتها ، أو في التمييز بين المرأة والرجل : **سلكت سلوكا خليقا بالرجال** . فشخصية حسين جبل غير مزدوجة ولا معاكس يعترض سبيله . لا يعتبر بيومي معاكسا مادامت رغبته في التخلص من الفتاة .

التراتبية :

تعني التراتبية أن الموظفين/ العمال ، وأرباب الوظائف والمعامل وأن العمل مقتت ويستتبع تفتيت العمال ، الموظفين وغيرهم الى مستويات ، ودرجات ، وسلالم ، ومراتب ، ومناصب ، ومكاتب ، وكراسي ، وألقاب تحدد لكل فرد مستواه في عمله/ وظيفته أو مهنته أو حرفته لخلق التنافس والتناحر لجلب اليد العاملة وإغرائها . وهذا التقسيم التراتبي تواكبه اللغة المؤدلجة التي ترتكز على الثنائيات . وتخضع التصنيفية للتراتبية في جميع مرافق الحياة . فمنذ عنوان « حضرة المحترم » ندرك أن اللقب الذي يحمله عنوان الرواية دال على أن الناس مصنفون وفق تراتبية إلى محترمين وغير محترمين حسب معيار « كبار » و « صغار » : « ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم » (ص : ٢١) وتشير هذه العبارة الى غياب النساء في الدولة . إنها دولة رجال لا دولة نساء ورجال . وتتجلى التراتبية أيضا في أن هناك رؤساء وأتباعا ولا سيما في اللغة/ الألقاب ، والشهادات ، والمستويات المعرفية التي يمكن أن تزول بزوال الدولة : « كان سعفان بسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي بإعجاب وحذر . أعجب بجلده وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتح من بادىء الأمر إلى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات ، ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » (ص : ٢٥) . إن اللغة هنا تعبير عن طقوس أخلاقية يتغير فيها الخطاب حسب تغير المتحاورين الذين يخضعون لمعايير تعود إلى الرئيس والمرؤوس ، والنشاط والخمول ، والرسمي والمؤقت ، والاعجاب ، والانكار ، والاستقرار والحذر ، والصبر والتمرد ، والحسن والقبح من التصرف والخلق ، والبكالوريا والابتدائية ، والتساوي والتميز ، والمزيد والاكتفاء بالتعلم ، والارتفاع والانخفاض ، والدرجات القديمة أو الجديدة ، واليتم والاسرة .

وهذه رسالة إبلاغية أو طلب يبعث إلى من « فوق » بيومي حسب تراتبية السلم الاداري المجسد لتقسيم العمل/ الاقتصاد/ الأجرة ويتم عن قواعد إدارية صارمة مؤدلجة (بالكسر) تتحكم في رقاب الناس ، وتفرض عليهم الاذعان لها صاغرين على مستوى الكتابة : « حضرة صاحب السعادة المدير العام . أتشرف بإبلاغ سعادتكم (. . . . .) مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم ، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه (. . . . .)

وتفضلوا ياصاحب السعادة بقبول فائق الاحترام

عثمان بيومي

« كاتب الوارد بالمحفوظات » (ص : ٤١)

وبيومي كما يدل عليه لقبه الاداري المؤدلج كاتب الوارد في المحفوظات « يخضع لمعايير الاحترام الأخلاقية كما تبدو في لغة الرسالة المؤدلجة : حضرة - صاحب السعادة - المدير العام - أتشرف - « كم » - عبقرية ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه - « واو الجماعة » - فائق الاحترام . وتصدر عن معايير الحضرة

والغبية ، وأصحاب السعادة أو الشقاء ، المدير العام والخاص ، حصول الشرف وعدم حصوله ، كم وكم ، العبقرية والبلادة ، الظل والنور ، السيد والعبد ، الملك والفقير ، التعظيم والتحقير الحفظ والضياع ، دوام الملك أو انقضائه ، ضمير الفرد أو الجماعة ، الاحترام ، والاحتقار ، الفائق أو الساقل ، يقول السارد في خطاب آخر يؤكد التراتبية : « وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفلان يسوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويفي (. . . . .) وبعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام (. . . . .) ثم يرفع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لاجراء اللازم (ص : ٤١ ، ٤٢) إذا كانت الابتدائية تقابل البكالوريا فإن البكالوريا تقابل أيضا التجارة المتوسطة ، جميعهم من حملة البكالوريا !

فأجاب حمزة السويفي :

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

- العالم يتقدم ، كل شيء يتغير . ها هي البكالوريا تحل محل الابتدائية . (ص : ٦) .

حتى الاطفال يصنفون حسب تراتبية تتناول قدراتهم العقلية التي لم يختاروها وإنما صنفوا وفقها كما صنفت المدارس :

« - الولد ذكي وربما رأيته يوما من رجال الحكومة .

- عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان » (ص : ١٣) .

والأمهات المؤدلجات يقبلن هذا التصنيف وينسبنه للاله ويغدو طموحهن مرتبا :

« وضاعفت الأم من نشاطها مؤملة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر . أليس الله بقادر على كل شيء ؟! » (ص : ١٤) .

والمجتمع المؤدلج مقسم وفق التراتبية الى ذي شأن ومنحط الشأن : « مساعدة أدبية تقدم لذي شأن » (ص : ١٥) ، إنه مجتمع يميز بين التلميذ والموظف بالشارب :

« - تلميذ ؟! . . ولماذا ترى شاربك ؟

- موظف وتلميذ في مدرسة ليلية » (ص : ٣٩) .

ويتموضع بيومي بين الأغنياء والفقراء ، بين الممتازين والمنحطين ، بين الكبار والصغار ، بين الأحزاب الموالية والمعارضة ، بين الجاد والهازل ، بين المتمتع والفواد ، بين الدولة والشعب ، بين السعادة والتعاسة ، بين السماء والأرض ، بين السلح والأعزل ، بين المترقب والغافل ، بين الحكمة والجهل ، بين الراغب والزاهد في الشيء ، بين العامل والخامل ، بين المؤمن والملحد ، بين السقوط والارتفاع ، بين الأسرة الكبيرة والصغيرة ، بين المساندة والمعاكسة ، بين قوة والضعف الحزبي :

« إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الأسرة الكبيرة ، ولا قوة حزبية تسنده . وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد ، أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذي عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى الى السماء » . (ص : ٤٢) ، بين الذين يعتمدون على أنفسهم وبين أصحاب الوساطات « لأهل الوساطات » (ص : ٤٣) . وهذه تراتبية الحكومة والسياسة التي تجر منها الميزانية كعمل خطير في مقابل عمل تافه : « والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة ، ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة » ،

(ص : ٤٣) . وإذا أراد بيومي تغيير الوظيفة فإنه يخضع لمعاييرها التقنية بين الوظيفة ذات المرتب الثابت والراتب المتحرك ، والاطار العام والخاص : « ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت في ذلك ؟ » (ص : ٥٠) . وتقسيم الراتب تابع لتقسيم العمل وقد يشغل الفرد عدة وظائف براتب واحد وذلك لاستغلال الطاقات والحد من التوظيف . وتخضع الترقية لتقسيم الزمن : « تقررت ترقيتك إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها . ورغم تضحيته بعشرة جنيهات إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلا عن الأهمية التي اختص بها بعمله المزدوج » (ص : ٥١) . والأمل ينقسم إلى منشود وغير مرغوب فيه ، والأول والأخير والناس إلى عاديين وأفذاذ ، والمجد واللامجد ، العظيم والمبتذل : « وهي أمامهم المنشود والأخير وبخاصة الافذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم » (ص : ٥٢) . إن التراتبية تشمل حتى الوكلاء والمديرين : « في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل إدارة آخر ثانية ومدير إدارة أولى » (ص : ٨٢) . وينظر اليهم بيومي بنظرة مؤدلجة ومن منظور ينطلق من معيار الصداقة والعداوة ، والطهر والدنس ، والليونة والقساوة : « جميعهم أصدقاء ـ أعداء لما تقتضي به إرادة الحياة الظاهرة القاسية » (ص : ٨٢) ، والمحسوبية مبنية على تراتبية أخرى ترجع إلى قاعدة الانتماء إلى الاسرة وعدم الانتماء ، والقرابة والغرابة : « إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل » (ص : ١١٠) ، « ـ لا .. لا ، إنه قريب الوزير ! » (ص : ١١٦) . وتحدد التراتبية سلوك بيومي إزاء الآخرين : « وجلس في الادارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه أهل للثقة الأولى ، وبأنه الحجة في الادارة واللوائح والميزانية فضلا عن دراسة القانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات » (ص : ١١٠) . إنه ينظر إليهم من زاوية الثقة وعدمها ، الأولى والأخيرة ، والحجة وعدمها ، معرفة أو جهل القانون والاقتصاد ، والثقافة العامة والخاصة ، والتفوق (أو عدمه) الراسخ أو المتذبذب في اللغات. إن التراتبية كمعيار لا تراعي الشهادة والكفاءة فحسب للوصول إلى الوظيفة الحساسة بل أيضا المكانة الاجتماعية حسب الايديولوجيا الاخلاقية : « ـ لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عن الاختيار لها ولكن يضاف إليها المكانة الاجتماعية » (ص : ١٦٨) .

هذا أو أكثر هو ما يحدث في مجتمع مؤدلج حيث تسود المحسوبية والوصولية والميز بين الناس الذين يتفقون في المساهمة في الاقتصاد بالعمل ، ويتساوون في الحاجيات ، ويختلفون في الحقوق والواجبات ، كما يشيع فيه وجود أجواء مؤدلجة استغلالية : « ـ أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة .. القرابة .. الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى من يغطي عجزهم من الاكفاء الحقيقيين » (ص : ١٣٦) . وترقى بيومي ، وهو في فراش الموت ، إلى مدير عام ، حلمه المقدس حيث يتجسد روح الله ـ في نظره ـ تبعا للرؤية المثالية المؤدلجة الخاضعة للتراتبية السائدة والمفرقة الناس إلى بشر وغير بشر إلى حد أنه تخيل أنه في نفس مرتبة الفرد/ الاله وأنه يمارس السلطة . إنه يتقمص الشخصية الأخرى . إنه حرباء . إنه مظهر كينونة . إنه طيف وجود بل عدم وجود . يعد نفسه من أصحاب القوة ، وأصحاب السعادة الفائزين ، مالكي الحجرة الزرقاء/ السماء/ الاله/ المثل العليا ، وبيده الحل والعقد ، وأنه من « أولي الأمر » ، وأنه نبي في مقابل البشر العاديين الذين لا يملكون حجرة في لون التراب ،

والمنفذين للأوامر ، المطيعين الأشقياء ، والضعفاء ، الفاشلين ، الملتصقين بالارض وفق التراتبية والميز والفرقة بين الناس : « تلوق في هدوء نجاحه . إنه صاحب السعادة ، مالك الحجرة الزرقاء ، مرجع الفتاوي والأوامر الادارية ، ملهم التوجيهات الرشيدة للادارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (. . . . .) وقال لنفسه :

ـ متتم نعمتك على يارب يوم تمكنني من القيام بممارسة السلطان وإعلاء شأنك في الأرض » ! (ص : ١٥٧) . لقد توحد بيومي بالاله ، والسلطان ، والنبي والملك ، وأولي الأمر . لم يفارقه تأدلجه . إذا كان منذ بداية الرواية يسعى إلى القوة والحكم ، والسلطة تقليدا للاله/ الفرد فإنه الآن هو الاله الفرد أو الفرد/ الاله . ولن نعيد الحديث عن قدراته وإمكاناته المعرفية والتقنية . ماذا صنعت به الايديولوجيا السائدة ؟ متنبيا أو نبيا ؟

بيومي وعلاقاته بالشخصيات/ النساء :

إن الانسان امرأة أو رجلا يصنف ترتيبا بالدرجات ، والاقسام ، والألقاب ، والسلالم ، والمؤهلات :

« ـ أهلا بك من أي قسم ؟

ـ المستخدمين .

ـ عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

ـ ليسانس آداب قسم التاريخ » (ص : ١٣٤) .

وبيومي يميز هو ذاته بين حارة وحارة : وحي وحي ، وأسرة وأخرى من زاوية الفقر والغنى ، بين العامة والأعيان ، بين كبار الموظفين وصغارهم بين أصحاب السلطة ومن لا سلطة لهم :

« ـ ابعدي فكرك عن حارتنا ، عن حينا كله .

(. . . . .)

ـ أريد عروسا من أسرة كريمة .

(. . . . .)

ـ عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدي .

فقاطعها بنفاذ صبر :

ـ لا تفكري في حينا ، عليك بالاسر الكريمة . .

تقصد . . . ؟

ـ الأعيان . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة » (ص : ٦٧ ـ ٦٨) .

إن بيومي يبحث عن المرأة/ الشيء لا المرأة الانسان ، المرأة « المناسبة » تحت معيار المناسب وغير المناسب . والسارد يصدر عن أيديولوجيا رافضة للايديولوجيا البراجماتية . والدليل على ذلك وضعه كلمة « مناسبة » بين مزدوجتين دلالة على رفضه الطبقية والميز والفرقة والتصنيفية وفق تراتبية مصطنعة ، وتشييء المرأة/ الانسان ذلك أن « تفكير » بيومي يخضع لمعيار الصعود والنزول ، من الطبقة القديمة الى الطبقة الجديدة ، والثبات والتحول ، والتخلف والتقدم ، والوضاعة والشرف ، والفشل والنجاح : « وثمة خيبة أخرى عاناها في تردده على بيت المدير ، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا « مناسبة » ومن يعلم ؟ وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك السويفي فيغضي عن وضاعة أصله ، ويقبله في طبقة جديدة تمهد السبيل الى التقدم » (ص : ٥٣) .

إن اللابطولة وليدة التأدلج وتبدو في هروب بيومي من السياسة هروبا رومانسيا ويعتبرها ثرثرة في حين تعتبرها بطلة شابة ذات إيديولوجيا نقيض حياة :

ـ « لا تحدثيني عن الصراعات السياسية . .

ـ ولكنها الحياة الحقيقية .

ـ ما هي إلا صخب زائف .

ـ الدنيا من حولنا . . .

فقاطعها بنفاذ صبر :

الدنيا الحقيقية في أعماق القلب » (ص : ١٤٧) .

وذات يوم استضاف سعفان بسيوني وقدم له ابنته بطريقة غير مباشرة وهو سلوك يجعل الصراحة منعدمة لغلبة الايديولوجيا الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية . وعندما شرع السارد في وصف الفتاة وبيومي والأب من زاوية « الرؤية مع » تجلت الايديولوجيا المفرقة بين الناس والاجناس في أحكام القيمة التي ينعت بها الناس بعضهم بعضا . إن المؤدلج ينظر إلى المرأة من معيار الصورة والشكل ، ومعيار الجمال والقبح كما تفعل به المرأة المؤدلجة ، وكما يفعل الانسان بأخيه . يقول الراوي : « وظهر في مدخل الشرفة شبح . فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع . انعكس الضوء القابع وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحي ، ولمة ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق يساوره قلق . وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعديها السوية البضة وكأنها هي التي تفث رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا . وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سعفان : ابنتي . .

هز رأسه إعرابا عن الاحترام :

ـ حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة .

ـ واصل هز رأسه في تقدير وأعجاب ، ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغني التوشيح . ومضى سعفان قائلا :

ـ البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها المريرة » (ص : ٢٨) .

فالأوصاف النابعة من معيار الجمال والقبح ، وأشكالها ، وألوانها ، وأذواقها ، وأصواتها ، ومواداها تبرز في هذه اللغة : انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه ـ وجه مستدير ـ لونه قمحي ـ ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق ـ ساعدها السوية البضة ـ كأنها هي التي تفث رائحة النعناع ـ وتعاني المرأة من هذه الأحكام التقويمية أكثر من الرجل الشيء الذي يدفعها الى افتتانها ضروب التجميل . ومصير تلك المرأة هو البيت/ الظلام الحسي والمعنوي انطلاقا من معايير أخلاقية بالية في المجتمع الأبوي المؤدلج القامع والكابت الذي يشيء المرأة ويسلعها فتتجسم في الزمان والمكان ، والخط ، وتحرم حتى من الحركة والابتسامة التي تحضر على شفتي بنت سعفان ، وهي أدنى حركة تولد مع الانسان ، وتتاح للرجل دون المرأة كالنظر كما يبدو ذلك في هذه الوحدة السردية : « وقفت دقيقة ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا ـ ثم قول الراوي : وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ـ قال « كأن » هذه لا وظيفة لها هنا لأنه فعلا يوجد الشعور بالاثم الذي يحسه كل رجل دين مؤدلج في كل العصور . وهنا في المقطع السردي فالشخصيات المؤدلجة كبيومي ، وسعفان بسيوني والبنت ، هي التي أحست بالاثم حينها خرقت المعايير الاخلاقية ، والمواضعات الاجتماعية انصياعا للطبيعة البشرية ، تعاودهم العقلانية ويستبد بهم الشعور بالذنب ، والحسرة ، والندم على « ما اجترحوه » . ان عثمان بيومي كان ينظر ويعيد النظر إلى الفتاة فندم على ما ظفر منه . إنها جريمة جحيمية . وسعفان الذي يسعفه ويساعده في الزواج لم يطرح هذه القضية على بيومي قبل استضافته ، ولم يصارحه برغبته في تزويجه فتاته . ولكن معيار الكرامة والدناءة الأخلاقي الذي يميز بين الفاضل والقواد (القواد في مجتمع بيومي المؤدلج مدان كالعاهرة) لجهل أو تجاهل ظروفهما

الاقتصادية والاجتماعية والنفسية) ألجمه عن ذلك ، حفاظا على سمعته ، ولكن الفتاة في حاجة إلى عريس فضل ، أن يعرض سلعته ، في تكتم وصمت ربما كان لها تأثير ما على الزبون في سوق الكساد : البيت هو المدرسة ، فأحس أنه تآمر على بيومي فاعتراه الشعور بالذنب .

يشيء بيومي سيدة : « انها الجوهرة الوحيدة في حياتي » (ص : ٣٧) ، وتشبه هي أيضا . ما كان ينبغي لنا أن تتنازل عن حبها لها وتهجره لمجرد إدراكها رغبته عن الزواج رغبة في « الهدف السامي » يقص عنها الراوي قائلا : « ولكنها لاتأتي ولن تأتي . قطعته ولعلها نسيته . وإذا خطر بها لها لعنته بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها في العصاري فخيل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء الفلة المعرضة للهواء لتبرد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة (...) وشاهدها صباح الجمعة في الخيمة بصحبة أمها . تلاقت عينا هما لحظة ثم حولتها عنه في غير مبالاة . لم تلتفت وراءها تحمل له معنى من معاني الموت | (ص : ٣١) . هذا السلوك الصادر من سيدة يدل على أنها أرادت أن تمتلكه كشيء . ولشعورها بالضعف وأرادة القوة رغبت في أن يكون عثمان / الرجل / القوة / السلطة / المال بجانبها و عثمان في إرادة القوة الفردية يهرب أيضا من الضعف / المرأة / الفقر رغبة في صاحب السعادة / مدير عام / قوة / سلطة / مال / اله . كانت سيدة لاتعده من الرجال ولا تعد نفسها من النساء انطلاقا من معيار الزواج الذي يكون بها الرجل رجلا والمرأة إمرأة ، والطلاق أو عدم الزواج الذي يقلب كل شيء الى ضده . ولكن ماذا قدمت له سيدة من مساعدة ؟ هل جعلته يعي وضعه ؟ إنها لاتستطيع ذلك مادامت مؤدلجة مثله . والا يديولوجيا السيدة تكرس هذه الثنائيات . أيدل اسم « سيدة » على شيء من ذلك ؟ فكل منها

يشكل مرآة تنعكس عليها صورة الآخر . ومن معيار الممنوع والمباح ، والجمال والقبح ، والصغر والكبر في السن يحكم على المرأة : « ووثقت الايام علاقته بفتاة تماثله في السن تسمى نفسها قدرية ، جذبته بسمرة غامقة - مثل سيدة - ولكنها أعمق في زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة » (ص : ٣٨) وقدرية هي قدر بيومي الذي يؤمن بالقدر : « سمع المهمة مرة أخرى ، و سمع صوت القدر » (ص ٦) . ولكن لماذا ينظر الى لون الانسان . أهو الميز العنصري ؟ إنه يقوم قدرية اعتمادا على معايير عقلانية . إن أفكاره المؤدلجة تقف حاجزا بينه وبين إدراك أن كليهما في حاجة الى الآخر لو يدركه ولكنها تصدمه بصورة أو بأخرى عن ممارسة حاجته الطبيعية : « قال لنفسه أنها مجنونة بلا شك ، والملك فهي بغي . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به (ص : ٤٨) . وتستند عقلانيته الى معايير العقل والجنون ، والزوج والبغي ، والعذاب والترفيه ، والقلق والعزاء ، - أنها مجنونة - فهي بغي - كانت الترفيه الوحيد - وهبته عزاء لابأس به - وبما أن الجنس محرم كباقي الحقوق فإن بيومي يزور قدرية ليلا خشية الرقباء ولا رقباء أحيانا سوى الا يديولوجيا الاخلاقية : ذو دين وخلق - المحافظة على السمعة الطيبة وهي في صيغة القول السائر cliche ¾ولكن قدرية من هذه النا حية بطلة . أنها لاتخشى أي شيء . أنها غير مؤدلجة نسبيا لعدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى فكرها . أنها تجسد الطبيعة في بدائيتها وتلقائها . أنها تعيش من جسدها ، وتحقق الاشباع الجنسي للآخرين ولنفسها مع من تحب . تلك مهنتها التي تستحق الاكبار في عالم المصادفة . ولاجل ذلك فهي ثائرة بشكل عفوي على المعايير الاخلاقية في عالم لا أخلاقي في الحقيقة والواقع . إنه عالم منحط ومتدهور في الكينونة والجوهر . وعثمان بيومي الذي

يغلب عنده زمن العمل على زمن الراحة عاجز عن ممارسة الجنس/ الزواج أضف الى ذلك أجرته الضئيلة والتي لا تسمح بالانفاق على قدرية راحته الوحيدة في أقصر أوقاتها ولذلك يؤجل رغبته/ راحته/ حياته/ متعته الى آخر الشهر، ويكبت نفسه كما يبدو ذلك في تعبير السارد الذي يصيبه أحيانا رذاذ الايديولوجيا السيئة فيسكت عن ذكر الجنس ويكني عنه بكلمات أخرى فيواريه. قدرية لا تعد الجنس جريمة، ولكن السارد يسيطر على هذه الشخصية فلا يدعها تعبر بحرية وجنون عن الجنس كي تكسر قيود التدلج الأخلاقي، وكي تكتمل صورتها وتبلغ حدا من الانسجام بين أفعالها وأقوالها التي أوجزها السارد بصرامة منطقة وعقلانيته المفرطة، إنها شخصية قد اطفأ الراوي وهجها تجرد النص الروائي من متعته، ولذته وإقناعه. لا يكفي ما ذكره عن تمردها، وثورتها، وماضيها النضالي. لقد شاركت في مظاهرة وطنية ضد الانجليز. إنها جديرة بعناية السارد وتستحق التكريم من قبل المجتمع. إذا لم ينصفها المجتمع فالسارد أحق بانصافها. ينبغي أن تأخذ بطولتها كل أبعادها النفسية. إنها قمينة بأن تجري عليها الدولة راتبا شهريا وأن يضرب لها تمثال في شارع كبير. إنها غير مسئولة عن جهلها وتمسكها ببعض الخرافات.

يتهم بالجنون، والسحر، والشغب، كل بطل استشعر عن وعي أو لا وعي ضرورة ممارسة حريته، ويلقب بالشيطان.

لنقرأ هذا الحوار الدال الذي يمتزج بالمونولوج الداخلي التلقائي.

الا تحب أن تقضي صباح الجمعة معا في نزهة؟

فدهش وقال:

- إني أجيئك كاللص متخفيا في الظلام..

- مم تخاف؟

ماذا تقول؟ إنا لانفهم شيئا. وقال معتذرا:

- لايجوز أن يراني أحد..

- هل ترتكب جريمة؟

- الناس.

- أنت الثور الذي يحمل الارض على قرنه..

إنه ذودين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها.

وقالت له بإغراء:

- ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة، يمكن الاتفاق على ذلك..

فسألها بحذر:

- والثمن؟

- خمسون قرشا..

وفكر باهتمام. سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح. إنه في حاجة الى الراحة. قال:

- فكرة طيبة ولتكن مرة في الشهر...

- هل تكتفي بمرة واحدة في الشهر...

- ربما اجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية..

(...) وهي تعيش بلا حب ولا مجد، وكأنها تؤاخي الشيطان في غضبها. وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فحنق محتدا..

- مظاهرة؟

- مالك! نعم مظاهرة.. حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما..

قال إن الجنون منتشر أكثر مما تصوّر (ص ٤٨ - ٤٩)

إنه يحكم على قدرية من معيار الفهم وعدم الفهم. ويحكم عليه بمعيار الانسان والثور. إنها تعرض ذاتها للاحتكار (مصطلح اقتصادي رأسمالي ليبيرا لي تجاري) كسلعة لها ثمن: خمسون قرشا. لن يشبع رغبته الجنسية سوى مرة في الشهر نظرا لارتفاع السعر. ويقيمها وفق معيار الحب والكراهية: والمجد والخزي، والله والشيطان، المقاومة والاستسلام،

والعقل والجنون ، حتى الزواج ينظر اليه بيومي من أخلاقية : الزواج نصف الدين ويفاضل بينه وبين ... التشرد ، أو من منظار الاقوال السائرة : إنجاب الذرية . إن الرؤية الى العالم ميتافيزيقية .

إنه يشيء المرأة ويتخذ سلما يرقى به الى ما يصبو اليه من منظار برا جمالي نفعي طوباوي : « ومتى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الامل أم بعده ؟ يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فأما العروس التي ترفع الى العلا الذي يحظى بالعروس البالغ » ص : ٥٣) . لن تحظى المرأة بالعلا بالقدر العلا بها . وليس بيومي هو الذي سيحظى بالعروس أو تحظى هي به . وهكذا يعدم بيومي حظين في سبيل المستحيل الذي لا وجود له سوى في الخطاب الايديولوجي السراب .

مفهوم المرأة عند المؤدلج أنها وسيلة إلى غاية .

« ولكن أي فائدة كان يرجوها من الزواج من كريمته ؟ لاشيء إلا الفورية والمتاعب والفقر ، ولا حب أيضا »)ص : ٥٣) . المرأة ليست إنسانا في نظره بل « سقالة » للصعود : « ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين يريد » « مصعدا » « فما العمل ؟ »)ص ٧٥ :) . وشيأ كذلك السكرتيرة واعتبرها شيئا يقيه من النار التي تلفحه ألسنتها كل يوم منذ أن اشتعل :

« - لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق .

وقال لنفسه أيضا : - إني في حاجة الى مظلة في هذا الجحيم » (ص ١٣٤ / ١٣٥) .

إن وضع بيومي وضع مأساوي إشكالي : فهو يترجح بين الاشباع الجنسي والمجد الزائف المستحيل التحقق في عالم منهار . فالايديولوجيا السائدة تكبت وتعد ولا تفي . فالحس الجسدي مبتور لانه يعمل وحده دون إحساس إنساني . فلقد مات في قدرية بسبب الواقع المأزوم ومات في بيومي تحت تأثير التأدلج الاخلاقي :

« قدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوترة ولكنها لا تهيء رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضا عفتها مشاعر الاثم . »)ص ٧٢) . إن بيومي إيديولوجيا تسير على قدمين . لقد أعمته عن إدراك ماتعرفه أنسية كمشروع بطلة ثالثة من حيوية ، واختزال الطريق بلوغ الغاية من أقصر الطرق مكسرة أغلال التأدلج أو بعضها . إنها شابة تستجيب لنداء الجسد والقلب الصارخ . إن أنسية تحب التجديد وكأنها من بيئة متقدمة مخالفة لبيئته المحافظة : « لم يعرف ذلك التقليد ، ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هي أنسية تبشر بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناورتها الظاهرة في الوافد وقدرتها البارعة في فتح أبواب الرحمة » (ص : ٨٦) . فالسارد يحكم على الحارة والتقاليد من معيار التجديد والتقاليد وقد حدث في أسلوبه ما يسمى بالتناقض الظاهر L'oximoron لقوله : المناورة الظاهرة المحطمة للثنائية . ويحكم على قدرتها بالبراعة في فتح أبواب الرحمة وهي استعارة جاءت في صيغة عنوانات لشيء لم يكتب بعد . ولغته الوصفية تنم عن إيديولوجيته المستقلة التي تحكم وفق معيار الوعي وعدم الوعي ، والرضى والنفور ، والتشجيع والتثبيط في قوله : « وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا (. . .) وسارت الى جانبه تسبل عينيها بنظرة حالمة وظافرة ، مرفوعة الرأس مسددة النهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفعة في مجرى من المطالب لاأفق له ، وأنها تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة » (ص : ٨٧ - ٨٨) . الاوصاف التي توحي بالبطولة هي : نظرة حالمة ظافرة - مرفوعة الرأس - مسددة النهدين - مندفعة في مجرى من المطالب لا أفق له - تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة .

إن البطولة هي الاقبال على الحياة :

هذه هي إيديولوجيا السارد الحياتية والواقعية والتي يؤكدها بقوله الذي ينفي كل وهم أو تهويم ميتا فزيقي : « على فرض أنها ستقلب حياته رأساً على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقدر على إسعاده من النجم القطبي ؟؟ » (ص ٩١) . والمرأة جديرة بأن تحدث تغييرا في حياة بيومي إذا وعت معنى الحياة التي تتناقى والحلم الطوباوي وبأن تحول اتجاهه من المستحيل الى الممكن باستعدادها الذي استعار له السارد هذه الصورة « سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد » (ص : ٩١) . إنها تستطيع إذا كانت مزودة بفلسفة الحياة أن تحول نظرته من العقل الى القلب العاقل ، من الموت الى الحياة ، من الوهم الى الحقيقة التجريبية ، من العدمية الى الوجودية . لكن بيومي المؤدلج ، هروبي ، ينكمش ، وينطوي في شرنقة التأدلج ، وتتقلص نتيجة لذلك كل خلاياه كالحلزون الذي مسته الحرارة . لا يقصد سوى الاماكن الخالية ، والبعيدة ، المهجورة والمظلمة والدافئة كالرحم : وذلك عندما يصغي كشاعر رومانسي الى همس القلب ، النادرة هيمناته وخفقات الحياة فيه لحضور العقلانية المؤدلجة المستمر الى حد تنغيص المتعة ، واللذة على بيومي وحرمانه من نصف وجوده الذي امتصه العدم ، ومن معرفة أشياء وأشياء ، ومن اكتساب تجارب وتجارب ، وخوض مغامرات ومغامرات : « ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة الازبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحدق به الاعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض الترام إليها حقولا وخلاء (. . .) لم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لايقال ، ما يفعل وما لايفعل »)ص ٨٧ـ ٨٨) .

إننا لا نحمل الايديولوجيا السائدة معنا فحسب ، بل هي تتنابنا ، وتعترينا ، وتقلقنا ، وتغمرنا ، وتفكر فينا من خلالنا ، وعبرها ننظر الى المحيط والعالم ، إنها تحاصرنا ، وتسبقنا الى الأماكن التي نهرب اليها ، وتلج أخفى الملاجىء المظلمة وأشدها حلكة . إنها تنغص علينا وجودنا وحريتنا ، وراحتنا ، وتكبت رغباتنا ، ومتعتنا ، ولذاتنا الطبيعية الانسانية في الوقت الذي يتصل فيه احساس الرغبة العاطفية باحساس ما قبل الرغبة الجسدية . إنها رابعة اثنين الا هما في الغار اذا اعتبرنا ايديولوجيا الطرف الثاني ثالثة ، إن الموانع الزجرية والنواهي (من النهي الحجى = العقل) الاخلاقية تعاودنا عبر الذاكرة التي تصعد اليها من الأنا المؤدلج فتشرع في التأنيب . وهكذا تكبت الذات المؤدلجة ذاتها وتمارس الرقابة على نفسها وهي في عزلة وتندم .

ما الندم ؟

إنه الشعور الذي يحصل للفرد المؤدلج بعد لحظة التحرر من الأنا المؤدلج لحظة تحقيق رغبة ما حتى الحضور الى موعد ، في غياب الانا المؤدلج لحظة ما قبل الشروع في الاشباع الجنسي أو أثناءه ، أو بعده حيث يغفى الانا المؤدلج في غيبوبة اللذة المشروعة والتي يعدها هو اثما ، أو ذنبا ، أو سيئة ، أو موبقة ، أو جريمة ، أو خطأ .

يقول الانا المؤدلج من خلال بيومي الذي يمحقه الشعور بالندم : «٢ سارا صامتين ولكن ثمة إحساس غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم » ص ٨٨) .

ويجعل بيومي من المرأة مجرد فرج . وانتقادها ترفض لا لأنه شيأها وصيرها كالمطاط فحسب ، بل لأنها تستند الى معايير أخلاقية تصنيفية لا تقبل المرأة سوى بكر أو متزوجة .

« يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه .

هتفت .

ـ عثمان أفتلني .

فقال بدون مبالاة :

ـ سيكون مأوى رحيبا لاثنين في حاجة الى الحب والمعاشرة .

ـ اما أن تذهب أو أذهب أنا » (ص ٩٣) .

والناظرة ، تحت وطأة معيار الزواج والطلاق ترغب في الزواج . وهذا دليل على وجود تراتبيه في العلاقات الأجتماعية أوجدتها الايديولوجيا الأخلاقية المهيمنة ، والتي يتولد عنها صنيع الناس فيصنفون تبعا لذلك المرأة التي تشير اليها هذه الكلمات : متزوجة ـ طالق ـ عاهرة ـ بكر ـ عانس ـ ثيب . . الخ في مجتمع مؤدلج يأتي رغبة المرأة بنهاية زواجها بالطلاق فتجرد من إنسانيتها وكينونتها رغم براءتها براءة الطالق ، والمطلق (بالكسر والفتح) ، والشاذ ، والخنثى ، إن الناظرة مؤدلجة أيضا . « والدعارة » مآلها الأخير .

إن الجنس كالخبز والماء والهواء والطعام ، والجسد الذي يتناوله الخبز والماء والهواء ، والطعام في أشكالها المتعددة لا بد أن يفرزه وكل هروب من الجنس اهتمام متزايد به . إن الجنس جدير بالتنظيمات التي تلحق بالألبسة والأطعمة والأعمال المختلفة .

ان لقاء بيومي بالناظرة مستحيل الا عن طريق « الزنا ؟ » والكلمة أخلاقية دالة على التحريم . انها في وضع مأساوي : الزواج ممنوع لأنانية بيومي المؤدلجة و « الزنا » محرم . إن بيومي حرباء لا تستقر على لون ولا حال لخوفه من ضياع حلمه الطوباوي غير المؤسس . انه يحكم على الناظرة بنفس الأحكام القيمية الأخلاقية والجمالية التي تحكم عليه بها أصيلة : « فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفظ إنها لا بأس بها لو تحلّ على قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وآماله المقدسة الموصولة بسر حكمة الله العظيم (. . .) وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى اليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأرامل ، والعوانس » (ص ٩٧) . تتمظهر الايديولوجيا في الاتجاه الى معايير أخلاقية كالاندفاع والاحجام ، الأرعن أو المهذب ، والجود أو البخل بالنفس ، بجرأة أو تحفظ ، والجميل أو اللابأس به ، والنار أو الماء ، الانهزام أو الانتصار ، التمرد أو الاستسلام ، الزواج أو الترمل ، وأصيلة لتأدلجها تهرب أيضا من الرقيب الموضوعي ، وتنسى أنها تهرب من الرقيب الذاتي : « صح عزمي على التجربة ، وقلت لنفسي إنا لمحتي عين قصدت شقة لم حسبي كأني جئت أصلا لزيارتها » . (ص ٩٧) . كلا الجنسين يبحث عن الظلمة . لا رغبة تشبع . كل جسد معلول . الوطن مستشفى كبير لا دواء فيه . كل نفس فيه ضالتة الداء / الموت . المرأة في مجتمع التأدلج الظلامي هي المرأة الممنوعة والمتمنعة حسب الكلام السائر cliche « كل ممنوع مرغوب » . ولكن أصيلة حجازي الناظرة استسلمت بدافع مركب : رغبة جنسية طبيعية وارادة الزواج فتقع في « المحظور » كما توقعنا ذلك : « وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سياها الغامض امرأة عارية من أثر الكبرياء ، عض عـالمقة مهددة الدفاع (. . .)

أفاق تماما من الدهشة ، صدت نفسه عن أي موضوع وتركزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة » (ص ٩٧ ـ ٩٨) . الا أن سارد « حضرة المحترم » يشبه سارد « مدام بوفاري » ، اذ تصيبه أحيانا شرارات الايديولوجيا الرسمية فيلتزم الصمت الى حد

أن كتب جيرار جنيت مقالا بعنوان : سكوتات فلوبير[٣] يتجلى صمت سارد نجيب كصمت سارد فلوبير في الثغرة التي أحدثها في سرده ، أو في الحذف الذي قام به في كتابته ، أو في الغياب الذي يستشعره القارىء من خلال حضور سردي يشكل مظهرا لتلك الكينونة الغائبة . فحضور قول يختفي في ثناياه أو يشير بين مقاطعه الى غياب يحدث ثقبا في وحداته . الى اللامعبر عنه ، الى المسكوت عنه ، واللامقال ، واللامعقول وهو وصف الفعل الجنسي بكل حرية وصراحة وواقعية طبيعية وعادية .

الا أن سارد « حضرة المحترم » سكت خانعا للتلافح الذي أصابته شظاياه الشيء الذي أفضى به الى ممارسة الرقابة ، كبيومي ، على نفسه هو أيضا حتى في مجال التعبير الروائي . أيعود ذلك الى كثرة مصاحبة بيومي أم هي رواسب من الماضي تستمر في الحاضر ؟ بهذا الفعل جرد النص الأدبي من أدبيته ولذته ، وعلما كان بامكانه أن يعد عنصرا من العناصر المكونة لمعنته فراح يتحدث انطلاقا مما بعد الفعل الجنسي ، من لحظة الوعي ليحدثنا عن المعجزة الحقيقية في حياة الانسان ، وليتصدى لتناول مأساة بيومي والناظرة عندما يعاودهما العقل المثقل والمكبل بسلاسل الايديولوجيا وأغلالها الغالبة الى حد انهيار الحياة ليسود العدم . وانه ليغدو ما كان « جنة » « جحيما » بالتدرج الى مستوى يتصور فيه بيومي أنه من « أصحاب السعير » إذ يعيده تأدبه الى خياله المؤدلج عندما يستيقظ فيه أناه المؤدلج ، الى خيال يفلسف الرغبة والنفور من الجنس بلعبة الحياة ، والموت ، والعبث ، والرضى ، ورفض المأساة في سبيل المجهول الذي يتمرد على المعلوم والمعيش . يقول السارد في صمت : « وأعلن لحن من الالحان اللانهائية للطبيعة عن تغريده المتجدد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة . وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا الى نوم أبدي ، مخلفا وراءه صمتا مريبا وراحة فاترة مشبعة بالأسى (...) رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت قوة الكنبة معرضة قميصها وحبات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العاري . نظر الى لا شيء لا يشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة الدنيا . وحانت التفاتة إليها فأنكرها كلية ، كأنها شيء غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري الذي جره الى السعير ، شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي الا تمرين على الموت ، والبعث ، وادراك مسبق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائية ، ودرجة المدير العام أية أخرى ولكنها تتجلى للارادة الشامخة لا للاستسلام الذليل ! وخيل له أنه قد تقمص باليرود العاقل والقاتل أيضا . وها هي المرأة ترغب بلا شك في العودة الى موضوعها الحالم ولكن من خلال تردد وخجل . تتمنى لو يبدأ هو . ولما يئست نظرت اليه بابتهال وأسى وغمغمت :

ـ نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة . ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية . إنها تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر (ص ٩٨ ـ ٩٩) . لقد غدت أصيلة في عين بيومي المؤدلج شيئا أدى دوره فطرح بإهمال ولا مبالاة . ومع تحليق خياله من المحسوس الى المجرد فقد تحولت الى جنية ، بعد أن كانت ملاكا ، أو شيطانا ومخلوقة غريبة « الوجه » أو لعودة درجة المدير العام الى خياله

٣ ـ انظر جيرار جنيت « صور X » ط « سوي » بواند . باريز 423 و 1966

الذاكري . والطموح يجمده الارادة تحت تأثير معايير الشموخ والاسفاف ، والاستسلام أو التمرد ، العلب أو المر ، تشييد أو تحطيم البناء الذي شيده التأدلج في فكره المتحجر المحلق في سماء الوهم بعيدا عن أرض الحقيقة والواقع .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي صمت فيها السارد في هذا العمل الروائي . فلقد سكت في استرجاعه للذكريات بيومي وسيدة التي لا تختلف في تأدلجها عن أصيلة التي يدل اسمها على ذلك والذي يحمل معنى الاصالة . وأسلوب السرد في « حضرة المحترم » يذكر بأسلوب السرد في مدام بوفاري الزاخر بالحذف والتزام الصمت في لحظات الحديث عن الجنس ، وضحك . لثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وبكلمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف (ص ٩٩) فالحذف هنا مزدوج .

١ - بعد عبارة « لم يجرؤ على تجاوز ذلك » إذ سكت السارد عما يلي تجاوز ذلك وهو الى ماذا ؟ فإنه ترك لنا فرصة تصوره . ولكن فرصة التصور تبقى حتى ولو أخبرنا بذلك . واللغة قاصرة فكيف نزيد من قصورها بالصمت .

٢ - كنى عن الجنس بعبارة أخرى عن صمته وأراد أن يملأ الثغرة ولكنه زاد في حفرها بهذه العبارة التي تحول القارىء من موضوع الى موضوع لا علاقة له بالأول « لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف » والصحف المؤدلجة لا هم لها سوى التقاط الأخبار التافهة ، ونشر ما تسميه « فضيحة » وهو حاجة انسانية طبيعية تشتهي عندما تبتدىء حاجة الآخر . وهذا يجعل الانسان يحجم عن الاقدام على الجنس ، لو ان يوجد بجانب امرأة . إن صحفا من هذا النوع تلتزم الصمت عن فضائح الاختلاس والتبذير ، والاستغلال البشع : « الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟ » (ص ١٠٠) .

ووجهة نظر بيومي المؤدلجة ترد اقتحام المرأة الشجاعة للمحرمات ، والكلام عن الجنس أو الرغبة فيه دون رقابة أو سلطة عقائدية أو عقلانية أو أخلاقية ، الى غريزة المرأة التي تدرك بها المجهول الذي لا يستطيع الرجل ادراكه . ليست غريزة المرأة هي التي تدرك المجهول ، وإنما هو عدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى ذهنها ويعبر عنه المؤدلجون بقولهم « المرأة ناقصة عقلا ودينا » . إنها المرأة التي تجهل الخطاب « الثقافي » المؤدلج نبتت أرض فكرها خصبة لخطاب مضاد ، كما بقيت طبيعتها نقية تعمل عندها ملكة القلب والعقل الذي ينبغي تلاقيه حتى يعملا معا . وهذا ما انتزع من بيومي هذا التعليق المؤدلج غير العلمي : « قال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمية ، وأنه لو كان للانسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الآن » . (ص ١٠٤) . وغريزة المرأة لا تختلف في شيء عن غريزة الرجل . ويتميز عنها بيومي بتأدلجه فقط .

تنكر الايديولوجيا السائدة كل علم فتروج الكلام الميتافيزيقي والاسطوري عبر وكلائها ووسائل الاعلام البصرية والسمعية ، والشائعات ، والدعايات ، والقيل والقال .

« ألم يبلغك ما يقال عن الغاء البغاء !

- وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أي عمل ؟ عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق الا نحن ؟

ـ لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد !

(. . .)

ـ ستنتشر الدعارة في كل مكان . .

ـ والأمراض كذلك .

ـ وآلاف البنات سيتعرضن للفساد . .

ـ ماذا تقول لمن لا عمل لهم ؟ (ص ١٢٠ ـ ١٢١) .

في هذا الحوار تمتزج الأيديولوجيا الشائعة والأيديولوجيا المستقلة الى حد ما ولا سيما في لغة قدرية . وينتج عن هذا التصديق للشائعات فتستبد لحظة الجنون ببيومي فيتزوج قدرية التي تشبه بسبب الوضع المادي : « وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابع في الصفقة بسبب الحسماللة جنيه ! » (ص ١٢٣) . ولكن عودة العقلانية تخنق الجنونية : « وجرت المراسيم وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذي جرى ؟ واجتاحه شعور تمزق بالقلق بلغ حد الرعب فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد سحابات الكابوس الذي يعاني منه . لم لما أدل باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . إنهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف أن يعترف ـ بدءاً من الآن . انه مجنون » (ص ١٢٣) . التأدلج يقلب الحقائق فما هو عقل يسميه جنوناً وما هو جنون يسميه عقلاً . ثم يحشد بيومي في كلامه سيلاً من الأحكام التقويمية وفق المعيار الأخلاقي والجمالي : « كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش » . (ص ١٢٣) . وتتمظهر الأدلجة في القول المبتذل « ست البيت » ، « الوسط الراقي » ، « وثبة خيالية » وتتجلى إيديولوجيا السارد المستقلة في وضع كلمة الراقي بين مزدوجتين ليقول : إنه لا يزال متخلفاً : « ها هي لا تألو جهداً في لعب دور ست البيت في الوسط الجديد « الراقي » الذي يعد الانتقال اليه من « الدرب » وثبة خيالية . » (ص ١٢٤) وتستند التراتبية الى المعيار الذي يفرق بين الدرب والوسط الجديد . وفي حواره مع قدرية يبدو صراع الأيديولوجيات الفوضوية والسائدة :

« ـ بل إني آمل أن تصومي وتصلي فنحن في حاجة الى رضى الله عنا .

ـ إني مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم . .

ـ إنك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة !

ـ إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟

ـ يجب ألا تسكر على الاطلاق . . (ص ١٣١) .

إن السارد في عرضه لعلاقة بيومي بقدرية يسخر من « السياسيين » الذين يهتمون بظواهر الأمور ومظاهرها ويطلقون عليها مصطلحات اجتماعية دون ، التعمق في معرفة الواقع وأوليائه ، وتفاعل البنيات التقليدية بالحديثة سواء على مستوى البنيات الفوقية أو التحتية : « وتذكر الآراء التي يدلي بها الزملاء ـ المولعون بالسياسة والأفكار ـ هذه الظاهرة[4] وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات » (ص ١٣١) . تنتج البدانة من عدم بذل أي مجهود عضلي وعدم ممارسة قدرية الشغل أو الرياضة بعد العمل في مجتمع بطالي شل نصفه ومات وأخذ الموت يتسرب الى النصف الآخر .

إن طموح بيومي يحدد سلوكه حتى قبل أن يحققه . وهو في القرب من الطموح يمارس التسلط ولو في درجة دنيا . فنظرته الى الناس ترمي الى ما يسمها من ميز وتفرقة ، وتصنيفية ، وملكية ، وأنانية موصومة بالاحتقار ، والاستغلال ، والتشيء الشيء الذي يكشف للقارىء حقيقة الخضوع البرجوازي . إن البرجوازية تعبث كطفل كبير يعوض عن حرمانه الطويل

٤ ـ الظاهرة بدانة قدرية .

المكبوت ، في علم النفس الفرويدي البنيوي فالولد أبو الرجل وهي مقولة مشهورة تشخص النظام الأبوي لكن فرويد نظر في النتائج وأغفل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الهم الأساسي في منهج ماركس في علم الاجتماع البنيوي الذي مارسه في نقده لعلاقات الانتاج . أما نيتشه فهو قد أدرك بفلسفته العميقة أن الانحلال إذا بلغ أوجه فينبغي للأيديولوجيا المستقلة أن تستغله لأنه معطى يمكن الاعتماد عليه من أجل تحول قريب . : « وبمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمة عانس » (ص ١٣٥) . إنها ممارسة لا تعتبر الآخر إلا كسرير ومن هنا يعبر الاستبداد عن نفسه من خلال هذا السلوك المتفجر أنانية وتسلطاً . إن بيومي ينسى سنه الذي لا يتلاءم وسن الفتاة ولا مع الوظيفة أمل عمره . إنه لا يعي ذاته وقدرته الجسدية . يتخيل إليه أنه شاب ما يزال ويحاول تقليد الشباب وينكر شيخوخته التي تفرض وجودها عليه وتتطلب منه أن يحيطها بالعناية التي تستحقها ، ولكن عودة المكبوت تبرز من خلال سلوكه العابث المتأخر زمنياً . والفتاة كذلك - تحت دافع الحاجة - لم تول أي اهتمام لشبابها ، وحيويته الأنثوية التي لا تنسجم وبرودة جسم بيومي فنسيت نفسها ونسيت بيومي العجوز فيتبادلان التشيء ، ونتيجة لتناقص النساء على الرجال / المال تقول العجوز : « - طلق امرأتك أولاً » (ص ١٤١) . ولقد مسرح نجيب محفوظ في روايته هذه أعجوبة الأيديولوجيا السائدة بتجسيدها في شخص بيومي الذي قال لراضية (سماها نجيب بهذا الاسم دلالة على رضاها وقبولها لبيومي العجوز) مردداً القول السائر والذي يستحيل على من كان في سن بيومي تحقيقه :

« - معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة .

وقبلها ثم استطرد :

- سيكون لنا بنون وبنات » (ص ١٤٣) .

والانسانية والعقلانية في نظر المرأة المؤدلجة الطموح طموحاً زائفاً وميلنان الى غاية : الزواج والمال وما فيهما من استقرار طفيلي ، وأمان من عواصف الأيديولوجيا الحربائية المقلوبة : « - إنك تبدو لي « إنساناً » و « عاقلاً » لأول مرة » (ص ١٤١) . والسارد يضع الكلمتين اللتين جاءتا في كلام العجوز بين مزدوجتين للدلالة على أنه ليس كذلك أو لتأكيد كذب العجوز . وقدريه على النقيض منه إنسانة . فهي تقول له : « لك العذر ، أنا فاهمة كل شيء ، إنك تريد ولداً ، ولك الحق وربنا يحقق رغبتك .

- أنت طيبة وإنسانة يا قدرية . » (ص ١٥١) قد تكون كذلك أو يقول لها ذلك ليؤدلجها .

وإذا كان بيومي يخضع للرأي العام في الانجاب ، فالولد منسيا قبل أن يولد ما دام لم يفكر فيه وفي مستقبله ولا سيما إذا كان مشرفاً على الهلاك فالمرأة هنا جسر للعبور الى الولد : « - في لحظة يأس رميت بالمشرجة وراء ظهري وتركز أملي في حلم واحد هو الانجاب » (ص ١٥٢) . وهو حلم فات أوانه ، وهو في شانيته يعبث بالنساء كما يعبث الطفل بالدمى : « - إذا تهيأ لي يوماً أن أنجب فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهها الأبيض والأسود (ص ١٥٥) . واليتيمة والعانس العجوز تؤسسان رغبتها على عبادة صنم المال : « - أنت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك . .

- ما الفائدة ؟

- ها هي عقبى الطمع وسوء التصرف !

- اصرخي حتى يسمع ! » (ص ١٥٤) .

الشخصية وعلاقتها بالمثلين/ الأشياء :

يعبر البؤس والتراتبية بالكلمات / الأشياء عن

الفروق الطبقية وفق الدرجات في الوظيفة حيث يتميز قضاء عن قضاء ، ومكتب عن مكتب ، ومنصب عن منصب ، وراتب عن راتب تبعاً لتطور العمل ، وعن نوعية الاقتصاد الذي تسير عليه البلاد والذي يحدد وضعية الموظف ، وبالملابس / الاشارات الى الحالة المادية والاجتماعية والنفسية .

« ـ مكتبك تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة . . فقال عثمان :

ـ بدلتي قديمة جداً والحمد لله » (ص ٩ ـ ١١) .

إن هذا الكتب يختلف عن مكتب المدير العام المتميز والذي هو امتداد لشخص المدير العام الاله المتسلط ، المتجبر بحيث يتحقق له كل من مثل بين يديه . وهو الأقوى ككل الآلهة عبر العصور بالمال الذي يتجلى في الأشياء المحيطة به دون سائر الموظفين . لماذا يمتزج هذا الانسان بالإله في تصور بيومي إلى حد تحطيم الثنائية بين المدير العـام والإلـه ؟ إن بيـومي يتمثل الرمـز الأيديولوجيا السائدة من خلالها . إنه يؤلهه فتأليهه إنه يشبه رأس المال الذي ألهته شخصيات جيرمنال لزولا .

إن نجيب محفوظ يؤنسن الأيديولوجيا السائدة بالشخصية المؤدلجة التي ذابت في أختها صاحبة رأس المال وقد تأله كأن عبارتي نجيب « الاله القابع وراء » ، و « أمن بأنها تلتهم القادمين وتليهم » الدالتين على الأيديولوجيا التحريرية ترجمة لعبارات زولا :

"Le puits **avalait** des hommes (*)
par bouchees"

"La cage avait reparu (..) pour **engloutir** une autre charge d'hommes (..)

Le puits en **devera** de la sorte d'une **gueule** plus ou moins **gloutonne** (..) toujours 2 ffame, de boyaux geants capables de **digerer** un peuple" (٦)

"Jl songeait violemment (..) a **ce dieu repuet accroupi**
auquel dix mille affames don- (٧)
naient leur chair sans le sonnaitre."

"Car les riches avaient pris la (٨)
place de **Dieu**"

لا تنتج الأيديولوجيا السائدة إلا ذاتها .

إن المدير العام هو المنصب الذي بشرت به إشارة الخطاب المؤدلج التي ترسب في وعي بيومي ولا وعيه . إنه الاله مالك السلطة والقوة والنبي الذي يوحى اليه كما يظهر ذلك من خلال الفضاء : « انفتح الباب فتراءت الحجرة شراعية لا نهائية . تراءت دنيا من المعاني والمثيرات لا تكاد يحدوداً مطوياً في شتى التفاصيل ، آمن بأنها تلتهم القادمين وتليهم . لذلك اشتعل وجدانه وعرق في انبهار سحري . فقد أولا تركيزه . نسي ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الاله القابع وراء المكتب الفخم ، وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست في صميم قلبه حباً جنونياً ببهجة الحياة في ذروتها المتسلطة عند ذلك دعاه نداء القوة للسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يلوف الدمع الغزير قبل أن يعلي إرادته . وتلبية لاغراء لا يقاوم خطف نظرة من الاله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما يملك من

* ـ اميل زولا « جيرمنال » ط « كتاب الجيب » . 1976 ص 29
٦ ـ نفس المرجع : ص 29 — 30
٧ ـ نفس المرجع : ص 72
٨ ـ نفس المرجع : ص 37

خشوع » (ص ٥) . ثم يقول السارد عن الحجرة ذاتها : « وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفتها الكرستال ، وجدرانها المورقة ، مدخأتها الموشاة بالقرميد ، بساطها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود بساط في طوله وعرضه ، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر ، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلوري ، وتحفه الفضية من ورقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان وتالفضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلي » (ص ٦٣ - ٦٤) .

وحارة الحسيني التقليدية ، والمحافظة ، والثابتة على القيم البالية والمثالية امتداد لشخصية بيومي . فهي تنحني كما ينحني هو . وهنا لا نملك سوى أن نكرر ما يسبقنا اليه نجيب من أحكام نقدية حول علاقة الشخصية بالفضاء الذي يستخدم كنوع من المد للاشارة الى الشخصية المؤدلجة والى السارد غير المؤدلج من خلال النعوت التي يطلقها على الحارة : « من نافذته الصغيرة يرى وطنه - حارة الحسيني - كأنها امتداد لروحه وجسده ، حارة طويلة ذات منحنى حاد ، مشهورة بموقف الكارو وسقى للحمير . (. . .) ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس أو النجوى ، أصواتها مرتفعة جداً ، متوترة بين الحكمة والبدائية » (ص ١٢) . وحكم السارد عليها هو حكم إيديولوجيا متذمر المتعلقة على الشعر القديم الذي يخلو من الهمس الذي يشكل الميزة الأساسية للشعر المهجري . ويشير اللفظ / المنزل أيضاً الى وضعية بيومي الاقتصادية الى التراتبية والتفاوت الطبقي في السكن : « في مسكنه - حجرة وحيدة ومرافق - يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته » (م ١٢) .

وعندما يتحول الاقتصاد من المستعمر الى الاقتطاعيين أو بورجوازي هذا الوطن ، تتغير الأشياء بتغير الملاك . وإذا عرف النظام الاقتصادي الثبات ، فباقي التغيرات قشور ، وأعراض لا تمس الجوهر لعدم شموليتها وتتوقف عند من انتقلت اليهم وسائل الانتاج ، والذين يقومون بتغييرات لصالحهم ويفرضها تضخيم رأس المال واستثماره ، وتبذيره ، فيقع التهجير الاعتباطي أو التعسفي فينتقل « الضعفاء » الذين يعجزون عن بناء مساكن لأنهم متروكون للمصادفة ، فتنكرهم الأرض التي ناضلوا من أجلها حسب تعبيرات السارد النوستلجية والموضوعية ويهيمن ظلام الثنائيات ويعم : « ضاعت تماماً عواطفه الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من أهل الحي هاجروا الى المدبح ، كل شيء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاءة اللف تتوارى ، حتى الجبير والشر يتجددان ويتنوعان » (ص ١١٢ - ١١٣) .

وبيومي المؤدلج لا يطالع من الكتب سوى ما يتصل بالوظيفة وما يساعده على الترقية . إن حضور أنواع من الكتب وغياب أنواع أخرى لدليل على التأدلج المسيطر ، كل ما يتوفر عليه هو كتب القانون وسير العظماء - إرادة العظمة ونموذجها المدير العام - ، وقواميس الانجليزية والفرنسية قصد الترجمة ، وكتب الأدب القديمة . وتغيب عنده الكتب العلمية والأدبية الحديثة والفنية . . . : « ها هي كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة » (ص ٢٣) .

حتى في بيت قدرية فالأشياء / الكلمات دالة على التراتبية ، وعلى المستوى الاجتماعي والتاريخي الهابط حيث يرقص البؤس رقصة الموت الساخر من حياة كهله : « وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائية

بأرضها العارية فراشها المرقع والمرآة وكرسي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته في ليالي الشتاء (. . .) ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري . وكان قدح نبيذ « السلسلة » الجهنمي - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه » (ص ٣١ - ٣٩) .

إن الخمرة بالنسبة الى المؤدلجين الذين يعتقدون أنفسهم عقلاء والآخرين مجرد مجانين ، هي الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهم خرق المواضعات والضوابط الاجتماعية ، والخروج عن المقاييس السائدة والقاتلة . إنها تتسلل الى قاعة الذهن والعقل المستبد لتطرده منها بحيلتها الحوارية والتنويمية كي تستريح النفس من بطشه المؤدلج وتأدلجه المتسلط ، فتحقق الذات متعتها ، وتمارس جنونها الضروري . فاذا خرجت وقل تأثيرها ، عاد العقل بعقلانيته الصاغطة والاضطهادية بأساطيرها ، ومعاييرها ، وقوانينها لتختفي الجنون ، ويختبيء ، ويقبع وينبطح وكأن كتلة من الرصاص ثقيلة قد وضعت على مادته اللينة فشلته عن الحركة وعن حرية الابداع في القول والفعل وفي ضروب الجنون . ما أقصر عمر لحظة اللذة ! تتعجب ولا تدرك أن التأدلج هو السبب .

إن بيت قدرية لم ولن تصل اليه الكهرباء ، والماء . . . كالمستفيدين من الاستغلال : « تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران ، وأشاء الحجرة شمعة واحدة » (ص ٣٩) .

وبيومي بعدما أدرك أن الجوهر قد ضاع : شبابه ، وجولته ، وخاض الشيب في شعره ، والعجز في جسده ، فهو يريد أن يسترجع أيام زمان ولكن الزمن خطي وذو اتجاه واحد ، فأخذ يعني بالشكل والمظهر بعد

أن ضاعت الكينونة في سبيل كينونة أخرى ، والعناية بالمظهر لا تسترد الكينونة الضائعة ، لقد شيئا نفسه هذه المرة .

الكينونة هي جدلية الرغبة والنقص في الانسان .

لم يرضخ بيومي لتأدلجه لسنة الطبيعة التي تساعد العلوم على اكتشاف قوانينها للتحكم فيها وإعطائها حريتها ، ومعرفتها ، ومعرفة حاجاتها ، والطرق المؤدية الى المحافظة عليها ، وتحقيق رغبتها .

إن الجسد جزء من الطبيعة وهو وحده الكائن الواقعي كجزء منها .

إن الشباب يمارس طقوس الرجال والشيوخ أحياناً في فجر عمره وضحاه ، والشيخ في خريف عمره يمارس طقوس الشباب .

إن المؤدلج يستهلك ما لم ينتجه وطنه وإنما يستورده من استعمره أمس واليوم كي يتحول الاستعمار الى استعمار اقتصادي وهو أخطر من كل استعمار « لأول مرة يخطر في ملابس أنيقة . بدلة رمادية من الصوف الانجليزي ، وحذاء انجليزي كذلك ، أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راشية نفسها ، ولأول مرة يتعطر بالروائح الزكية ، ويحلق ذقنه كل يوم . ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره ، ولأول مرة يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى . » (ص ١٤٢) . إنه يتجاهل وقع الزمن المؤدلج وأحاديثه التي سطرها على جسده كفعل المحراث أو الماء الغزير بالأرض فتحول قبل الأوان وجعل منه جسداً محبطاً ، محطماً ، منهاراً وساقطاً ويشرف على النهاية لأن الأيديولوجيا الخداعة ألهته عنه بعدما شغلته بالأرواح والقوى والأمجاد الزائفة والبطولات الكاذبة . فحضور الزمن يتكرر في المقطع السردي بصيغة « لأول مرة » ثلاث مرات في وحدة

سردية صغيرة ثم يؤكد في نهايتها هذا الحضور الذي يشير الى غياب : « أكثر من أي وقت مضى » .

إن المظهر الواقعي والجدلي هو مظهر كينونة ذاتها لا مظهر كينونة أخرى مخالفة في الزمان والمكان .

النقد والايديولوجيا :

إن تقنية الروائي أو بنية خطابه الروائي تعبر عن فلسفة السارد ورؤيته للعالم . فالبنية السردية تعبير عن فلسفته . وهذه الفلسفة مجموعة من الأفكار والآراء ووجهات النظر المعايشة للشكل ومكوناته . فهي منبثقة منه ومن وضعه على الورقة . وبما أن الأيديولوجيا هي دراسة الأفكار ، والآراء ، ووجهات النظر ، فإن للفلسفة علاقة بالأيديولوجيا . وهذه العلاقة هي من المتانة بمكان كالعلاقة الموجودة بين الشكل والمضمون التي تدل على العلاقة الموجودة بين اللغة والأفكار ، وبين البنية والفلسفة ، والتعبير والأيديولوجيا . إن الحديث عن الشكل وبنياته هو حديث عن الأيديولوجيا ، واستجلاء تألقات الأيديولوجيا وظلالها في الخطاب الروائي هو أبرز للبنية السردية .

إن النقد في عملية تفكيكه للعناصر المكونة للشكل ، هو في ذات الوقت استجلاء لفلسفة أو أيديولوجيا العمل الروائي . لقد وقفنا على الايديولوجيا وتمظهراتها في الخطاب الروائي كممارسة نقدية تبرز هذه التمظهرات عبر لغة الخطاب قصد استكمال التصور عن مفهوم الايديولوجيا وعلاقتها بالنص الروائي . وهذه الممارسة تتوخى المنهج البنيوي الجنيني الذي يتصل مباشرة بالمضمون ، ويرصد ، بعيدا عن التنظيرات التي قيل فيها الكثير وسودت صفحات الكتب والمجلات حول مفهوم الايديولوجيا ، تجلياتها في البنيات التعبيرية الدلالية للعمل الروائي . فإذا كانت الايديولوجيا تعني فيما تعنيه أفكار وآراء ووجهات نظر الانسان في محيط اقتصادي ، وثقافي معين ، فإننا عرضنا ، ممارسة ، أفكار ، وآراء ، ووجهات نظر الشخصية ، وأفكار ، وآراء ، ووجهات نظر السارد كما سردنا مدى انفصال واتصال ايديولوجيتها . وهذا المنهج يعد أكثر تطورا من المنهج البنيوي الجنيني الانتقائي الذي عرفته الممارسات النقدية عندنا في النقد العربي وذلك إما لغموض البنيات الدالة ، أو لتعددها ، أو لاتساع وتشعب علائق الشخصيات فيما بينها وعلاقتها مع الممثلين/ الاشياء في العمل الروائي .

إن عرض وجهات نظر نقدية جمالية بنيوية أو فكرية للعمل الروائي هو نقد إيديولوجي يتخذ السارد كشخصية وعلاقته بباقي الشخصيات ويرصد تقنيته وبنية عمله الروائي لابراز إيديولوجية الروائي وتأدلجه . وهذا النقد نقد ايديولوجي مستقل أو أكثر استقلالا من ايديولوجيا الروائي . وانه لينتظر نقدا ايديولوجيا آخر أكثر استقلالا وهكذا دواليك الى ما لا نهاية لطبيعة الأفكار الجدلية .

بنية رواية « حضرة المحترم »

من المصطلحات النقدية المضللة ما كانت تعرف به الرواية وتصنف كجنس أدبي يتميز عن باقي الأجناس الروائية التاريخية ، والتعليمية ، والفنية ، والسيرذاتية ما أطلقه النقاد في العصر الحديث كـ « رواية الشخصية » و « رواية الحدث » ، ولم نكن وقتها ندرك لها تخوما لأن جهلنا لمظاهر ، وخصائص ، ومميزات ، ومكونات الشخصية الروائية التي تستلزم معرفة واسعة بالانسان في طبيعته وحاجياته ، وسلوكاته الثابتة والمتحولة التي تساعدنا العلوم الاخرى على معرفتها ، يجعلنا نزيد العمل الروائي ، في نقدنا له ، غموضا وإبهاما ، كيف كنا نفهم الشخصية الروائية ؟ كنا

تفهمها على أنها الصورة للشخص كما هو في الحياة أو دون ذلك ، وكنا ، علاوة على ذلك ، لا نفرق بين الشخصية في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، وبين الشخصية كمكون بين مكونات الخطاب الروائي . إن الشخصية هي التي تحدد للعمل الأدبي جنسه . وبناء على هذه الرؤية النقدية ، يمكن أن نطلق على رواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ مصطلحا أكثر دقة يحدد جنسها الأدبي وهو مصطلح « السيرة الذاتية للشخصية المؤدلجة » .

في هذا الجنس الأدبي يوظف الكاتب التقنية الكلاسيكية في الابداع الروائي الذي كان معروفا عند المبدعين الغربيين الكلاسيكيين كسيرفانتيز ، وبلزاك ، وفلوبير . . . وتتمظهر هذه التقنية في التجليات التالية التي تحدد بنية السيرة الذاتية للشخصية المؤدلجة .

١ - الرواية بضمير الغائب التي تتبح « الرؤية مع »

٢ - تأثر الكاتب بالنظرية الداروينية والتاريخية التطورية التي تتجلى في تعاقب الأحداث وتسلسلها وفق سيرورة الزمن الخطية حفاظا على التحامية البنية الروائية وتماسك أجزائها وعناصرها في وحدة تربط حلقات سردها ارتباطا منطقيا صارما . ولقد تناول فيها شخصية وتتبعها في نموها الزمني كما عرض مراحل حياتها جميعها منذ دخولها الى الوظيفة وهي مرحلة الشباب ، مع فلاش - باك يتيم يذكرنا بمرحلة الطفولة وهي يوم دخولها الى المدرسة الابتدائية ، ثم مرحلة الرجولة التي قضاها في الوظيفة ، ثم مرحلة الشيخوخة ، ثم الموت . والشخصية تخضع في حياتها العملية لتقنيد القرار الايديولوجي إلى درجات الترقية الانحدارية وتبعا لذلك فإن البنية الروائية تخضع للتطور والتدرج وفق نظرية/ إيديولوجيا « النشوء والارتقاء » الداروينية . ورغم أن هدف نجيب هو رصد سقوط الشخصية وانهيارها ، وموتها ، فإن البنية الروائية بقيت خاضعة للمنهج الداروينى في صعود الشخصية في درجات الترقية . ورغما من أن الانحدار والسقوط هو غاية نجيب فهو لم

يكن انحدارا قاسيا وأكثر مأساوية وتأثيرا لانه يشبه الانحدار الطبيعي الذي يذعن له حتى الشخصية غير المؤدلجة والشخصية التربة . وفضلا عن ذلك فمنهج داروين منهج طبيعي يتبع في داروين مراحل تطور الكائنات في نشوئها ، ونموها ، وتطورها ، وانقراضها ، وأن الطبيعة كقوة لها قوانينها التي تتجلى في الانتخاب كي يبقى العنصر الافضل ، والاجل والاصلح والاقوى . أيلتقي نيتشه بداروين في إرادة القوة ؟

صحيح أن الكاتب ، تحت هاجس الواقعية ، أراد أن يقدم الشخصية العامل/ الموظف المؤدلج كما هو في الواقع رازحا تحت صخرة الترقية الخاضعة للدرجات الانحدارية ٨ . . ٧ . . ٦ . . ٥ . . ٤ . . ٣ . . ٢ . . ١ . . ٠ ودرجة المدير العام التي هي ٠ أي صفر أو لا شيء إذ تبدو إيديولوجيا السارد المستقلة في اعتبار درجة المدير العام صفرا أو لا شيء ، وحتى لو قدمت بشكل تصاعدي ٠ . . ١ . . ٢ . . ٣ . . ٤ . . ٥ . . ٦ . . ٧ . . ٨ فإن ذلك لن يغير من الصيرورة الزمنية شيئا .

٣ - عدم تأثر الرواية عندنا بالملحمة بقدر تأثرها بالتراجيديا اليونانية التي خضعت للتنظير الارسطي الذي كان لكتابه « فن الشعر » ولا يزال تأثير وأي تأثير في المبدعين والنقاد الى اليوم . والمأساة اليونانية ترتبط بالانسان ، وتصوره وهو يعمل ، وعبر جميع مراحل حياته . إنها تخضع بدورها لتطور الشخصيات وتنامي الاحداث (الكل ، هو ماله بداية ووسط ونهاية) أو (انقلاب السعادة الى شقاء أو الشقاء الى سعادة حسب

مجموعة من الاحداث المتسلسلة وفق الممكن/ المحتمل)[٩].

٤ - العقلانية الصارمة التي مارست عليه منطقها فاختار ثماني درجات وثمانية بنود في ورقة عمل الشخصية، وثماني شخصيات/ النساء وثماني شخصيات/ الرجال بحيث يمكن أن نستنتج المعادلة التي وضعها نجيب لبناء روايته.

المعادلة التي بنيت عليها الرواية:

المدير العام = ٠

حلم بيومي = المدير العام = ٠

بيومي = ٠

علاقاته بالنساء والرجال والدرجات الذين هم وسيلة لبلوغ منصب المدير العام وتحقيق الحلم: بما أن عدد النساء هو ثمانية وعدد الرجال هو ثمانية وعدد الدرجات هو ثمانية فإن المعادلة الروائية هي:

١ - ٨ × ٠ = ٠

٢ - ٨ × ٠ = ٠

٣ - ٨ × ٠ = ٠

وإذا إختزلنا ذلك كله تصبح المعادلة هي:

(٨ × ٣) × ٠ = ٠

٥ - عدم ممارسته الجنون في الرواية. لو أراد أن يفعل لبدأ مثلا بسقوط الشخصية ثم يطلعنا بالتباطل عن الاسباب التي دفعتها الى الموت والتي ستبقى هي هي رغم اختلاف التقنية التي ستقدم الرواية في شكل أكثر إثارة وتأثيرا ومتعة وإقناعا. وستتكسر إذاك خطية الزمن ورتابته للقبض على إنتباه القارىء بشكل أكثر فنية، فحتى حضور أو غياب الشخصيات ثم حضورها يخضع للسببية وخيطها التعاقبي الواضح.

يتمسك الكاتب في رسم الشخصيات الى معيار تراتبي يقسم الشخصيات الى رئيسية وثانوية ويجعل الشخصية/ الرجل دائمة الحضور دون الشخصية/ المرأة وكان ينبغي الاهتمام بجميع الشخصيات وأن تظهر بالتساوي مع الشخصية الرجل على مسرح التمثيل الروائي. فحضور شخصية باستمرار وغياب أخرى باستمرار يضعف الصراع والتوقف من الأحداث.

ويسود في الرواية الوعي ويغيب فيه اللاوعي بالمفهوم الفرويدي. فغياب أحلام النوم، والاقتصار على أحلام اليقظة يضعف مأساوية جميع الشخصيات، فهيمنة الأنا المؤدلج لن يبرز بشكل جلي إلا إذا برز ضده ونقيضه وهو اللاوعي أو الأنا اللامؤدلج في الأحلام النومية. لقد اكتفى الكاتب برصد الأفكار العقلية التي تنسجم مع الخيال المؤدلج الذاكري، ورصد العقلانية وأغفل الجنون. إن بيومي يبدو كشخصية سوية مع أن حتى أن يبدو كمجنون يمارس الجنون في أوجه في تعامله مع الشخصيات الأخرى وأن يحقق في الحلم النومي مالم يحققه في اليقظة أو ما يكبته طول النهار. كما أنه ينبغي أن يبدو كشخصية منهارة الاعصاب، مضطربة، كثيرة الاحلام، قليلة النوم، ومتعددة الكوابيس. وينبغي لهذا الجنون أن ينعكس في البنية الروائية، في شكالها التعبيري كتقنية مجنونة تترجح بين الجنون والعقلانية وانسجاما مع الشخصية المكبوتة والتي تقمع ذاتها لتأدلجها، ومع وجهات نظرها، وأحلامها في النوم واليقظة، وهواجسها، وكوابيسها الى أن تتداخل الأزمنة والامكنة والشخصيات، وتتداخل البنيات السردية الواعية واللاوعية بلغة تسجل زلات اللسان، والأخطاء في الآراء وفي التعابير، والتقليد والتجديد، والعقل والذاكرة، والعقل والقلب،

---

٩ - أرسطو - فن الشعر - ترجمة روزان حبوي - رؤية ريجان الأنو ... ط: سوري بلريز 1980 ص 69 — 71

والوعي والخيال ، والتصور واللاوعي ، والتذبذب ، والتردد ، والاقبال والاحجام ، وتداخل الشخصيات بالأشياء ، والشعر بالنثر ، فتعدد الصيغ ، وتنوع الأساليب وتكثر الأصوات في الذات وفي العالم الخارجي ، وفي النص الروائي . لا ينبغي للكاتب المجنون/ العاقل أن يؤجل المأساة كما يؤجل الموت . ينبغي أن تشرف الشخصية في كل مرة على الهلاك ، والقلق ، والحيرة ، والحزن المتداخل مع النجاة ، والفرح ، والاستقرار المؤقت ، والسرور القصير الأمد . فالحطاب الذي يسقط الشجرة لا ينتظر حتى تهب الرياح كي تسقطها . إنه يضربها بفأسه كل مرة ضربة تدع فيها جرحا عميقا لا يلتئم ثم يوالي الضربات حتى تسقط . من خلال الشجرة الساقطة يمكن أن ندرك نوع الضربات والاداة التي تمت بها وإذا أردنا التفاصيل سألنا الحطاب .

٦ ـ ما قام به السارد من حلف وصمت ، والتزام السكوت استجابة لماجس العقلانية ولا سيما في مجال الحديث عن الجنس كممارسة جنونية .

٧ ـ غياب الحديث عن الأطعمة سوى بعض الاشارات النادرة .

٨ ـ استبداد السارد بالكلمة دون الشخصيات . قليلة هي الوحدات السردية التي نجد فيها المونولوج التلقائي بل تكاد تكون نادرة أو منعدمة بخلاف المقاطع السردية التي يغلب فيها صيغ المحكي الذاتي المجلوب والمتأثر ويندر التناغم .

***

المراجع :

(١) نجيب محفوظ، حضرة المحترم، ص : دار القلم بيروت 1977.

(٢) Philippe Hamon "texte et ideologie" P.U.F Paris 1984.

(٣) Philippe Hamon "Pour statut semiologique du
Philippe Hamon personnage in "Poetique du recit"
Philipe Hamon R. Barthes, W. Kayser, W.C. Booth,
Philippe Hamon Ph. Hamon. Seuil/points, Paris 1977.

(٤) Philippe Hamon "le personnel du roman" Droz. Geneve. 1983.

(٥) Henri Mitterand "le discours du roman" P.U.F. Paris 1980.

(٦) Mikhail Bakhtine "Le Marxisme et la Philosophie du Langage" ed. de Minuit. Paris. 1977.

(٧) Gerard Genette "Figures I" ed. Seuil/points. Paris. 1977

(٨) Jean Decottignies "Lecriture de la Fiction. situation ideologique du roman" P.U.F. Paris. 1979.

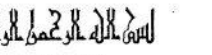
(٩) Aristote "La Poetique" Texte, traduction, notes par Roselyne Du pont-Roc et Jean Lallot. Seuil. Paris. 1980.

(١٠) E. Zola "Germinal" Livre de Poche.

* * *

بداية الكتابة العربية

محمود حلمي



شكل رقم ١ : بسملة بالخط الكوفي
الفاطمي كتبها أحمد يوسف

حروف الكتابة العربية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها المنهج العربي التقليدي أنها إنما جاءت بهذا القدر لتكون مثل « منازل القمر » المقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما « ولما كانت منازل القمر يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ويغيب تحت الأرض أربع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة وهي الألف والباء والحاء المهملة والخاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة ، وهي التاء المثناة من فوق والثاء المثلثة والدال المهملة والذال المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة والنون . » (١) وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة « يس الآية ٣٩ » .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

وارتباط الحروف الأبجدية العربية بمنازل القمر المتباينة له جذور ضاربة في تاريخ الشرق الاعتقادي منذ فجر الحضارات ، فعبادة القمر وكان يطلق عليه « الاله سين » « وسين هذا هو سيد الشهر ينظم أيام الشهر والسنة » (٢) وكانت عبادة القمر قائمة في كل مكان تجدها عند السومريين وهم جنس غير عربي عاشوا في منطقة الرافدين الجنوبية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد

---

(١) أبو العباس القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء . الجزء الثالث ص ١٦ - ١٧ . الطبعة المصورة بالقاهرة ١٩٦٣ .

(٢) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور / السيد يعقوب بكر ص ٢٥٥ القاهرة بدون تاريخ .

وكانت ذات العبادة قائمة عند « الأكاديين » AKKADIANS (٢٧٠٠ ق . م) وهم السلالات العربية التي سكنت المنطقة . وكانت مدينة « أور » أحد مراكز عبادة القمر وكذلك المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية حيث يوجد حتى الآن أطلال معبد في مدينة « الحريضة » بحضرموت — CHATTAM OTITAI ، وكذلك كانت أرض « سيناء » تعرف باسم « أرض القمر » . ويعد إله القمر من أقدم الآلهة ويعتبر أبا للالهين الشمس وكوكب الزهرة . » (٣)

وإذا كانت هناك أسماء مختلفة قد أطلقت على « الجنس العربي » على مدى من التاريخ البعيد السابق فهم وأينما كانت مواطنهم في أرض « الهلال الخصيب » قد احتفظوا في كل مكان حلوا به بلغتهم التي خرجوا بها من موطنهم الأصلي بيد أن هؤلاء الذين بقوا في هذا الموطن ولم يبرحوه في أي هجرة من الهجرات السابقة قد تميزوا بأنهم حافظوا على لسانهم العربي ولغتهم الأم وقد ساعدهم على ذلك طبيعة البيئة الصحراوية المغلقة المنعزلة القاصرة على سكانها وحدهم ومثل هذه الطبيعة الصحراوية دائما ما تشكل المحافظة المطلقة على الجنس والعادات والمعتقدات وبنيتها المنطوقة .

وحين جرت اللغة العربية سلسة وطيعة على لسان سكان شبه الجزيرة العربية ، ظهرت ملكات فطرية كفيض متدفق أراد الله تعالى له أن يكون شيئا مختلفا غير هذا الذي نجده في الفرع « الارامي » أو « النبطي » أو حتى في الشكل الذي تلقاه في ما سموه « العربية البائدة » التي نجدها في النقوش « الصفوية » أو « الثمودية » و « اللحيانية » أو حتى في هذا الفرع المتأخر من اللغة « الأرامية المسيحية » (السريانية) ذات الكتابة « السطرنجيلية » وذلك لأن رسم الحروف الأبجدية العربية كان له تشكيله الطبيعي الذي له دوافعه في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطه بالخط « المسماري السومري » أو « المصري الهيروغليفي » أو « الاكادي المسماري » أو « الفينيقي » وكذلك لم يكن للحروف العربية الأولى أدنى علاقة تربطها بهذه الصورة التي نجدها في الخط « المسند الجنوبي » الذي ذهب فيه رأي ابن « خلدون » في قوله : « وكان الخط بالغا مبالغه من الأحكام والأتقان والجودة في دوله التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر أنسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين » (٤)

ولم يكن رأي « ابن خلدون » هو وحده الذي ذهب بأصول الكتابة العربية إلى الخط المسند فقد ذهب معه الكثير مثل « الفيروز ابادى » صاحب « القاموس المحيط » الذي قال من هذا الخط ، لقد سمى العرب خطها بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميرى ، وهذا ما ذهب إليه أيضا الألوسي في بلوغ الأرب ، في قوله وسمى خط العرب بالجزم لأن الخط الكوفي كان أولا يسمى الجزم قبل وجود الكوفي لأنه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميرى ومرامر هو الذي اقتطعه » (٥)

وإذا كانت مثل هذه الآراء القديمة لا نجد لها من يعارضها في الماضي فهي في وقتنا الحاضر قد تغيرت بسبب المكتشفات الأثرية الحديثة التي لاحقتها دراسات موضوعية أثرت المادة العلمية بإضافات وحقائق جديدة سعى بها أصحابها من العلماء أن يلزموا مادة « النقوش العربية » ARABIC INSCRIPTIONS، وأصول الكتابة العربية وجذورها وتعاقبها في الزمان والمكان مسارا منهجيا مرتبطا بالموضوعية الأثرية والتاريخية حتى ذهب الرأي العلمي ليقول : « إن الخط العربي لم يقتطع من المسند الحميرى كما تقول هذه

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٦ كتاب الشعب بدون تاريخ .
(٥) الدكتور / خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الاسلام - مجلة كلية الآداب المجلد الثالث الجزء الأول ص ٣ القاهرة مايو ١٩٣٥ .

الرواية ، وليس هناك أي علاقة بينهما سوى أنها قد اشتقا من أصل عربي واحد كما يظهر في مقارنة الحروف العربية القديمة التي تدل على أنها تختلف عن بعضها اختلافا شديدا . إذن فهذه النظرية خاطئة ، ولعل هذا الخطأ نشأ عن أن العرب في عصر التدوين كان تعرف عن طريق الروايات المتواترة أن اليمن فرضت خطها المسند على بعض الأمم العربية الشمالية فاشتقت منه قلما تكتب به ، والمقصود بذلك اللحيانيون والثموديون والصفويون لأنهم اقتطعوا خطين من المسند الحميرى فظنت العرب أن المقصود بهذه الروايات هو خطها الذي تكتب به وذلك لأنها كانت تجهل هذه الخطوط السابقة كما أنها كانت لا تعرف علم البحث عن النقوش . » (٦)

وقلم « المسند » هو ذلك القلم الذي عرفه ابن خلدون باسم المسند الحميرى وهو ذلك الخط الجنوبي « الذي عرف عند المستشرقين باسم القلم « الحميرى » و « المسند » عند الاسلاميين من كلمة (مسند) ومعناها الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية ، وهي أدق معنى من مصطلح المستشرقين فإن « حميره قوم متأخرون بالنسبة إلى المعينيين « والسبئيين » و « الحضرميين » و « القتبانيين » وقد عرفوا قبل الميلاد فيما بعد ، ولا يجوز إلحاق المتقدم بالمتأخر ، والصحيح هو العكس ولصعوبة إثبات أول من استعمل هذا القلم من عرب الجنوب لتنسبه إليه ، لذلك أفضل تسمية الأسلاميين على تسمية المستشرقين » (٧) وذلك عند قول الدكتور « جواد على » .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الخط المسند ككتابة جنوبية موطنها ربوع اليمن وبين الخطوط الشمالية « آرامية » كانت أو نبطية » ولكننا نجد في أنفسنا أنه من الضرورة أن نضع في تصورنا أنه إذا كان هناك موضوع خلاف قائم بشأن رسم الحروف وشكلها بين الخط العربي الشمالي والخط العربي الجنوبي فالأمر ليس كذلك ، من الناحية اللفظية والحركة المنطوقة التي يمكن أن نقول عنها أنها كانت متماثلة تماما مثل الأصول العرقية ، ومهما كان من أمر فهؤلاء الذين كتبوا بالخط المسند كانوا على وجه التأكيد أحد الفروع الرئيسية المنتمية إلى « العرب العاربة » وأن ألسنتهم كما تحدثت عنها الرواية العربية كما يقول المؤرخ « المسعودى » أنها : « متصلة بإسماعيل بن إبراهيم الخليل كما يحكى هشام بن الكلبي » (٨) وأن لغتهم التي كانوا يتحدثون بها كانت هي اللغة العربية التي يتحدث بها أهل الشمال الذين كانت مكانتهم الحضارية بحكم موقعهم الجغرافي تفوق المكانة الجنوبية رغم كل المكتشفات الأثرية التي ظهرت في الجنوب ، وذلك لأن الشمال بسلالته العربية كان له تاريخ حضاري مميز وضارب في أعماق الزمان والمكان وفي بعض رأي العلماء أنه كان يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، ويؤكد ذلك ويثبت أثريا ، « أنه قد عثر على نقش مكتوب بالخط المسماري خاص بالملك « نرام سين » NARAM — SIN يذكر أرض أرام وكانت تقع في الجنوب من الرافدين . (٩) « نرام سين » هو أحد ملوك الدولة الأكادية التي كان شعبها ممن خرج من الجزيرة العربية .



شكل رقم ٢ : حروف مختلفة من الأبجدية الفعلية والحميرية
(المسند) وما يقابلها من الحروف العربية .

---

(٦) المصدر السابق : ص ٣٠٤ .

(٧) الدكتور / جواد على العرب قبل الاسلام (الثقافة الأسلامية والحياة المعاصرة) جمع وتقديم / محمد خلف الله ص ٣١٤ القاهرة ١٣٣١ هـ ١٩٥٥ .

(٨) أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الثاني ص ٧٠ القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ .

(٩) سبتينو موسكاتي : نفس المصدر ص ١٧٦ .

والشعب « الأكادي » هو من هذه السلالة التي يحتم علينا أن نطلق عليه « الجنس العربي » الذي خرج من الجزيرة العربية وانتقل إلى أرض « الرافدين عندما حل بالأرض العربية تغيير جيولوجي شامل أحال الأرض الخضراء إلى صحراء قاحلة وفي هذه الأرض الجديدة وبجانب النهر الكبير استقر هذا الشعب العربي الذي أخذ بزمام أموره زعيم قوي هو الملك « سرجون الأول » SARGON (٢٣٠٠ ق . م) وأسس الدولة « الأكادية مستعيرا مقوماتها السياسية بما كان لدى الشعب « السومري » (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق . م) الذي لا نعرف له جذورا عرقية ، والذي سكن هذه المنطقة قبل أن يحل بها الأكاديون . وإذا كان هذا الملك الأكادي قد أخذ بأسباب الحياة التي وجدها مزدهرة آنذاك في أرض الرافدين ، فهو لم يغير من لغته القومية الذي خرج بها من موطنه الأصلي ، فقد أبقى عليها لأنها كانت لديه حقيقة قومية له ولشعبه ، ولكن ضرورة الحياة حتمت عليه وعلى قومه أن يكتبوا لغتهم العربية بالحروف « المسمارية » CUNEIFOR, SCRIPT التي كانت مستعملة في الكتابة « السومرية » التي كانت تكتب على الرقم « الفخارية » والتي ظلت مستعملة كصحائف مميزة للتدوين حتى إبان عصري الدولة « الأشورية » (١٠١٥ - ٥٠٠ ق . م) والدولة البابلية (١٠٠٣ - ٣٠٠ ق . م) بل وكتب بها أيضا شعوب ساحل البحر الأبيض حيث استعملتها مملكة أبله EBLA (٢٤٠٠ - ٢١٥٠ ق . م) وكذلك مملكة « أجاريت » UGARIT (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق . م) وكل هؤلاء ينتمي أصلهم إلى العرق العربي .

واذا كانت الدولة البابلية قد استعملت الحروف المسمارية لتكتب بها لغتها العربية فقد كان ذلك منها اتباعا أخذته عن السابقين لها رغم ما كان هناك من فروق في الخاصية اللغوية التي تفصل بين قواعد اللغة السومرية وقواعد اللغة « البابلية العربية » وهذا ما دلل عليه عالم اللغات القديمة « وليم رايت » W . WRIGHT في كتابه « محاضرات في قواعد المقارنة للغة السامية » قال فيه : ان هناك فوارق رئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هي الآتية :

١ - اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجي في تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير جميع الكلمات وتصريفها في تغيير معاني ألفاظها .

٢ - جذر أو مادة الفعل السومري غير قابل للتغيير أما جذور الفعل البابلي فإنه يتغير بتغيير الحركات .

٣ - ليس في السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث .

٤ - حروف الجر تأتي بعد الاسم المجرور في السومرية على حين أنها تأتي قبل الأسم المجرور في البابلية .

٥ - إذا كان المفعول ضميرا أدمجته السومرية في ثنايا الفعل ، أما البابلية فانها تلحقه بالفعل في آخره .

وتتفق البابلية في جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية ولا سيما العربية . أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها . ولعلها شوائب لغوية من العصور التي قبل التاريخ » (١٠)

ويساند هذا الرأي ويعززه ، « ما ذهبت إليه طائفة من العلماء المحدثين على رأسهم العلامة « أولزهاوزن » OLSHAUSEN إلى ان اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى السامية الأولى » (١١) وكان الأحرى بهذا العلامة إذا أراد أن يكون منصفا مع مادته العلمية أن يقول أن اللغة العربية المحدثة هي أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الأم وإذا كانت هناك آراء متباينة ازدحم بها حقل أصول اللغة العربية ومكان الوطن الأول للشعب الذي يتكلم بها .

---

(١٠) ج . أ . دريفر : حل رموز الكتابة السومرية والبابلية والعلمية والكلدانية : مجلة الأدب والفن الجزء الأول ص٧ السنة الثالثة لندن ١٩٤٥ .
والمرجع : وليم رايت :
W. Wright: Lectures on the comparative grammar of the semitic languages
(١١) الدكتور / علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة الطبعة الأول ص ١٠ القاهرة ١٩٤٥ .

وهناك العديد من الدراسات الموضوعية التي أكدت علميا وأثريا أن الوجود العربي كان قائما في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية العربية (٢٣٠٠ ق . م) أي أن وجود العرب في هذه المنطقة الخصبة كان قائما ابان هيمنة الدولة السومرية (٢٨٠٠ ق . م) التي لا نعرف شيئا عن شعبها ولا عن موطنهم الأصلي الذي جاءوا منه ، ولا عن تاريخ دخولهم أرض الرافدين وقد تناول العديد من العلماء في أوربا هذه الدولة بالبحث والاستقصاء الشامل في دراسات معاصرة ألقت الضوء على هذه الحقبة التاريخية . كما تناولها علماؤنا في العراق في دراسات علمية وتاريخية وأثرية ، ومن ذلك هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ « عبدالكريم عبدالله » ومهد له بقوله : « ما تزال في الهيكل الحضاري العام لبلاد الرافدين نقاط غامضة إلى جانب معلومات وحقائق أخرى مشتتة تحتاج إلى الجمع والتثبيت خاصة بعد كشف التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية الحديثة لجوانب من ذلك الغموض وبقاء تلك المعلومات خارجة عن محور التاريخ الحضاري العام لبلاد وادي الرافدين في الكتب التي تؤلف أو تبحث في ذلك التاريخ . ولعل في تلك الجوانب التي ما يزال الغموض يحيط بها هو الوجود السامي « العربي » في العراق قبل قيام الدولة الأكادية التي غالبا ما يعدها المؤرخون ممثلة لأول هجرة سامية (عربية) في العراق » (١٢)

ويعد ما أن الأستاذ عبدالكريم عبدالله بالعديد من آراء العلماء مثل « ف . كريستيان » و « جوردن تشيلد » و « أنطون موركات » و « موسكاتي » و « ساجي » و « كرامر » وغيرهم ممن تناولوا هذه الحقبة من تاريخ الشرق القديم ، قال : « نضيف إلى ما تقدم من الاحتمالات والشواهد الجغرافية واللغوية والإدارية التي تعكس ملامح الوجود السامي (العربي) في العراق قبل قيام الدولة الأكادية مع ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة لحضارة عصر فجر السلالات ومن ثم فإنها ربما تبين أثر الساميين « العرب » في جوانب الحضارة السومرية وتأثير فكرهم الديني في الفكر الديني السومري . » (١٣)

وحتى إذا جاء الى آخر البحث استخلص فيما استخلص نتائج ذات أهمية بالغة ذهب فيها قوله : استنادا إلى كل ما تقدم يمكننا القول بأن الساميين العرب قد وجدوا في وادي الرافدين منذ أزمنة قديمة جدا تسبق العصور التاريخية وأنهم قد تركزوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر منذ بدايات عصر فجر السلالات ، لذلك فإن ظهور الأكاديين في بلاد الرافدين لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو بلاد الشام إلى العراق كما أنهم لا يمثلون ـ كما يرى البعض ـ فتحا أجنبيا بقدر ما كان تحركا شعبيا اتجه من جزء من موطنه نحو آخر تمثلت فيه وفرة المياه وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخرى سبقتها في الاستقرار بفترة لا يمكن تحديدها بالضبط . » (١٤)

وإذا كان علينا أن نضيف شيئا موضوعيا إلى هذه الحقائق الأثرية والتاريخية المتعلقة بالوجود العربي في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية فهناك واقع آخر على جانب كبير من الأهمية الحضارية ، ظهر واضحا في ذلك التباين الذي يفصل ما بين بنية الفن السومري وبنية الفن الأكادي وهذا ما يمكن التأكد منه والتعرف عليه بوضوح حين نلقي نظرة فاحصة على القطع الأثرية المختلفة الشكل والخامة التي بقيت من التراث الفني لكل من الدولة السومرية والدولة الأكادية . والتي نجدها في متحف بغداد ، ومتحف اللوفر والمتحف البريطاني بلندن . إن هذه القطع الأثرية سوف تعطينا الدليل الموضوعي على أن الفن الأكادي لم يتأثر بالفن السومري السابق له رغم ما كان بينهم من صلات تاريخية ومكانية . ومن ثمة فسوف يمكننا أن نقول أنه مما لا سبيل الشك فيه أن المدرسة السومرية الفنية كانت من خلال خصائصها متباعدة كل البعد ومنفصلة كل الانفصال

(١٢) عبد الكريم عبد الله : ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية : مجلة سومر ص ٥٩ ـ ٦٠ الجزء الأول المجلد الثلاثون بغداد ١٩٧٤ .
(١٣) المصدر السابق ص ٧٥ .
(١٤) المصدر من السابق ص ٧٦ .

عن المدرسة الفنية الأكاديمية ، لا في الأساليب التشكيلية والطابع التعبيري وحده بل وفي طبيعة كل منها التي تأتت من أن جذورها الفنية مختلفة المصادر .

ومهما كان من أمر ومهما تعددت الآراء واختلفت فيما بينها أو تفاوتت ، : « فمن المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها وأنه ما تكاد تعدلها في ذلك أي لغة (سامية أخرى) ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم مواطن (الساميين) وبقائها في منطقة مستقلة منعزلة . فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم(١٥) وكان لابد أن يأتي ذلك الحين الذي احتضرت فيه الكتابة المسمارية ، وأن تأخذ شعوب الشرق العربي بالحروف « الأرامية العربية » التي من المحتمل أنها قد انبثقت من حروف أبجدية سابقة كانت موجودة من قبل وقائمة على بطون عربية لم يكشف عنها بعد حتى الآن أو ربما تكون هذه الأبجدية من إبداع (العرب الأراميون أنفسهم) وبلغت ذروتها حين أفسح التاريخ لها مكاناً مرموقاً بين أقرانهم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإذا كان بعض العلماء قد أبانوا عن أصول الحلقة المفقودة للحروف الأبجدية العربية القديمة وعينوا مكاناً وزماناً معيناً وشعباً بذاته هو صاحب هذه الحروف فقد ذهب البعض الآخر من العلماء وأتى رأيهم على نحو مختلف . وبين رأي هؤلاء وأولئك ظل الأمر مجهولاً لتبقى جذور الأبجدية و العربية الأرامية غير معروفة وسيبقى الأمر هكذا حتى يتاح للحقيقة اكتشافات جديدة ومن هنا لا يسعنا إلا أن ننتظر وقد أخذتنا السخرية من نظرية هؤلاء الذين دفعتهم عصبيتهم الضيقة ممن ألقوا القول جزافاً وتشدقوا بأن الحلقة المفقودة إنما هي أبجديتهم « التي سموها أبجدية جبيل وصدقوا ما زعموه لأنفسهم وما دفعه اليهم بعض علماء فرنسا حين قالوا لهم أن أبجديتهم هذه هي أقدم أبجدية ظهرت على وجه الأرض التي تقع بين النيل والفرات وهكذا تطاولت أحلام الصغار على حقائق التاريخ وأصبح مركب النقص المارون شيئاً ملموساً(١٦) .

والشعب الأرامي يرجع بأصوله الى العرق العربي وأنه خرج من موطنه الأصلي من شبه الجزيرة العربية ليظهر في التخوم القريبة من أرض الفرات ، وهو ذلك الشعب الذي عرف عنه أنه كان يحسن ممارسة التجارة ونقلها عبر المسالك والدروب الصحراوية ، وقد أتاح لهم هذا الانتقال من مكان إلى مكان حاملين تجارتهم وحاملين أبجديتهم ، ليفرضوا هذه الأبجدية على الأمبراطورية الفارسية منذ سنة (٦١٢ ق.م) . لقد أخذت الدولة الفارسية الكيانية ACHAEME-NIDS بهذه الأبجدية لملاءمتها في تصريف الشئون التجارية وجعلوها بجانب الكتابة المسمارية التي كانت هي الأخرى معارة لهم . وما برحت هذه الكتابة الأرامية حتى تمكنت من أن تكون هي وحدها لغة (الهلال الخصيب) كله وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . . . وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون على اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره في فلسطين(١٧) بل وقضت اللغة الأرامية على اللغة الفينيقية في القرن الأول قبل الميلاد بل ووقفت صامدة أمام أبجدية الأغريق وأبجدية الرومان

---

(١٥) الدكتور / علي عبد الواحد وافي : المصدر السابق ص٦ .

(١٦) حاشية :

(#) أردت أن أقف على مصدر هذا السخف فهناك كتاب الأب اميل اده الذي سماه جبيل مهد الأبجدية ـ بيروت ١٩٧٣ .

(١٧) جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة ـ تاريخ الشرق القديم ـ ترجمة الدكتور / أحمد فكري ص ٢٠٧ القاهرة ١٩٦٩ .

رغم أن كلاهما كان يفرض على الأرض وجوده الاستيطاني .

لقد ظهر العرب الآراميون في التاريخ القديم منذ ذلك الحين الذي كان فيه الشرق مسرحاً لتقلبات تاريخية جسيمة . كان موطنهم هذه الأرض كلها الترابية العريضة التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية يحدها من الشرق أرض الرافدين ومن الغرب التخوم السورية ، ومن الشمال الأناضول وكانت في وضعها الجغرافي في هذا المعبر الوحيد لكل غاز خارج من الغرب قاصداً الشرق وكل فاتح خارج من الشرق قاصداً الغرب وبسبب ذلك نزلت بهم كوارث متلاحقة سببت لهم في كثير من الأحيان فقدان حريتهم السياسية ولكن رغم ذلك كله ورغم المحاولة الذين كانوا يحشدون من حولهم فقد بقي وجودهم قائماً في الزمان والمكان وذلك بسبب أنهم كانوا أصحاب لغة ذات أبجدية سهلة الكتابة وبهذه الأبجدية المبكرة ظل « العرب الآراميون يفرضون أنفسهم على الفاتحين الذين احتاجوا اليهم لكي يكتبوا لهم شئون تجارتهم » والآراميون يكونون لغوياً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية أي الكتلة الواقعة غربي العراق ، فبينما الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط بموانئه كان الآراميون الى الخلف في سهول سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوع آخر من الموانىء هي محطات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة وأن أحد عواصمهم الكبرى وهي مدينة حران كان معنى أسمها الطرق[١٨] .

وما أن جاءت نهاية القرن السابع قبل الميلاد حتى أصبحت الحروف العربية الآرامية حروف لغة عالمية تكتب بها المراسلات الدولية لعالم « الهلال الخصيب » ، وقد عثر على كتابات عربية آرامية مكتوبة على ورق البردى في أماكن متفرقة ومن ذلك ما كشف في سقارة عن رسالة باللغة الآرامية من أحد ملوك فينيقيا ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تيماء شمال الحجاز ولما قضى قورش على بابل سنة (٣٩ ق.م) كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لجميع ولايات (أستراپيات) الأمبراطورية الفارسية التي بلغت شرقاً إلى نهر الأندوس وغرباً إلى نهر النيل . وفي مصر تراسل الموظفون الفرس والمصريون بالآرامية وهي لغة أجنبية لكلا الطرفين ، ومما يدل على دولية اللغة العثور على بردى أرامي في جزيرة الفنتين بأسوان ، وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية وفي آسيا الصغرى عثر على كتابات آرامية من العهد الفارسي[١٩] .

وإن دل ذلك على شيء ، فهو يدل على أن اللغة العربية الآرامية قد أصبح لها امتيازاً بين لغات العالم القديم ، وذلك بسبب أبجديتها التي كانت من السهولة والوضوح بمكان جعل كل لغات الشرق تنقل عنها حروفها لتستعملها في الشئون التجارية وذلك لأن « اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردى إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً[٢٠] .

وموضع الثقل في الأبجدية العربية الآرامية أنها كانت الأبجدية الأم لكثير من الأبجديات التي ظهرت في الشرق فاليهود استبدلوا حروفهم الفنيقية فيما بين القرنين

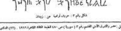
(١٨) الدكتور / حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٠٢ الأسكندرية ١٩٧١ .
(١٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق القديم (٢) مجلة عالم الفكر المجلد الثاني العدد الرابع ص١٧٦ الكويت ١٩٧٢ .
(٢٠) جيمس هنري برستد : نفس المصدر ص ٣٦٦ .

السادس والرابع قبل الميلاد بحروف آرامية والخط العبراني المسمى بالخط المربع مشتق من الخط الآرامي واتخذ العرب الشماليون الحروف الآرامية وأخذ الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية(٢١) .

وجاء ذلك الحين الذي تحول فيه التاريخ عن أن يأخذ بالكتابة « العربية الآرامية » وذلك لأن كتابة أخرى هي العربية النبطية قد ظهرت على مسرح التاريخ العربي بحروفها المختلفة ، أنشئها « الأنباط » من أبجدية أولاد عمومتهم « الآراميون » وكتبوها على نحو جديد إذ جعلوا حروفها متصلة ، ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية ببعضها قد جعل لها ميزة موضوعية ولغوية جاءت خطوة الى الارتقاء ، افتقرت اليها الكتابة الآرامية السابقة ، بل أي كتابة أخرى معاصرة أو سابقة لها ، بيد أنه رغم ما حققته المكتشفات الأثرية من جلاء رؤية تاريخية ، « فلا يعرف العلماء شيئاً عن تاريخ النبط قبل العصر الهليني (٣ ق.م) ويقول المستشرق الانجليزي (ج.أ. كوك) G.A.COOKE في كتابه « النقوش السامية الشمالية » أنه من المحتمل أن كلمة « الأنباط NA-BA-T-AI » التي كانت تطلق على قبائل عربية كما جاء منقوشا على الحجر الأسطواني لآشوربانيبال The RASSAN CYLINDER OF ASSUR-BANIPAL تعني الشعب النبطي وفي العصر الهليني نرى النبط لأول مرة على مسرح التاريخ في عهد أنتيجونس ANTI-GONUS في سنة (٣١٢ ق . م) حيث يروي ديدور الصقلي في أخباره أنه أرسل حملتين لتأديب النبطيين كما يحدثنا أيضاً عن مقاومة جيش نبطي مؤلف من عشرة آلاف رجل لجيوش أنتيجونوس(٢٢) .

لقد كان لهؤلاء الأنباط مملكة قائمة على أرض الشرق العربي منذ عصر الدولة الأشورية « (١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م) » وقد بلغت ذروة ازدهارها في الفترة السابقة لاحتلال الرومان سوريا عام (٦٥ ق. م)(٢٣) .

وكانت هذه الدولة تربط بين العالم الحضاري المحيط بها وتنقل له تجارته وتقوم بحماية طرق قوافله الحيوية ومن هنا كانت الكتابة من الأمور الملحة لوجودهم . في البداية أخذوا الحروف العربية الآرامية ليكتبوا بها وظلوا يستعملونها إلى حين حتى اتخذوا لأنفسهم أبجدية خاصة بهم عثر على نماذج منها في (العلا) بالحجاز وفي بترا PETRA وفي أرض بصرى بالشام وفي واحة تيماء والحجر ويرجع تاريخ أقدم نقش نبطي لعام (٣٣ ق.م) وأحدثها لعام (١٠٦ ميلادية) نقشت برسم نبطي متصل الحروف(٢٤) كما يوجد لدينا من النقوش النبطية المتصلة الحروف ذلك النقش الذي يعرف باسم



شكل رقم ٣ : حروف آرامية عن : زيدان

(٢١) الدكتور / نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم رقم ٣ (سورية) ص ٨٠ الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٦ . (٢٢) الدكتور / خليل يحيى نامي : نفس المصدر ص ١٠ ـ ١١ .

المصدر المذكور :

G.A. Cooke: A text-book of north semitic inscriptions, Oxford, 1903.

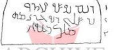
(٢٣) سبتينو موسكاتي نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٢٤) الدكتور / عبد الحميد زايد نفس المصدر ص ٥٥ .

صاحبه « فهروين سلي » عثر عليه في « أم الجمال » وأرخه « أنوليتمان » ترجيحا بعام (٢٧٠ ميلادية) .

ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية بعضها مع البعض في هذا النقش قد جعل لهذا الأثر ميزة موضوعية ولغوية ، وخطوة الى الارتقاء افتقرت اليها الكتابة « الآرامية » السابقة بل وأي كتابة أخرى عثر عليها حتى ذلك التاريخ .

إن كل ما نقب عنه العلماء ورجال الآثار وكل ما عثر عليه من نقوش « نبطية » أخذ سبيله الى دراسات متباينة وأبحاث مختلفة أثرت المادة العلمية والتاريخية ، قام بها علماء من مختلف الجنسيات مثل « الكونت دي فوجي DE VOGUE » و « ديسو » R. DUSSAUD و « وادنجستون » WADDINGTONE و « فيتزشتين » WIETZSTEIN و « سورتز » MORITZ و « ليتمان » LITTMANN الذي



شكل رقم ٤ : نقش فهر ومخطط أثار عليه في أم الجمال

عن : المجلة

النص العربي النبطي	النص العربي
١ ـ دنه نفشو فهرو	هذا قبر فهر
٢ ـ بن سلي ، ربو جذيمت	ابن سلي مربي جذيمة
٣ ـ ملك تنوخ	ملك تنوخ[٢٥]



شكل رقم ٥ : مقارنات بين حروف نقش فهر بن سلي بالعربي والنبطي

(٢٥) حاشية :
أصدر قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب جامعة الملك سعود دراسة مختصرة عن هذه المواقع الأثرية في كتاب صدر حديثا باسم مواقع أثرية وصور من حضارة العرب (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤)

نشر دراسة عن مكتشفاته في مجموعة المكتشفات النبطية CORPUS, NABATAEAN INSCRIPTIONS ومنهم أيضاً « جون بوركارت » J. BURCKHARDT و « جورج مارش » G. MARSH و « موسكاتي » S. MOSCATI وغيرهم . فالحقل قد اتسع بالعديد من الدارسين الذين دفعوا بالدراسات الهجائية قدماً واشتهروا بأبحاثهم ومكتشفاتهم . ولا شك أن هذه المادة سوف تثرى بالكثير في الوقت الحاضر حين تنتهي بعثة كلية الآداب « جامعة الملك سعود » من أعمال التنقيب لمنطقة « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح)[٢٦] .

وكان من الطبيعي أن يتحول « العرب الأنباط » عن الكتابة بالحروف « العربية الآرامية » ويأخذوا أنفسهم بصورة أخرى من الحروف جاءت في أول أمرها متواضعة الأداء ولكنها ما برحت حتى استقام شكلها وقد عثر العلماء على العديد من هذه الكتابات « مكتوبة على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال وقد قسمها العلماء قسمين ، الأول : كتابات مكتوبة بخط متقن ومنقوشة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخور ، وأكثرها وجد في مدائن صالح (الحجر) والباقي في سلع وفي بلاد حوران كما أنها في الغالب أنها من القبريات ، يكتب فيها اسم صاحب القبر واسم مشيده وأسماء من يدفنون فيه وفي بعض الأحيان يذكر فيها تاريخ النقش بحسب التاريخ النبطي . والقسم الثاني : كتابات وجدت مكتوبة بخط قبيح وأشبه بالخربشة من الكتابة ويطلق عليها الباحثون اسم الكتابات المخربشة وقد وجدت في أودية طور سيناء وحوران وهي في الغالب كتابات قصيرة جداً كتبت للتذكار أو لتقريب قرابين للآلهة النبطية[٢٧] .

ويمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من الكتابات العربية النبطية « الكتابة العربية الجاهلية » التي ما برحت حتى أن استقامت حروفها وأصبحت أكثر تقدماً وأضبط شكلاً وأدق تعبيراً في نقل حركات الأصوات ، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة المتطورة « الصورة العربية الجاهلية الثانية » وأحسن نماذجها نجده في « نقش النمارة » المؤرخ سنة (٣٢٨م) . ومن ثمة ظهرت نماذج أخرى تميزت بأن حروفها العربية جاءت أكثر وضوحاً وهذا ما نجده في « نقش زبد » (٥١٢م) وفي « نقش حران » (٥٣٦م) .

ويعد نقش النمارة أهم المكتشفات الأثرية في تاريخ الخط العربي وذلك لأنه يمثل الحلقة التي بين الكتابة « النبطية العربية » وبين الكتابة « العربية النبطية » أو في آخر الكتابة العربية في صورتها الأولى ونقش النمارة شاهد قبر حجري عثر عليه في بادية الشام وهو من خمسة سطور محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك أمريء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨ ميلادية ، وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول ٠,٤٥ متراً في العرض و ٠,٤٠ متراً في السمك ويوجد الآن في متحف اللوفر بباريس[٢٨] وقد عثر عليه الأستاذ « رينة ديسو » R. DUSSAUD، وقام بمساعدة « كلير مون جانيو » CLERMONT GANNEAU بدراسته ونشر الأبحاث المتعلقة به وكان رأيه فيه أنه « نص عربي مكتوب بحروف نبطية »[٢٩] .

---

(٢٦) الدكتور/ خليل يحيى نامي نفس المصدر ص ١٥ رقم
(٢٧) الدكتور حسن ظاظا / نفس المصدر ص ١٦٥ . (٢٨) رونيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .
(٢٨) رونيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام الكتاب طبع عام ١٩٥٩ بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .
(٢٩) الدكتور / علي عبد الواحد وافي : نفس المصدر ص ١٠٤ .



شكل رقم ٥ . نقش النمارة على قبر أمريء القيس (٣٢٨ م)

عن : النجيد

وقد قرأ الدكتور « شوقي ضيف » هذا النص على النحو الآتي : ـ

١ ـ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

٢ ـ وملك الأسدين ونزو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا .

٣ ـ يزجي في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ ـ الشعوب ووكلهم فرسنوا لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم بايكسول بالسعد ذوولده .

وهناك قراءات متباينة « لنقش النمارة تفاوت بعضها عن بعض واختلفت بعض الكلمات من ترجمة إلى أخرى على سبيل المثال نأخذ السطر الأول وترجمته عند بعض الأساتذة المحققين لنتبين مدى التقارب والاختلاف الذي بينهم .

النص : « تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج » .

ترجمها الدكتور / علي عبد الواحد وافي : ـ

« هذا قبر (نفس) أي قبر في العربية الباقية أمريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي (ذو بمعنى الذي في لهجتهم) حاز (أسر بمعنى أو استولى وليس التاج[30] .

ونقل الدكتور علي عبد الواحد وافي هذا السطر كالآتي : ـ

« هذا قبر امريء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها الذي تتوج بالتاج[31] .

وترجم الدكتور / عبد الحميد الدواخلي هذا السطر عن « ديسوا » كالآتي : ـ

« هذا قبر أمريء القيس بن عمرو ملك جميع العرب الذي كلل بالتاج »[32] .

أما الدكتور « شوقي ضيف فقد نقل لنا هذا السطر على هذا النحو : ـ

(٣٠) الدكتور / خليل يحيى نامي نفس المصدر ٧١
حاشية :
كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟
(٣١) ورواية ديسو : نفس المصدر ص ٣٣ .
حاشية :
كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟
(٣٢) الدكتور : شوقي ضيف : العصر الجاهلي الطبعة الثالثة ص ٣٥ ـ ٣٦ القاهرة ١٩٦٥ .

« هذا نفس (قبر) امريء القيس عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج »[٣٣] .

أما الدكتور « حسن ظاظا فقد نقله على هذا النحو : ـ

« هذا جثمان امريء القيس بن عمرو ملك العرب جميعاً الذي عقد التاج »[٣٤] .

وجاء هذا السطر عند الدكتور / عبد الحميد زايد هكذا : ـ

« هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج »[٣٥] .

وأدق ترجمة لنقش النمارة إنما نجدها عند الدكتور / حسن ظاظا وكذلك عند الدكتور / شوقي ضيف فاذا كنا قد نقلنا بالتفصيل تصور كل منهما ، فذلك لأن تناولها لهذا النقش كان موضوعياً وشاملاً لأصول اللغة العربية مما أعطى لهذا الأثر الحضاري ما يستحقه من القيمة التاريخية واللغوية والعلمية .

تناول الدكتور / شوقي ضيف هذا الأثر العربي بقوله : « إذا أردنا أن نكتبه ونقربه الى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو : ـ

١ ـ هذا نفس (قبر) امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج .

٢ ـ وملك قبيلتي أسد ونزارا وملوكهم وشتت مذحجا بالقوة وجاء .

٣ ـ باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر . وملك معدا وولى بنيه .

٤ ـ الشعوب ووكله الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ في القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٦ من كسلول ، ليسعد الذي ولده .

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي الأشارية التي للمؤنث وأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة معروفة بين القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم العربية ، وقد حذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا يثبتونها حينئذ وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية ، ونراه في السطر الثاني يضيف واوا الى نزرو ومذحجوا وفقاً لكتابة النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذف منها الألف ، وفي المعاجم العكد : القوة ، ويريد بالأسدين قبيلتين أسد ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة يزجى من فعل زجا بمعنى دفع أي بالدفع ، ومعنى حبج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب وفي السطر الرابع ووكلهم بإضافة نون التأكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم وفي السطر الخامس بالسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده » .

ويمضي الدكتور شوقي ضيف مستطرداً ـ وواضح أن النص يمثل دوراً من أدوار اللغة العربية الذي نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا بر الآرامية وقد استخدمت فيه آل أداة للتعريف »[٣٦] .

---

(٣٣) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ .
(٣٤) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ١١٤ .
(٣٥) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ٣٥ ـ ٣٦ .
(٣٦) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ / ١٢٣ .

أما تناول الدكتور حسن ظاظا لنقش النمارة فقد جاء مختلفاً نصاً وتحليلاً ذهب قوله فيه « وترجمته لغة مفهومة تكون على النحو الآتي :

هذا جثمان امرىء القيس بن عمرو ملك العرب جميعاً الذي عقد التاج .

وملك قبيلتي الأسد ونزارا ، وملكهم وصد (بني) عمج ؟ حتى اليوم وجاء .

٣ ـ بنجاح الى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك (قبيلة) معد ، وقسم على أبنائه .

٤ ـ الشعوب ، وجعلها فرسانا للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ حتى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ (من شهر) كسلول السعادة لأولاده .

ومضى يفسر هذا النص ويعلق عليه بقوله :

١ ـ برعمرو :

نلاحظ الصيغة الآرامية النبطية بر بدلا من ابن .

ملك العرب كله :

بدلا من كلها أو كلهم ، مما يدعو الى التساؤل هل نسي الكاتب الميم ، أم هل تطق هذه اللفظة كلها بدون حاجة الى ان تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد ؟

ذو أسر التاج :

ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ويمنية شائعة ، كقوله :

فــاذا المــاء مــاء أبي وجــدي
وبئــري ذو حــفــرت وذو طــويــت

٢ ـ الأسدين :

هما قبيلتان كل منها اسمها أسد ولعل إحداهما هي أسد بن ربيعة بن نزار ، والثانية أسد بن شريك وهم بطن من الأزد . وقد قدر بعض المستشرقين أنه يمكن أن نقرأ هنا الأسديين على افتراض أن أحد اليائين ناقصة .

وعرب عجو عكدي :

المفهوم من عرب أنه صد بالمجوم وفرق الجمع ، ومجج مشكلة ، يقول ديسو أن المفهوم أنها قبيلة فإذا كان هذا الملك قد هزمها وشتتها فليس عجيبا أن يندر اسمها غريبا علينا بما أنها قد اندثرت . ومع ذلك رأى بعض الباحثين أن الكلمة هي (عماج) وأنها وردت في بعض أسماء المواضع في شبه جزيرة العرب ، ذكر ابن هشام في السيرة النبوية موضعا قريبا من مكة اسمه مدلجة مجاج ، ويبدو أن المدلجة كانت موضعا فيه بئر يستقي منها الناس وحوض تشرب منه الدواب ، فهذا معناه في لغة العرب ، وهي في هذا الموضع منسوبة الى مجاج وقد ورد ذكره مع خلافات ضئيلة أحيانا في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، وفي معجم البلدان لياقوت الحموي وفي اللسان لابن منظور أما (عكدي) فقد اختلفوا في تفسيرها ، فخرجها بعضهم على أنها من كلمتين من اللغة النبطية « عد . كدي » الأول بمعنى حتى . والثانية بمعنى ذلك الوقت . وهو تخريج معقول مقبول ، خرجها آخرون على أنها من العكدة وهي القوة فيكون المعنى أنه شتت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك مقبول لا سيما أن أصله عربي ، وأنه يستقيم أيضا مع السطر الخامس . وهناك من رأى أن تصحح القراءة من « عكدي » إلى « عكري » بالراء . من العكر بالعربية وهو الأصل والجذر ، فيكون المعنى أنه شتتهم أصلا أو كما تقول في التعبير المحدث « بصورة جذرية » والواقع أن الذين صححوا ليسوا في حاجة الى تصحيح ففي اللغة العربية عكد الشيء وسطه ، وعكدة اللسان أصله وكذلك عكدة القلب .

٣ ـ بزجي :

الباء حرف جر ، في اللغة العربية الزجاء في الأمر تيسيره واستقامته وسهولته وربما كانت القراءة الصحيحة هنا بزجاء أي بسهولة وتوفيق ، أو بنجاح كما قلنا .

حبج :

تقول العرب حبجه بالعصا وحبجه وهبجه أي ضربه ، وحبج نجران أي ضرب نجران ، وان كان أحد من فسروا هذا النقش قال أنه مثل مادة حبق وحبك ، بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه ويضاف الى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة وقد قرأ بعضهم بدل حبج نجران حرب نجران .

وملك معدو وبين بنيه :

واضح أنه سيطر على قبائل معد ، وأنه وزع السلطان على الشعوب أي القبائل بين بنيه والواقع ان الكتابة هنا مستغلقة أيضا ، وقد قرأها المستشرق الفساني « ليدز بارسكي » وملك معدو وبنات ابنة الشعوب وهو يفترض أن امرأ القيس له ابن يسمى بمعد ، والثاني يسأل وأنه ملكها على الشعوب أما الفرنسي « رينيه ديسو » فإنه جنح في النهاية الى أن يقرأ « وملك معدو » أي صار ملكا على معد .

ونزل بنيه الشعوب :

بتشديد الزاي ، أي أنه أكرمهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها ، وجعلهم نوابا عنه هناك فيكون قد قرأ (ونزل) بدلا من (وبين) في القراءة الشائعة .

٤ - ووكلهن :

الضمير المؤنث الجمع في هذا الفعل يعين أن عائده هو كلمة الشعوب . وكل الذين قرأوا هذا النقش جعلوا هذا الفعل مبنيا للمعلوم ، مما أوجد صعوبات في شرح مضمونه ، وانطباق هذا المضمون على الصيغة اللفظية ولذلك تحيروا في الكلمتين التاليتين « [فرسو لروم] فظن بعضهم أنها تدلان على الفرس والروم ، وهذا خطأ من الناحية التاريخية ، إذ نعرف أن الفرس والروم كانا في حروب دائمة ، ولم يحدث أن اشتركا معا في مستعمرة من المستعمرات . ورينيه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويرد على هذه القراءة أن السياق يحتاج الى الجمع حتى يلتئم مع ألفاظ مثل [بنيه] و [الشعوب] و [ووكلهن] ثم أنه في اعتبار هذا المستشرق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء ، ويرد على ذلك أن هذه الواو تأتي في أسماء الأعلام فقط كما رأيناها في (عمرو) و (نزارو) و (مذحجو) و (معدو) ، وقد استبعدنا أن تكون فارسو علما على الفرس . ويبدو لنا أن الحل هو قراءة الفعل (وُكلهن) إما تخفيف الكاف ، وإما بتشديدها والبناء للمجهول مع اعتبار فارس جمعا للمذكر السالم توهم الكاتب وهو نبطي أنه مضاف لكلمة الروم والتي بعده فحذف منه النون وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال ، ويكون المعنى أن هذا الملك وضع أبناءه أمراء على قبائل العرب وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريون من الروم ، فهو يفخر بالوصول بهذه القبائل العربية الى نوع من الاستقلال الذاتي عندما كف عن حكمها (فارسو الروم) تاركين مكانهم لأبناء هذا الملك ونظن أنه بهذا المفهوم تزيد الفكرة وضوحا في قوله (فلم يبلغ ملك مبلغه) .

٥ - بالسعد ذو ولده :

واضح أن الكلمة الأولى تقرأ (بالسعد) والعبارة فيها كلام كثير ، أقربه أن يكون دعاء بأنه بسعد الذين انجبهم هذا الملك بالمجد الذي بناه لهم أو أن يكون دعاء تحول الى صيغة هتاف لمن ولد هذا الملك وكأنما قيل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم . والذين قالوا بذلك قربوه من العبارة الفصحى عندما يقال (يا سعد من ولده) وزعم بعض الشراح أن كلمة (سعد) هنا اسم علم لصنم معروف في الجاهلية ، وأن الباء معه للجر ومن هؤلاء هاليفي ، وبايز ، ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع الرسم ، وهو اعتراض يسهل التجاوز عنه ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعناية هذا الإله ولكن صياغة الجملة لا تستقيم تماما مع الذوق

العربي على هذا التأويل ، ثم اننا لا نعرف عن الاله سعد أنه كان معبودا « في هذه المنطقة » .

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت الينا وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له(٣٧) .

وهذا الاسهاب مني في نقل معظم ما كتبه الدكتور حسن ظاظا حول كشف النمارة إنما اقتضاه خشيتي أن يكون اختصاري لسياقه الموضوعي ولتحليله المسهب ، قد يخل بالرؤيا الشاملة التي أراد أن ينقلها لنا والتي قصد منها أن يفسر كل كلمة من كلمات هذا النقش ليبلور كل ما يتعلق به من أبعاد موضوعية وتاريخية ولغوية . وإذا كان هناك موضع خلاف بين كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسن ظاظا حول كلمات هذا الأثر فهذا الخلاف ومهما كانت أبعاده قد أفاد المادة العلمية وذلك لأن البنية اللغوية والتاريخية التي تضمنته تسمح لتعطي الباحث الحق في أن يختار محور الزاوية اللغوية التي يريد أن ينطلق منها ليولي معنى كل كلمة من كلمات هذا الأثر . ومن هنا إذا كانت هناك بعض من وجهات نظر مختلفة حول معاني بعض الكلمات فمن حق الباحث أن يأخذ نفسه بوجهة نظره في التفسير الذي يعتقد أنه الأرجح . كما أن له الحق كل الحق أيضا أن يختار القاعدة التي يريد أن ينطلق منها . ومهما كان من أمر في وجهات النظر المختلفة والتباين الموضوعي بين الأساتذة فقد كان له أكبر الفائدة (على نقش النمارة) وهو ذلك الأثر الذي تناوله العديد من العلماء الأجانب الذين عارضوا رأي ديسو مكتشف الأثر . كما أن هناك العديد من علمائنا تناولوه بالبحث والتفسير نذكر منهم الدكتور عبدالحميد زيدان الذي شرحه وذهب في بعض جمله أنها عربية ذات ألفاظ فصيحة وأنها « أقدم ما وصل الينا مدونا من أساليب عربية ، وقد دفعت هذه الجمل العربية المستشرق الألماني أنوليتمان « E. LITTMANN إلى أن يقرر أنه نقش عربي كتب بالخط النبطي ويضم ألفاظا أرامية(٣٨) .

كما أن هناك دراسة أخرى لنقش النمارة كتبها الدكتور خليل يحيى نامي جاء في عبارات مختصرة لا تتوازن مع مالهذا الأثر من أهمية لغوية وتاريخية وحضارية . فعلى الرغم من كل العناصر التي تميز هذا الأثر وأنه قد احتوى على حوالي خمسين كلمة عربية تزيد أو تقل كتبت فوق حجر البازلت فقد أجملها الدكتور خليل يحيى نامي في سطور معدودات تناول فيها المتن وسجله بالخط العبري وهو خط لا صلة تربطه بالأثر العربي وبصاحبه العربي وهو امرىء القيس بن عمرو وهو حين فعل ذلك لم يفصح لنا عن الأسباب التي دعته بأن ينقله هكذا . وبعد ذلك ترجم لنا هذه السطور العبرية الى العربية ثم استخلص من هذا المتن العبري ما جمله يقول أنه وجد « في هذا النقش كلمات عربية كثيرة مثل جاء ، هرب ووكل الشعوب كما وجد أيضا تراكيب عربية فصيحة مثل « فلم يبلغ ملك مبلغه وأداة التعريف « ال » في كلمة العرب والأسدين والشعوب ثم ختم كلامه بهذه العبارة الغامضة وهذا يدل على أن غلبة النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبطية بين العرب وملوكهم(٣٩) .

واذا كان « نقش النمارة يمثل مرحلة تاريخية من الكتابة العربية الأثرية (٣٢٨ م) فالنقوش التي جاءت بعد ذلك حتى وان كانت غير متوازنة في الأداء التطبيقي

(٣٧) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٦ .
(٣٨) الدكتور / يحيي خليل نامي : نفس المصدر ص ١٧ .
(٣٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٤ .

فحروفها العربية متطورة الصورة ولدينا من هذه الكتابة « نقش » « زبد » الذي « كشفه الأثري » زاخـو SACHAU سنة ١٨٧٩ ، « وزبد » اسم خربة تقع شرقي حلب والنقش مؤرخ سنة (٥١٢ م) وهو أقدم وثيقة عربية تحمل خطا عربيا والى جانبها خط سرياني وآخـر إغـريقي وقـد كتب عـلى واجهـة كنيسـة مارسركيس[40] .

وقد اختلف المستشرقون في قراءة هذا النقش ونشره كـل منهم تفسيرا يخالف تفسير الآخـر ولكن أهم القـراءات هي قـراءة « م . ليتـبـرسكي » M. LIDZBARSKI وهي :

١ ـ (ب) الاله شرحوير .. مع قيمو .. بر مر القيس .

٢ ـ وشرحوير سعدو وسترو (سر) يمو .

وهناك قراءتان للأستاذ « أونيتمان » :

الأولى :

١ ـ (ينصر) الاله شرحو برامت منعووطي برمر القيس .

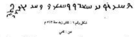
٢ ـ وشرحوير سعد وستر وشريحو .

والثانية :

١ ـ (ينصر) الاله سرحو برامت برامت منعو وهني برمر القيس .

٢ ـ وسرحوير سعد وتوسترو وسر[41] .

ونأتي الى نموذج آخر له أهميته في تطور الحروف العربية المبكرة نجده على نقش ، وجد منقوشا على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ، مؤرخ في سنة ٤٦٣ (التاريخ البصري) أي في سنة ٥٦٨ م . أي قبل التاريخ الهجري بحوالي ٤٥ سنة وقد وفق « ليتمان » الى قراءته قراءة صحيحة كاملة بعد أن عجز المستشرقون عن ذلك أكثر من نصف قرن[42] .



شكل رقم ١ : نقش زبد سنة ٥١٢ م

عن : ناجي



الشكل رقم ٢ : نقش حران سنة ٥٦٨ م

عن : ناجي

(٤٠) الدكتور خليل ناجي : نفس المصدر ص ٨٩ ، ٩٠ .
(٤١) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٤٢) المصدر السابق ص ٩١ .

ويحتوى النقش هو :

١ ـ أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول

٢ ـ سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ ـ خيبر .

٤ ـ بعم .

ويقرأ أيضا :

١ ـ أنا شرحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة .

٢ ـ سنت ٤٦٣ بعد مفسد (انهيار)

٣ ـ خيبر .

٤ ـ بعام (٤٣) .

وهناك نقش آخر لـه من الأهمية التاريخية والأثرية ما يجعل منه الحلقة الأخيرة من الكتابة العربية الجاهلية الثانية نشره أيضا « ليتمان » نقش على قبر « ابن عبيدة » وحروفه مربوطة بعضها مع البعض وهذا يعني أن الكتابة قد استقرت على أن تكون مربطة الحروف أنظر (شكل رقم ٨) . ولكن متى ظهر هذا التجديد على الكتابة العربية ، هذا ما ليس لنا به علم وبذلك يكون نقش حران (٥٦٨ م) هو أقدم أثر مؤرخ لدينا فيه الحروف العربية متصلة بعضها مع البعض .



شكل رقم (٨) : كتابة عربية متصلة الحروف عثر عليها في أم الجمال الثانية .

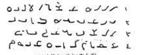
عن : الكجـد

١ ـ الله غفر لاليه .

٢ ـ ابن عبيد كاتب .

٣ ـ العبيد أعلى بنى .

٤ ـ عمري كتبه عنه م .



شكل رقم (٩) : مفردات حروف نقش ابن عبيدة

(٤٣) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٢ .

وإذا كانت هذه النماذج الأثرية من الكتابات العربية قد عثر عليها في مناطق معينة دون غيرها من الأماكن التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية ، فهذا قد يسر لنا أن نعرف عن يقين الوطن الأصلي للحروف العربية ومسالكها حين انتقلت من مكان الى آخر وما أخذته من أسماء وما تشكلت عليه من صور مختلفة . واذا كان أغلب النماذج من النقوش العربية قد عثر عليها في هذه المنطقة الشمالية من الشرق العربي فهذا يعني أن هذه المادة الحضارية انما هي نبت هذه المنطقة المتوسطة ، وليس من مكان غيرها ظهرت فيه ، وهذه حقيقة مطلقة علينا أن نأخذ بها ولا نختلف فيها . وحين تكتشف نقوش أثرية جديدة موثوقة بصحتها التاريخية والعلمية . فهذا سوف يثري هذه الحقيقة ويثبتها علميا وأثريا .

ان المكتشفات الأثرية التي نقب عنها علماء الآثار على مدى قرن ونصف من الزمان الحاضر قد زودتنا بدراسات متعددة المناحي العلمية ، كما أعطتنا فيما أعطتنا الدليل على أن ليس هناك ثمة علاقة بين الحروف العربية الشمالية وبين الحروف « الثمودية » و « اللحيانية » و « الصفوية » وذلك لأن الشعب الثمودي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بعدة قرون وكانت منازلهم « بالحجر » (مدائن صالح) أما « اللحيانيون » الذين كانوا يقطنون أرض العلا فتاريخهم يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد « وقد تلاشوا في قبيلة « هذيل » وعدهم « الهمداني » من بقايا جرهم[44] أما الصفويون فهم من سكان « الحرة » ، وكلمة الصفويين لا تعني شعبا معينا أو قبيلة معينة انما هو اصطلاح حديث للدلالة على أن تلك الكتابات التي عثر عليها في تلك الجهات[45] ورغم تباعد شكل الحروف العربية عندهم ، فهم عرب لهم خصائص لغوية قريبة من الخصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم وان اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية[46] .

ويذكر لنا الدكتور « جواد علي » « لقد بان لنا من دراسة جميع النصوص الجاهلية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حتى الآن أنها من حيث استعمال أداة التعريف لا تخرج من حدود مجموعات ثلاث : مجموعة تستعمل (ال) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (الهاء) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (النون) ، أما مجموعة (ال) فتشمل النصوص النبطية وبضعة نصوص كتبت بلهجة عربية قريبة من عربية القرآن الكريم ، وهي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص « النمارة » ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م الشكل رقم (٥) ويليه نص « زبد » ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م (الشكل رقم ٦) ونص حران يرجع الى سنة ٥٦٨ م (شكل رقم ٩) وكتابة أم الجمال الثانية (شكل رقم ١٠) وتشمل هذه المجموعة أيضا عربية القرآن الكريم واللهجات القريبة أو المتفرعة منها المذكورة في كتب اللغة .

أما مجموعة حروف النون « فتشمل اللهجات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية والحميرية ، وهي على اختلافها المذكور تتفق كلها في استعمال هذه الحروف أداة للتعريف . وأما مجموعة حرف (الهاء) فتشمل الصفوية والثمودية) . وهذا التقسيم هو على ما أظن أجمع وأدق في الزمن الحاضر من تقسيم المستشرقين ويمكن أن يكون أساسا الى دراسات أوسع قد تؤدي بنا الى تقسيم جديد للهجات العرب قبل الاسلام ، على أن نوجه العناية في الوقت نفسه الى البحث في كتابات

(٤٤) نفس المصدر ص ٣٢ .
(٤٥) نفس المصدر ص ٣٧ .
(٤٦) الدكتور / جواد علي - نفس المصدر ٣١٦ .



شكل رقم (١٠) : حروف بالخط الصفوي - والثمودي - واللحياني

والسبئي - والمعيني - والعربي

عن : زايد

جديدة تكون سنداً لهذه الدراسات وللتوصل الى أقدم لهجة عربية تفرعت منها هذه اللهجات أو ما يسمى بـ PROTO ARABISCH أو UR ARABISCH عند المستشرقين أو اللهجات القديمة التي تفرعت منها سائر اللهجات[٤٧] وهذه العربية الأولية أو العربية الأكادية (راجع رأي وليم ريت في هذا البحث ص ٥ ـ ٦) أو العربية التي نقلها العرب من شبه الجزيرة العربية ابان هجراتهم الأولى الى أرض الرافدين .

ومن هنا يمكننا أن نقول أنه مهما كان رسم حروف النقوش الأثرية ، ومهما كان هناك خلاف في رسمها فهي إنما تطرح صورة عربية أخذت لها سمات مختلفة حسب أسماء من كتبوا بها ، وليس هناك من لم يؤكد أن أصحاب هذه الحروف المختلفة الأشكال والأسماء لا ينتمون الى جنس واحد وهو الجنس العربي الذي أخذ له أسماء متعددة ، وكان آخرها اسم « الأنباط » الذي ظل بعض العرب يحملون هذا الاسم حتى بعد قيام دولة الاسلام ، ومن ذلك حدثنا « أبو القاسم محمود الزمخشري » المتوفي سنة (٥٣٨ هـ ـ ١١٤٣ م) فقال : « قال خالد بن الوليد لعبدالمسيح بن بقله « أعرب أنتم أم نبط » فقال : « عرب استنبطنا ونبط استعربنا » ، ومنه قول أبي العلاء المعري :

ابن امرىء القيس والعذارى
أو مال من تحته الغبيط .
استنبط العرب في الموامي
بعدك واستعرب النبط .[٤٧]

ومن ذلك أيضا يأتي رأي « الجاحظ » وقد تعرف على الفروق التي تفصل بين العربي والنبطي والعربي الذي يتكلم لسان قريش قال : « ومهما كان من أمر فالنبطي القح يجعل الزاي سينا فإذا أراد أن يقول زورق قال : سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشمعل قال « مشمئل »[٤٨]

وهذه الأمثلة تدل على أن الصورة النبطية قائمة حتى بعد أن جاء الاسلام ، نجدها في الكتابة العربية كما نجدها على لسان المجتمعات العربية وإذا كان بعض هذه المجتمعات قد تقوقعت داخل عصبيتها القبلية ، فهناك العديد الآخر من هذه القبائل قد اعتدل لسانه واستقام نطقه وعلى رأس هذه القبائل العربية تأتي « قريش » التي تميزت بدقة ألفاظها وحسن عبارتها واستواء كلامها ، وأن اللغة العربية كانت لديهم من الابتكارات الفنية ، ومن هنا وضعوا المعنى المثالي في الكلمة المنطوقة وربطوها في أفواههم بحركات محكمة الاعراب وهو ذلك الشيء الذي كان لديهم وليس عند أحد غيرهم سليقة فطرية منطقية .

وهذه اللغة المنطوقة التي وصل بها القرآن الكريم إلى هذا المستوى الرفيع من البيان والأحكام وعلى هذه القاعدة اللغوية من المستحيل لها أن يأتي مصدرها من هذا التصور الذي طرحه علينا بعض المؤرخين العرب ، مثل ما خرج علينا به أبو الحسن البلاذري المتوفي سنة (٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م) حين تكلم عن الخط فقال : « حدثني عباس بن هشام بن محمد السائب الكلبي عن أبيه عن جده وعن الشرقي القطامي ، قال : اجتمع ثلاثة من طيء ببقه وهم مرامر بن مره وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ، وكان بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبدالجن الكندي ، ثم السكوني صاحب

(٤٧) الزمخشري : أساس البلاغة ص ٩٢٩ طبعة الشعب .

(٤٨) الجاحظ البيان والتبين تحقيق السندوبي الجزء الأول ص ٦٦ القاهرة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦

دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبا . ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمى الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمر بن زرارة بن عدس فسمي عمر الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها وعلم الخط قوما من أهلها »[٤٩] .

وإذا كان هذا هو تصور البلاذري في أصل الخط ، فأصل اللغة كان له عند المؤرخ العربي شأن آخر ، مثال ذلك ما تجده عند ابن النديم الذي يعيد رواية « عباس بن هشام » ثم يضيف عليها ما ظنه صوابا فقال : « فأما الذي يقارب الحق وتكاد النفس تقبله ، فذكر الثقة ان الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وإرم وحويل ، وهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن اسماعيل لما حصل في الجرم ونشأ وكبر وتزوج في جرهم الى معاوية بن مضاض الجرهمي فهم أخوال ولده فتعلم كلامهم ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها »[٥٠] .

ويضيف « أبو عمر الداني » المتوفى سنة (٤٤٠هـ - ١٠٥٢م) على ذات الصورة رواية أخرى نقلها عن « زياد بن أنعم » قال : قلت لعبدالله بن العباس ، معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افترق هجا بالألف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ، قلت من علمكم الكتاب ؟ قال : حرب بن أمية ، قلت فمن علم حرب بن أمية ؟ ، قال : عبدالله بن جدعان ، قلت : فمن علم عبدالله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ ، قال : طارىء طرأ عليهم من أرض اليمن من كنده ، قال : فمن علم الطارىء ؟ قال : الخلجان بن الموهم ، كاتب هود نبي الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل »[٥١] .

وقد نقل علم الرواية أكثر من مؤرخ نجدها عند البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » ، « وعند أبو داود السجستاني » في كتابه « المصاحف » ، وعند « ابن قتيبة » في كتابه « المعارف » وعند « ابن دريد » في كتابه « الأنقان » وعند « ابن فارس » في كتابه « الصاحبي » ، وعند « الجهشياري » في كتابه « الوزراء والكتاب » كما هي أيضا عند غيرهم .

وحين تأتي الرواية العربية على هذا النحو الذي يرويه هؤلاء الكتاب فليس لنا الا ان نأخذ أنفسنا بأن هؤلاء الذين ذكرهم « الداني » قد تعلموا الكتابة بعضهم عن

---

(٤٩) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

حاشية :

يتنافى هذا الرأي الى ما ذكره الدكتور / ابراهيم أنيس في كتابه دلالة الألفاظ ص ١١ القاهرة ١٩٧٦ : أنه حتى وقت قريب كان بعض الباحثين يذهبون في نشأة اللغة مذاهب تدعو الى السخرية والعجب ، ومن ذلك أن عالما سويديا في القرن السابع عشر كان يؤكد لمستمعيه في صورة جدية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدنماركية ، وأن الحية تتكلم اللغة الفرنسية !! وفي العصر الحديث وقف عالم تركي في مؤتمر لغوي سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هي الأساس الذي أشتقت منه كل اللغات مستندا على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هي جونش ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الانسان الأول من بين المخلوقات .

(٥٠) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٥١) أبو عمرو بن سعيد الداني : المحكم في نقاط المصحف تحقيق الدكتور / عزت حسن ص ٣٦ دمشق ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ .

بعض يقرأون العربية ويكتبونها ومثلهم في ذلك مثل غيرهم ممن كتبوا النقوش الاثرية ، وكذلك كتبة « الخربشة » GRAFFITI التي وجدت في أنحاء متفرقة من هذه المنطقة العربية المتوسطة وأن هذه الكتابة ومهما كان شكلها فهي وحدها النقوش الأثرية التي لها أهميتها التاريخية ، كما أنها هي وحدها التي أثبتت فيما أثبتت أن الحروف العربية ، كان لها مسالكها الطبيعية ، وأنها كانت في مراحلها الجاهلية على هذا الشكل الذي نراه مسجلا على النقوش الأثرية مستقيمة الحروف منطوقة الصورة متيسرة الكتابة ، زاد عدد من يقرؤها ويكتبها ، وبعض من هؤلاء يذكرهم البلاذري في قوله : « أنهم كانوا حين دخل الاسلام سبعة عشر رجلا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ويزيد بن أبي سفيان ، والعامري ، وأبو سلمى بن عبدالأسد وأخوه ، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وحويط بن عبدالعزى العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت بن عزية بن المطلب بن عبدمناف ومن حلفاء قريش العلا بن الحضرمي . . ومن النساء حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم كلثوم بنت عقبة والشفاء بنت عبدالله العدوي ، وعائشة بنت سعيد بن عبادة ، وكريمة بنت المقداد ، أما عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمى »[٥٢].

وفي المدينة « كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمر ، وأبي ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسد بن خضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثير ، والأوس بن خولي ، وبشير بن سعد »[٥٣].

ومن الطبيعي أن يكون هناك العديد من غير هؤلاء كان لهم معرفة بالقراءة والكتابة مثل هؤلاء الذين كتبوا المعلقات والمذهبات ، التي كانت ترفع على أستار الكعبة مكتوبة على القباطي ، كما كان هناك أيضا هذا النفر من الكتبة الذين كانوا يعملون في القوافل التجارية لرحلة الشتاء التي كانت تذهب إلى اليمن ورحلة الصيف التي كانت تذهب إلى الشام ، وإبان الاسلام كان هناك أسرى موقعة « بدر » الذين فدوا أنفسهم بما فرض عليهم من أن يعلموا كل واحدا منهم عشرة صبيان من صبية المسلمين الكتابة والقراءة .

وكان من بين العرب آنذاك من يحسن بجانب كتابة العربية لغات أخرى غيرها كالسريانية والعبرية ومن هؤلاء كان « ورقة بن نوفل » ، « وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب اليهود من السريانية والعبرانية فتعلمها وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويجيبهم عنه »[٥٤]. وكان هناك أيضا كتاب الوحي ومن بينهم « الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد وثابت بن قيس »[٥٥]. ويمكننا أن نضيف على هؤلاء « عبدالله بن مسعود وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، وأبو خزيمة الأنصاري » وينقل لنا الدكتور/ صبحي الصالح « إن « المستشرق بلاشير » BLACHERE استطاع أن

(٥٢) البلاذري : نفس المصدر ص٤٥٧ ـ ٤٨٠ .
(٥٣) القلقشندي : نفس المصدر ١١٢/٣
(٥٤) نفس المصدر ٤/٣ .
(٥٥) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٦٩ بيروت ١٩٧٢ .
انظر أيضا تاريخ العرب ١٣٢/٢ .

يبلغ بكتبة الوحي أربعين رجلا »(٥٦) دون أن يعين المراجع التي استند عليها في تحديد هذا الرقم .

لقد عثر علماء الآثار على العديد من الكتابات الأثرية في أنحاء متفرقة إلا في مدينة « مكة » التي لم يعثر بها حتى الآن على أي شيء، رغم أن هذه المدينة قد تميزت بأنها البلد الذي فيه البيت العتيق مركز الثقل لكافة القبائل العربية وموطن قبيلة « قريش » الذين تعالوا على غيرهم بلغتهم العربية المثالية التي جاء القرآن الكريم ليكون على هذه اللغة وعلى أصحابها معجزة دين ومعجزة لغة ومعجزة بلاغة رغم أن الكلمة كانت لديهم صورة طبيعية لحروف ينطقونها بفطرة سليمة لا نجد لها نظيرا ولا مقابل عند أي قبيلة عربية أخرى وينقل لنا الاستاذ/ فيشر A.FISHER رأي « أبو النصر الفارابي » (٢٥٩ - ٣٣٩هـ - ٨٧٠ - ٩٥٠م) في مقدمة كتابه « الألفاظ والحروف » عن تقبل الحاسة اللغوية عند قريش فقال : « لقد كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس ، وعنهم نقلت العربية ، وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي بين القبائل ، وفي رأي الفارابي بأن اللسان الكامل - لم يأخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالسريانية » ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، وطبيعي أن الفارابي كان يرمي الى أن قطاحل العلماء لعهد ازدهار دراسات اللغة العربية رفضوا الأخذ بلهجات تغلب وبكر وإياد وثقيف وغيرهما ، كما كانت عليه لزمانهم ولم يرفضوا الأخذ عن شعرائهم الأولين فان طرفة والأخطل وعمرو بن كلثوم مثلا كانوا تغلبيين ، والحارث بن حلزه كان بكريا ، ولقيط بن معمر كان إياديا ، وأبو محجن كان ثقفيا ، والأعشى الكبير كان يمانيا ، وهلم جرا ، وكان شعرهم في نظر اللغويين معدودا من الفصيح ، إذ كانت لغة الشعر القديم في الغالب LINGUA FRANCA POETICA واحدة متداولة خاصة بالشعر(٥٧) وبمعنى آخر كما يقول الدكتور/ شوقي ضيف كان الشاعر، وحين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة »(٥٨).

وهذا الفيض من الشعر الجاهلي الذي تميز به الشعراء العرب وأنشدوه في أسواق الشعر المتعددة « عكاظ » وكذلك « المجنة » و « المجاز » وكان لديهم ولدى من جاء من بعدهم ، سليقة طبيعية تحدث عنها ابن رشيق القيرواني فقال : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة »(٥٩).

ولم يكن هناك من أحد غير قريش من بين كل العرب في استواء ألسنتهم ومنهم أخذت العربية التي نجد فيها أن الدلالات اللغوية والادراك العقلي هما القاعدة التي تناولها عنهم علم اللغة لتحديد القيم السوية في النطق

(٥٦) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٥٧) أ . فيشر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول ص ١٦ - ١٣ القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

(٥٨) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

(٥٩) ابن رشيق القيرواني : العمدة الجزء الثاني الطبعة الثانية ص ٢٠ القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

الشالي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغيير حركة الحرف يشكل تغييرا في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، وهؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل الباذخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه الساميين ، إلى الغرباء عنهم من الآريين والطورانيين والحاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا دنيويا وتحديا ربانيا من معجزات الاله التي يتساوى لقدرة البلغاء في أمة اللسان والبيان»[٦٠].

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لها أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول محكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي كل العقول المستنيرة على نحو مطلق ارتبط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقيدته جزءا من وجوده الحضاري ، يسعى اليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرنا هجريا ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أيا هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضجها الزمان المتطاول في البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد متجلى معانيها في أجراس الألفاظ ، وتتمثل في نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية في ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة فتصنع للشبيه لفظا غير ما وضعته بشبيهه ، إدراكا للفرق الدقيق بينهما . فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه في الجسم . واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة بكل صفة ، دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا . فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أو تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصيلة لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتح والجر ، وما نرى هذا إلا ضربا من الحيلة في الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الاحساس وألطفه .

واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة فيها مادة ووزن . فخذ المادة أو أخلقها أو استعرها من لغة أخرى ثم صبها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال ، وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء فلغتنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع

(٦٠) عباس محمود العقاد : مطلع النور وطوالع البعثة النبوية ص ٩١ القاهرة بدون تاريخ

فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلها وبهذا امتازت اللغة واستبانت خصائصها حتى نفت من نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية صحيحة قوية »[٦١].

وبجانب كل ما يوجد على مائدة البحث من الأدلة التاريخية والأثرية واللغوية على أن الكتابة العربية كانت قائمة عند العرب في قديم الزمان ، نجد فيما نجد من تراث الشعر العربي الذي كان يعرف في العربية الأكادية باسم « شيرو » ما يضيف لنا أدلة أخرى تثبت أن الكتابة العربية كانت قائمة على صورة مختلفة قبل أن ينشد الشعر الجاهلي الذي عرفناه يلقى على الناس في أسواق الشعر الموسمية وأن أوابده كانت تختار لتكتب وتعلق على أستار البيت العتيق . وفي هذا التراث الشعري نجد العديد من الأبيات التي تتضمن كلمات مثل « الرق » و « الأدوم » و « العسب » ، وغير ذلك من الخامات التي استعملها الكاتب العربي ليكتب عليها وذكرها الشعراء . وعلى سبيل المثال نجد قول امرىء القيس الذي يقول فيه :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزابور في العسيب اليماني

و « العسيب » هو جريد النخل .

وقول النابغة الذبياني :

كأن مجر الرامسات ذيولها
عليه حصير نمقته الصوانع

و « القضيم » هو الجلد الأبيض .

وقول المركش الأكبر عوف بن سعد :

الدار قفر والرسوم كما
ركش في ظهر الأديم قلم

و « الأديم » هو الجلد .

وقوله أيضا :

لم طلل مثل الكتاب المنمق
كلا عهده الصليب ممطرن

وقول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول
كأنها زبر تجد متونها أقلامها

والزبر « هو الكتب »

وقول الأخنس بن شهاب التغلبي :

لابنة طحسان بن عوف منازل
كما رقش العنوان على الرق كاتب

والرق هو « الجلد الرقيق » .

وقول الحارث بن حلزة اليشكري البكري :

لمن الديار عفون بالحبس
آياتها كالمهاريف العرس

والمهاريف هي : الصحف .

وكان لابد لأصحاب هذه النقوش الأثرية أن يكونوا هم أصحاب هذه الأصالة الشعرية ، وأن تمتد بهم الواعية اللغوية والحس العلمي ليسير بهم التاريخ إلى ذلك الحقل الذي تناوله أستاذ اللغة العربية « الخليل بن أحمد الفراهيدي » المتوفى سنة (١٧٥هـ ـ ٧٩١م) ليكتب كتاب « العين » الذي أصبحت مادته العلمية فيما بعد قاعدة منهجية للمعجمات الضخمة والقواميس الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابل عند أي أمة من الأمم الأخرى قديما أو حديثا ، وبعد الخليل بن أحمد « تناول نفس المادة تلميذه « سيبويه » المتوفى سنة (١٨٠هـ ـ ٧٩٦م) ومن بعده أصبحت للمعاجم أساسا للفكر اللغوي الاسلامي حيث تدفق السيل وانصهرت السبيكة النفيسة في « الجمهرة » لابن دريد ، و « التهذيب » للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠هـ ـ

(٦١) الدكتور / عبد الواحد عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص١٧ ، ١٨ سلسلة اقرأ القاهرة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦ .

٩٨٠م) و« المحيط » للصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥هـ - ٩٩٥م) و« المجمل » لابن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ - ١٠٠٤م) و« الصحاح » للجوهري المتوفى سنة (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) و« أساس البلاغة » « الزمخشري » المتوفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٣م) و« لسان العرب » لابن المنظور المتوفى سنة (٨١٦هـ - ١٤١٣م) و« تاج العروس في جواهر القاموس » للزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) ، وما برح الأمر والمعاجم تظهر على هذا النحو عند غير هؤلاء ممن لم أذكر لأن البحر كان محيطا .

كان من طبيعة هذا البحر المحيط ان يفيض على هؤلاء العلماء بهذه المعاجم الموسوعية لأنهم ارتبطوا بالكلمة العربية وسبروا أغوارها كما ارتبطت الكلمة بهم ، وجاء ذلك طبيعيا إذ أننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي تامة في ألفاظها وصياغتها وحروفها ونحوها وصرفها وأوزانها وفي قوة التعبير بها ، وتلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين إلى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجة يتكلمها أهله ، فإن أهالي الأصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة إذا تحدثوا ويفهمونها إذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين »[٦٢] وهكذا اتسعت اللغة العربية في واعية أصحاب المعاجم وكذلك في واعية كل من يتكلم بها .

وكان لابد أن يظهر في الفكر الاسلامي نظريات تعالج بنية اللغة العربية وأن يدور حوار بين العلماء عما إذا كانت اللغة « توقيفية » أم هي « اصطلاحية » وكان من بين هؤلاء « ابن فارس الرازي القزويني » الذي توفي سنة (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) وكان في طليعة المفكرين من اللغويين العرب الذين ظهروا على المسرح في هذا الميدان ، فقد سجل نظريته في أصل اللغة ونشأتها بكتابه « الصاحبي » وبرهن على أن اللغة توقيف اصطلاح بأدلة كانت موضع التأييد حينا والمعارضة حينا آخر »[٦٣] ولم يكن هذا الرأي في مجمله هو رأي « ابن فارس » إنما كان رأي بعض العلماء سبقوه إليه ، وما كان مثل هذا الرأي أن يقبل هكذا دون أن يعارضه بعض علماء اللغة ، فاختلفت الآراء متباينة المناحي ، وكان ضمن ما هناك رأي « أبو الحسن الأشعري » المتوفى سنة (٣٢٤هـ - ٩٣٦م) و« أبو هاشم » المعتزلي (٣٢١هـ - ٩٣٣م) و« ابن الحسن بن فورك الأنصاري » (٤٠٦هـ - ١٠١٥م) و« أبو إسحاق ابراهيم الاسفرايني » (٤١٨هـ - ١٠٢٧م) وغيرهم ويجمل الآراء عند هؤلاء تشعبت إلى مذاهب مختلفة :

الأول : أن اللغة توقيف من الله تعالى .

الثاني : أنها مواضعة واصطلاح بين البشر .

الثالث : ان ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله تعالى والباقي بالاصطلاح .

الرابع : أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف .

الخامس : أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها .

السادس : أنه يجوز كل واحد من هذه الأحوال من غير جزم بأحدها .

واحتج القائلون بالتوقيف ، بالنقل والعقل .

الأول : قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة آية ٣١) .

فإن هذه الآية تدل على أن الأسماء توقيفية معلمة من عند الله ، وأن الأفعال والحروف كذلك إذ لا قائل بالفرق . والاسم انما سمي اسما لأنه علامة على

(٦٢) الدكتور: عمر فروخ : اللغة العربية مصادرها وأطوارها وخصائصها العامة مجلة الأدب والفن الجزء الرابع ص ٢٠ - ٢١ السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .
(٦٣) الدكتور / محمد مصطفى رضوان : العلامة اللغوي بن فارس الرازي ص ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٦

مسماه ، ومثله الأفعال والحروف وتخصيص الاسم ببعض أنواع الكلام اصطلاحي للنحاة .

الثاني : أن الله تعالى ذم قوما على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (النجم الآية ٢٣) فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم .

الثالث : قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » (الروم الآية ٢٢) . والمراد اختلاف اللغات لا اختلاف الألسنة اللحمانية .

وأما العقل فمن وجهين :

الأول : أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد من الخلق صاحبه ما في ضميره ، وذلك لا يعرف إلا بطريق الألفاظ والكتابة . وكيفما كان ، فإن هذا الطريق إن كان اصطلاحيا لزم عنه الدور أو التسلسل ، وإذ فلابد من التوقيف ، وهو المطلوب .

الثاني : أن اللغة لو كانت بالمواضعة لجوز العقل اختلافها وأنها على غير ما كانت عليه ، لأن اللغات قد تبدلت وحينئذ لا يوثق بها »[٦٤] .

وجاء بعد « ابن فارس الرازي » تلميذه « أبو الفتح عثمان بن جني » المتوفى سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠١م) « فمهد للمذهب التوقيفي بحديث عن مذهب المواضعة والاصطلاح حيث قال : « إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف » وأصحاب هذا الرأي لا ينسبون إلى الله تعالى المواضعة على اللغة لأنها تحتاج الى إيماء وإشارة وهو عز وجل ليس له جارحة تومىء وتشير لكنهم جوزوا أن ينقل الله تعالى اللغة الى واقع التواضع عليها بين عباده »[٦٥] ومن هنا فقد كان ابن جني يرى « مذهبا معقولا ما ذهب إليهم بعضهم في أصل اللغات كلها إنما هو في الأصوات المسموعة كدوي الريح وطنين الرعد وخرير الماء وصهيل الفرس ونحوها ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد »[٦٦] .

ولم يكن هذا الرأي هو وحده الذي التزم به ابن جني فيظهر أنه كان حائرا مترددا لا يكاد يستمر على أمر وهو يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ويستدل عليه فيقول ما نصه « أنني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر ، فقوي في نفسه اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي ، ثم يقول وهكذا لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وإن بعد مداه عنا ، من كان ألطف منا أذهانا وأروع خواطر وأجرأ جنانا ، فأوقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأكثرها فانكفئ مكثورا وكأنه بذلك قد أخذ بالرأيين معا ، رأي التوقيف ورأي الاصطلاح »[٦٧] .

ومهما كان من أمر فالآراء حول حقيقة اللغة هل هي توقيفية أو هي اصطلاحية لابد أن تطرح على مائدة البحث من خلال البعد الاسلامي الذي يقوم جوهره على أن الله قد أنعم على الانسان بانسانيته وجعله في أحسن تقويم ، ومن هنا كان عليه أن يسلم تسليما مطلقا بمبدع كل الأشياء التي نراها والتي لا نراها وكانت اللغات أفضل ما وهبه الله للانسان وجعلها له وحده ليميزه بها دون غيره ، وجعله الناطق الكاتب الوحيد على هذه الأرض كما وضع فيه العقل المدبر ليكشف

(٦٤) نفس المصدر ص ٢٠٨ .
(٦٥) نفس المصدر ص ٢٣٠ .
المصدر المذكور بن جني الخصائص ١/ ٤٣ .
(٦٦) نفس المصدر ص ٢٣١ .
المصدر المذكور الخصائص ١/ ٤٤ .
(٦٧) نفس المصدر ص ٢٣٣ .

بنقسه الحروف ليجعل منها إشارات لتنقل أفكاره إلى غيره من الناس ويلتقي بها أفكار غيره ، وليسجل بها عقائده وتاريخه وإبداعيته الذهنية والأدبية .

وإذا كانت الكتابة العربية وأشكال حروفها عند بدايتها كان لها شأن متواضع لا يستوي إلى ما كانت عليه الكلمة المنطوقة التي تميزت بالأصالة اللغوية والصورة البلاغية والنبضات الشعرية . فأقدم ما لدينا في هذه الكتابة في غير النقوش الأثرية إنما يأتينا من قصة هذه الصحيفة التي كتبها « منصور بن عكرمة بن عامر » للمشركين من قريش الذين تعاهدوا فيها على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأصحابه وكل من اتبع هديه . وعلقت على أستار الكعبة وإذا رجعنا إلى كل الروايات التي ذكرت أنباء هذه الصحيفة فهي في مجملها لا تبلور لنا رواية حقيقية عن شكل الحروف العربية التي كتبت بها إلا إذا تماثل رسم حروفه ونقش أم الجمال الثانية » (انظر الشكل رقم ٨) في نموها . وكتابة صحيفة المقاطعة هذه تنسحب أيضا على رواية ثانية عن صحيفة أخرى لا نعرف لها تاريخا كتبت قبل الاسلام ذكرها ابن النديم قال : « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبدالمطلب بن هاشم في جلد أدوم فيه ذكر حق عند عبدالمطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء »[٦٨] .

من هذا المجمل المقتضب يمكننا أن نقول أن فضل العرب على الكتابة في العصور القديمة لأمر واقع لا يرفضه إلا كل مكابر . وأن هذه الكتابة كان لها أثرها على أبجديات الأمم الأخرى ومثال ذلك الأبجدية اليونانية ، « التي تسمى لديهم بـ« ال « الفابيتا » وتبدأ بالألف والباء ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معاني مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العصرية فضلا عن اللهجات العربية الغابرة »[٦٩]

ولكن رغم ذلك الفضل الذي كان يجب أن يذكر بكل احترام فقد أنكرت أوربا ما قام به العرب والمسلمون من فضل على التراث الانساني ومرجع ذلك الانكار هو الجحود . وكنا على أمل أن يرجع الأوربي المعاصر عن هذا الموقف العدائي ولكننا نراه الآن وقد اندفع سادرا في هذا الخطأ وأخذ نفسه بأحقاد أسلافه وأبقى في ذاته طوية أجداده فهو لا يريد أن يغير موقفه منا لأنه جبل بفطرته على ألا يرجع إلى الحق لأن الرجوع إلى الحق من شيم النفوس السقيمة وأنى له أن يكون كذلك .

هذه ملامح عابرة عن قصة الكتابة العربية من بدايتها حتى أخذت الحروف الخاصة بها التي عرفت أول ما عرفت باسم الحروف الأرامية ثم باسم النبطية حتى أن صارت متطورة لتعرف باسم الحروف العربية النبطية التي تحولت إلى ما يمكن أن تطلق عليه الحروف العربية الجاهلية ، لتنتهي إلى هذا الشكل المتميز الذي عرف باسم الحروف العربية التي استعملها المسلمون في كتابة رسائل الدعوة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء سنة ستة من الهجرة (٦٢٧م) ليدعوهم فيها إلى هدي الله .

***

(٦٨) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٦٩) عباس عبد الستار : الثقافة العربية ، أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٣٩ المكتبة الثقافية (١)

مصر والولادة الثانية
الرحلة في كتابات ميشال بوتور

مصباح أحمد الصمد

تتولد أغلب أعمال ميشال بوتور الغنية والشديدة التنوع من الرحلات أو خلالها أو من الرغبة في القيام بها . ويعرفنا هذا الأديب المعاصر بمناطق جغرافية ، تاريخية ، أسطورية ، فنية أو أدبية ، حقيقة أو خيالية ، ثم يدعونا لاختيار طريقنا فيها أو في « أطراف هذا العالم الذي لا طرف له »[1] ، العالم الذي نعيش فيه ، متمنياً لنا ـ ومقترحاً علينا ـ رحلة سعيدة .

لنتنزه أولاً بين عناوين كتب بوتور منطلقين من العدد ٣٩ لمجلة « القوس » L'ARC. No. 39 المخصص لهذا الكاتب والذي صممه بنفسه من خمسة أقسام يشكل كل منها قارة يغمرها محيط المجلة ، ومتذكرين مشروعه في إيصال كل من سلاسل كتبه إلى خمسة أجزاء . وهكذا نجد أنفسنا على الفور في عوالم مختلفة ولكن متكاملة يستكشف كل منها ميداناً من ميادين الواقع وينتظر بدوره أن نستكشفه « نحن القراء » . الرحالة اللذين علينا تعلم الغوص في مضائق ومسالك البحار كي نستطيع الوصول إلى الأراضي البعيدة .

من قصصه الأربع إلى « مواد الأحلام Matieres de reves » من مصنفاته Repertoires إلى زخرفاته Illus-trations علينا أن نكون حساسين « لعبقرية المكان » Le Genie du Lieu لكي نستطيع الارتواء من هذه الينابيع الغزيرة . ولكي ننتقل من منطقة لأخرى أو من عالم لآخر علينا إجتياز طرق معالمها « محاورات » Dia-logues وإهداءات[2] Envois تسهل « الاستكشاف » Explorations إنما علينا أن نكون حذرين ، فالمسيرة يجب أن تتم على « مراحل » Intervalle ومن خلال التجارب Essais والأحلام Reves لكي نستطيع التنقل بسهولة بين « الشبكات » Reseaux وهنا الاختيار

(١) السهم الرئد 185 Boomerang

(٢) نشير هنا إلى تسمية المقال التي يستعملها الكاتب في عناوين كتبه حيث أن كل عنوان يحمل معان متعددة بشكل يجعل القارىء يردده كثيرا قبل أن يحدد أحدها .

مخصص فقط لمن يتقن اجتياز « المتحرك » Mobile ولمن يستطيع أن يقدم عنه تصورات Representation وأن يلتقط اللمحات واللحظات التي تعبر عن الهجرات البشرية ، عن الانتجاع الحيواني ، عن تنقلات الأشياء ، عن التبادل الثقافي وعن الحركة الدائمة للكرة الأرضية .

بعد اجتيازنا العناوين ، نصل إلى الإهداء .

للوهلة الأولى ، نجد إهداءين فقط مرتبطين بالرحلة ، أو بصورة أوضح بنموذجين مختلفين من الرحالة : « إلى الرحالة في الغرب » (٦٨١٠٠٠٠ ليتر ماء في الثانية » و « إلى من يشرمون في المشرو (إهداءات) بينما يجيء اثنان آخران « كل هنود المكسيك الجديدة » (في كل مكان : Ou) و « بدائيي أستراليا خلال التقائهم » (السهم المرتد Boomerang) تحية يوجهها لهذين الشعبين اللذين يعيش من تبقى منهم في حالة من البداوة والهجرة الجماعية .

ولكن إذا تفحصنا بعناية إهداءات كتبه ومقالاته نجدها جميعاً موجهة إلى نماذج مختلفة للرحالة . فكل هؤلاء الكتاب والنقاد والرسامين والموسيقيين الذين تتصدر أسماؤهم كتب بوتور أليسوا « جسورا » تنقلنا إلى ميادين جديدة من الإبداع الأدبي والفني ؟ أليسوا هم من يفتحون لنا أبواب عدد لا يحصى من « العوالم الأخرى » الجغرافية والفكرية ؟

إن أسماء (La Rose des vents) جان رودو (Essais sur Les Essais) ايقور ستراافنسكي ، بوفون (Quadruple fond) ، جان بيار ريشار (Repertiore IV) وكثيرين آخرين ، هي أمثلة عن « ساكني الحدود » (Illustrations III) الذين يعيشون على التخوم ويستطيعون بالتالي مساعدتنا على اجتياز عوائق الحاضر ونقلنا نحو « الغد » (Illustrations IV) أو نحو « وطن الأبناء » .

بوصولنا إلى داخل أعمال بوتور نجد أنفسنا مسافرين في ألف رحلة ورحلة ، فنرافق أشخاصاً وهميين أو حقيقيين يبيتون أو يبدأون أو ينهون تجوالاً أو رحلة بحرية أو استكشافاً أو حجاً أو حتى مجرد سياحة ، أو نعيش معهم حالة من الهجرة أو النفي أو الحنين أو الهرب أو التشرد .

كل ما في هذه الكتب يتحرك أو ينتقل ، حتى الظاهر أو العناصر الأكثر سكونية[٣] في العالم ، لدرجة أن « البحار تبدأ بالانتقال »[٤] ، وأن « الجبل يضم غالبه وينطلق طائراً فوق الطرقات المتصدعة »[٥] في خضم هذا (التحرك) الهائل ، يدعو الكاتب قارئه لاختيار طريقة للتمسك جيداً والبقاء يقظاً كي يستطيع الوصول إلى غاية الرحلة ، إذ أن مناجم الذهب محاطة بالرمال المتحركة ، ووحده من لا يسقط يستطيع الوصول إلى « قدس الأقداس » ، إلى « الدرة الثمينة » ، أي إلى الكلمة ، إلى اللغة ، لأن غاية كل رحلة يجب أن تكون إيجاد وسيلة جديدة للتخاطب .

لنسافر إذن في أعمال ميشال بوتور مفتشين عن هذه اللغة الجديدة .

●●●

(٣) وجدنا من الملائم استعمال هذا التعبير المراد به « حالة ما يبدو ساكناً » وذلك تمييزاً عن السكون أي ما هو ساكن بالفعل ، وقريب من هذا الاشتقاق ما أصبح مألوفاً في التمييز بين « الحركة » و « الحركية » .

(٤) Matiere de reves, p. 97

(٥) Quadruple fond, p. 24

الشبكات اللغوية لكلمة « رحلة عند بوتور »

إذا ألقينا نظرة على المعنى الذي تعطيه القواميس والمعاجم اللغوية لكلمة « رحلة » نجده شديد الحصر وغير كاف . لأن كل القواميس تشير الى أن هذه الكلمة تشير إلى « انتقال إنسان إلى مكان بعيد »[٦] إلى « عملية اجتياز طريق طويل ، غالباً في مركبة ، للذهاب إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، وهي غالباً ما تتطلب استعدادات وتجهيزات مسبقة ، وتفرض غياباً لمدة معينة عن مسكن معهود »[٧] .

بعض القواميس الأخرى توسع قليلاً معنى هذه الكلمة ولكن مع بعض التحفظات « إذا سمينا رحلات كل التنقلات المملة عند عائلات وقبائل بضرورة التفتيش عن الغذاء في بلد أغزر موارد من البلد الذي تقيم فيه ، لارتبطت الرحلة بالعصور الأولى للبشرية »[٨] .

تقليدياً ، يفترض معنى « الرحلة » إذن وجود مسكن ثابت يتغيب عنه المسافر ردحاً من الزمن بهدف الذهاب إلى مكان بعيد . وذلك ما يستتبع بالتالي نية وضرورة العودة إلى المنزل بعد القيام بمسيرة مستقيمة يكون فيها الإياب عكس الذهاب تماماً ، أو متعرجة إذا اختار المسافر طريقاً مختلفة للعودة[٩] .

أما ميشال بوتور ، فانه يعتبر من الضروري تجاوز هذا « التناقض بين المكان الذي نحن فيه ، الذي نسكنه ، والرحلات التي نقوم بها من مكان لآخر ، سواء للتفتيش عن أرض موعودة أو للقيام بجولات مع ما يستوجبه ذلك من بحث عن معلومات ولوازم وسلع ومعادن ، الخ . . لحملها إلى المكان الذي انطلقنا منه . ذلك ما يجعلنا نتصور فترة يكون فيها من الصعب جداً التمييز بين كلمتي « رحلة » و « إقامة » ، ويكون مجرد وجودنا في مكان ما رحلة بحد ذاتها »[١٠] .

من جهة أخرى فإن مفهوم الذهاب والإياب التقليدي لا ينطبق إلا على شكل واحد في أشكال الرحلات ، وعملية تنبه كنموذج وحيد للرحلة يضيق ويبتر تعددية معاني هذه الكلمة :

« إذا أدركنا الارتباط المجازي الأساسي للرحلة بكل ما هو قراءة وكل ما هو بالتالي كتابة ، رأينا من المؤكد أن هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً في إدراكنا للواقع وتأثيرنا فيه ، خاصة وأن كثيراً من التنقلات البشرية هي ذهاب دون عودة »[١١] .

وانطلاقاً من هذه البديهية الأخيرة نجد بوتور يوسع ويشعب معاني كلمة « رحلة » لدرجة أنه يجعلها تشمل أغلب ميادين الحركة والانتقال والتحول والإبداع والاستكشاف ، وأنها تظهر بدورها بصور مختلفة تراوح بين الذهاب والإياب من جهة والتشرد والبداوة من جهة أخرى . ذلك ما يدفعنا لدراسة الشبكات اللغوية لكلمة رحلة في أدب ميشال بوتور وما يجعلنا نشعبها إلى فرعين ندرس في أولها الشبكات المجازية وفي ثانيها الشبكات الارتحالية .

●●●

(٦) Le Robert, Dictionnaire alphabetique de la langue francaise volume VI, Paris, 1970
(٧) Le Grand Larousse de la langue française, vol. VII, Paris 1978
(٨) Larousse du XXe siecle, volume VI, Paris, 1945
(٩) تعطي قواميس اللغة العربية معنى أشمل من ذلك إذ يرتبط لسان العرب مثلا الارتحال بالانتقال والرحلة بالسير (المجلد الثاني ، ص ١١٦٠ ـ ١١٦١) ولكن كل ذلك يبقى غير كاف كما سنرى في الصفحات التالية .
(١٠) هذا ما صرح لنا به الكاتب في المقابلة التي أجريناها معه في منزله في مدينة نيس في ٢٣ يوليو آب ١٩٨٢ .
(١١) Repertoire IV, p. 13

أولاً ـ الشبكات المجازية :

إن عملية ارتحال المعنى التي تنطوي عليها كلمة « استعارة » تشكل بالنسبة لبوتور منطلقاً لسلسة من « التنقلات » . وكما يؤكد ميشال لوي فإن « الاستعارة هي أولاً انتقال ، ارتحال ، حركة »[12] ، وهي « سلسلة من الانقلابات في داخل اللغة ، من تفجير ثروات لغوية يكشف فيها الانتقال الداخلي أو الخارجي مناطق جديدة من المفردات . هي عملية إيجاد معان جديدة »[13] حسب قول بوتور .

اعتماداً على هذه النظرة الأخيرة ، نتوصل لاعتبار أكثر النشاطات الفنية والكتابية وكثير من التحولات اللغوية والتغيرات البيولوجية والعوامل الطبيعية مظاهر لرحلات متنوعة . فمن مجرد قراءة صفحة في كتاب إلى حركة الأرض الدائمة حول الشمس ، مروراً بالكتابة والفنون التشكيلية والأحلام والاتصالات والدورة الدموية ، الخ . . كل ذلك يصبح رحلات في أدب مرتحل يحفظه كاتب رحالة .

آ ـ رحلــة القــراءة :

وعند مطالعتنا لصفحة ما نجد أنفسنا منطلقين في أربع رحلات متواكبة :

آ ـ رحلة عمودية على الصفحة ، ونعني بها انجذاب عين القارىء الذي ما إن يفتح الكتاب حتى يجد نفسه متهيئاً لتتبع ما يراه ومستعداً لمرافقة الكاتب في قصته أو براهينه أو خياله .

ب ـ رحلة اجتياز الصفحة ، وهي تنقل النظر بين الأسطر والصفحات حيث تمر العين من علامة إلى أخرى حسب مسارات متعددة تختارها .

ج ـ انتقال فكري ، من خلال هذه الكوة التي تشكلها الصفحة ، إلى أماكن مختلفة البعد قد لا تكون أحياناً سوى منزل الكاتب أو غرفته .

د ـ وأخيراً المسيرة الفكرية التي ينتقل فيها القارىء « من النقطة التي كان فيها عند بدئه بالقراءة إلى تلك التي يبلغها بعد انتهائه »[14] .

ولكن واجب الكاتب الا يكتفي بنقل القارىء إلى غرفته ، بل على العكس ، أن يحمله بعيداً ليضعه بين أمواج محيطات كتابته تاركاً له بعض المضائق والممرات التي يجب عليه اكتشافها للوصول إلى بحار أخرى .

ما إن نفتح كتاباً ونبدأ قراءته ، حتى نغادر المكان الذي نحن فيه ونبدأ بزيارة عالم الكاتب . وحتى لو لم يكن هذا العالم سوى قاموس أو دليل هاتف ، فذلك لا يمنع من كونه « مكاناً » مختلفاً ، أو هو يشكل على الأقل « مطاراً ، مدرجاً للطيران أو منطلقاً » يسمح لنا بالانطلاق في بعثات جديدة نحو مطالعات مجهولة »[15] .

وكل قراءة تشكل منفذاً يلغي شيئاً فشيئاً كل ما يحيط بنا من أثاث وأشخاص وضجيج ووسائل نقل ليوصلنا بعيداً إلى المدينة التي تدور فيها أحداث قصة نقرؤها إلى منعطفات حجج وبراهين فيلسوف ما ، إلى عالم سحري يبتدعه خيال شاعر ، إلى ماضي بلد ما يرويه أو يحلله

(12) Le C.R.E.U. Camus, no. 8, trimestre 1978
(13) نفس المصدر .
(14) Michel Butor, "Je suis moi-meme plusieurs voyageurs." Le Matin, 17 avril 1979
(15) Repertoire III, p. 219

مؤرخ أو حتى إلى عصور مستقبلية تنتقل إليها في مركبات عجيبة يصممها الخيال العلمي .

ولكونه مؤمناً بقدرة النص المقروء على إبراز وتصوير مناطق ومدن ومناظر وشعوب لقارىء مهمته فك رموزها وتمثل عبقريتها ، فان ميشال بوتور يبني أعماله الأدبية على شكل أرخبيل يشمل نصوصاً « جامدة ومسائلة وغازية » بطريقة تسمح لكل قارىء أن يبلغ بوسائله الخاصة النص الذي ينشده وأن يتنزه فيه على هواه »[16] .

نشير هنا إلى أن القراءة لا تكتفي بما هو موجود في الكتب أو النشرات ، بل إنها تتجاوز النص المكتوب . فتأمل لوحة أو استطلاع نقوش على جدار أثري أو تتبع خطوط تمثال أو عمل فني آخر ، أو تبيّن طريق تسلكه على خارطة بلد أو مدينة هي بدورها رحلات تصاحبها حركة الرأس أو تنقل النظر في عملية تتبع وتحقيق الاستكشاف .

ب ـ رحلة الكتابة :

« إذا كانت القراءة عملية عبور ، حتى ولو لم تكن أحياناً سوى عبور خاطف في غيوم بيضاء ، فالكتابة ، التي هي قراءة دائمة التحول ، تمثل بالضرورة رحلة أوضح وأبعد »[17] .

الكتابة هي أولاً حركة على صفحة . حركة يد وحركة عين شبيهة بتلك التي تصاحب القراءة . هي إذن تحرك جسدي .

وهي تمنح الكاتب انتقالاً آخر ، فكرياً ، يبتعد خلاله بالتدريج عن المكان الموجود فيه لكي يعيش في فترة الكتابة في مكان آخر ، مكان وهمي ، أدبي ، فني ، تاريخي ، نفساني ، الخ . .

والمكان الذي تكتب فيه يتغير بين فترة وأخرى ، وهو ليس بالمكان المقفل ، فليس بالضرورة أن يكتب المؤلف في نفس المكان دائماً . وبوتور يحاول دائماً أن يزيد من تعددية مكان الكتابة ، إذ أنه من النادر جداً أن يكتب عن بلد أو موقع ما وهو فيه . وبهذا الصدد يقول : « إنني في حاجة دائمة لأن أجعل رحلاتي ترتحل »[18] . إنه في حاجة لأن ينقل مكان الرحلة الجسدية إلى مكان الرحلة الكتابية كي يعيش الرحلة مرة أخرى وهو يكتب عنها .

الكتابة هي رحلة . ولكن الطريق البسيط ، الذهاب والإياب ، لا يكفي بوتور كما أشرنا ، لأن ما يفتش عنه هي الشبكات والمتحركات ، ولنقل الشبكات المتحركة . لذلك يلجأ دائماً لنقل كثير من نصوصه من كتاب لآخر ، وغالباً ما ينقل النص بعد أن تدخل عليه تعديلات عديدة ، كما أنه يدخل في كتاباته كثيراً من نصوص كتاب آخرين . وهكذا يصبح كل من نصوصه ملتقى لأصوات متباينة وأمكنة مختلفة تتجاوز فيها وتتلاقى مناطق متباعدة ، جغرافياً ، زمنياً وأدبياً . وفي خضم ذلك كله يجد القارىء نفسه متنقلاً ليس فقط بين نصوص بوتور بل وأيضاً بين كتابات رابليه وشاتوبريان وجول فيرن وبوغانفيل وأوديبون وبوفون ولافونتين وألف ليلة وليلة وكثير غيرهم .

في عالم كتابات بوتور « يفتح الاستشهاد أبواب عالم آخر ويقهره بالواقع »[19] ، كما يقول جان رودو . ونزيد

---

(16) Poesie d'ici, no. 5, 1980
(17) Repertoire IV, p. 28
(18) نفس المصدر ، ص ٢٩
(19) Jeqn Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 135

على ذلك : ليس الاستشهاد فقط بل الاستشهاد الذاتي . أما العالم الآخر « الذي يتكلم عنه رودو فهو قريب جداً بعض الأحيان ، على بعد صفحات قليلة من نفس الكتاب أو في كتاب آخر ليس بعيداً ، وهو أحياناً بعيد جداً ، في أعمال كاتب قديم أو في نص بلغة نجهلها . وفي مطلق الأحوال ، فان الاستشهاد دعوة موجهة للقارىء ليعمق استطلاعه لمناطق أخرى .

وبالإضافة إلى رحلة النص ، هناك رحلة الكلمة ، فهي تنتقل من مكان لآخر في الصفحة الواحدة أو في النص الواحد أو الكتاب أو مجمل الأعمال . كلمات كثيرة نراها تتكرر أو تتشعب راسمة طرقاً وشبكات وكأنها فراشة تتطاير وتدعونا لتتبعها . « إنني أجبر القارىء على التنقل حول كلمة واحدة »[٢٠] ذلك ما يقوله بوتور لجورج شاربونييه . نذكر هنا واحداً من مئات الأمثلة لنبين إحدى الدعوات التي توجهها الكلمة للقارىء كي يتبعها :

« ثلج + ثلج
ثلج ثلج ثلج
ثلج + ثلج

حتية قصة النار أعياد

ثلج + ثلج
ثلج ثلج ثلج
ثلج + ثلج

القناع يدق ، البيت يدق ، العالم يدق »[٢١] .

هكذا نرى ثلج الكلمة يهطل على بياض الصفحة بطريقة تجعل هطول الثلج النازل من سماء الصفحة إلى أرضها ينقل معه نظر القارىء وخياله ويجعله يتشبع بالمنظر والإيقاع ويسرح في بياض يغطي الكون بأسره ما عدا حتية منزل وناراً تقام حولها الأعياد ، في هذا الجو الرائع يبتعد القارىء عن مكان إقامته ويستطيع المشاركة في احتفال الهنود الحمر ، لابساً قناعهم ومشاركاً في رقصهم .

إن كل نص من نصوص بوتور ، بل كل كلمة ، تبدو كصرح أو كموقع أثري علينا تتبع ممراته ودهاليزه ورموزه وخباياه لكي نتوصل إلى متعة اكتشاف الكلمة ـ الصرح والنص ـ الموقع وإلى مرافقة هجرة الكلمات والنصوص ومواكبة تداخلها وتناغمها في عالم أعماله الأدبية .

جـ ـ رحلـة الفـن :

الرحلة ، كباقي الحاجات الأساسية للجسم ، هي حسب قول بوتور : « أساس كل الفنون » ، ولكن هذه الأخيرة تعوض بجهتها كتابات للرحلة وذلك لأنها تحملنا على تغيير مكاننا ، فكرياً على الأقل ، ألسنا نقوم بما يشبه الرحلة أو الاستكشاف عندما نحاول فهم لوحة أو وشي أو زخرفة أو نقش أو قطعة موسيقية ؟ ويتعدى الأمر ذلك بالطبع بالنسبة للفنان ذاته ، فنرى مثلاً في قصة « استعمال الوقت » أحد أبطالها « يسك الهارمونيكا ويبدأ بعزف إبحار بعيد على امتداد شواطىء منبسطة مزروعة بأخشاب عالية تتمايل عند مروره »[٢٢] .

« تجوال وحج وسياحة » مماثلة يقوم بها ليون دلمون بطل قصة التعديل » من خلال أعمال فرانشيسكو بورومين Borromini وجوان لورنزو برنيني Bernini الفنية في روما أو من خلال جداريات العصور الوسطى وفسيفساء العصور المسيحية الأولى[٢٣] . أما بوتور نفسه

(٢٠) George Charbonnier, Entretien avec Michel Butor, p. 24

(٢١) Ou, p. 308

(٢٢) L'Emploi du temps, p. 99

(٢٣) La modification, p. 215

فكم من رحلة قام بها وهو يحلل ويفك رموز لوحات كلود مونيه Cloude Monet وجاك هيرولد Jacques Herold وبيكاسو وفييراد اسيلفا Vieira da Silvaأو موسيقى هنري بوسور Henri Pousseur وبيتهوفن وكثيرين غيرهم .

والرقص أيضاً يستطيع أن ينقلنا إلى أماكن بعيدة وبلاد غريبة ، فنرى الراقصين في قصة « ممر الخطاف » Passage de Milan ينطلقون في شرايين بلاد ما وراء البحار حيث يتنقلون بين غابات وطيور تشغلهم لدرجة أن الأشياء والأشخاص المحيطين بهم يبتعدون في مدى غامض لا يقاس »(٢٤) .

●●●

- تنقلات واكتشافات :

ما نود تبيانه هنا هو الرحلة - الذريعة ، أي الغوص داخل كلمة ما أو الانعطاف حولها لإظهار معانيها المختلفة . فكلمة « رحلة » مثلاً بما تتضمنه من عملية انتقال توجد إمكانيات لا تحصى لإدخال كثير من الظواهر والعوامل والانفعالات ضمن ميدانها . وهكذا يبدو كل انفعال - بما يمثله من تحرك شيء ما داخل جسم الإنسان ومن نقل للشخص المنفعل من حالة إلى أخرى - رحلة قائمة بذاتها . انطلاقاً من هذا المفهوم نرى الرحلة - كحركة وتغير وانتقال - تصاحب الإنسان منذ تكوينه كجنين حتى ولادته وبلوغه وانفصال بويضته منه تتشعب منها رحلته الأرضية في أولاده وأحفاده ، قبل أن يموت ، مبتدئاً رحلته الأبدية ، ثم يتوسع ميدان هذه الكلمة لكي يصل إلى حركة الأرض الدائمة ودورانها المستمر حول نفسها وحول الشمس .

نعود قليلاً إلى انتقال الجسد وما بداخله لنسمع الحوار التالي :

« ميشال بوتور : إن انتقال الجسد من مكان لآخر يقابله انتقال شيء ما داخل الجسد ، تحرك قد يكون مميتاً أو منقذاً . . .

ميشال لوني : . . . لا يتعلق الأمر فقط بما نسميه عادة بالجسد ، فهناك مثلاً تقلبات المزاج بالمعنى الأخلاقي وثورة النزوات من وجهة نظر التحليل النفسي »(٢٥) .

إذا توسعنا قليلاً بهذا المفهوم نتوصل لاعتبار الجسم كعالم صغير ونجد الذراعين والبطن والأحشاء والبطين والأذين وحدقة العين تصبح جميعها محطات تصل بينها دروب ومسالك وترى بوتور « يسبح ويطير وينام فيها »(٢٦) .

ونتساءل هنا : « أليست المدن والبلدان والعالم بأجمعه سوى جسد هائل يتحرك وينتقل فيه البشر الذين هم « نقط دم يضخها دون توقف قلب المدينة »(٢٧) أو قلب الكون ؟

أ - هذا الجسد المحتوي والمحتوى في آن معا والذي ينتقل حاملا ما يتحرك بداخله ، ليس إلا محطة في رحلة طويلة ، رحلة البشرية التي يدعو الكاتب كلا منا لأن يحياها في الاتجاهين متأملا على التوالي بطن رجل وامرأة ومركزا على ذلك حتى « يستطيع أن يأخذ الحجم المناسب ، ثم يدخل في رحم هذه المرأة ، يعيش رعشة أصلها ، يجتاز مراحل طفولتها وولادتها . . وهكذا . .

(٢٤) Passage de Milan, p. 108 et 218
(٢٥) Michel Butor et Michel Launay, Resistances, p. 110
(٢٦) Elsmeur, p. 24
(٢٧) Ou, p. 103

حتى بداية الكون البعيدة (٢٨) . بعد ذلك يأخذ الاتجاه الآخر للرحلة داخلا هذه المرة في إحدى بويضات الرجل ومتنقلا من جيل إلى جيل ، حتى نهاية الزمان اللامحدودة » . (١)

هذه الرحلة اللامتناهية تتواصل من خلال حياة كل إنسان وهي تبدأ حتى قبل الولادة ، في حركة الجنين داخل بطن أمه .

ان استعمال كلمة « رحلة » للدلالة مجازا على حياة الإنسان أو على الموت قديمة جدا ، ولكن بوتور يجددها ويعمقها بإعطائها أبعادا أخرى .

ب - « إذا توسعنا قليلا بنظرتنا هذه نجد أن انعدام الحركة ليس إلا نسبيا على الأرض وبأن الأرض في تنقل دائم بالنسبة إلى الكواكب الأخرى » (٢٩)

حتى الأمكنة الأكثر صلابة والأكثر رسوخا تتحرك بشكل أو بآخر . وجبل فوجي في اليابان يبرغل نوحاها على امتداد الأيام والسنين ، ففي لحظة ما هو أجمل ما يكون إذا شوهد من منطقة ما » (٣٠) .

وإذا كانت هذه الرحلة تتم « نوعا ما » تحت نظر الزائر أو بسحر ريشة الرسام الياباني هوكوساي Hokusai ، فهناك رحلات أخرى كثيرة يتم فيها الانتقال بطريقة أوضح وأكثر طبيعية كما رأينا سابقا بالنسبة للجبل الطائر أو للبحار المتنقلة .

في هذا العالم المتحرك يتلقى مفهوم الرحلة تعديلا أساسيا ، فلا تعود عبارة عن « أماكن ثابتة تصل فيما بينها تنقلات قليلة الأهمية » (٣١) ، بل تصبح بالأحرى « أمكنة متحركة » . لتوضيح ذلك نقول بأن مشاهدتنا لبلد ما تختلف كثيرا بين زيارتنا له بالطائرة أو القطار أو السيارة ، وتختلف كثيرا بالتالي إذا زرناه سيرا على الأقدام . إن مجموعة هذه المشاهدات تعطي صورة متحركة هي الأخرى لأنها تنتج عن تطبيق رؤية شخصية على أماكن متحركة .

جـ - إن الأشياء والأدوات التي نستعملها « والتي لا نرى منها عادة سوى وجه واحد هو الاستعمال الثابت » (٣٢) لها بداية ونهاية تقوم بينهما برحلة مزدوجة : نقلها من مكان لآخر ونقل الأجزاء التي تتشكل منها . فكل أداة منزلية ، كانت خزانة أو طعما أو آلة موسيقية لها تاريخ طويل : « لقد صنعت وبيعت ووزعت ونقلت قبل أن تصل منزلنا . » (٣٣) كل هذه الأشياء هي بالنسبة لبوتور « أشياء بدوية لحسن الحظ في مجتمع يحلم ببداوة جديدة . » (٣٤) أما حياتها فهي مرتبطة بحياتنا وظروفنا : تأثيث ، زواج ، احتفال ، تجديد ، انتقال أو ذكرى .

حياة الأشياء وانتقالها ترتبط أيضا بتوضيبها وتغليفها وقيمة كل ذلك في حياتنا الاجتماعية والعاطفية .

كم من بلاد وعوالم تتراءى لأعيننا عندما نتابع « انتقال المعاني » الذي يجعل من الجسد « باخرة نيلية » ، من القصة « جسدا » ومن أحداثها « خلايا » ويجعل القارىء « يسبح في أقطار الشعر الفسيحة » .

(٢٨) Michel Butor, Le Miroir ventral. Les Cahiers du chemin, no. 15, avril 1972
(٢٩) Repertoire IV, p. 12
(٣٠) Repertoire III, p. 164
(٣١) L'Arc, no. 39, p. 22.
(٣٢) Resistances, p. 116
(٣٣) نفس المصدر ، ص ١١٦
(٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٧

ولكن هل يعني كل ذلك بأن معنى كلمة « رحلة » قد تبدل ؟ أو أنها تنكرت لمعناها التقليدي ؟ عن هذين السؤالين يجيب بوتور قائلا :

« إن معنى هذه قد توسع كثيرا عندي . لقد انطلقت من معنى ضيق أو محدد ولكنه مهم جدا لأننا يجب أن ننطلق منه كي نفهم ما تشعب عنه ، وبعد ذلك ، اعتمادا على هذه التجربة الأساسية وهذا المدلول الأساسي ، نستطيع أن نزيد أشياء عديدة في ميادين دائمة التنوع لكي نلقي عليها أضواء جديدة . ولكن يجب أن نفهم جيدا بأنه معنى تتشعب منه مدلولات أخرى »[٣٥] .

●●●

ثانيا ـ الشبكات الارتحالية

لنناقش مع بوتور هذا المفهوم الأساسي للرحلة كعملية ذهاب وإياب ولنحاول نلقي نظرة عابرة على مظاهرها المختلفة .

نجد على الفور بأن « تنقلات بشرية عديدة هي ذهاب دون عودة »[٣٦] فيبادر لنا بالتالي أنه علينا القيام بدراسة أعمق . وذلك ما يدعو الكاتب لاقتراح علم جديد يضاف إلى سائر العلوم : « الارتحالية أو علم تنقلات البشر »[٣٧]

ولكن قبل أن ننطلق في مختلف الدروس المتفرعة عن المعنى الأساسي للكلمة ، لنعد قليلا إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الرحلة من جهة والقراءة والكتابة من جهة أخرى . أو كما يعرف بوتور هاتين الأخيرتين : « معرفتنا بالواقع وتأثيرنا فيه » .

أ ـ الرحلة كقراءة « ان رواية الرحلة تحقق وتظهر الرحلة المزدوجة التي تنطوي عليها كل قراءة ، فهي تحمل معها مسيرة عمودية تنتهي بانتقال القارىء ، بجعله يغير مكانه الفكري ويغير في النهاية مكانه » .[٣٨]

هذه الرحلة المزدوجة ، أو بالأحرى الرباعية كما يتبين من قراءة معمقة لقول ميشال بوتور يمكن أن يضاف اليها تنقلان جسديان : انتقال القارىء عندما يطالع في حافلة أو قطار أو طائرة ، أي في مكان متحرك ، وانتقاله داخل وسيلة النقل عندما يغير مقعده أو ينتقل من مقصورة إلى أخرى . يظهر من ذلك أن مكان القراءة مرتبط بقوة بما يحتويه وما يمثله الكتاب . وهذا المكان قد يصبح منطلقا لأمكنة متعددة ، فقد تنقلنا مثلا بين مقصورات قطار يسير ، تدخل من خلال صفحات كتاب أو مجلة أو دليل سياحي عددا آخر من المدن والمواقع وتجعلها تتفاعل مع ما نرى داخل القطار وما نشاهده من نوافذه .

والكتب تلعب دورا أساسيا في تعريفنا بالعالم أو تعريفه بنا . « فقراءة كتاب عن اليابان مثلا تحفزني على زيارتها ، ولكن مطالعة كتاب عن اليابان عندما أكون فيها تجعلني أحدد موقعي وتكشف لي أماكن لم أزرها ، بينما القراءة عنها بعد العودة تسمح بتصورها من جديد . . . إن الكتاب وسيلة للتغلب على الوقت ، وعلى المسافة أيضا » .[٣٩]

وكما نقرأ الكتب والنقوش واللوحات فإن المدن والمناظر والمواقع الأثرية نقرأ أيضا ، وميشال بوتور يجب أن « يقرأ ويتذوق » كل مدينة يزورها حتى ولو بدت له

---

(٣٥) هذا ما صرح به الكاتب في مقابلة أجريناها معه في منزله في مدينة نيس ١٢ آب / أغسطس ١٩٨٣ .

(٣٦) Repertoire IV, p. 13

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٢

(٣٨) نفس المصدر والصفحة

(٣٩) Repertoire III, p. 483

أحيانا ، كنص غريب ، يجد صعوبة في التعامل والتآلف معه . وبالنسبة له فإن الرحلة هي قراءة وتعلم واكتساب أشياء جديدة ينقلها لقرائه ، يعلمها لهم بوساطة الكتابة .

ب - السريرة المجنحة القراءة هي إحدى وسائل معرفة الواقع . ولكن هذا الواقع لا يشمل فقط كائنات وأشياء موجودة أو معروفة في الحاضر أو الماضي ، بل أيضا ما هو فينا ، في داخل كل منا : مشاعر وأحاسيس ونزوات وانفعالات . . . وخيال وأحلام .

وفي أكثر من مكان نرى بوتور يشدد على أنه « لا يمكن وجود واقعية حقيقية إذا لم نعتبر أن الخيال جزء من الواقع وأننا نرى جزءا كبيرا من الواقع من خلاله » . (٤٠) وهو يؤكد من جهة أخرى بأن « الحلم هو عنصر أساسي من الواقع الشمولي ، من العالم في إطاره الكامل الذي لا تشكل المشاهد التي تراها أعيننا سوى جزء ، سوى برهة منه » (٤١)

هكذا نرى الكاتب ينقب في سلسلة « مادة الأحلام » وبوساطة تعاقب - أو تشابك - من قراءات استكشافية ومن أحلام متنقلة ، عن مظاهر وعناصر وأماكن تتراوح ما بين نقطة دم بشرية وبين « كوينسي أي مدينة السماء . »

إن الحلم يشكل جزءا لا يتجزأ من وجودنا ، من معرفتنا للواقع وتأثيرنا فيه ، وهو يتيح لنا زيارة بقاع قريبة أو بعيدة ، ويهيء مع الخيال « رحلة في متناول الجميع : الرحلة الساكنة » (٤٢)

والسريرة المجنحة لا تقتصر فقط على « مواد الأحلام » ، بل تنطلق طائرة في أغلب كتب بوتور ، فترى بطل « التعديل » يقوم « بصيد روحي » ونجد أحد في « مرور الخطاف » « يضع يديه السمراوين على الطاولة ويتوه في بحيرات وصحارى وتضاريس رسمها البخار في سقف غرفته » . (٤٣)

ج - الرحلة ككتابة : إذا كان « النص الضخم والغريب » الذي تشكله مدينة أو موقع أثري يتطلب من الرحالة نقلا بصيرة وموهبة في الفهم والتآلف معه ، فهو يتنظر بالأحرى أن « يترجم » إلى لغة أخرى ، لغة الكاتب ، وأن تعاد صياغته بلغة الأدب .

هذه الترجمة للمدن - النصوص يقوم بها بوتور وأبطاله بوسائل متنوعة فهو يكتب عن مكان « في مكان آخر ولأجل أماكن أخرى » .

والكتابة عنده تنطلق من الملموس والمعاش والمقروء لكي تؤدي مهمة التأثير على العالم واللغة والانسان .

« لقد أيقنت ، نعم ، لقد أيقنت بأن مصير العالم يرتبط ، بنسبة زهيدة طبعا ، ولكنه يرتبط بما أكتب ، وعندما أكون في أعماق منفى كتابتي ، فإنني ، أعترف بذلك ، ما زلت أوقن بهذا الارتباط » . (٤٤)

إن الكاتب يحكم على نفسه بالنفي ويهاجر في أقطار كتابته المجهولة لكي يسهم في تحسين مستقبل العالم ، ولكن الكتابة تبدو أحيانا أخرى وكأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من وضع مكبل أو من مكان خانق ، وهي

(٤٠) Repertoire II, p. 299
(٤١) Troisieme dessous, p. 247
(٤٢) Raymond Christinger. Le Voyage dans l'imaginaire, p. 276
(٤٣) Passage de Milan, p. 70
(٤٤) Intervalle, p. 157.

تشكل في أحيان كثيرة طريق الخلاص التي تنقذ الكاتب ـ الرحالة من متاهات عقيمة .

وامتلاك لغة خاصة للتخاطب هو الوسيلة الضرورية للاستكشاف وللبدء بإعادة تنظيم الواقع . وهذا العمود الفقري ينمو ويصلب خلال عملية الاستكشاف التي تتعمق بدورها كلما اغتنت اللغة وتطورت .

كم من سعادة ومعرفة نبلغها إذا ما توصلنا ذات يوم لامتلاك « كامل امبراطورية اللغة » ، للعودة بالأحرى إلى تلك الجنة المفقودة ، إلى بابل حيث كل الناس يتفاهمون بيسر وسهولة ، عندها « يستطيع كل منا أن يتنزه داخل هذه الامبراطورية المضيئة ، وعندما تصير إمبراطورية الكلمات مضيئة فإن الحقيقة كلها تصبح مضيئة ، والتاريخ كله يصبح مضيئا ، وعندها فقط نعرف ماذا نريد » . (٤٥)

يجب أن يتولد عن كل كتابة تكشف وجها أو مظهرا للواقع دون أن تنسخ هذا الواقع . والكتابة ـ بما هي من فعل واستكشاف ، عليها أن تهتم ليس فقط بالواقع بل بما ينقصه ، بما يرغب به . والفعل هنا هو إعطاء رؤية أو أكثر لعالم شاسع ومتحرك ، لا حدود للبحث والتنقيب فيه ، يأتي خلاله كل رحالة ، كل كاتب ، بعناصر جديدة يجمعها من مشاعره وآرائه وثقافته وتنقلاته ويعرضها في لغة هي في نفس الوقت خاصة وعامة ، مفردة وجماعية .

د ـ مروّج الثقافات الرحالة هي قراءة وكتابة ، ولكنها بالاضافة إلى ذلك استكشاف للوضع والمشاكل والقضايا المعاصرة من جهة ، وللكنوز الثقافية والتاريخية التي « ينبشها معول الباحثين » الذين يأتي بوتور في طليعتهم .

هذا الكاتب يقدم نفسه أكثر من مرة على أنه « مسوّق للثقافة الفرنسية » (٤٦) ولكن أعماله تظهر لنا بوضوح أنه يتجول بين ثقافات أخرى ، جديدة ومتنوعة ، وبأنه ينشد الاطلاع عليها جميعا وقراءة كل منها داخل « وعي » ، ولأجل الآخريات ، ثم التوصل لدمجها جميعا في ثقافة شاملة يستطيع كل الناس قراءتها والتفاعل معها . و « تقديمها بعد ذلك لكل الاخوة السارقين » (٤٧) سارقي المعرفة ومروّجي هذه الطريقة الجديدة في القراءة والكتابة ، ولكنه لا ينسى أن يذكر هؤلاء بأن « التعديل الذي يحصل في قراءة نص هو تنقل داخل العالم وتفاعل لأجزاء العالم فيما بينها ، وذلك ما يعطي رؤية جديدة عنه ورؤية جديدة عن الكاتب والقارئ وبهيء بالتالي لعمل جديد . هذا التنقل قد يكون ضعيفا جدا في البداية ، ولكنه مشروط بوجود رؤية النتيجة المباشرة لما يقومون به ، إنما ليس ذلك بالأمر الأساسي » . (٤٨)

هـ ـ الرحلة ومفهوم الذهاب والاياب : حركة توجهها صفحات كتاب أو ألوان لوحة أو نقوش جدار ، انطلاق في متاهات حلم أو شروع في كتابة نص ، تبقى الرحلة قبل ذلك كله انتقالا جسديا من مكان لآخر ، ولكنه انتقال عمد تقليديا كما سبق وذكرنا بعملية ذهاب وإياب . وهنا يرى بوتور بأن هذا المفهوم قاصر عن تعريف الرحلة ويقترح إيجاد علم جديد ـ علم الرحلات Iterolgie يقوم بدراسة هذا المجال بطريقة أكثر منهجية . وهو يضع في مقاله « الرحلة والكتابة » الأسس البدئية لهذا العلم .

(٤٥) Georges Charbonnier, Entretiens, p. 37
(٤٦) Jean-Marie le Sidaner, Michel Butor, voyageur a la roue, p. 58
(٤٧) نفس المصدر ، ص ٦١
(٤٨) Le Matin, op. cit.

انطلاقا من هذا المقال [٤٩] ، سنحاول أن نعرض المظاهر المتنوعة للرحلة كانتقال جسدي في مسافة ما ، وأن نتوسع فيها ونزيد عليها بعض الاقتراحات .

نستطيع تمييز أربعة أنواع من الرحلات :

١ ـ تنقلات غير محددة الانطلاق والوصول : التشرد والبداوة .

« لا يأتون من مكان محدد ، ولا يقصدون مكانا محددا » [٥٠] تلك هي حال الشعوب الدائمة الارتحال بحثا عن حيوانات تصطادها أو عن مراع لماشيتها . من الصحيح أن بعض الأمكنة التي تمر بها هذه الشعوب تأخذ نوعا من الألفة أو حتى من القدسية ، ولكن ذلك لا يغير من وضعها العام . وقد يضع الموت حدا لسيرة بعض الأشخاص الذين يدفنون في المكان الذي قضوا فيه ، دون أن يوقف ذلك بداوة القبيلة .

والبداوة مرحلة بها كل الحضارات وكل الشعوب ، وما زالت تشكل إحدى الأساطير التي تحتفظ بها في تفكيرنا ونحاول إحياءها في كثير من تصرفاتنا ، و هذا ما يجعل كلا منا يشعر في قرارة نفسه بحنين إلى التشرد » [٥١] وما يجعل « مجتمعاتنا تحلم ببداوة جديدة » وأغلب أفرادها يحلمون بحالة عبور متواصلة .

هذا الحنين للتشرد ، هذه الرغبة في الذهاب إلى مكان غير محدد يظهران كما قلنا من خلال بعض تصرفاتنا وخاصة في أوقات القلق والارهاق . يمثل هذه الحالة بطل قصة « استعمال الوقت » L'Emploidu temps الذي « تاه محروما حتى من صحبة صديقة لوسيان ، تاه بين بساتين الشمال حيث كان الأغنياء يتسلون بتقليم شجيراتهم ، تاه في حدائق المدينة المزدحمة بجمهور صاخب ، ووصل تائها إلى حديقتي الشمال المليئتين بالنيام » . [٥٢]

البعض يحن إلى التشرد ، ولكن الآخر يعيشه قسرا ، تلك حال شعوب عديدة تتنقل مطاردة أو مفتشة عن الماء والكلأ والطرائد ، وتلك مثلا حال بدائيي أوستراليا في « السهم المرتد » Boomerang والهنود الحمر في « أي مكان » و « المتحرك » Mobile . . . وتلك إلى حد ما حال ميشال بوتور ذاته ، الدائم التشرد ، أو كما يعرّف نفسه « اللايهودي التائه » ، أي العابر دائما دون التفتيش عن أرض موعودة ، العابر مفتشا عن عالم أفضل .

●●●

٢ ـ تنقلات ذات حد معين واحد

قد يتوقف البدو بسبب عائق طبيعي أو سياسي ، أو « قد يغدو نسيجهم الثقافي متينا وقويا لدرجة تجعل من الضروري الحفاظ على بعض المعالم وصيانة القبور بشكل أفضل . عندها يحصل الاستقرار : بعد التشرد الطويل تتوقف المسيرة في مكان ما » [٥٣] .

هذا المجتمع المستقر والمتمدن يوقف بداوته جغرافيا ويشيد البيوت والأسوار ويرسم حدودا لمنطقته ، ولكن الكثيرين من أفراده يتمنون ويحاولون أن يعبروا الحدود . ومع علمنا بان الابتعاد عن الأسوار أو تجاوز الحدود كان خلال أزمان طويلة مغامرة ومخاطرة كبرى ، فذلك لا ينفي أن أوليس وإينياس والسندباد كانوا وما يزالون نماذج نحبها ونحلم بتقليدها .

(٤٩) Repertoire IV, p.p. 9-33
(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٤
(٥١) Resistances, p. 117
(٥٢) L'Emploi du temps, p. 128
(٥٣) Repertoire IV, p. 15

وهي عكس الاستقرار تماما : « فقد يحصل أن يطرد شعب مستقر من أرضه على أثر غزو أو كارثة طبيعية . يحمل أفراد هذا الشعب معهم ما يستطيعون من ممتلكاتهم ويرحلون مع بقية أمل بالعودة الى ديارهم هنا يبدأ حنين قوي بالنمو . ولكنهم يفتشون عن استقرار آخر »[٥٤]

نجد مثالا على ذلك في كتب بوتور بعض قبائل الهنود الحمر التي كانت قد وصلت إلى مرحلة التمدين والتي اقتلعها المهاجرون الأوروبيون من أماكنها وأجبروها على الارتداد غربا . بعد ذلك تجدد خروج هذه القبائل ولكن من بقي منها مازال يحتفظ حتى اليوم بنحاسه وبأعياده القديمة .

« طالما إن امكانية العودة لم تنعدم ، وطالما أن اللغة المفقودةمازال تحول في مكان ما ، فذلك هو النفي . وهو ، مع كل عذابة وآلامه ، أحد الظروف المثلى للابداع الشعري : صيانة تلك اللغة وتحسينها وترطيبها »[٥٥] .

النفي الذي يمكن أن يعيشه شعب أو مجموعة أو فرد ، يجيء إذن ، بالرغم من كل الحنين الذي يولده في النفس ـ وقد يكون بسبب هذا الحنين الذي يعذب المنفي ـ وضعا نكون فيه في مكانين معا وفي زمنين أيضا ، ويجعلنا « ننتقل من عمق تاريخي إلى عمق آخر »[٥٦] مولدا بالتالي لغة جديدة وإنسانا جديدا .

« إن فكرة المنفي الذي يفتش عن المته الخاصة ترتسم بوضوح من أول قصة كتبها ميشال بوتور »[٥٧] .

يسترد الوطن السليب ويعود المخرج أو المنفي إلى بيته بعد غياب قسري عاش خلاله غربة وحنينا . وهذه العودة قد لا تتيسر إلا للأولاد أو الأحفاد ، « للجيل الثالث الذي يعيد برجوعه الى وطنه الأصلي وصل تلك الروابط التي قطعت أو وهنت . عندها يرحل في تاريخ أجداده »[٥٨]

●●●

تنقلات ذات حدين معينين

هنا تكون نقطتا الانطلاق والوصول محددتين « نترك مكانا محددا قاصدين مكانا هو الآخر محدد »[٥٩] . ونقطة الوصول هذه لها في الغالب جاذبية معينة ، فهي مرغوبة ومختارة بناء لخصائص تمتاز بها .

أ ـ تغيير السكن الشخص الذي ينتقل من منزل لآخر يكون قد زار المنزل الجديد وتعرف إليه وتفحصه « لقد انتظر وقرر أن ينقل إليه كل أثاثه ، متخليا بإرادته عن منزله القديم »[٦٠] وهذا الانتقال يتم في الغالب داخل مدينة واحدة أو بلد واحد .

وتغيير المسكن هو انتقال في فترة قصيرة . إنما خلال هذه الفترة « مظاهر عديدة للأشياء نائمة ومنسية منذ زمن طويل تستيقظ فجأة : وزنها ، حجمها ، قابليتها للكسر ، تنظيمها الداخلي ، طريقة نقلها » . والمظهر الأكثر إثارة للدهشة في هذه الأشياء هو بداوتها التي تخفيها وجهة الاستعمال الوحيدة التي اعتدنا عليها ، الاستعمال الثابت .

---

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٦

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٧

(٥٦) Repertoire III, p. 64

(٥٧) Jennifer Waelti-Walters, Colloque de Cerisy: Butor, p. 59

(٥٨) Repertoire IV, p. 19

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٦

(٦٠) Resistances, p. 116

ب - الهجرة : مكان المغادرة محدد ونعرف تماما إلى أين نذهب ، ولكننا لا نعلم بعد أين سنسكن بالتحديد . ولقد تلألأ أفق بعيد أمام عيني المهاجر « بريق الدورادو » (٦١) فحزم أمتعته وسلك طريقه .

« ومعنى أن يهاجر الانسان أنه طرد ، بقسوة أو بلطف ، أي أن البلد الذي افترضه وطنه قد تخلى عنه إلى حد ما ، ومهما بلغ الحنين إليه ، فلن يستطيع المهاجر إيجاده كاملا . إنه يرغب باكتشاف وطن آخر ، يرغب أن يكون وطنه الأصلي هذا الوطن الآخر » (٦٢)

وطن لا يسترد كلية ، ولا يفقد تماما ، والمنزل القديم يسكن الفكر والقلب ، يشحذ الشعور بالنفي ويغذي الحنين .

●●●

تنقلات ذات حد مزدوج

نسافر ونكون قد قررنا مسبقا العودة إلى الديار بعد مسيرة محددة تقريبا . « نقطة الوصول تتطابق هنا مع نقطة الانطلاق . » (٦٣)

أ - رحلة العمل وهي النموذج التام للرحلة المستقيمة ، أي « تلك التي يتطابق فيها الاياب مع الذهاب » خلال هذه الرحلة لا يهتم المسافر بالطريق الذي يسلكه وبما يقع على جانبيه ، لأن المهم هو العمل الذي يسافر من أجله والقضايا التي يبغي إنجازها . تلك مثلا كانت حال ليون دلون ، بطل قصة التعديل ، قبل لقائه مع سيسيل التي أعطت لطريقه معنى وجعلته يربط بين حبه لها ، بين صورتها وذكرياتها ، وبين كثير من المناظر والمعالم . قبل ذلك كان يمضي ساعات رحلاته الدائمة بين باريس وروما متصفحا كتابا أو مخططا لما يجب أن يقوم به من عمل أو نائما ، دون أن يعير أدنى اهتمام للمناطق أو المناظر التي يجتازها القطار . وحتى وجوده في روما كان مقتصرا على تنقلات رتيبة بين محطة القطار والفندق والشركة التي هو وكيلها في باريس . (٦٤)

ب - السياحة من الممكن أحيانا أن تتحول رحلة العمل إلى نوع من العطلة فقد يستغل المسافر المناسبة لكي « يهرب » من عمله الأصلي ويعيش لحظات هجرة أو تشرد أو قراءة للطبيعة والآثار .

ولكننا كثيرا ما نترك دارنا بهدف محدد ، هو السياحة ، نكثر من المحطات في طريقنا لكي نستمتع بسحر أكثر من منطقة . وقد نغير الطريق خلال العودة ليتسنى لنا رؤية عدد أكبر من الأماكن . خلال رحلة كهذه الأخيرة ، التي نستطيع تسميتها « دائرية » - « تزيد عدد نقاط الانطلاق ونقاط الوصول ونتجول بينها مستعيين بعض العالم » . (٦٥)

بعد العودة من سياحة ما ، يبدأ كل مكان قام السائح بزيارته يشغل مكانا معينا من قلبه ، ويبدأ السائح بالتعلق بكثير من الأماكن لدرجة أن يتولد لديه حنين متعدد لمناطق أقام فيها ولو لمدة قصيرة .

إنما ليس كل مكان قادرا على إعطاء المعلومات وتقديم الغذاء النفسي اللذين يحلم بهما السائح . عندها تجد نفسك في غربة مزعجة لا تجني منها سوى بعض المشاهدات والمعلومات عن عادات وتقاليد مختلفة عما في بلدك .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٤
(٦٢) Repertoire IV p. 17
(٦٣) Resistances. p. 123-14
(٦٤) Repertoire IV, p. 17
(٦٥) نفس المصدر ، ص ١٨

جـ ـ القسحة : تغادر منزلك دون أن تنوي الابتعاد عنه كثيرا . ما تنشده هو التنزه أو التجوال ، أي أن تروح عن نفسك في محيط منزلك أو في شوارع مدينتك . ولكن هذا التطواف قد يتحول أحيانا الى نوع من التشرد أو الضياع ، كما حصل لجاك ريفل ـ بطل قصة « استعمال الوقت » ـ عندما وجد نفسه تائها في شوارع مدينته التي تحولت الى متاهة لم يستطع ايجاد وجهته فيها ثم التخلص منها الا بعد جهود مضنية .

د ـ الحج : « المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو الرحلة الى مكان مقدس أو زيارة قبر مقدس أو مكان ظهور عجائبي . يجلب الحاج معه تساؤلا ويأمل بجواب عليه ، بشفاء للروح وللجسد . . . ثم أصبحت تعني زيارة الأماكن التي تتكلم ، التي تحدثنا عن تاريخنا وعن أنفسنا »[٦٦] .

الحج يقتضي اذن ذهابا وعودة . « وسواء زرنا « وصلة بين السماء والأرض » كما هي حال مكة والقدس وروما »[٦٧] أو بين ماضينا وحاضرنا أو بين حضارات مختلفة ، فاننا ننوي منذ الانطلاق العودة بعد أن نكون قد تشبعنا بتأثير المكان المنشود .

ان المعنى الشائع لهذه الكلمة « رحلة انفرادية أو جماعية الى مكان مقدس لأسباب دينية وبنية التقوى »[٦٨] ـ توسع كثيرا عند بوتور كما رأينا ، وأصبحت تشمل زيارة كل مكان يتكلم ، « كل مكان يأتينا بأقوال لحظة تاريخية أساسية تتميز من بين عصور أكثر غموضا وأشد ظلاما » .[٦٩]

و « كلام اللحظة التاريخية » يقودنا الى ما يمكن تسميته باللحظة المكانية ونعني بها التقلبات أو التموجات التي نلاحظها في منظر ما خلال مشاهدة واحدة . وهذه اللحظة المكانية « ليست غائبة عن أعمال بوتور الذي يرى في لوحات هوكوساي لجبل فوجي « دعوة لرحلة يعرض الجبل المقدس في كل محطة منها شيئا جديدا ومختلفا »[٧٠] .

أما الأماكن التي تتكلم ، فقد تكون مدنا أو مواقع أثرية ولكنها قد تكون أيضا مناطق موسيقية أو فنية أو أدبية . ومن هذا المفهوم الأخير أطلق بوتور على نفسه اسم « الحاج الأدبي الشغوف » Lepelerin litteraire passionne وينظر الحاج الى المكان الذي يزوره يخبره عن تاريخه وعن العلاقات التي يقيمها مع باقي العالم ويجعله يعيش حالة من التواصل التاريخي والجغرافي .

« عندما أقول عن منظر بأنه شاعري ، فذلك يعني أنني أجد نفسي محمولا به . يجعله البيوت التي أراها ، أو هذه الأمواج التي أجاورها ، تجبرني هي على تركها ، تعرض أمامي كل أنواع الشواطىء الأخرى . يحتوي هذا المكان على عدد لا يحصى من الأماكن الأخرى ، ولا يبقى كما هو ، لا يقفل على ذاته ، بل يصبح مركز انطلاق في رحلة . كما أن وصفه يضحي هو الآخر أساسا لرحلة طويلة في التاريخ والفكر » .[٧١]

هـ ـ الاستكشاف : تمضي لاكتشاف مكان مجهول أو غير معروف جيدا ، متعرضين لمجازفات ومخاطر نذهب الى الجهة الأخرى من الأفق ، الطبيعي أو العقلي ، نوسعه »[٧٢] .

(٦٦) نفس المصدر ، ص ١٩
(٦٧) Repertoire III, p. 29
(٦٨) Selon le Robert, dictionnaire de la langue francaise, volume V
(٦٩) Repertoire IV, p. 19
(٧٠) Repertoire III, p. 164
(٧١) Repertoire II, p. 9
(٧٢) Repertoire IV, p. 20

وسواء كانت تهدف لاكتشاف مناطق مجهولة من عالمنا أو تاريخنا أو جسدنا أو بعض كواكب الكون الأخرى ، فان كل أشكال الاستكشاف تسحر بوتور الذي لا يكف عن الكلام عنها في مجمل أعماله آملا أن تتوصل مدن أخرى مثل روما لاكتشاف بلاد جديدة مثل أميركا وأن يكون هو أحد رواد العصور القادمة .

فالرواد ليسوا بالضرورة من يسعون لاكتشاف مناطق طبيعية فقط ، بل هناك من ينقب في مجالات قريبة ، « من يرى بلدانا مجهولة تظهر من بين غبار العصور الغابرة »(٧٣) ومن يقوم « بمحاولات نحو مطالعات لم تعرف بعد »(٧٤) و « من يخترقون محيطات الأعمار »(٧٥) ومن يبتدعون « نيلا من أحلام لا تنضب »(٧٦) .

ولكن هذه الجولات والبحثات التي تتكلم أحيانا عن جيمس كوك أو عن كريستوفر كولومبوس وماجلان وروّاد آخرين في مناطق جغرافية أو فكرية ، تصبح أحيانا متواضعة لدرجة أنها لا تهدف الا التفتيش عن غرفة للسكن (استعمال الوقت) ، زيارة حي من مدينة معروفة (التعديل) ، الغوص في عيني حبيب (وصف الفنان كقرد فتي : l'artiste en jeune singe portrait de أو تأمل ملامح وجه لاستطلاع تعابيره (استعمال الوقت) .

في كل مكان وداخل كل انسان هناك مناطق مجهولة لا تحصى . والاستكشاف لا ينتهي .

●●●

الرحلات العمودية : الانتقال في المكان ملازم دائما لانتقال في الزمان ، وكل زيارة لمكان ما تصب في تعرف على ماضيه وتفهم لحاضره واستشفاف لمستقبله . يضاف الى هذه الأبعاد الثلاثة نسج شبكات عديدة من الاتصال بين هذا المكان وأماكن أخرى قريبة أو بعيدة من الناحيتين ، الجغرافية والتاريخية .

وعملية استكشاف مكان ما تضيف بعدا آخر هو « بعد العمق » ، اذ أن الرحالة يسعى للتنقيب عن أكبر عدد من طبقات هذا المكان ، فيهبط فيه أو يصعد رأسيا أو متابعا طرقا مروحية أو سلمية أو لولبية .

أ ـ الرحلات الارتقائية : « يتميز هذا النمط بتوسع تدريجي للأفق أو لأسلوب البحث . من نقطة الوصول نعيد تحديد نقطة الانطلاق » .(٧٧)

وتوسيع الأفق يأتي من دراسة كل مكونات المكان المقصود ، أو حسب قول بوتور عن « استنطاق هذه الهضاب المختلفة والمسكونة ، استنطاق التضاريس والحيوانات والطيور ، تفصيل المكان ومحيطه » ،(٧٨) ثم اعطاء عدة « نظرات » عنه والتوصل أخيرا « لتفتيحه ثقافيا على كل ما هو غريب عنه ، خارجه أو حتى داخل حدوده » .(٧٩)

ولكن هذا الاتجاه الارتقائي يجب أن يرافق باتجاه معاكس : الغوص الى الأسفل .

ب ـ الرحلات الهبوطية : وفيها يضيق الأفق تدريجيا وبصورة مؤقتة لكون الرحالة يمر في مهاوٍ وكهوف قبل أن

(٧٣) Repertoire III, p. 22
(٧٤) Ibidem, p. 219
(٧٥) Matiere de reves, p. 121
(٧٦) Second sous-sol, p. 25
(٧٧) Repertoire IV, p. 24
(٧٨) Ou, p. 30
(٧٩) Andre Helbo, Michel Butor, vers une litterature du signe, p. 14

يصعد مرة أخرى ويبلغ الجهة المقابلة من الأفق . « هي اذن عملية ارتقاء معكوسة وعاكسة تحدد فيها نقطة الوصول نقطة الانطلاق بعد أن تحدث فيها القلايا ، بعد أن تجبرها على الاعتراف » .[٨٠]

أما المهاوي والكهوف فهي الشقوق والسراديب التي تفتح أمام أبطال « استعمال الوقت » و « التعديل » و « وصف الفنان كفرد شاب » ، وهي عمليات البحث والتنقيب و « الصيد الروحي » التي يقومون بها ، وهي النباتات والحيوانات والمعادن التي نجدها بكثرة وتنوع في أغلب كتب بوتور .

●●●

تعددية المكان : يعبر ميشال بوتور في احدى مقابلاته عن رغبته الشديدة في « تكاثر المكان ، في تخليص المكان من نواقصه » . ثم يضيف : « لقد تمنيت دائما أن أكون في مكان آخر ، في مكانين في آن واحد ، أتمنى أن أكون في كل الأماكن في نفس الوقت » .[٨١]

هذه الرغبة التي تبدو طوباوية للوهلة الأولى تحققت الى حد ما . فالتقدم العلمي والتقني ووسائل الاعلام والاتصال فتحت نوعا ما المسافة التي تعيش فيها وأدخلت اليها عددا كبيرا من أماكن أخرى بعيدة وقريبة . فلقد غدا اليوم كل مكان مركزا لأماكن عديدة ونقطة تقاطع لكثير من الدروب التي تمر في مناطق أخرى .

« يوجد في مدينتي كثير من المدن الأخرى تدخلها بوسائل متنوعة : لوحات الاعلانات ، كتب الجغرافيا ، الأشياء التي تستورد منها ، الجرائد التي نتكلم عنها ، الافلام التي تعرضها ، الذكريات التي أحتفظ بها ، والقصص التي تجعلني أتعرف عليها » .[٨٢]

نعيش اذن في مدننا نوعا من تعددية المكان ، ولكن ذلك ما يحدث أيضا ، ولو على نطاق أضيق ، في منازلنا وفي غرفتنا الخاصة من خلال التلفزيون والمذياع والمطالعات .

ولكن هذه التعددية ما زالت جزئية وغير كافية . ويبقى علينا اجتياز مسافة طويلة للوصول الى تلاق أعمق وأشمل . وما نشاهده أمامنا عن الغير يحفزنا على الانطلاق والتعرف عن قرب . ما نراه هو أصوات تنادينا وتدعونا الى الزيارة والاكتشاف والتلاقي .

●●●

لقد حاول بوتور ، كما رأينا ، أن يبين « كثرة مظاهر هذه الحركة الأساسية للجنس البشري ، التي يقع بداخلها الاستقرار الذي نعرفه »[٨٣] حاول ولم يزل لكونه مقتنعا بأن الحركة معادلة للفعل ، للتطور ، للحياة ، فالتوقف عنها يعني الموت ، و « الانسان رحالة بجوهره ، بطبعه . وقبوله بالرحلة هو قبول لقدره . . أما امتناعه عن سلوك الطريق فانه يعني الاستسلام لأن الجمود لا يحمل أي مظهر إيجابي » .[٨٤]

ولقد وضع هذا الكاتب أسسا « للرحلاتية » كعلم جديد دون أن يخفي رغبته في رؤية كثيرين غيره كتنون هذه الأسس ويرفعون فوقها البناء .

إنها بذور تنتظر جهد العاملين ومعاول المنقبين وبعثات المستكشفين .

●●●

(٨٠) Repertoire IV, p. 24
(٨١) J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 68
(٨٢) Repertoire II, p. 49
(٨٣) Le Matin, 17 avril 1979
(٨٤) Raymond Christinger, op. cit. p. 93

من ملتقى الحضارات الى الولادة الثانية

« لقد هربت .
كان عليّ أن أهرب .
في كل لحظة أمضيها هنا .
يقول لي المنظر : كان عليك أن تهرب »
« في أي مكان » ص ٣٨٥ .

١ ـ الهروب : تعرفنا كتب ميشال بوتور على مناطق جغرافية متباعدة ومتنوعة . وبين هذه المناطق الطبيعية يتحرك الكاتب أو أبطاله مدفوعين بعوامل عديدة وآملين الوصول إلى أهداف مختلفة ، ولكنهم . في كل رحلة يقومون بها ، يخضعون المكان الذي يزورونه لسلسلة من الأبحاث والدراسات تنتهي بكشف كثير من غوامضه ومن علاقاته بالأماكن الأخرى .

هذه الرحلة المتواصلة التي شكلت باريس نقطة انطلاقتها الأولى وما زالت تشكل محطتها الأساسية ، تعاظمت وتشعبت لكي تبلغ كولومبيا البريطانية والبرازيل واليابان وسنغافورة والبيرو واستراليا ، وما فتئت تتوسع واعدة ببلدان ومناطق جديدة .

وإذا ما تتبعنا هذه الرحلة من بدايتها نجد بأن أبطال بوتورهم الذين بدأوها ، بمعنى أن القصص الثلاث الأولى[٨٥] تعرض شخصيات مختلفة أدركت أنها تعيش في محيط خانق فانطلقت تدرس محيطها وتحاول تبين مشاكله وخلفياته ومعرفة القوانين التي تتحكم بحياتها ، ثم تخرج من هذا الاطار الضيق لكي تتابع البحث في البلدان القريبة منها جغرافيا وتاريخيا وثقافيا .

بدأ بوتور كتابة قصته الأولى في مصر حيث كان يدرس اللغة الفرنسية في مدرسة المنيا خلال العام الدراسي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ . ولقد تحدث عن ذلك أكثر من مرة فيما بعد فقال :

« عشت بعيدا عن باريس للمرة الأولى في حياتي ، وهناك شعرت بضرورة تشكيل نوع من نموذج مصغر لباريس . كنت بحاجة لاعادة تشكيل ما كانت عليه حياتي في باريس » .[٨٦]

واعادة التشكيل هذه تتم من خلال بناية سكنية تؤخذ « كعينة عن مجمل المدينة » هذه العينة تبدو كمجموعة طبقات يعيش ساكنوها دونما اتصال فيما بينهم ودون أن يعرف بعضهم البعض الأخر الا لماما ، لدرجة أنه عندما يتكلم أفراد عائلة ما عن باقي الجيران يشيرون اليهم برقم الطبقة فيقولون مثلا « سكان الثالث » أو الخامس ، الخ . وحتى أفراد العائلة الواحدة يعيشون متباعدين يغرق كل منهم في عالمه الخاص ، فسكان الطبقة الأولى « الهادئون والبسطاء ، كما يبدو ، والذين يعيشون في تفاهم تام ، كما يبدو ، ليسوا في الحقيقة سوى الأربعة مستوحدين يزورون بعضهم أحيانا ويلتقون حول مائدة الطعام فقط »[٨٧]

في هذا المحيط الراكد يفقد التخاطب دوره ومضمونه ويصبح الحوار الذي يدور من حين لآخر عبارة عن كلمات جوفاء لا تواصل بينها ولا قيمة لها ، مما يجعل سكان هذا المكان الضيق « يتلاقون ، يتبادلون التحية ، يتجنب بعضهم البعض الأخر ، لا يدرون ماذا يقولون ، يدخل كل منهم منزله ، يتناول طعامه وينام بينما كل شيء يتحرك من حوله » .[٨٨]

هذه العزلة والانطوائية تجعل الحياة رتيبة ومملة ، لا بل انها تحول كل غرفة الى « جحر » وتحيل أغلب

(٨٥) Passage de Milan (1954), L'Emploi du temps (1956), La Modification (1957)
(٨٦) Magazine litter aire, no. 110, mars 1976 (connecre a Butor)
(٨٧) Georges Charbonnier. Entretiens, p. 50
(٨٨) Passage de Milan, p. 44

السكان الى « حشرات تتململ » ، ويطال تأثيرها السيء الاشياء أيضا .

« هذا الأزيز الخفيف والذي يشبه صوت الخفافيش هو صوت سيارة كسولة تمر . . أيها القديسون ، أيها الملائكة ، من منكم قريب مني ليضع يده على أجفاني ، ليهدىء هجوم النظرات التي يعود طنينها ليحوم فوق جراحي . . اسهروا علينا أنتم يا من تعيشون في النور ، أنتم يا من تسافرون »[89]

هنا تنطلق الكلمة السحرية من قلب الضياع ، ان ما ينقذ من العزلة والملل والرتابة والعذاب ، ان ما يحمل النور المخلص ويفتح الطريق أمام هؤلاء السجناء ، ما هو سوى الرحلة ، السفر بعيدا .

ولكن من الطبيعي الا تبدأ الرحلة على الفور ، فما زال الوقت مبكرا .

« في هذه القصة ، يقول بوتور ، اداة لأسلوب الحياة في مبنى باريسي في الخمسينات ينبغي أولا أن نشخص المرض . . ينبغي أن ندرس هذا المحيط قبل أن ننطلق للقيام بأعمال أخرى . »[90]

إذا كان معظم الأشخاص والأشياء يتحركون متثاقلين في هذا المبنى ، فذلك لا يعني أبدا أنه ثابت ومتماسك ، اذ أن مرور المترو من آن لآخر يجعل كل مافيه يهتز : المصابيح والصور المعلقة على الجدران والطاولات والتريات والمصعد . وكأن الكاتب يريد بذلك أن يقول : انهضوا يا سكان هذا المبنى من سباتكم . غادروه لتطلعوا على غيره والا فانه سينهار عليكم .

عندها نسمع في القصة صوت قطار يمر وكأنه يعلن من جهته بأنه البديل للمترو . على السكان الخروج من تحت الأرض ، عليهم التعرف على العالم .

ونسجل في نفس الوقت مرور طائر الخطاف من فوق المبنى ليعطي الوجه الآخر للانذار : من لا يستجب للنداء مصيره الشلل والموت .[91]

لقد سبق لبعض السكان أن غادروا المبنى وزاروا بلادا بعيدة حملوا منها لدى عودتهم بعض التحف أو الأشياء التي تجعلهم مختلفين عن جيرانهم ، فعند ساكن الطبقة الوسطى « غرفة واسعة فيها خزائن كتب وعرائس أخريان ماليتان بأقمشة قبطية وبورق البردي ، وفوقها لوحتان لرسام من القرن السابع عشر تظهر إحداهما قطاعة واقعة من الصوان تبين كيف استطاع فلاح الأقصر رغم تقنيته البدائية أن ينقش التماثيل الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة »[92] هكذا استطاع أحد السكان أن يفتح في منزله نوافذ على العالم من خلال الكتب واللوحات والمصنوعات المحلية لما وراء حدود المبنى . بينما نجد شخصيات أخرى تعيش حالة اغترابية داخل هذا البناء ، يشدهم حنين قوي الى وطن يحلمون بالعودة اليه ، وطن جميل ، مشمس ودافىء .

أهم هذه الشخصيات أحمد ، المصري الذي يعمل خادما في أحد المنازل والذي يسميه بعض السكان « علاء الدين » . انه الذي من يحمل الفانوس السحري الذي يفتح أبواب الشرق الساحر أمام سجناء المبنى الباريسي . ولكنه يعيش في عزلة خانقة واغترابا الهيا تزيد من حدتها المقارنة الماثلة دائما أمام عينيه بين عالمين : عالم ضيق ، عطر ، عاصف ورطب وعالم كان

(89) نفس المصدر ، ص ١٢

(90) Georges Charbonnier, Entretiens, p. 80 et 81

(91) طائر الخطاف هو نذير شؤوم ورمز الموت عند المصريين القدماء وعند عدد من الشعوب الأخرى

(92) Passage de Milan, p. 67

وطنه وما زال يسكن قلبه ، عالم الدفء والنور والشمس والقمر والنجوم .

ولكن قصة « مر الخطاف » تنتهي بسفر مزدوج ، أو بالأحرى بهروب شابين من سكان المبنى ، هروب يجدان نفسيهما مرغمين عليه بعد أن يشتبه بقية السكان بأن أحدهما ارتكب جريمة قتل انجيل ، أجمل فتيات هذه البناية ، وهذه الفتاة كانت تتميز بجمال خاص ، مختلف ، فهي « الوحيدة الحقيقية بين تلك الهياكل العظمية المتشحة باصفرار حي مرعب »[93] ، و « من المؤكد بأن هذه العذراء لها مظهر طائر عظيم يستطيع الانطلاق كالسيل عندما يريد . كما نشعر بأن جسدا آخر يختبىء خلف بياضها ، جسدا داكنا ، مندفعا يهوى الرقص البدائي » .[94]

جمال غريب كهذا لا يمكنه العيش في المبنى الباريسي لأنه يجسد الشباب والانشراح والحيوية والفرح في عالم لا يملك الا مكانيات ولا الحق للاستمتاع بهذه الصفات . وهذا العالم المحشو بالبياض يحتاج لكثير من الأبحاث والاكتشافات قبل أن يصبح جسدا حقيقيا ، جسدا أسمر ، خلاسيا ، تنصهر فيه حضارات وشعوب مختلفة . أما « البلد الأبيض » فهو حسب قول ميشال بوتور « كل بلد يرفض تعايش الحضارات والشعوب » .[95]

هنا يظهر الهدف الأساسي للرحلة في أعمال ميشال بوتور : التفتيش عن هوية حضارية منفتحة تتيح لحاملها أن يتعرف أكثر على تاريخه من خلال أضواء جديدة تكشف نقاط ووسائل التلاقي بين الشعوب ، وأن يساهم ببناء مستقبل تزول فيه حدود التفرقة ويكون صورة لبابل ما بعد الطوفان حيث الكل يتعاونون ويتفاهمون .

في قصته الثانية « استعمال الوقت » يصور الكاتب شابا فرنسيا يمضي دورة تدريبية في مدينة بلستون الانكليزية ، التي هي في الواقع مدينة مانشستر . وسرعان ما نكتشف بأن هذه السنة تصبح فترة نفي وضياع وحزن ، والأهم من ذلك كله ، فترة استكشاف للمدينة وللذات في نفس الوقت .

خلال اقامته في هذه المدينة يكتشف جاك ريفل Jacques Revel أنه يتحرك عشوائيا داخل متاهة ثلاثية : متاهة في المكان والزمان والذاكرة . فهي متاهة مكانية من حيث تشابه شوارعها وساحاتها وحدائقها يشعر فيها وكأنه « سحق في فخ انغلقت فتحته ، بين أنياب المنازل التي يرى صورها وضجيجها »[96] وهي متاهة زمانية لا يميز فيها ساعة من ساعة ولا لحظة من أخرى :

« أحسست وكأني ثابت في مكاني . وكأني لم أصل إلى هذه الساحة ، كأني لم أقطع مسافة طويلة ، كأني أجد نفسي ليس فقط في نفس المكان ، بل وفي نفس اللحظة التي تدوم للأبد والتي لم يكن أي شيء يعلن نهايتها »[97] .

كل ذلك يجعل الزائر المقيم يضيع في متاهة ذاكرته ، فعندما يحاول أن يستعيد فترة إقامته في هذه المدينة ، يقاسي الأمرين قبل التوصل إلى تبين بعض منها :

« من الصعب جدا على أن أحدد في أية لحظة حصلت

---

(٩٣) نفس المصدر ، ص ١٩٣
(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٧٠
(٩٥) J. M. Le Sidaner, op. cit. p. 57
(٩٦) L'Emploi du temps, p. 23
(٩٧) نفس المصدر ، ص ٢٥

تلك الحادثة الصغيرة التي كانت مدار أحاديث عديدة بيننا . . . لدرجة أنه ، في ذاكرتي ، كل تلك الأسابيع التي يرعبني عددها . . . تندغم في واحد فقط ، طويل ، سميك ، كثيف وغامض »[98] .

تلك الناحة المثلثة لم تكن وليدة جهل الزائر للمدينة ، بل هي موجودة في تكوينها وفي جوهرها . فهي « مدينة الدخان والضباب والملل ، مدينة المطر والوحول والرتابة ، مدينة الصدأ واللعنة »[99] وهي بذلك صورة عن مدن شمال أوروبا التي يفترض الكاتب بأن معرفتها ودراستها يحقق شرطان أساسيان قبل انطلاقه إلى بلاد أخرى تكون نقيضا لهذا المحيط الخانق .

أما الوسيلة التي يستعملها بطل القصة لقهر هذه المدينة ، قهرها بالمعرفة والاستطلاع فهي الكتابة ، وسيلة الانقاذ ورحلة التفهم والتمثل . وهكذا نراه يمضي النصف الثاني من سنته الدراسية في استعادة ورواية حياته هناك . بهذه الطريقة يجد نفسه يغوص في أعماق المدينة الغامضة ، يكتشف أسرارها ويتبين طريقة للخلاص والاتجاه التالي الذي عليه أن يسلكه لمتابعة البحث وتعميق الاستكشاف . هذا الاتجاه تشير إليه بعض الأفلام الوثائقية التي كان يداوم على مشاهدتها في إحدى دور السينما والتي كانت تعرض مدنا ومواقع أثرية في بقاع مختلفة من العالم . المحطة التالية يجب أن تكون روما .

مدينة روما هي البطل الأساسي للقصة الثالثة ـ وهي القصة الأكثر شهرة في أعمال ميشال بوتور ـ « التعديل La Modification » .

إذا نظرنا ببساطة إلى هذه القصة تقول : إنها رحلة في القطار بين باريس وروما يقوم بها رجل في الخامسة والأربعين قرر أن يهجر زوجته وأولاده الثلاثة وأن يحضر عشيقته الايطالية لتعيش معه في باريس كما اتفقا على ذلك مسبقا .

ولكن دراسة متفحصة للقصة تبين بأنها أشد تعقيدا وأكثر عمقا ، فهي ليست رحلة بين امرأتين أو محاولة لاستعادة الشباب بقدر ما هي رحلة بين مدينتين وتنقلا بين عهود وحضارات عديدة .

في المسافة بين باريس وروما يكتشف ليون دلمون ـ بطل القصة ـ شيئا فشيئا بأن تعلقه بعشيقته لم يكن إلا مظهرا من مظاهر شغفه بمدينة روما . وهذا الاكتشاف يتم بعد عملية « صيد فكري » تقوم بها « آلة العقلية » من خلال رفاق الطريق والأشياء الموجودة في المقصورة والمناظر التي يشاهدها من النوافذ . هذه العملية تتعمق فتجعله يتذكر أو يتخيل أو يحلم ، في اللحظات التي يغلبه فيها النوم ، برحلات أخرى تتشابك وتتداخل لتوصله في النهاية إلى اكتشاف خبايا نفسه ودوافعه الحقيقية .

لقد كان منذ شبابه مشغوفا بروما ، « هذه المدينة التي كنتما[100] تحلم بها منذ سني دراستك الثانوية ومن أولى زياراتك للمتاحف »[101] وبعد تلك الفترة ازداد تعلقه بهذه المدينة وأصبح يحيطها بهالة من القدسية حتى أضحت « المدينة الأزلية » و« مركز الأصالة والجمال والحب » و« مدينة الاشعاع والشباب » .

(98) نفس المصدر ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(99) نفس المصدر ، ص ١١٣ .
(100) نسجل هنا بأن أحد مظاهر التجديد في هذه القصة ـ التي تنتمي هي وقصص بوتور الأخرى إلى تيار « القصة الجديدة » "Le Nouveau roman" هو استعمال الراوية لها الضمير المخاطب للمتكلم عن نفسه وكأنه بذلك يقوم بمحاكمة ذاتية يبلغ بها يتوصل من خلالها إلى الإحاطة بحقيقة مشاعره وأفكاره وتصرفاته .
(101) La Modification, p. 228

كل هذه الصفات التي ألصقها بها ، جعلت من روما نوعا من الأسطورة التي سيطرت على تفكيره وتحكمت بمشاعره وتصرفاته وعلاقاته لدرجة أنه ، بوعي أو دون وعي ، أخذ يعتبرها تلك الجنة المفقودة التي لا تتحقق السعادة إلا بالعودة إليها .

بعد تفكير وتركيز طويلين تقوده « آلة التفكير » إلى الخلفية الأساسية لتعلقه هذا . إنها رغبة مكبوتة « بالعودة إلى الشرعة الرومانية القديمة ، إلى تنظيم إمبراطوري للعالم حول مدينة مركزية واحدة »[١٠٢] .

عند اكتشافه لهذه الخلفية التسلطية ، يدهش ليون دلمون إذ يجد أن مشروعين كانا قائمين في رأسه قد سقطا معا . فعشيقته فقدت جاذبيتها وروما القديمة فقدت بريقها لأنه لم يعد ممكنا لمدينة أن تتحكم بمصير « العالم الذي أصبح أوسع من ذلك بكثير بالنسبة لكل منا والذي اختلف توزيعه عن الماضي »[١٠٣] .

أهمية روما ليست إذن في انغلاقها بل في انفتاحها ، وليست في تعصبها بل في تلاقيها وتفاعلها مع بقية المدن والحضارات . وهذا ما تبينه آثارها ومعالمها التاريخية حيث يدل كثير منها على الحضارة اليونانية أو المصرية أو الأسيوية . فهي ليست إذن « رومانية » صرفة ليست بالتالي المدينة الوحيدة التي تتلاقى فيها عهود وثقافات مختلفة ، فباريس ، على سبيل المثال ، واحدة من تلك المدن الأخرى التي يظهر فيها هذا التلاقي .

هكذا تأخذ مدينة باريس مكانا مشابها لروما التعددية ، وتبدأ معالمها بالظهور تباعا من متحف اللوفر إلى المسلة المصرية إلى قوسي النصر الروماني والبونابرتي وكثير غيرها . وهكذا استطاع بوتور الرحالة أن يعود إلى مسقط رأسه بعد دورة مر خلالها في انكلترا وايطاليا . وهو يتكلم عن هذه العملية فيقول :

في قصة التعديل مدينتان ، ولكن المرور في بلستون هو الذي أتاح لي أن أتكلم عن باريس مجددا ، يضاف إلى ذلك المرور في هذه المدينة الأخرى - روما - الذي سمح لي ، بعملية معقدة جدا ، أن أضع باريس في جيبي ، وهكذا استطعت تجاوز التناقض بين أن أكون في مكان أو أن لا أكون فيه »[١٠٤] .

إذا كانت القصتان الأوليان قد شددتا على ضرورة السفر بعيدا ، فإن قصة التعديل تحدد الطريقة الواجب اعتمادها في المكان المقصود .

هذه الطريقة تقضي بدراسة المكان جيدا ، باستكشافه أفقيا وعموديا ، بإظهار خواصه وخلفياته من خلال كل شارع وكل موقع ، وبإيجاد « الممرات » الغورية « التي توصل إلى أماكن أخرى ، ثم كتابة كل ذلك ، إدخاله في كتب تجمع حضارات وثقافات مختلفة وتساهم في الحد من تناقضاتنا وبتسهيل التقارب بين الشعوب .

٢ - نقاط الالتقاء ، اللامراكز بعد دراسته للمعجم الذي تمثله أسطورة روما في خلفيات تفكيره ، وبعد دراسته لجغرافية هذه المدينة وتاريخها وارتباطها بما حولها ، يتوصل مسافر ميشال بوتور[١٠٥] إلى اكتشاف مدهش حيث يقول :

« وهكذا لننزع من وجداننا إحدى أكبر موجات التاريخ ، تلك التي كان للعالم فيها مركز ، ولم يكن ذلك

---

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٧

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(١٠٤) Magazine littéraire no. 110, p. 17

(١٠٥) نعني بكلمة « مسافر » هنا كل من يقوم برحلة في أعمال بوتور ، سواء كان ذلك الشخص الكاتب نفسه أو أية شخصية في كتبه ، إذ أننا نلاحظ استمرارية الرحلة من خلال شخصيات متعددة ومتنوعة .

المركز الأرضي في وسط دوائر بطليموس فقط ، بل روما في وسط العالم . فأنتم تلاحظون بأن هذا المركز انتقل بعد انهيار روما إلى القسطنطينية ثم إلى أماكن أخرى . . . »(١٠٦) .

ومع كل التأثير الذي مارسته على كل الأحلام الأوروبية ، فإن ذكرى الامبراطورية لكل منا توسع يكثير وموزعا بشكل مختلف عما عهدناه »(١٠٧) .

انطلاقا من هذه النقطة الفكرية يحزم المسافر حقائبه ويسيرا موجودا بعقلية متفتحة تخلصت إلى حد كبير من وهم الامبراطورية الرومانية المقدسة . ينطلق إلى الجوار الجغرافي والثقافي ليفحص مناطق تقع في حوض البحر المتوسط ، ويكتب نتاج استكشافاته في الجزء الأول من « عبقرية المكان » :

لقد أيقن خلال رحلته إلى روما أن هذه المدينة المتعددة الوجوه وثيقة الصلة بحضارات مجاورة عليه دراسة آثارها وأطلالها علّه يجلب منها بعض الأضواء التي تحدد ملامح شخصيته الحقيقية والتي تمكنه من الاجابة على أسئلة تلح على تفكيره : « من أنت ؟ أين أنت ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ عم تبحث ؟ » .

يسافر الكاتب بنفسه في هذا الكتاب محاولا إيجاد بعض الأجوبة . يسافر وهو موقن بأن « المجتمعات لا تبقى معزولة عن بعضها البعض ، فهي تلتقي ، تتحارب أو تتاجر . وليست عناصرها « الواقعية » فقط هي التي تتجابه ، أسلحة أو منتجات ، جنودا أو بضائع ، بل الخيالية منها أيضا ، آلهتها »(١٠٨) .

يزور في البداية سلسلة من المدن كانت تشكل ذات يوم جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . فالكونه تجاوز مفهوم المركز ، نجده يتوجه إلى « لا مراكز » ، أي إلى أماكن كانت تدور في فلك معين ولكنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالية معينة وان تشكل نقاط إشعاع فكري وحضاري :

« مانطوفا Mantova هي إحدى الأماكن ، خارج روما ، حيث يظهر بكل وضوح مدى المآسي الرومانية ، أي هذا النوع من اليأس الذي تملك أوروبا في لحظة بدأت تشعر بسبب سقوط القسطنطينية واكتشاف امريكا ، بأن صورة الامبراطورية كوحدة للعالم أخذت تهتز نهائيا »(١٠٨) .

عناصر جديدة ، فرضت نفسها إذن ، ومنذ مدة طويلة ، على الفكر الأوروبي ، فتركت تأثيرها عليه وشغلته قبل أن تيقظه من سبات طويل كانت تهدهده فيه أحلام الوحدة واللحمة . وهذه العناصر تدعوه للتفتيش من غيرها بين أطلال هذه اللامراكز :

« يوجد في حضارة وفكر فيراري Ferrare شيء ما لم يكتشف بعد والجاه المختلف ذو تناغم تام مع بعض حاجاتنا ، كما لو أن هذا النور الساطع الذي خفت مدة طويلة قبل أن يظهر لنا من جديد ، يدعونا للاستعانة به كي نتقدم »(١٠٩) .

هذا النور الكامن في آثار فيراري كما في مدن أخرى كثيرة ، يمثل القوة الدافعة والمشجعة للمسافر كي يتقدم بخطى ثابتة ليس فقط نحو اكتشاف خباياً الماضي ، بل نحو المستقبل أيضا ، إذن أن معرفة الماضي لا معنى لها إذا لم يكن مصبها في بناء مستقبل أفضل .

هذه النار التي ينشدها المسافر دفئا وصحة ومعرفة إذ يقول : « كنت بحاجة لتغيير الهواء وللاستمتاع

(١٠٦) La Modification, p. 277
(١٠٧) Repertoire II, p. 17
(١٠٨) Le Genie du lieu, p. 97
(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٠٤

بالشمس » ، يجدها أحيانا بمزج للعناصر في شراب حقيقي أو خيالي . فصورة بابل التي يتأملها في مدينة سالونيك تشكل « ينبوعا أو على الأقل منبعًا يتفجر منه جزئيا بعد ترسب وتقطير ، هذا السائل الذي يروي الظمآن »(١١٠) ظمأ للاكتشاف والمعرفة ، للاطلاع على مكونات نقاط العبور أو الالتقاء وأماكن تعايش الثقافات المختلفة .

في قرطبة يلاحظ المسافر أن « كل شيء يعيدنا إلى الخلافة ، إلى تلك الفترة التي كانت فيها المدينة بيزنطة الغرب »(١١١)، وهكذا فإن زيارة الغربي إلى هذه المدينة تجعله « على اتصال مع كل ما تقدمه افريقيا المتوسطة والاسلام من غنى حضاري »(١١٢).

أما في اسطنبول ، فإنه يتبين وجود مدن ثلاث ذات ميادين مختلفة تعود كل منها إلى عصر معين . وأتبع هذه المدن هي « ليفربول الشرق » أي المدينة الصناعية والمصرفية ، المدينة السوداء التي تمت على الضفة اليسرى للقرن الذهبي ثم « تمددت في الجهة المقابلة في اسطنبول القديمة ، في المدينة العثمانية الكبرى التي نخرها السوس منذ قرون ، مدخلة جذورها إلى جوفها ، مدخلة عصاباتها في أحشاء نسيجها المهترئ والتالف ، سالبة قوتها »(١١٣).

والمدينة الثالثة التي وجدت قبل الاثنتين معا ، هي القسطنطينية « التي لم تولد من توسع بيزنطة ، بل من الانتقال الاداري إلى هذا المكان لعاصمة الامبراطورية الرومانية المستشرقة »(١١٤). ولكن بالرغم من التنافر الظاهري بين أجزاء المدينة ، فإن هناك « ممرات فورية » تجعل المسافر يشعر وكأنه موجود في أكثر من زمان ومكان . فجسرها أو نفقها ليسا فقط وسيلة اتصال بين آسيا وأوروبا ، بين العصر العثماني والبيزنطي ، بين الاسلام والمسيحية وبين الحاضر والماضي .

وسالونيك أيضا هي نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، فمنذ تأسيسها « لم تتوقف عن كونها مدينة حدودية « ومحطة عبور تتجاوز فيها آثار بيزنطية وروما وأثينا ، بالاضافة إلى « شواهد حديثة على يونان منقولة من انكلترا أو فرنسا أو المانيا »(١١٥). ثم إن لها علاقات وثيقة مع الاسكندرية المعاصرة أو التي لمع فيها البطالسة ، كما أنها « تشبه كثيرا مدينة ماري التركمانية » كل ذلك يدفع المسافر لأن يعتبرها « نقطة انطلاق أو ميناء ربط » .

ما نلاحظه إذن أن مدن سالونيكا وفيرارو ودلف واسطنبول وقرطبة وسالونيك وبالرمو (التي يفرد لها الكاتب مقالا منفصلا)(١١٦) كونت بشكل أو بآخر أجزاء من الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية . ولكن زيارتها تظهر بأنها محطات على طريق تقود بالضرورة إلى مصر ، طريق متعرجة تصل الغرب بالشرق تجعل المسافر الأوروبي يتخلص شيئا فشيئا من أساطيره القديمة حول مركزية روما أو غيرها ، ويتزود تدريجيا بما يفيه « هذه الهالة من الأوهام التي تحيط بكلمة الشرق »(١١٧).

---

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٥٧
(١١١) نفس المصدر ، ص ١٩
(١١٢) نفس المصدر ، ص ١٦
(١١٣) نفس المصدر ، ص ٣٤
(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٧
(١١٥) نفس المصدر ، ص ٤٩
(١١٦) M. Butor, "palerme" in L'Arc, no. 6, printemps 1959
(١١٧) Le Genie du lieu, p. 114

وإذا ما قارنا بين التسلسل الزمني لزيارات بوتور لهذه المدن (المنيا ـ مصر : ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ، سالونيك وقرطبة : ١٩٥٤ ، بالرمو ودلف واسطنبول : ١٩٥٥ ، مانتوفا وفيراري ١٩٥٧) وبين تدرجها في الكتاب (قرطبة ، اسطنبول ، ماليا ، سالونيك ، مانتوفا ، فيراري ، مصر) فإننا نجد اختلالا كبيرا ولكنه معبر . فالباب الذي نلج منه إلى هذا الكتاب هو قرطبة والذي نخرج منه مصر ، وكل باب هو كما تقول إحدى الناقدات[118] « عائق وممر ، إغلاق وفتح » ، وهو يختار عن قصد لكي « يؤمن عبورا إلى مستوى آخر » ، إلى حالة فكرية أخرى . وبناء على ذلك فإن الوصول إلى مصر ، أو التوصل لفهم أسطنبول مثلا ، يفترض المرور بمدينة خلاسية تقوم بينها وبين هذين المكانين علاقة قرابة ، والقرابة هنا هي الحضارة الاسلامية التي أثرت وما تزال في هذا المقطع .

بعد اجتياز « البيزنطيين » ، الغربية والشرقية ـ قرطبة واسطنبول ـ تصل الى سالونيك ، هذه المدينة المحتفظة بآثار بيزنطة الشرق والتي تكمن أهميتها الأخرى في موقعها كنقطة عبور بين عدة عصور وبلاد .

« مع كونها لا تمثل جزءا من اليونان بكل معنى الكلمة ، فإن سالونيك ، الواقعة في منتصف الطريق بين أثينا والقسطنطينية ، هي المكان المثالي للشعور بهذه البديهية المجهولة تماما ، إنه بين الحضارة الهلينية وعصرنا الحاضر لا يوجد فقط هذا الطريق الذي يمر بروما وبعصر النهضة الرومانية ، بل أيضا ، وبشكل أكثر وضوحا ، طريق آخر يمر عبر الامبراطورية الشرقية والكنيسة الشرقية وحضارات الشرق »[119] .

وهكذا تدخل تفرعات أفقية وعمودية ، جغرافية وتاريخية لكي يستطيع المسافر الاستمرار في سفره الاستكشافي نحو مصر . هذه التفرعات تمر في مدن تمت إلى حضارات ثلاث : الرومانية واليونانية والشرقية : من هنا تتوضح المحطات التالية : دلف ، ماليا ، مانتوفا ، فيراري ، بتعمقه في دراسة الحضارات القديمة يتخلص من كثير من أوهامه ويصل إلى مصر بعقلية منفتحة تجعلك يراها على حقيقتها بعيدا عن تأثير أفكاره المسبقة .

٣ ـ الولادة الثانية قبل أن نتكلم عن وصوله إلى مصر ، نجد من الضروري زيادة محطتين على جولة ميشال بوتور في نقاط الاتصال : الأولى في بالرمو والثانية في المنيا .

في معرض حديثه عن بالرمو ، لا يكف عن إظهار إعجابه بموقع جزيرة صقلية :

« لقد شكلت هذه الجزيرة على امتداد الأزمنة القريبة مكانا للالتقاء وللعبور ، فاليوناني القديم والبيزنطي والعربي والنورماندي واللومبي يتلاقون فيها ويتفاعلون في لطف مناخها »[120] .

ومع كل ذلك ، يشكو الكاتب ـ الرحالة في نفس المقال من ضيق المجال الذي يتحرك فيه :

« لم أستطع بعد تجاوز حدود الامبراطورية الرومانية القديمة ، كم أتمنى الافلات من أسر هذا النطاق »[121]

تشكل رحلته إلى مصر العبور الأول خارج الحدود . ولكن التحضير لها يتم من خلال رحلة « وصف الفنان كقرد فتي : Portrait de l'artiste en jeune singe

(١١٨) Françoise Van Rossum — Guyon, Critique du roman, p. 269
(١١٩) Le Genie du lieu, p. 51-52
(١٢٠) L'Arc, no. 6, 1959
(١٢١) نفس المصدر .

التي يزور فيها ألمانيا والتي لا تنشر إلا بعد تسع سنوات (في ١٩٦٧) من « عبقرية المكان » (١٩٥٨) .

الرحلة إلى ألمانيا ، بلاد « الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » كانت بمثابة « تمهيد » ـ حسب تعبير الكاتب ـ للانطلاق نحو مصر . فلقد أعطته ، عدا « تعلم قليل من الألمانية والاطلاع على قسم من ألمانيا » ، فرصة للقراءة والاطلاع والتعمق في البحث والموسيقى والرسم والفلسفة وعلم المعادن والكيمياء ، بالاضافة إلى طريقة جديدة في البحث والدراسة .

كانت مهمته في ألمانيا أن يساعد أحد الأثرياء على تذكر ما تعلمه سابقا من اللغة الفرنسية وأن يوسع دائرة إلمامه بها . وهكذا أقام في قصر البارون الواقع في مقاطعة بافاريا « على طريق سياحي شهير جدا ، الطريق الرومانطيقي » ، أي الذي سلكه أغلب الرومانطيقيين الألمان ، من أمثال ويلهالم هاينس وكارل فيليب موريتز وهولدر فون هوفمانشتال ، في مسيرتهم نحو جنوب أوروبا ، وبصورة خاصة إيطاليا ، والذي يوصل في النهاية إلى الشرق مع هرمان هسه Hermann Hesse وكثير غيره(١٢٢) .

ولكن الشرق كان موجودا في القصر من خلال بذور يجب حفظها والعناية بها لكي تنمو فيما بعد في موطنها الأصلي الذي ينبغي الوصول إليه من طريق يختلف عن الاتجاه الرومانطيقي لئلا يبلغ المسافر الشرق الذي تتخيله أوهام الرومانطيقيين « وطنا وشبابا للروح » كما سماه هوفمنشتال(١٢٣) . الطريق الجديد يجب أن يوصله إلى الشرق الحقيقي الذي يعلم ويخبر عن ماضيه وماضي أوروبا ، والذي تتلاقى فيه حضارات شتى : من الفرعونية إلى الهلينية والرومانية والمسيحية فالاسلامية ، الشرق الذي مازالت كثير من هيروغليفيات تنتظر من يكتشفها ويفك رموزها . وهذا ما يجعل الكاتب يحلم بالقدوم وكأنه شامبليون آخر ، مهمته ليس فقط أن يفتح أبوابا على مستقبل مصر أو أوروبا ، بل على مستقبل أفضل للعالم بأسره .

هذا الحلم الطموح يحفزه على التفتيش عن أشياء تمهد لرحلته القادمة . ويبدأ البحث في مكتبة القصر الغنية حيث يجد الترجمة الفرنسية لكتاب توماس مان « يوسف في مصر »(١٢٤) ، وترجمة « ألف ليلة وليلة » التي قام بها إلى الفرنسية انطوان غالان(١٢٥) . تسيطر قصص الكتاب العربي على تفكير الشاب الفرنسي المقيم في ألمانيا لدرجة أنه يتخيل نفسه مكان الصعلوك الثاني الذي يحوله أحد السحرة إلى قرد يستعيد فيما بعد هيئته البشرية بفضل معرفته بالكتابة التي يفهم بها وضعه للآخرين(١٢٦) . وتلقي هذه القصة الضوء على عنوان الكتاب : « وصف الفنان كقرد فتي » ، أي كانسان ينشد الخلاص والتغيير من خلال عملية الكتابة ، مشيرين هنا إلى أن الاله الفرعوني « توت » كان كثيرا ما يرمز إليه بشكل قرد .

أما الطريق المختلف الذي سلكه ، فيمر في المجر ، « هذه البقعة الآسيوية الباقية بعد أمواج الغزو وراء حاجز جبال الكوبات المليئة بالنسبة لي ، بين غاباتها

---

(١٢٢) Portrait de l'artiste en jeune singe. p. 55

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن نظرة الرومانطيقيين الألمان إلى الشرق ، انظر الجزء الأول والثاني من :

Marcel Brion: L'Allemagne romantique, tomes I et II, Albin, Michel, Paris, 1976 et 1978

(١٢٤) Thomas Mann, Joseph En Egypte

(١٢٥) Antoine Galland. Les Mille et une nuits.

(١٢٦) ألف ليلة وليلة . الجزء الأول . وقصة الصعلوك الثاني تروى بين الليلتين ١٣ و ١٧

وشمابا ، بقصور مسكونة بالأشباح والسحرة ، كالذي تحكي عنه قصة جول فيرن ، مع أساطير مصاصي الدماء »[١٢٧]، طريق مدينة بودابست المزدوجة ، وطريق أحد فلاسفتها ، « الدكتور هـ . » الذي رتب في البداية رحلة الفرنسي الشاب إلى ألمانيا ، وشخصية « الدكتور هـ . » مزدوجة من جميع الوجوه ، فهو غربي وشرقي ، طبيب وكيميائي ، واقعي وخيالي في آن واحد ، وهو بذلك يذكرنا بشخصية « جانوس » الاله الروماني ذي الوجهين الواقف على مدخل روما في أحد كوابيس قصة « التعديل » ولكنه هنا جانوس مختلف ، بشري ، واقعي ، يمنح المسافر الفرصة لزيارة ألمانيا ، « أرض الفلاسفة » ، ويعطيه في الوقت ذاته « كلمة السر » ويدله على « الباب الخفي » الذي يدخل منه إلى « كهف الكنوز الفكرية » . . . إلى مصر .

يشرح جورج غودان ، أحد الذين كتبوا عن ميشال بوتور ، هروبه إلى مصر بالعبارات التالية :

« بما أن كل كتاب يمكن أن يصبح إنجيلا ، فإن كل دليل تتملكه الرغبة أن يصبح مع الوقت سيدا . وكل ثقافة تحمل في داخلها بذرة استبداد يجب إتلافها بالانفتاح على ثقافات أخرى . ولذلك كان على بوتور أن يهرب ، أن يبتعد ليس فقط عن القصر وعن ألمانيا ، بل عن كل تلك الثقافة ليجد أخرى ، ثقافة مصر ، وكثير غيرها فيما بعد »[١٢٨].

أما بوتور فإنه يعيد رغبته في الذهاب إلى مصر إلى أقدم من رحلته إلى ألمانيا :

« راغبا آنذاك ببعض البعد والعزلة وبقليل من المغامرة ، متحمسا بمصر من سبيل ماء مقابل منزلي في شارع سافر ، تسمى سبيل الفلاح ، ذلك ما جعلني ألبي الدعوة بسعادة »[١٢٩].

وبالرغم من شعوره بالغربة في السنة الدراسية التي أمضاها في ألمانيا ، فإن إقامته هناك كانت ذات فائدة ودروس عظيمة .

لقد وجد في البداية صعوبة كبيرة بالتلاؤم مع هذا المحيط السديمي والصحراوي . ولذلك كان ينتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر كي يستقل القطار إلى القاهرة حيث يمضي بعد ظهر الخميس والجمعة بكامله « محاولا تنشق قليل من هواء الغرب » .

ولم يطل به الأمر على اعتياد الحياة هناك ، فأخذ يجد لذة كبرى في التعرف على عادات وتقاليد بيئته الجديدة « في المنيا ، هذه المدينة المغبرة ذات الثمانين ألف نسمة يومها ، الواقعة في وسط مصر ، على بعد مائتين وخمسين كيلومترا جنوبي القاهرة ، على ضفة النيل الغربية ، وأحد أكبر أسواق القطن ، التي لا تحتوي على أي أثر مهم وعلى أي بناء لأكثر من قرن مع أنها تعود لأكثر من خمسة آلاف عام »[١٣٠].

أخذ يتأمل المدينة والجوار بسعادة وواقعية ويصف موقعها ومنازلها ذات الأثاث البسيط والمتواضع ، باستثناء بيوت بعض الأغنياء الذين كانوا يأتون بأثاثهم الفخم والثمين من القاهرة أو مباشرة من بعض محلات لندن وباريس « لأنه لم يكن في المدينة في ذلك الوقت طاولة واحدة للبيع »[١٣١].

وقصة الطاولة هذه التي كلفه الحصول عليها جهدا ووقتا كبيرين في بداية العام الدراسي ، طرحت لديه

---

(١٢٧) Portrait de l'artiste en jeune singe, p. 31

(١٢٨) Georges Godin, "Portraits de Butor en Jeune etudiant" Metaphores, no. 1, Nice, avril 1980, p. 83-84

(١٢٩) Le Genie du lieu, p. 154

(١٣٠) نفس المصدر ، ص١١٣

(١٣١) نفس المصدر ، ص١٢٨

مقارنة بين طريقتين مختلفتين في الحياة : الأوروبية والمصرية الريفية . فبينما يعتاد الأوروبي على سلوك وتصرفات ترتبط بمقاعد وكراسي وطاولات وما الى ذلك ، تتمحور طريقة الريفي في مصر من جلوس ووقوف واستلقاء حول البساط او الوسائد المفروشة على الأرض ، ذلك ما يجعله يقول :

« ألا ترى معي بأن الحديث عن شيء بسيط جدا كالطاولة يطرح على الفور قضية حضارة كاملة ذات أسلوب آخر ويطرح فترة تاريخية بأكملها ؟ إن إدخال أدوات كهذه في محيط غريب عنها ، أو بالأحرى تبني نمط أوروبي في الحياة ، أي ضمن تربية تقتضي بين أشياء أخرى وجود مثل هذه الأدوات ، يشيع اختلالا واضطرابا عميقين حتى في التصرفات العادية »[١٣٢]

ولكن ما يبغيه بوتور من إقامته في مصر ليس إيجاد الاختلال ، بل على العكس التركيز على التلاقي وإظهار ما لمصر من أثر في صهر الحضارات ومن تأثير حتى على العقلية الغربية . ذلك ما يفسر اهتمامه الشديد بالقاهرة وما تمثله ، وما يبين الهدف من زياراته المتكررة لها وتمضيته كل أيام العطل المدرسية فيها .

كان يبحث بين آثار مصر عن معلومات عن « أصله وأصل الديانة التي نشأ عليها » ، عن تجديد أو تحسين لطرح المشاكل التي شغلته خلال مدة طويلة ، عن شعاع يضيء بعض خفايا أوروبا ، « بنت الامبراطورية الرومانية » ، عن طريقة جديدة لقراءة وتحليل التاريخ ، تاريخ الشرق وأوروبا معا ، وعن كل ما من شأنه « الدعوة لتوسيع وتحديث المعارف التي ورثها من طفولته » . الهدف من كل ذلك إعادة تكوين ثقافية وحضارية تجعله يتخلص من عقد وأساطير تربيته الأوروبية .

« لقد كانت مصر وطنا ثانيا لي ، وحدث لي ما يشبه الولادة الثانية في هذا البطن الممدود الذي يمتص بفمه دلتا البحر المتوسط ومعابر حضاراته ، تختزنا هذه الاخيرة ومازجا لها في عملية تخمير بطيئة » .[١٣٣]

هذا المولود الخلاسي ، الأوروبي - المصري ، يصبح قادرا بحكم هويته الجديدة وانتمائه المزدوج على أن يرى الأمور بشكل يختلف عن بقية الأوروبيين . وأن ينظر إلى العالم بطريقة أكثر موضوعية وتجرد . وللدلالة على هذا التطور في شخصيته نورد نصا مطولا بعض الشيء ولكنه ضروري ومعبر :

« إن كل فرنسي جاوز مرحلة دراسته الثانوية قادر على تقديم ملخص غير دقيق لتاريخ البشرية يظهر فيه اليونانيون والرومان (والعبريون الذين تنسب لهم التوراة والمذهب الكاثوليكي الى حد ما ، مع أن هذا الميدان كثيرا ما لا تبدو رغبة لذكره) ثم العصر الوسيط المسيحي ، فعصر النهضة ، وأخيرا اوروبا المعاصرة مع علومها التي تكتسح باقي العالم .

« صورة تدعي أنها كافية وأنها تنطوي على كل التفسيرات دونما حاجة لإدخال هذه الشعوب الأخرى وتلك الحضارات الأخرى الغريبة الأطوار والتافهة والمضحكة ، التي لا تستحق أي اهتمام » .

« لدرجة أن حضارات عظيمة ومجيدة كالفرعونية والإسلام لا تظهر إلا بشكل ملحقات بشكل حواشي في أسفل الصفحات أو بشكل رسوم هزلية . .

(١٣٢) نفس المصدر ، ص١٤٩
(١٣٣) نفس المصدر ، ص١١٠

« من الطبيعي أن هذه الصورة قاصرة عن اقناع أبسط فلاح مصري لأن أول ما يتبادر إليه هو عصر الفراعنة كلغز ، وأول ما يهمه هو الإسلام كماض وحاضر وتقاليد لدرجة أنه يجد نفسه مضطرا لوضع التاريخ الأوروبي ضمن إطار أوسع منه بكثير » .(١٣٤)

هكذا نرى هذا الأوروبي ، ابن المطر والضباب والدخان ، ابن الامبراطورية الرومانية الهرمة ، ينطلق ليفتش عن أجداده في زواياها وأقطارها ، فيجد أول هؤلاء الأجداد في مصر ولكنه جد خلاسي وليس أبيض ، لذلك يستطيع أن يطلعه على بعض أسرار الرمال والصحراء ، أن يدفىء جسده وروحه(١٣٥) ، ان يقدم له المعدات اللازمة للحفر والتنقيب في العالم وتاريخه ، بعد أن برهن له بأن العالم لا يبنى على مركز واحد وأعلمه بأن عليه ، كي يفهمه جيدا ، أن ينظر إليه من زوايا مختلفة ، وأن يبحث بدل المراكز عن شرايين وأوردة ، تستقبل وتضخ دم ثقافات وحضارات متنوعة ليصب في قلب بابل جديدة .

ولكن المنطقة التي يحاول بوتور اكتشافها ليست فقط الإمبراطورية الرومانية أو مصر او الشرق أو أية منطقة أخرى في العالم ، فطموحه أوسع من ذلك بكثير :

« إن الأرض بكاملها هي التي أحاول أن أكتبها ، أحاول أن أرها »(١٣٦) . وبناء على ذلك يكون اكتشافه لأحد أجداده في مصر خطوة على طريق طويل سيحاول خلاله اكتشاف أجداد آخرين في بقاع مجهولة . ولكن اكتشاف الماضي ليس هدفا بحد ذاته ، بل هو ، على العكس ، طريق يوصل للمستقبل ، « لوطن الأبناء » . اكتشاف مزدوج إذن ، وهدف عظيم لا يمكن تحقيقه إلا بالانطلاق من أرض صلبة وبتحديد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وهذا ما يجعل من الطبيعي جدا العودة إلى باريس ، إلى المدينة الأم التي غادرها السافر وكل شيء فيها يتغير ، ويجعل من الضروري تقوية أساساتها بما حمل عقله ويداه من دورته حول المتوسط .

تتم العودة إلى باريس هذه المرة من خلال قصة « درجات » Degrés حيث يحاول السافر تعميق معرفته بمسقط رأسه ، ومن خلال مناهج التعليم الثانوي ، بالأحداث والتواريخ التي تؤثر على عقلية سكانه .

•••

قصة « درجات » أو تجديد(١٣٧) وسائل الاستكشاف :

يصل مستكشف منطقة جغرافية أو أدبية إلى نقطة يجد فيها أن المعدات التي يحملها لم تعد كافية ويدرك بأن التقدم ومواصلة البحث أصبحا مستحيلين ، « وعندها يبدو من الضروري العودة إلى نقطة الانطلاق للإتيان بمعدات أحدث وأكثر ملاءمة لهذه المنطقة التي أصبح الآن يعرفها بشكل أفضل »(١٣٨) .

بعد أن غادر المدينة كتلميذ ، « كفرد فتي » ، يعود إليها أستاذا غني التجربة ، قادرا على إدخال « بصيص من نور في قلب هذا الظلام الدامس الذي تتخبط فيه »(١٣٩) .

الجديد في هذه القصة من ناحية الشكل ـ وكل قصة لميشال بوتور تحمل تجديدا شكليا ـ هو التناوب في كتابتها

---

(١٣٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

(١٣٥) يصرح بوتور في إحدى مقالاته : « عندما ذهبت إلى مصر للمرة الأولى ، كان لهم الاكتشاف (وإن أخرى كثيرة) إنه من الشكل ألا تشعر بالبرد ، أننا لسنا مجبرين على ذلك ، وأن ذلك لا يشكل جزءا من العقاب الإلهي بطردنا من الجنة ، إنه توجد أماكن على الأرض لا نشعر فيها بالبرد أبدا ، حتى ولو لمرة » .

(١٣٦) J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 53

(١٣٧) m. Butor, Degrés Ed. Gallimard, Paris, 1960

(١٣٨) كما صرح لنا في المقابلة المذكورة آنفا .

(١٣٩) Degres, p. 117

من شخصيات ثلاثة يستعمل أولهم ضمير المتكلم « أنا » وثانيهم ضمير المخاطب المفرد وثالثهم ضمير الغائب « هو » .

يبدأ الراوية الأول ، وهو أستاذ في إحدى مدارس باريس الثانوية ، كتابة القصة بهدف « تبيان روابط القربى » داخل أحد الصفوف ، ولكنه لا يتأخر في اكتشاف أن هذه الروابط لكونها تتعلق بخارج المدرسة ، تسمح لنا بتجاوز حدود مدرسة أو مدينة وبالتوصل الى « فهم تاريخ وواقع البشر لأن علاقات القربى ليست فقط وسيلة لتعريفنا بأشخاص منسيين ، بل هي تتيح لنا أيضا أن نعود للوراء فنبعث الجدود ونعيد تأليف التاريخ » .(١٤٠)

أما لائحة الدروس التي تعطى في مختلف الصفوف الثانوية فتشمل تواريخ وعصورا وأحداثا ومناطق يركز عليها منهاج المرحلة الدراسية وتشكل بالتالي حيزا مهما من تفكير الطلاب والأساتذة .

تبدأ اللائحة بكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، ثم تذكر « الاكتشافات الجغرافية العظيمة في عصر النهضة ، من رحلة فاسكودي غاما الى كوزكود ، الى اكتشاف كريستوفر كولومبس لجزر الهند الغربية ودوران ماجلان مع طاقمه حول العالم ووصول ماركو بولو الى الصين »(١٤١) بعد ذلك يعيدنا التاريخ إلى بلاد اليونان القديمة وأساطيرها ، وإلى مصر الفرعونية وسلالات ملوكها ، مرورا « بعصر بيزنطة الذهبي » ، « بالفتح العربي » . بالإمبراطوريتين الرومانية والإسبانية اللتين تصدعتا الواحدة تلو الأخرى وبالهلال الخصيب و« امبراطوريات آسيا القديمة » ، الخ . . .

بعض دروس الجغرافيا تعرف « بمناطق العالم : الاستوائية والمدارية والمعتدلة والقطبية » أو « بكل المعادن المختبئة في جوف الأرض » ، بينما تدعو دروس اللغة الطلاب إلى اكتساب « معرفة تامة بالعالم الآخر الذي هو الانسان وبالقيام برحلات قراءة في أعمال كتاب من بلاد ولغات مختلفة : هوميروس ، رابليه ، مونتاني ، ماركو بولو ، شكسبير ، فولتير وكثيرين غيرهم . هذه الدروس ترسم دروبا لبعثات واستكشافات مستقبلية ، لرحلات جماعية إذن ، لأن قصة « درجات » تلعب دورا لانتقال من الفرد الى الجمع ، الأمر الذي يثبت الرحلات السابقة ضرورته وحتميته .

اكتفى المسافر في البداية بـ « أنا » صريحة (استعمال الوقت) ، « وصف الفنان كفرد فني » ، « عبقرية المكان ») أو مضمرة كما في قصة « التعديل » حيث يتكلم بطل القصة عن نفسه مستعملا ضمير المخاطب « أنت » ، الذي يتحول في النهاية الى « أنتم » . (يظهر جمع المخاطب هذا مرة واحدة حين يقول ليون دلون : « وهكذا تنزع من ضمائركم إحدى أكبر موجات التاريخ ») . وفي الصفحات الأخيرة من « عبقرية المكان » ، حين يتذكر المسافر زيارة قام بها إلى الأقصر مع زملائه الفرنسيين في التيبا ، تظهر « نحن » للمرة الأولى شاملة هذه المرة فلاحا مصريا دعاهم لشرب الشاي في منزله بعد أن تعرف على ميشال بوتور الذي كان قد التقاه على الباخرة بين مرسيليا والإسكندرية .

« كنت أدرك جيدا بأن هذا التفاهم السليم والنقي بيننا برغم بقائه أخرس ، »(١٤٢) لكي يستطيع الارتقاء

---

(١٤٠) Jean Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 85

(١٤١) Degres, p. 26

(١٤٢) بذل هذا الفلاح المصري جهدا كبيرا كي يفهم بوتور ابن حصل للوهلة الأولى ، واستطاع ان يتوصل لذلك من خلال اسم الباخرة التي اقلتها الى مصر « التريه ليون » .

إلى مستوى الكلام ، لكي يتسمو الى حوار حقيقي ، فيجب أولا أن تنشأ هيكلية تستطيع العودة اليها والاعتماد عليها ». [143]

في نهاية كل قصة أو كتاب نجد إذن ضمير جمع يطفو ليكون لحظة إدراك ومعرفة توصل إليها الرحلة المزدوجة ، الجسدية والفكرية ، لمنفى ، لمهاجر أو لمستكشف .

أما في « درجات » ، فإن هذا الجمع يبدأ بالعمل . فالقصة تبدأ كما ذكرنا ، بـ « أنا » ، تتابع بـ « أنت » ثم تنتقل الى « هو » لكي تنتهي بسؤال : « من يتكلم »

هذا السؤال الذي ينطوي على أجوبة لا حصر لها يفترض إذن وجود حشد كبير من المشاركين في رحلة الكتابة ـ والرحلة الأخرى ـ ويعطي الكلمة لكل من يجد في نفسه الاستعداد للمشاركة .

توصلنا إذن قصة « درجات » الى نوعية من الكلام الذي يشترك فيه أكثر من شخص ، وهذه النوعية الجديدة تجد تكريسها الصارخ والشروع في المحطات التالية للرحلة وتبدأ بالظهور من خلال كتاب « المتحرك »[144] Mobile الذي يحاول إعطاء صورة شاملة عن الولايات المتحدة الأميركية . والرحلة إلى أميركا تظهر هنا منطقية جدا ، لأن الراوية الثالث في « درجات » يتمنى أن تكون هذه القصة « بمثابة نافذة يستطيع أن تطل منه على أميركا » ، بينما نرى أن الدرس الرئيسي الذي يركز عليه الرواة الثلاثة ، مع أنه خارج منهاج الصف الثانوي الأول ، هو « اكتشاف وغزو أميركا » .

ولكن كل ما جاء في هذا الكتاب عن العالم الجديد ، من هذا الدرس « الذي كان عليه أن يلعب دور نقطة الانطلاق والارتكاز » (ص١٧٥) الى الدروس الأخرى عن « الأميركيتين المقسمتين الى ثلاث مناطق » (ص ٢١٦) ومن « حضارات ما قبل كريستوفر كولومبس وحالة أميركا عند اكتشافها » (ص ١٧٦) ، و « الخصائص الناطقية للولايات المتحدة (ص ٣٦٧) ، و « الغرب الأوسط والغرب الأقصى الأميركيين » (ص ١٠٩) ، و « تجارة الرقيق من افريقيا الى أميركا » (ص ١١١) الخ . . بالإضافة الى نصوص عديدة أشهرها كلمة مونتاني Montaigne الشهيرة في القرن السادس عشر : « لقد وجد عالمنا أخا جديدا ، ومن يدري إذا كان هذا آخر إخوته » (ص ٣١٩) ، كل ذلك لم ينجح في تشييد برج ترى منه أميركا بشكل جيد .

هل فشلت المحاولة اذن ؟

على العكس تماما ، فلقد حقق المسافر فتحا جديدا أو بالأحرى أوجد منطقا جديدا . ولقد رأينا بأن هروب بطل « استعمال الوقت » من انكلترة كان بمثابة انتصار على المدينة ، كما أن تعديل مشروع ليون دلمون كان نتيجة غوصه في أعماق أسطورة روما ، بينما كانت إقامة الشاب الفرنسي في المانيا خطوة على طريق مر في البحر وأوصله الى مصر حيث علم بعض الفرنسية لعدد من التلاميذ ولكنه تعلم ما جعل منه انسانا آخر يعود الى وطنه بعقلية منفتحة أدركت أنه ما من حضارة يحق لها الادعاء بمركزيتها أو الاكتفاء بذاتها ، وأن الفهم الحقيقي والتطور الحقيقي هو نتاج تفاعل بين الحضارات والشعوب .

والفشل الظاهري في « درجات » ما هو الا إعلان رفض من طرف الكاتب . للربط التقليدي بين كلمتي « اكتشاف » و « فتح » ، رفض بالتالي للوصول الى

---

(١٤٣) La Genie du lieu, p. 208-209

(١٤٤) تعتمد هذه الترجمة لعنوان الكتاب المذكور مع الاشارة إلى ان اللفظة الفرنسية المشكلة ، فالكلمة قد تعني أيضا : المتحول والباعث أو الحافز . كما أنها تشير إلى شركة موبيل البترولية وتذكر بالأشكال الفنية المتحركة التي اشتهر بها النحات الأمريكي كالدر .

أميركا « كمستعمر يمهد للقضاء على معالم البلد الذي يغزوه »[١٤٥] ورفض لممارسات أسلافه الأوروبيين الذين هاجروا الى اميركا حيث طردوا الهنود الحمر من أرضهم الأم واستعبدوا السود الذين كانوا يأتون بهم من أوروبا . أما الوجه الآخر للفشل الظاهري فهو الدلالة على رغبة بالوصول كمكتشف يريد أن يتعلم ويحلم ، كانسان متخلص من كل الأفكار المسبقة ومن كل ثقل ورغب ذكريات « الفاتحين » الأوائل تجار الرقيق ومبيدي القسم الأكبر من السكان الأصليين لقارة أميركا . من هنا تركيزه على شخصيتي كرستوفر كولومبس وماركو بولو ، وذلك لكون الأول من فتح طريق الاكتشافات البعيدة والثاني أول أوروبي قدم في كتابه « وصف العالم » وثائق جغرافية وعرقية من بلاد وشعوب الشرق الأقصى . ونستطيع القول بأن هذا الرحالة يهدف من جهة الى « ردم هذه الهوة الرهيبة بيننا وبين غرائزنا ، بيننا وبين باقي العالم »[١٤٦] والى تخليصنا من مصير القراءة الذين يغلقون باب الخلاص أمامهم وأمام الآخرين ، ويعمل من جهة أخرى على « انبثاق نور جديد من ينابيع مازالت مجهولة ، ينابيع تعيد الشباب للحضارة الأوروبية الهرمة وتتيح لنا إيجاد شباب ما لا نعرفه في حضارتنا الا هرما » .[١٤٧] يفتش إذن عن طريق مختلف بوصله الى العالم الجديد .

باقترابنا من نهاية هذه المرحلة من رحلة بوتور الطويلة والمستمرة ، نورد ما ذكره أحد الرواة الثلاثة لقصة « درجات » عن المضارع الذي يستعمله لسرد الأحداث :

« هذا المضارع الوسيط الذي يسبح ويتنقل بين وجود ذلك الماضي الذي يعنيه وهذا الحاضر الذي توجد فيه ، يتفحصه كل منا ويكتبه اذا كان كاتبا ، ويعيد تشكيله وهو يقرؤه إذا كان قارئا »[١٤٨] .

والقصة التي نتكلم عنها تلعب نفس دور المضارع المذكور : فهي « تسبح » بين بلدين : مصر التي تحدث عنها في صفحاتها الأولى ، وأميركا الغالبة الحاضرة ، في الأخيرة ، و « تتنقل » بين طريقتين في التعليم : واحدة « تصك المجموعات البشرية كقطع النقد »[١٤٩] ، وأخرى « تنمي خصائص ومواهب كل فرد »[١٥٠] تسبح بين « صعدين » للرواة : الفرد والجميع ، بين نوعين أدبيين : القصة والكتابة التصويرية ، بين عقليتين : عقلية اعتاد عليها الغرب ، متكبرة ومتسلطة ، وثانية ينادي بها الكاتب ـ الرحالة ، تتفاعل مع شعوب وحضارات أخرى ، تتعرف على نتاجهم وتعرف بأماكنهم الجغرافية والثقافية ، وهي تتنقل أخيرا بين أماكن متناثرة في شتى بقاع الأرض وبين صنفين من البشر : راكد سجين ضمن حدود ضيقة ومرتحل باحث متطور متجدد .

●●●

رفاق وأدلاء : في كل مراحل هذه الرحلة يرافق المسافر شخصيات وهمية ، أدبية ، تاريخية أو اسطورية ، ويستعين بأعمال أدبية وفنية تشكل في مجملها شبكة واسعة ومتكاملة من العالم التي تساهم في تسهيل وأغناء وتعميق الاستكشاف .

(١٤٥) J.M. Le Sidaner, op. cit. 57
(١٤٦) Repertoire II, p. 181
(١٤٧) نفس المصدر ، ص ١٨٠
(١٤٨) Degres, p. 253
(١٤٩) Resistances, p. 38
(١٥٠) نفس المصدر والصفحة

وتظهر في القصة الأولى لائحة المرافقين الرئيسيين الذين يحددون اتجاهات المراحل التالية : تضم اللائحة راهبين شقيقين ويهوديا وشابا مصريا وكاتبا ورساما .

الراهبان اولاهما حسب القصة ابنا اوغسطين . وهو اسم ذو دلالة مزدوجة ، اذ انه يذكر اولا بالامبراطور الروماني الشهير اوكتافيوس اغسطس ويذكر ثانيا بالقديس اوريليوس اوغسطينوس احد اشهر دعاة المسيحية في الغرب . وهما نموذج لرجل الدين الموجود ايضا في القصتين التاليتين . ففي « استعمال الوقت » يعطي أحد الرهبان معلومات مهمة عن بلستون وكاتدرائيتها لجاك ريفل الذي يصرح بدوره : « لقد نشأت على تربية كاثوليكية رومانية ولكني محوت من نفسي منذ مدة طويلة اغلب مبادئ، « التاريخ المقدس » التي غرست في ذهني »[151] أما في « التحول » فهناك أيضا راهب بين ركاب العربة الثالثة التي يسافر فيها ليون دلمون ، ويلاحظ هذا الأخير ارتباكه وعصبيته فيقول : « من المحتمل أن قرارا ما ينتظره هو الآخر . . وربما قرر التخلي عن طقوسه وعن ثوبه الكهنوتي »[152] وفي « عبقرية المكان » نرى مظاهر مختلفة للمسيحية في كل المدن التي يزورها المسافر .

والشخصية الرمزية الثانية التي تمثل اليهودية ، اي العهد القديم ، نجدها ايضا في الكتب الثلاثة المذكورة حيث تظهر باستمرار بعض الأسماء التوراتية مثل قابيل وزكريا ويوسف وموسى (عليهم السلام) . وهذه الأسماء وغيرها تلازم تفكير المسافرين لدرجة أن بعض هؤلاء يتخيلون وجوههم أو يرون في أحلامهم أنهم يجاورونهم أو يرافقونهم . كل ذلك يبين التأثير الكبير الذي مارسته اليهودية وما تزال على التفكير الأوروبي .

هذا التيار المزدوج ، اليهودي المسيحي ، يظهر من خلال كتب بوتور على علاقة وثيقة بتيار آخر اقدم منه ، نعني به الأساطير اليونانية الرومانية القديمة المرتبطة بدورها بأساطير مصر القديمة . ولقد رأينا كيف أن مدينة روما تجسد التقاء كل هذه التيارات . أما بالنسبة لرفاق الرحلة ، فمن المهم أن نلاحظ أن ظهور زكريا مصحوبا بعرافة وثنية في حلم ليون دلمون يفتح الطريق امام موكب طويل من البابوات والأباطرة وآلهة الأساطير الذين يلعب ظهورهم دورا اساسيا في تعديل خطة ليون دلمون وعمله بتوقف من رؤية عشيقته ويقرر العودة الى زوجته وأولاده . أما جاك ريفل بطل « استعمال الوقت » ، فانه يتأمل طويلا زجاجيات الكاتدرائية القديمة التي تمثل قابيل وهابيل وسدوم وعمورة وروما الأباطرة المسيحيين ، ثم يقول : « كان الرسامون القدماء ارادوا ان يبينوا ، من خلال تصويرهم للقراءة الرسمية للتوراة ، بأنهم يكتشفون فيها شيئا آخر »[153] . هذا « الشيء الآخر » ليس سوى الانعكاسات الأسطورية والثقافية لحضارات أخرى متفاوتة البعد جغرافيا وتاريخيا والتي تساهم بوسائل مختلفة في تشكيل العقلية الأوروبية » .

« إن المقارنة مع أساطير الآخرين (هؤلاء الآخرون قد لا يكونون سوى أجداد أو إخوة) هي وحدها التي تتيح لنا فهم أساطيرنا والتعايش معها . ذلك ما يجعل جغرافيتنا ترتسم أمامنا بوديانها ومنحدراتها وسدودها ، وكلما تعمقنا في معرفتها كلما استطعنا تحسينها »[154] .

---

(151) L'Emploi du temps, p. 74
(152) La Modification, p. 90
(153) L'Emploi du temps, p. 79
(154) J. M. Le Sidaner, op. cit., p. 34

الرفيق الثالث للمسافر يتمحور حول شخصية الشاب المصري أحمد ، هذا الشاب الأسمر الذي يظهر في « استعمال الوقت » ، داكنا اكثر ، من خلال ملامح شاب إفريقي يطلع بطل القصة على كثير من أسرار المدينة البريطانية ، ثم يعود للظهور في « وصف الفنان كفرد فني » من خلال الشاب الفرنسي ذاته هذه المرة ولكن كبطل من أبطال « ألف ليلة وليلة » ، هو صورة للغريب ، للمختلف عن الآخرين ، ولكن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تتغير كليا وتتطور النظرة إليها تطورا إيجابيا ، فبينما يبدو في القصة الأولى غريب الأطوار وشبه معزول عن الآخرين ، يصبح شيئا فشيئا المعلم والدليل ، فهو في ألمانيا يطلق كلمة السر التي تفتح طريق الشرق وعروبا أخرى ، وهو في مصر يذكر الفرنسي بمسقط رأسه باريس ، و « بالشانزليزيه وخاصة ساحة الكونكورد التي تتوسطها مسلة مصرية »[158] وهو في باريس من جديد ، يلفت نظر المسافر إلى أن عليه زيارة أماكن أخرى والتعلم من شعوب كثيرة مازال يجهلها .

أما الشخصيتان الأخيرتان في لائحة القصة الأولى فهما الكاتب والرسام ، وهما موجودتان بغزارة في جميع كتب بوتور . فالمسافر يستعين بهما دائما في تحضير وبدء الرحلة ، ويصطحبهما خلالها ثم يعود لمناقشتهما معهما .

يقوم بوتور ، كما ذكرنا ، برحلات لا حصر لها في أعمال الأدباء والرسامين والنحاتين والموسيقيين ، ولكن هذه الأعمال تلعب من جهة أخرى دورا مزدوجا كأدلاء و « أدوات تفكير » ففي « استعمال الوقت » مثلا تجد قصة بوليسية تروي ضمن القصة الرئيسية ويؤلفها كاتب وهمي يقول عنه جاك ريفل : « لقد كان نصيرا لي ضد المدينة ، كان ساحرا معتادا على المخاطر استطاع أن يزودني بسحر قوي لكي اخرج منتصرا من تلك السنة ، من تلك الإقامة التي لم أكن أدرك قوة سمومها ومكائدها ولم أكن أدرك صعوبة دحرها »[156] .

أما الانتصار على المدينة ، بمعنى خروج المسافر منها محتفظا بقدرته على التفكير والتحليل ومحددا اتجاهه التالي ، فلم يتحقق إلا بعد دراسة مستفيضة للأعمال الفنية المميزة فيها ، من رسم ونقش وزخرفة وموسيقى ومسرح وحتى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية .

واختيار العمل الفني يتم دائما على أساس أن يكون « متعدد التفسيرات ، متحركا ومتموجا »[157] وأن يشكل « نقطة تألق » و « مركز توليد لا يكف عن الإشعاع »[158] في اتجاهات وابعاد متفاوتة يتوجه نحوها المستكشف في المراحل التالية .

في المراحل التالية من الرحلة يبدو المسافرون وكأنهم يتنقلون داخل مكتبة غنية ومتحف شاسع . ففي « التعديل » تشكل « أنيادة » فرجيل و « رسائل الامبراطور يوليانوس المرتد » و « الدليل الأزرق » لمدينة روما وكتاب « تعليم اللغة الإيطالية » و « دليل السكك الحديدية » بين فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى قصة تشتري من محطة القطار في باريس ، يشكل كل ذلك العدة اللازمة لليون دلمون في محاولته للتعرف على « أساس وحجم أسطورة روما » ، بينما يراه يستنتج من جهة أخرى بأن كثيرا منا يستطيعون بوساطة كتاب « التوصل

(١٥٥) Le Genie du lieu, p. 108
(١٥٦) L'Emploi du temps, p. 57
(١٥٧) Lucien Dallenbach, Le Livre et ses miroirs chez Butor, p. 13
(١٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦

الى « السماح لهذه الحرية البعيدة عن متناولنا ، السماح لها ، ولو بمقياس صغير جدا ، أن تتكون وأن تترسخ »(١٥٩) .

ولكن معالم الطريق من الكتاب الدليل الى الكتاب المحرر كانت ، بين عوامل أخرى ، مجموعة أعمال فنية منها ماهو معلق على جدران مقصورة القطار أو في منزل ليون ومنها روائع متحف اللوفر وقوسا النصر في باريس أو اثار روما أو بعض مقطوعات مونتيفردي للوسيقية . كل ذلك ، بالاضافة الى مكتبة قصر البارون وه المتحف الألماني » وكتب وآثار « عبقرية المكان » ، يشكل شبكة متكاملة هدفها التوضيح والتعريف والتوجيه .

إلى جانب الشخصيات الرمزية التي ذكرناها هناك مجموعة كبيرة من رفاق الدرب تساعد بتوجيه وتعميق الاستكشاف . فالفريتي « واستعمال الوقت » يلعب عدا عما ذكرناه سابقا ، دور « المرشد الى حقيقة متنوعة عن المسافر . وسليته تصبح مثلا ، فهو لا يعلمنا الحرية فقط ، بل يحررنا أيضا من كل أشكال العبودية التي قد نمارسها ». (١٦٠) ولكونه يشترك مع الفرنسي في « حقده الأسود » حل مدينة بلستون ، يصبح الاثنان معا « منفيين فقدا الا من الجسدي والروحي الذي يؤمنه الاستقرار في الوطن الام » . (١٦١)

والجيبية أيضا تلعب دور الدليل ، ليس ذلك فقط ، بل إن الحب مرتبط في قصص بوتور بهذا الدور ، فما ان تتوقف عن تزويد المسافر بمعلومات عن المكان الذي يقصده ، وما ان يفك ارتباطها التعريفي بالمكان الذي هي منه ، حتى تفقد جاذبيتها وتخفت بريقها ويموت الحب .

أما العلاقة بين المسافر ورفاق دربه فهي متبادلة في كل القصص باستثناء « التعديل » حيث « يجد نفسه أمام نماذج بشرية متنوعة يعطي لكل منها وهو يفكر أو يحلم أسما وسيرة ، مما يشكل رابطا بينه وبينهم ولكن دون مبادلة »(١٦٢) الا ذلك لايمنع من مساهمة هؤلاء الأشخاص في تعديل مشروع المسافر وانعطاف الطريق التي يسكلها .

« تقول لنفسك : « لو لم يكن هنا كل هؤلاء الناس ، لو لم تكن موجودة هذه الأشياء وهذه الصورة التي تعلقت بها أفكاري مما سبب تكوين نوع من الآلة الفكرية يجعل مراحل وجودي تنساب الواحدة فوق الأخرى خلال هذه الرحلة المختلفة عن الأخريات .

« لو لم توجد هذه المجموعة من الظروف ومن توزيع اللعب ، فمن الممكن أن هذا الشرخ الواسع في شخصيتي لم يكن ليحدث هذه الليلة والا أوهامي كانت ستستمر لنفس الوقت »(١٦٣) .

كما أن كل مكان يملك القدرة على أن يكون ملتقى طرق ، فان كل شخص يشكل « رابطا » بين عدة مجموعات بشرية وعدة تيارات ثقافية تساهم بتكوين عقلية هذه المجموعات .

واذا كان سكان المبنى الباريسي قد فقدوا الاتصال فيما بينهم وغرق كل منهم في عزلة شبه تامة ، فذلك لم يمنع بعضهم على الأقل ان يتوصلوا في نهاية القصة لتطوير طريقة تفكيرهم ولفتح أبواب بنائهم ، في محاولة لجعله متينا ، على الخارج الذي زوده فيما بعد بأساسات

(١٥٩) La Modification, p. 254
(١٦٠) Georges Raillard, L'exemple, postface de l'Emploi du temps, p. 493
(١٦١) نفس المصدر ، ص ٤٨٨
(١٦٢) Michel Leiris, Le Realisme mythologique de Michel Butor, postface de La Modification, p. 298
(١٦٣) La Modification, p. 234

أصلب بكثير ، ولم يمنع أيضا ركاب قطار باريس - روما ، بالرغم من صمتهم المطبق أغلب الوقت ، أن يكشفوا للمسافر الرئيسي الزوايا المظلمة في شخصيته وذلك بظهورهم الواحد تلو الآخر كانعكاسات أو كأجزاء من هذه الشخصية المتصدعة التي ترى أحلامها ورغباتها وقلقها وهمومها ومشاغلها ومختلف نماذج ثقافتها وعواطفها تتوالى أمامها .

ما من أحد يسافر وحيدا عند بوتور ، حتى ولو بدا كذلك ، فكل من يلتقيه المسافر يقدم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ايضاحات عن نفسه وعن المسافر والمكان ، وكل رفيق يظهر كموجه أو دليل أو شبيه ، مما يجعل مجتمعا مصغرا يتشكل في الطريق ويتحرك مزودا بكتبة ويتحف نحو شعوب أخرى وأماكن أخرى وأزمنة أخرى تحاول رحلات ميشال بوتور أن تجمعها في كتب يكون كل منها مصغرا عن تلاقي الحضارات على طريق مستقبل أفضل .

* * *

المصادر والمراجع :

١ ـ كتب :

• Butor, Michel:
— Passage de Milan, Editions de Minuit, Paris, 1954.
— L'Emploi du temps, Minuit, Paris, 1956.
— La Modification, Minuit, Paris, 1957.
— Le Genie du lieu. Editions Bernard Grasset, Paris, 1958.
— Degres. Editions Gallimard, Paris, 1960.
— Repertoire II, Minuit, Paris, 1964.
— Portrait de l'artiste en jeune singe. Gallimard, 1967.
— Repertoire III, Minuit, Paris, 1968.
— Ou (Le Genie du lieu 2), Gallimard, Paris, 1971.
— Repertoire IV, Minuit, Paris, 1974.
— Matiere de reves, Gallimard, Paris, 1975.
— Second sous — sol, Gallimard, Paris, 1976.
— Troisieme dessous, Gallimard, Paris, 1977.
— Boomerang (Le Genie du lieu 3), Gallimard, 1978.
— Quadruple fond. Gallimard, 1981.
• Butor, Michel et Launay, Michel: Resistances. Presses universitaires de France, Paris, 1983.
• Charbonnier, Georges. Entretiens avec Michel Butor. Gallimard 1967.
• Colloque de Cerisy — la — Salle tenu en ete 1973 sous la direction de George Raillard: "Michel Butor". Union generale d'editeurs. Paris. 1974.
• Dallenbach, Lucien. Le livre et ses miroirs dans l'oeuvre de Michel Butor. Archives des lettres modernes, Paris, 1972.
• Rossum — Guyon. Francoise van. Critique du roman. Gallimard, 1970.
• Roudaut, Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, 1964.
• Sidaner, Jean — Marie le, Michel Butor, voyageur a la roue, Editions Encre, Paris 1979.

٢ ـ مقالات ، دوريات ، مقابلات :

— L'Arc, No. 39. Numero special consacre a Butor. 1969.
— Butor, Michel, "Palerme". L'Arc No. 6. printemps 1959 theme du voyage. 23 a out 1983.
— Magazine litteraire, no. 110, mars 1976, consacre a Butor.
— Obliques, no. 4-5 1976, numero special: Michel Butor.
— Romantisme, no. 4, 1972, consacre au voyage."

٣ - معاجم :

— La Grande Encyclopedie Larousse. 10 volumes, Paris, 1972.
— Larousse du XX siecle, 6 volumes, Paris, 1964.
— Le Grand Larousse de la langue française, 7 volumes, Paris, 1978.
— Le Robert, dictionnaire analogique et alphabetique de la langue française, 6 volumes, Paris, 1970.

صدر حديثاً

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم

تأليف : عبد المنعم السيد عشري
عرض وتحليل كارم السيد غنيم

كتاب (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم) لمؤلفه الأستاذ عبد المنعم السيد عشري ، ظهرت طبعته الأولى في مصر ، وقامت بنشره الهيئة المصرية العامة للكتاب خلال ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ، وهو يقع في (٣٢١) صفحة من القطع الكبير ، ويضم مقدمة قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير صاحبها) . ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع فقط ، وانتهى الكتاب بفهرست للموضوعات . كذلك فقد إحتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية وأيضاً ١٢ شكلاً توضيحياً . كان أقصر فصل في الكتاب هو الأول (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) ، بينما نجد أن الفصل السادس (الانسان) هو أطول الفصول وأضخمها . فقد شغل أكثر من ثلث الكتاب كله . أما بقية الفصول فمتقاربة الأحجام . كانت الفصول على التوالي : عن الآيات الكونية في القرآن الكريم ، الأرض ، السحاب والمطر ، النبات ، الحيوان ، الانسان ، ثم السماء . والمؤلف من الذين مارسوا تدريس علم الفيزياء في الكليات والمعاهد العلمية قرابة أربعين عاماً ، وله كتاب صدر قبل الذي نحن بصدده الآن ، هو (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت بنشره نفس الدار . ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على التقاعد لاخراج الكتاب الحالي ، والذي جاء ثمرة لتخصصه العلمي ، وحبه الاسلامية ، فذلك واضح من مقدمة الكتاب .

مقدمة الكتاب لا تتعدى الصفحتين ، بين فيها المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف هذا الكتاب والهدف الذي ينشده من ورائه . أما الدوافع فايمانية نمت يوماً بعد يوم خلال عمله التخصصي ، وأما هدفه فهو السعي إلى (إظهار أن كل ما في الوجود من أصغره إلى أكبره . . من الالكترون إلى المجرة . . من الفيروس الى الانسان . . كل هذه المخلوقات من أدقها الى أعظمها

دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ، ومعارف العارفين . بهذا يلتقي العلم والقرآن . . .) . ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة في تناول مسائل الكتاب ، حيث تعهد بتبسيط المعلومات والمعارف الكونية ، كي يستطيع القارىء استيعابها ، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التي تشير الى تلك المسائل ، ويسوق شروح المفسرين لها . الأساس الثالث في هذه الخطة المتبعة هو الالتزام في التفسير العلمي بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذي وردت فيه ، وهذا دفعه الى ربط الآيات على الدراسة بالآيات التي قبلها مباشرة .

كانت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) في هذا الكتاب أقل المقالات حجماً ـ كما أشرنا آنفاً ـ فهي لم تعد عشر ورقات ، وتعد مدخلاً لموضوع الكتاب ، فهي (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) . تضمن العرض عناوين جانبية هي : استخلاف الله الانسان على الأرض ـ الجزاء على قدر العمل ـ دين الفطرة ـ الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ـ القرآن ـ منزلة العلم في القرآن الكريم ـ العلم ووسائل تحصيله ـ الانسان مستصلح للدارين . قبل أن أبين عن مضمون هذا الفصل ، أود الاشارة الى أمر أراه من الأهمية بمكان كبير ، ذلك هو اضطراب الفقرات وعدم تسلسلها على النمط المنطقي ، وعليه فانني أرى أنه كان من اللائق إيراد الفقرات في تسلسل هو : القرآن ـ منزلة العلم في القرآن ـ وسائل تحصيله ـ استخلاف الله الانسان على الأرض ـ دين الفطرة ـ الحقائق الكونية والعلمية في القرآن . وكل من « الجزاء على قدر العمل » ، « الانسان مستصلح للدارين » ، لا داعي لوجودها ، فسياق الكلام في الفقرات المختلفة يدل عليها . ثم إن كثرة العناوين الجانبية تفتت الكلام وتضيع رونقه ، وتضعف من الترابط الفكري للموضوع ، فالعبرة ليست بكثرة عناوين ، بل بوضوح المحتوى وعدم غموض أسلوبه في الوقت الذي يجب ألا يفتقد الكلام فيه العمق مع الايجاز غير المخل .

في قول الله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (البقرة / ٣٠ ، ٣١) . تكلم المؤلف في شرح هاتين الآيتين مستمداً ذلك من تفاسير مشهورة ، ثم استخلص أن الله تعالى علم آدم الأجناس التي خلقها ، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة ، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوا في موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق ليخلف الله في الأرض ، ويكون سبباً في عمارتها . وتدل الآيتان أيضاً على فضل العلم ، إذ لو هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به لا بالعلم ، فالعلم هو القوة التي تحقق للانسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض ، ولا يخفى على أحد ضرورته في كل مناحي الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها .

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف على الأرض ، فان الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية ، فان الانسان لا تكتمل لشخصيته الانسانية ذاتيتها المستقلة الا بقدر ما يتصارع في نفسه من نوازع الخير والشر ، وبقدر ما يعانيه من التجارب والمقاساة ، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة . وجاء الناموس الالهي ، وهو استخلاف الانسان في الدنيا ، ومعه ناموس إعطاء الجزاء على قدر العمل ، وهو أساساً في الآخرة ، إلا أن الله يظهر أجزاءً منه في الدنيا .

أما كون الدين الاسلامي دين الفطرة ، فالفطرة أولاً

ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، بل هي مزيج منها ، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر ، وهنا تكون الفطرة سليمة ، تنشد الله وتعرف سبيلها إليه « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم / ٣٠) .

عن الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على بارئه ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته ، وتبياناً لرحمته بخلائقه . . . وحثاً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الانسان بالخير . ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المفاهيم أورد المؤلف الآيات : الأنبياء / ٣٠ - ٣٣ ، السجدة / ٤ - ٩ ، القمر / ٤٩ ، الحجر / ١٩ - ٢٢ ، فصلت / ٩ - ١٢ ، البقرة / ١٦٤ ، الرعد / ٢ - ٤ ، فاطر / ٢٧ - ٢٨ ، يس / ٣٧ - ٤٠ ، القصص / ٧٢ ، ٧٣ ، الروم / ١٧ - ٢٧ ، الفرقان / ٥٣ ، ٥٤ ، الأنعام / ٩٩ ، يس / ٧٨ - ٨٠ ، الواقعة / ٥٨ - ٦٠ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، الطارق / ٥ - ٨ .

بعد ذلك يعود المؤلف ليتكلم عن القرآن ، تعريفه ومحتواه وعظمته ، وهو الأمر الذي كان يجب عليه إيراده قبل تعرضه للكلام عن الآيات الكونية والعلمية في القرآن . وفي معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط في أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها ، ودلل عليها ونبه الأذهان إليها ، واستدل على ذلك بالآيات : النحل / ٨٩ ، الأنعام / ٣٨ ، الروم / ٥٨ ، ٥٩ ، الأعراف / ٥٢ ، العنكبوت / ٤٩ . بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان منزلة العلم في القرآن الكريم ، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله ، وهي المذكورة في الآية القرآنية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل / ٧٨) . إذاً فالسمع والبصر والعقل هي أجهزة العلم والتعلم وتدبير أمور الدنيا وتكشف خباياها . وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح في لغة العلم الحديث . ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استعانت به من أجهزة علمية حديثة .

الفصل الثاني (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض ، واستغرق اثنتين وثلاثين صفحة ، بدأ المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض ، فلما انتهى منها اتجه إلى إيراد بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع ، وساق شيئاً من تفسيرها مقتبساً إياه من بعض كتب التفسير التي ذكرها في نهاية الكتاب . ما أهمية الأرض بالنسبة للانسان ؟ أو بتعبير أخر : ما هي أوجه انتفاع الانسان بالأرض ومكوناتها في حياته الدنيا ؟ كانت الاجابة عن هذا السؤال هي صدر الفصل ، حيث أكد المؤلف ما هو معلوم بالبديهة في أن الأرض مقرّنا الذي نعيش فيه ، والذي ارتبطت به حياتنا . كيف ذلك ؟ لأن من هوائها نتنفس نحن وسائر الأحياء ، ومن مائها الذي يجري في أنهارها وبحيراتها وينابيعها نشرب ونسقي الحيوان والنبات ، ومن زرعها . . . ومن بحارها . . . ومن باطنها . . . وفي دروبها . . . يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هي : شرح ضرورة هواء جو الأرض وبعض العمليات المختلفة التي عمادها غاز الأكسجين . أول هذه العمليات الحيوية التنفس ، ما هو المقصود بالتنفس وما أهميته بالنسبة لأي كائن حي ؟ وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات ؟ ؟ ؟ بعد هذه الاجابات انتقل إلى عملية الاحتراق : ما هو المقصود بالاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض ؟ ما هي الأركان الثلاثة

التي يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاحتراق وكيف تستخرجها من باطن الأرض ؟ . ثاني الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء : ما أوجه ضرورة الماء ؟ ليس فقط الكائنات الحية بل كذلك للعمليات غير الحيوية المتعددة والتي تتم في كوكبنا الأرضي ؟ . ثالث هذه الأمور هو التربة : ما هو وجه الضرورة في وجود تربة تغطي سطح الأرض ؟ وما أهم مكوناتها ؟ وما دخل ذلك في نمو النباتات ؟ ثم توسع قليلاً في مسألة النبات فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية في عملية نمو النباتات ، ثم اتجاه الانسان الى التفكير في استخدام « أسمدة » مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتتيح له إنتاجاً زراعياً أكثر وفرة . الأمر أو المسألة الرابعة التي حاول المؤلف عرضها مؤثراً تبسيط الكلام فيها هي : اتخاذ الأرض مصدراً لبناء دور السكنى ، وفي معرض حديثه تناول الاشارة الى الطريقة الجيولوجية لتكوين الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الدور . ثم بين أهمية ملح الطعام للانسان وفي عدد من الصناعات . وبعده قفز الى حديثه عن بعض الفلزات التي يستخرجها الانسان من الأرض ، وهي هامة وضرورية في حياته المعيشية والحضارية أيضاً ، ومنها الحديد والنحاس والألمونيوم والذهب والفضة . وفاته أن يتكلم عن أهمية هواء جو الأرض في تنقل الانسان وخلافه من الكائنات الحية بين الأماكن وبعضها ، (بوساطة الطيران أو ركوب الهواء) ، وكذلك انتقال الموجات الصوتية عبر هذا الوسط ، فتدارك الأمر واعطى فكرة عنه في نهاية الجزء العملي من هذا الفصل .

نأتي الى الآيات القرآنية التي أوردها المؤلف ، وهي التي بين فيها المولى عز وجل الحكمة من خلق الأرض ، وما أراده بخلقها على الصورة التي عليها من نعم للعباد ، وإظهار قدرته في هذا الخلق . وقبل التقاط نتف من الكلام للتعريف بالموضوع ، لا نجد بُداً من الاشارة إلى أمرين للتعريف فات المؤلف الانتباه إليهما ، والعناية بهما .

الأمر الأول : أنه لم يتناول عرض النصوص القرآنية في هذا الفصل ـ وكذلك الفصل السابق وبقية الفصول اللاحقة ـ مرتبة حسب ورودها في المصحف ، فلا السور متوالية ، ولا الآيات المذكورة من سورة واحدة متتالية ، بل نرى نصاً من سورة تقع بعدها في ترتيب المصحف الشريف ، ونرى أيضاً آية تكلم عنها المؤلف ذات رقم معين ، وانتقل إلى الكلام في نفس الفصل عن آية أسبق منها في الموقع داخل السورة ذاتها ، أي لم تأت الآيات مرتبة حسبما توجد في السورة . وقد يلجأ الكاتب أحياناً الى شيء من هذا الذي أخذته على المؤلف ، ولكن عند الضرورة التي يستدعيها تناول موضوع ما ، وهو ما لا نراه ملحاً في هذا الكتاب الذي نعرض له . ولبيان ذلك نشير الى النصوص القرآنية التي عرضت في هذا الفصل ليتضح ما رأيناه ، وهي : الأعراف / ٥٤ ، فصلت / ٩ ، ١٠ ، الحديد / ٤ ، ٥ ، ٦ ، السجدة / ٤ ، ٥ ، ٦ ، النمل / ٦١ ، الرعد / ٣ ، الحجر / ١٩ ، ٢٠ ، الزمر / ٥ ، الإسراء / ١٢ ، فاطر / ٤١ ، النحل / ١٥ ، النازعات / ٣٠ ـ ٣٣ .

الأمر الثاني : شيوع نقل النصوص التفسيرية من هنا وهناك ، وعرضها دون الاشارة الى مصادرها ، كل في حينه وأيضاً عدم الرجوع الى مصادر تفسيرية معتمدة ومشهورة خلاف التي ذكرها في نهاية الكتاب ، وهذا أمرٌ خطير أبان المؤلف في مقدمة الكتاب عن عزمه في تفاديه ، ولكنه وقع فيه على امتداد الفصول السبعة التي احتواها الكتاب .

كما هو واضح من إشارتي السابقة الى النصوص القرآنية التي وردت في الفصل الحالي ، فهي اثنا عشر نصاً ، بدأه صاحب الكتاب بقول الله عز وجل : إن

ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) .
أوضح المؤلف ـ نقلاً عن بعض المفسرين ـ الحكمة في ذكر « ربكم في صدر الآية ، ثم قال في معنى خلق السموات والأرض في ستة أيام : أي في ستة أطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف ـ أي نمسك ـ عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ، فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو . فقد أبان الله عن يوم القيامة في الآية (٤) من سورة المعارج بخمسين ألف سنة ، وأبان عنه في الآية (٤٧) من سورة الحج بألف سنة من أيامنا نحن . ثم أبان المؤلف عن الحكمة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقهما في لحظة واحدة بالأمر « كُنْ » . بعده فصل معنى الاستواء في قول الله تعالى « ثم استوى على العرش » وأنه عموماً يقصد به استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف في شئونهما . ثم تكلم في تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الالهي : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » ، وعالج الأمر من الناحية الفلكية . ورجع ليكرر ما ذهب إليه المفسرون الذين نقل عنهم مقصود الاستواء على العرش ، وذلك في ص ٢٩ . النص الثاني . يقول الله فيه : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، وخلال استرساله في شرح هاتين الآيتين يقول : ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر انه أتى بثلاثة أنواع من الصنع

العجيب والفعل البديع بعد ذلك فقال : « [١] وجعل فيها رواسي من فوقها ،[٢] وبارك فيها ،[٣] وقدر فيها أقواتها » وحاول المؤلف أن يشرح شيئاً عن كل منها . أما النص الثالث ، فيوضح أن المقصود بقول الله فيه « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » هو « ما يلج في الأرض » من معادن وعناصر وخامات وخلافه وكذلك البذور ، وما يخرج منها «كالزروع» كالمعادن المختلفة وكمختلف المواد الجامدة والسائلة التي يستخرجها الانسان من باطن الأرض ينتفع بها . « وما ينزل من السماء » من مطر ، « وما يعرج فيها » من أبخرة . أما المعية في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فالمقصود بها معية القدرة والايجاد والتكوين والتصريف والتدبير . وفي معالجته للجزء من النص الكريم وهو قوله تعالى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » يوضح أن المقصود بالايلاج هنا هو جعل قصر الليل في طول النهار وطول الليل في قصر النهار ، وهذا حادث في الفصول المختلفة من الشتاء والصيف ، ويختلف حسب خطوط العرض في الفصل الواحد .

في غضون شرح النص الرابع وهو الآيات الكريمة ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة السجدة ، وقع اضطراب في الكلام فورد الجزء « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » ، قبل ورود الآيات الثلاث الأولى من سورة السجدة ، وليس له مكان في سياق الكلام ، وفي السطور السابقة لوقوع هذا الاضطراب مباشرة يقول (... إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك أنه من عند الله ، فما هو بشعر شاعر ولا سجع كاهن ولا هو مما اختلقه محمد ﷺ ...) ، وكلمة (مما اختلقه محمد) هذه توهم بأن محمداً قد اختلق أشياء أخرى ، إلا أن القرآن ليس من بينها ، فكان الأحوط أن يكون

التعبير باستخدام كلمة (ولم يختلفه محمد) أو (ولا اختلفه محمد) . في النص الخامس عدد المؤلف خمسة عشر مظهراً من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة في الخلق والتدبير والتصريف في الكون . مسألة بسط الأرض التي وردت في النص السادس (الرعد / ٣) يقول المؤلف فيها : « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فان أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فان أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة الأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض تثبت عليها الأقدام ، وتمهد الطرق ، وتمد عليها خطوط السكك الحديدية ، وتقام المباني وتسير المركبات . . . . وبعده أورد كلاماً مكرراً عن الجبال الرواسي ، وفي نهايته يلخص القول : . . . فالجبال إذاً بروز للقشرة الأرضية ، فكأن الجبال حافظة لما تحتها مانعة له من الاضطراب والزلزال والثوران) . ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار في الأرض ، وأشار إشارة لطيفة فقال : « وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسي لأنها تنشأ منها ، فالسحاب عند قمم الجبال يبرد وتتجمع القطيرات الرفيعة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطراً مدراراً كما يحدث في أماكن كثيرة مثل جبال الحبشة التي ينبع عندها النيل الأزرق مكوناً أحد رافدي نهر النيل . وحاول أن يعالج عملية الاخصاب في النبات عند تناوله للجزء من الآية « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ، ولكنه لم يف بالموضوع . في صدر كلامه عن النص السابع (الحجر / ١٩ ، ٢٠) يقول : سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيهما المولى عز وجل دلائل سماوية في تقرير التوحيد ، حيث قال : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » (الحجر / ١٦ ، ١٧) ثم أتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية فقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (الحجر / ١٩ ، ٢٠) . وفي النص العاشر (فاطر / ٤١) يتكلم عن إمساك السموات والأرض في قول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ، ويشرح ناموس الجاذبية وبيان معناها وبعضاً من أطراف المسألة . في النص قبل الأخير (النحل / ١٥) يبين أن النعم المذكورة هنا ، والتي يمتن الله بها على خلقه هي : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » ، « وأنهاراً » ، « وسبلا » . أما في النص الأخير (النازعات / ٣٠ - ٣٣) فيكرر ما سبق أن أشار اليه في عرض النصوص السابقة .

في نهاية هذا الفصل يجب أن نشير إلى أمور هي : تعدد مواقع التكرار والاعادة في جنبات الفصل ، وكذلك وقوع عدد من الأغلاط المطبعية والأخطاء العلمية ، وهذه وتلك سوف نفصل قولنا فيها آخر هذا التحليل . كما أن من أضرار النقل والاقتباس دون عناية بسياق القول هناك في التفاسير ، تكرر لفظ « وقد سبق » للاشارة الى أمور يظن المؤلف أنه أوردها سابقاً ، ولكن لم يحدث أن أوردها . وكان من الأحرى به أن يحذف هذه الكلمة من موقعها ، ويضع ملخصاً لما تشير اليه (أنظر في هذا الأمر الصفحات ٢٨ ، ٣١ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩) .

وفصلاً كهذا يحتاج الى صور أو أشكال توضح بعض مسائله وتزيد الموضوع بياناً ، فهو زاخر بالجبال ، مليء بالأنهار ، غني بالأزواج ، . . . وهو ما لم نجده ، عدا صورة يتيمة واحدة ، أوضحت أهمية أملاح البوتاسيوم الموجودة في التربة في نمو النبات ، ولو أن موضعها اللائق هناك في الفصل الخاص بالنبات .

ومن الانصاف أن يحمد للمؤلف صنيعه الجليل في الاتيان ـ أحياناً ـ بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثنى عشر التي حاول معالجتها في الفصل ، وذلك ليربط بينها وبين الآيات محل المعالجة ، وهذا أمر نوه إليه في خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية ، ويأتي أحياناً أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه ، عساها أن تتم ما يريد أو تجلي الرؤية شيئاً ما .

ومن حسناته أيضاً إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة في شرح النص الواحد . وهذه أمور نبه اليها علماء الدين ومفكريه عند التصدي للحديث عن الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، أو إن صح تعبيرنا : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن[*] .

شغل الفصل الثالث مساحة أقل قليلاً من تلك التي شغلتها المقالة السابقة . وفي فصله هذا يتناول مؤلفنا موضوع (السحاب والمطر) ، مقدماً له ـ كما فعل سابقاً ـ بنبذة علمية ، تتلوها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع .

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء في الهواء ، محدداً طبيعته ، حيث أنه يوجد مختلطاً بالهواء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . هذا البخار شفاف لا يرى . فاذا رأينا ضباباً في صباح يوم رطب ، فهذا الذي نراه ليس ببخار ماء ، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء . وعندما يتكثف البخار الى ماء تتكون قطرات الماء حول دقائق صغيرة من الغبار والملح ، تكون معلقة في الهواء ، وتعتبر هذه الدقائق نويات (أو كتوايات ـ حسب ما ذكره المؤلف) لقطرات الماء .

ودقائق الغبار هذه توجد في كل مكان ، فهي توجد فوق البحار النائية ، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية .

وبعده تحدث عن المصادر الطبيعية لبخار الماء ، وتعرض لأهميته ، ووصل الى طريقة تكون السحاب ، والفرق بينه وبين الضباب ، فالأول في طبقات عالية من الجو ، بينما الأخير يتكون قريباً من سطح الأرض . وفي معرض حديثه عنها أشار الى أنواع السحب وهي : السحب الطبقية ، السحب الركامية ، السحب البيضاء ، والسحب الممطرة ، معطياً فكرة سريعة عن كل نوع .

ثم انتقل الى تعريف المطر وأشار بايجاز الى طريقة سقوطه ، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله ، وتكلم في تقدير كميته ، وتوزيع مناطق غزارته وندرته في العالم[**] . وفي نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث في شيء قليل من الشحن الكهربي للسحاب ودوره في حدوث البرق والرعد . وقد تخللت الفصل صور فوتوغرافية أغلبها غير عديم التفاصيل ، ومنها ما يمكن تسميته « صور تذكارية » وليس « صوراً علمية » .

ساق صاحب الكتاب في هذا الفصل نصوصاً قرآنية تتعلق بالسحب والأمطار ، هي على الترتيب : النور / ٤٣ ، الحجر / ٢٢ ، الواقعة / ٦٨ ـ ٧٠ ، البقرة / ١٩ ، ٢٠ ، البقرة / ١٦٤ ، الأعراف / ٥٧ ، الروم / ٤٨ ، الرعد / ١٢ ، ١٣ ، فاطر / ٩ .

في النص الأول « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »

(*) انظر على سبيل المثال : غنيم (كارم السيد) : التحليل العلمي للآيات الكونية في القرآن . المسلم المعاصر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٤٣ ـ ٦١ .

(**) الموضوع مفصل تفصيلاً ملائماً وقرآنياً أكثر وضوحاً في كتب منها : حسب النبي (د / منصور) : الكون والاعجاز العلمي للقرآن . دار الفكر العربي بمصر ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٢٩٧ .

يوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق الى حيث يريد الله سبحانه ، ثم يؤلف بين قطع السحاب ، حيث تتقارب وتتجاذب نظراً لاختلاف شحناتها الكهربية ، ثم يتراكم فوق بعضه ، وهذه الظروف تؤدي الى حدوث البرق والرعد ونزول المطر . أما عن الجزئية الخاصة بـ « البرد » في الآية ، فقد تكلم فيها عن طريقة تكونه وسقوطه وأنواعه . في النص الثاني : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » . يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف هو : سبقت هذه الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى عز وجل أن ما من شيء ينتفع به العباد إلا وعنده خزائنه . فخزائن ملكه مليئة بما يحبه الناس من النفائس والنعم والمخلوقات التي لا حصر لها . وهو لا يحبس ما في خزائنه عن عباده ، ولكنه يعطيهم إياها إذا بحثوا عنها ، وسعوا الى كسبها من وجوهها بحسب السنن التي وضعها ، والنظم التي قدرها . . . ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال : « وأرسلنا الرياح لواقح ... الآية » . وورد في غضون الشرح أقوال بعض المفسرين في معنى اللواقح ، إلا أنه كرر كلاماً عن أسباب حدوث البرق ، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربي في السحب والتلقيح النباتي . أما الجزئية الخاصة بعدم قدرة الانسان على اختزان هذا الكم الهائل من الأمطار ومياه السحب فلم يوفها المؤلف ما تستحقه من بيان(*) . في النص الثالث يقول ربنا سبحانه : أنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاجاً ، ولايضاح ذلك استعاد المؤلف كلاماً عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل الى غاز النيتروجين ، وأنه يمثل أربعة أخماس حجم الهواء ، وأن الأكسجين يمثل خمسه » . ومن خواص هذين الغازين أنهما يتحدان عند حدوث الشرارة الكهربية في خطوطها ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين ، اللذين عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين ، وبهذا يفسد طعم الماء . فلو أن التفريغ الكهربي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكراراً كافياً لنتج عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسيدين سابقي الذكر ، ولذاب الحمضان الناتجان عنهما في ماء السحب وحولاه ماء حمضياً لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المن الذي يمن به الله على الناس من أنه يكيف التفريغ الكهربي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يؤج به الماء . في النص الخامس « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . . . » وعند معالجة الجزئية الخاصة بـ « الفلك » نجده يتوسع شيئاً ليبين عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأعلى سبحانه وتعالى وهي : خلق الخامات الأولية ووسائل صناعة السفن - خلق ظاهرة الطفو - خلق خاصية اطمئنان الانسان لركوب البحر - خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم . ثم اتجه لبيان كيف أن إنبات الزرع بالمطر الهاطل من السماء يعتبر إحياء للأرض . وعند « تصريف الرياح » في نفس الآية ، فقد تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو ، ثم عرج على تسخير السحاب ، وانتهى الى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكريمة لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وعلى كونه قادراً مريداً واحداً . في النص قبل الأخير « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد

(*) يستطيع القارىء أن يستزيد في هذه المسائل من كتب مثل : القمر، (د/ محمد جمال الدين) : الله والكون . الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر . ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٢ .

المحال » ، يبين المؤلف أن الله سبحانه ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ، فلما خوف الله تعالى العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هاتين الآيتين ، وذكر فيهما أموراً أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته هي : البرق ، السحاب الثقال (وهو ما لم يذكره سابقاً عند تعديد أنواع السحب ! ! أو ربما يقصد به « السحب الممطرة » التي ذكرها هناك) ، الرعد ، والصواعق .

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو « النبات » ، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة الانسان ثم الحيوان إلى النبات . وأشار إلى دور النبات في دورة النيتروجين ، ووعد بتفصيل هذه المسألة في الفصول اللاحقة ، ثم شرح دور النبات في دورة الكربون في الطبيعة . وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية . وعند كلامه عن الفحم الحجري وتقطيره نجد صورة لمجموعة من الأشجار ، تفضل (برجاء) التعليق عليها الى نهاية هذا التحليل ، هذا مع العلم بأن كلامه عن الفحم (ص ٨٢ ، ٨٣) وأصله وكيفية تكونه لم يأخذ حظه من التوضيح اللازم(*) .

بعد تلك العجالة العلمية (أو « العملية » كما يحلو للمؤلف مراراً أن يسميها) ، اتجه صوب الآيات القرآنية فأورد سبعة عشر نصاً هي : المؤمنون / ١٨ - ٢٠ ، الحج / ٦٣ ، الأنعام / ١٤١ ، يس / ٣٥ - ٣٦ الواقعة / ٦٣ - ٦٧ ، ق / ٧ - ١١ ، النحل / ١٠ ، ١١ ، طه / ٥٣ ، ٥٤ ، الرعد / ٤ ، السجدة / ٢٧ ، الشعراء / ٧ - ٩ ، الزمر / ٢١ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، يس / ٨٠ ، البقرة / ٦١ ، عبس / ٢٤ - ٣٢ . ونرى أنه من اللفت لنظر القارىء في معالجة هذه النصوص معالجة تفسيرية أن المؤلف تعرض للأمور التالية : كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب في إنبات النبات ، كيفية تراكب الحب في سنبلة ، الفروق بين الزروع والثمار وحكمة تقديم الأول على الأخرى ، وكيف تكون الثمار متشابهة وفي الوقت ذاته غير متشابهة ، وهذه كلها أمور وردت في شرح النص الثالث . أما قول الحق تبارك وتعالى « انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه » فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له في كلامه عن النص الرابع ، الا أن النصين من سورة واحدة أحدهما رقم (٩٩) والآخر رقم (١٤١) ، وعند عرض النصين معاً نجد أن الله أمر في الآية الأولى بالنظر في بديع صنع الثمار والاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، وفي الآية الأخرى أمر الله تعالى بأكل الثمار « كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » والانتفاع بها . وفي هذا تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الأمر بالانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصلة من الانتفاع بها سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم .

عند شرح النص الخامس (يس / ٣٥ ، ٣٦) أوضح المؤلف أن « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » المقصود بها ليأكلوا من ثمر الجنات (الحدائق والبساتين) وما عملته أيديهم مما غرسوا وزرعوا ، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكر ومربى وما اليها . هذا وان كان الكلام هنا لم يف بالتفصيل المناسب لهذه المسألة ، فانك تجد القصير أكثر عند شرح « الأزواج » ، فلم يذكر عنها إلا أنها الأصناف والأنواع ! ! وفي شرحه للنص الثامن « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن

(*) انظر في ذلك : إمام (د. محمد السيد) : حديث الاسلام عن الأشجار . المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣١ .

كل الثمرات ... » نجد إشارة لطيفة جديرة بالتسجيل هنا ، تلك هي أن الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان . وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الانسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات ، فقال في سورة طه (الآية ٥٤) « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ، والترتيب المذكور في الآية المتقدمة ينبه على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الانسان بما تحت يده من أنعام أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى فالمقصود منه ما هو مذكور في قول الرسول ﷺ : إبدأ بنفسك ثم بمن تعول . كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الانسان الطاقة من الشجر الأخضر ، وهو المنصوص عليه في قول الله « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون » (يس / ٨٠) (النص الخامس عشر في هذا الفصل) ، فتعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التي يحصل عليها الانسان من الأشجار هي في الأصل طاقة شمسية ، وأشار إلى الفحم المستخرج من باطن الأرض ، وهو أشجار طمرت ومرت عليها عصور . أما الصورة التي أراد بها المؤلف إيضاح عملية البناء الضوئي في النبات فسوف نرجيء التعليق عليها إلى نهاية التحليل . وفي النص الأخير (البقرة / ٦١) الذي يحكي قصة بني اسرائيل مع سيدنا موسى في التيه ، أعطى المؤلف أفكاراً علمية عن نباتات الثوم والبصل والعدس وفوائدها الطبية ، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير في هذا الفصل .

جاء الفصل الخامس عن « الحيوان » ، وشغل مساحة أكبر مما شغله أي من الفصول السابقة . عدّد المؤلف في قسمه الأول من الفصل فوائد الحيوان : الانتفاع بالماشية (اللحم الأحمر ـ الألبان ـ الأسماخ) ، الانتفاع من الأغنام والماعز (اللحوم ـ الألبان ـ الصوف ـ الأشعار ـ الأنواع المختلفة) ، الانتفاع من الدواجن (اللحم الأبيض ـ البيض) ، الانتفاع من الأسماك (البروتين ـ الدهن) ، الانتفاع بالاسفنج ، الانتفاع بالمرجان والشّعاب المرجانية ، الانتفاع بأصداف الرّخويات وقواقع البحر ـ الانتفاع باللآلىء الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤة وأهمية اللآلىء وقيمتها) ، انتفاع الانسان من الحشرات خصوصا دودة الحرير ونحل العسل (أسهب المؤلف في شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للانسان ، لكنه أمسك عن شرح طرائق النحل في تعرفها على طريق العودة الى خلاياها ، وهو ما كان من اللائق ايراده أثناء الحديث عن خلايا النحل وجمع العسل من رحيق الأزهار) .

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك الى النصوص القرآنية التي تتعلق بالموضوع فيتناول منها تسعة هي ـ حسب ورودها في الفصل : النور / ٤٥ ، النحل / ٥ ـ ٨ ، النحل / ٦٦ ، النحل / ٦٨ ، ٦٩ ، الأنعام ٣٨ ، النحل / ١٤ ، العنكبوت / ٤١ ـ ٤٤ ، النحل / ٧٩ ، ٨٠ ، الرحمن / ١٩ ـ ٢٣ .

النص الأول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » يوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان ، وهي دليل من الدلائل على الوحدانية ، وقد تقدمها دليلان آخران على وحدانية الله تعالى ، أحدهما في الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها ، والآخر في الآية (٤٣) الخاصة بالسحاب والبرد والبرق ، وهما في نفس السورة القرآنية ، والشير الى أهمية الماء للكائنات الحية ، ثم بينت طرائق مشي الحيوانات ، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة في الزواحف . ولاحظ في هذا النص الكريم

قول الله فيه « ويخلق الله ما يشاء » ثم لاحظ قوله تعالى في النص الثاني « ويخلق مالا تعلمون » (النحل ٥ ـ ٨) . وهو النص الذي وضح فيه منافع ضرورية للانسان من الحيوان وأخرى أقل ضرورة . وهنا أشار الى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة في قول الله تعالى « ويخلق مالا تعلمون » ، فإنها وردت بعد الخيل والبغال والحمير . ومن قبلها ذكرت الأنعام من ابل وبقر وغنم ، فهو سبحانه الخالق لخاماتها الأولية من معادن وخلافه ، وهو سبحانه الخالق للعقول المفكرة والمخترعة ، وهو سبحانه الذي شاء بانبلاج هذه الأسرار بعد أن كانت حبيسة الغيب . في النص الثالث شرحت كيفية تكوين اللبن من بين الفرْث والدم ، وفي الرابع شرح النظام العام في خلايا النحل وذكرت الأشكال الخلقية لأفرادها . ولكن المؤلف غفل عن بيان السبل الذلل !! فلم يوضح فيها شيئاً (*) . وانتقل بعده الى شرح كيفية بناء النحل خليته ، وزود ذلك بصور فوتوغرافية سماها أشكالاً ، الا أن هناك فرقاً هاماً بين ما يسمى « صورة » وما يسمى « شكل » ، وهو ما لم يفطن له المؤلف الجليل أثناء عرضه للصور في الكتاب . ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق ، وعملية ارتشافه وتحويله الى عسل ، ثم تعرض الى تركيب العسل وهو كلام تكرر من قبل في هذا الفصل .

أما النص السادس : وهو الخاص باللحم الطري ، والحلية المستخرجة من البحار ، فلقد تكلم المؤلف فيه عن المرجان ، وأعاد كلامه عن اللؤلؤ ، حيث أنه تعرض له بالتفصيل في صفحات سابقة من نفس الفصل . كما أنه لم يفصل القول في سورة العنكبوت ، وهو موجود في مراجع متفرقة ، نرى أنه كان يجب عليه الرجوع اليها ، فالتصدي للكتابة في مثل هذه الأمور القرآنية ليس بالأمر السهل ، ولا هو قاصر على عدد محدود من المصادر . في الفقرة الأولى من شرح النص الثامن في صفحة ١٥٣ ، يقول المؤلف : (وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور مُحَوَّرٌ للطيران) ، وهذا ما لم يرد في الكتاب من قبل ، بل هو قد ذكر اشارة سريعة الى هذه التحورات ، بعد العبارة المذكورة ، بينما نجده يشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر ، ثم يقع فيما وقع فيه مرات كثيرة من تكرار واعادة لبعض المسائل كما حدث في صفحة ١٥٦ عن أصواف وأشعار الأنعام . كما أنه ذكر أحد الآراء في البحرين والبرزخ الواردين في : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » في النص الأخير من هذا الفصل . فأين الآراء الأخرى في هذه المسألة ، والتي أجلاها بعض العلماء المختصين (**) .

ثم ننتقل الى أكبر فصول الكتاب حجماً ، وهو السادس في الترتيب ، وموضوعه « الانسان » ، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الانسان ، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشري ، فتناول الجوانب التالية : تنازع البقاء الحاصل على الأرض ، وانقراض الحيوانات التي لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان ، آدم وحواء : السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان ، العوامل التي أدت الى وصول الانسان الى المستوى الحاضر ، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله ، بيان بعض قدرات ومواهب الانسان ، ما هو العقل ؟ ما هي الذاتية ؟ ، هل القوة العاقلة المدركة في الانسان يمكن تحديها ؟ ، أوجه الشبه بين الانسان والحيوانات المحيطة به ، خصائص الجنس

(*) انظر في بيان ذلك بحثاً قيماً هو : حلمي (د / محمد عبد الحافظ) : العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم ، مجلة عالم الفكر بالكويت ، ١٢ (٤) ١٩٨٢ ، ص ٩٩٣ .

(**) لإجلاء هذا الأمر انظر كتباً منها . الطوبي (د / محمد رشاد) : وخلقنا من الماء كل شيء حي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ . خضر (د / عبد العليم عبد الرحمن) : الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن . الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٩٢٢

البشري (الخصائص البيولوجية والخصائص المدنية) ، تحديد موقع الانسان في عالم الأحياء من حوله وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة . جاء خلق الانسان بعد اجراء أحداث وتغيرات جسام في كائنات الطبيعة ، انقرض على اثرها ما انقرض وبقي ما استطاع الحياة ، ثم خلق الله الانسان ، مذهب الانتشار وأصل مدنية العالم ، الكيفية التي بدأ بها الانسان تعلمه . ومن الجوانب أيضا : خصائص الباحثين والمكتشفين ، معيار نجاح الاكتشاف ، علاقة الانسان بالبيئة والمجتمع في صياغة شخصية وتحديد الشكل الحضاري له ، الحجم التعدادي لأصحاب المواهب والعباقرة في أي مجتمع ، موقع اللغة في موكب المدنية والحضارة ، أثر اللغة في المجتمع ، أهمية الكتاب والكلمات في حياة المجتمعات والناس عموما ، الجوانب الروحية في حضارة الانسان ومدنيته ، أنواع الخلق : الخلق الطبيعي - الخلق الحيوي - خلق النفس البشرية .

يقول المؤلف في صفحة ١٦٠ - الفقرة الثانية ، ما نصه : ولا يحسبن أحد أن أول من عمر الأرض من البشر هما آدم وحواء، بل عمرها قبلهما العديد من السنين نوع من البشر متوحشون يعيشون في كهوف كالحيوانات ، ويتقاتلون مع الحيوانات ، وربما يصرخون كالحيوانات ، وقد انقرض كل هؤلاء ، ومن الانصاف أن نطلق على كل فرد منهم (الانسان البدائي) ، ولعل سائلا يقول : وماذا نطلق على الانسان المعاصر لنا اليوم ، هذا يطلق عليه (الانسان العصري) أو (الانسان الحديث) .

يفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض نوع مختلف من البشر ، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بني الانسان) ، وهو شائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم ، إذا فهناك انسانان ، انسان قبل آدم وحواء ، وانسان ظهر بهبوط هذين الأبوين . فهل هذا كلام يرضاه العقل والدين ، وهل في الاسلام ما يشير الى هذه الفكرة !! ، نعوذ بالله من هذا ، وأدعو للمؤلف بالمغفرة . كما أننا في نفس الصفحة نجد المؤلف - وهو ذو الخبرة الطويلة في العلم وصاحب الهمة الدينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب - لا يتورع عن ايراد قصة خرافية تحكي كيف حصل الفيل على خرطومه ، ولم يضع فيها رأيه الشخصي ، ولم ينفها ، بل أثبتها وكأنه من أنصارها ، وأرى من جانبي أن ذلك الصنيع مناف لأصول الكتابة العلمية ، لا سيما الذي يتعرض منها لمسائل عقيدية . ولا يجب أن يكون مكانه كتاب علمي يتعرض لمسائل قرآنية كالذي بين أيدينا الآن ، بل موضعه هناك في القصص الأساطيري .

عرض المؤلف في هذا الفصل ستة وثلاثين نصا قرآنيا لتتحدث عن أحد عشر جانبا من الجوانب المتفرقة في الانسان ، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الانسان ، والنصوص الثلاثة التي تليها متعلقة بتعليم الانسان وتعلمه ، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسؤولية الانسان عن أعماله ومحاسبته عليها ، والنصين السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الانسان خلق ضعيفا ، والنصان التاليان لهما بينا غفلة الانسان عن المنعم سبحانه ، وكذا ظلم الانسان لنفسه . أما النصوص الأربعة (من العشرين الى الثالث والعشرين) فتتعلق بتناسل الانسان ، وبيان أنه سنة لتعمير الكون ، والنصوص الثلاثة التي تليها تحدد علاقة الانسان بوالديه . النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية . ثم تقررت حقيقة الموت في النصوص القرآنية الثلاثة التالية ، وأتبعها المؤلف بنصين يؤكدان حقيقة البعث ، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة .

فيما يتعلق بخلق الانسان ، فان الله سبحانه قد أبان

من أمور عديدة في هذا الموضوع ، تجدها في نصوص قرآنية منها ما أورده المؤلف : ص ٧١ ـ ٧٤ ، الحجر ٢٦ ـ ٣١ ، البقرة ٣٠ ـ ٣٤ ، الطارق ٥ ـ ٨ ، الشورى ٤٩ ـ ٥٠ ، الحج ٥ ، المؤمنون ١٢ ـ ١٦ ، الزمر ٦ ، التين ١ ـ ٤ . في معالجة هذه النصوص ، تعرض المؤلف لعديد من الأمور الخطيرة ، وهل أخطر من خلق الانسان ومن قبله خلق السموات والأرضين ؟ ! . بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الانسان) ، فكانت جوانب حديثة كما يلي : المادة الحية الأولية (البروتوبلازم) ، البناء الهستولوجي للجسم الانساني ، الخلية : الوحدة البنائية لجسم الانسان ، الأعمال الفسيولوجية للخلية الحية ، أهمية الغذاء لحياة الخلية ، التركيب الكيميائي لمحتوى الخلية ، عناصر الجسم الأولية ، عناصر تركيب التربة . ومن هنا خلص المؤلف الى النتيجة الأزلية وهي : أن الانسان الأول ، أي آدم عليه السلام (هناك في الجزء العملي من هذا الفصل وضح في كلامه أن الانسان الأول لم يكن آدم ، بل هو انسان قبل مجيء آدم وحواء الى الكوكب !!) وكذا سائر البشر . مخلوقون مما يتكون منه الطين . اذ أن العناصر التي يتكون منها الانسان هي ذات العناصر التي يتكون منها الطين . ولكن لما كان هناك بوْن شاسع بين الانسان والطين ، أظهرها أن الطين جماد لا حياة فيه ، أما الانسان الحي فهو كائن له كل مظاهر الحياة . وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الإلهية دون التفكير في كيفية الخلق ، إذ أنه حدث بطريقة لا نفهمها ، وهي فوق عقولنا ، وهي من الأمور الغيبية التي استأثر بعلمها الله وحده ، حيث يقول عز من قائل : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . . . » . ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو : هل خُلق الانسان حقا من صلصال أو صلصال كالفخار أو حمأ مسنون أو طين ؟ أم أن هذا الوصف تقريب للذهن وحكاية لما كان متداولا في الفلسفات المختلفة عند قدماء المصريين والبابليين واليونانيين من تصوير للخلق على نسَق ما يفعل الانسان الصانع من مادة سابقة يشكلها ويصوغها في هيئة معينة ؟

في اجابته عن هذا السؤال ، يقول المؤلف في ص ١٨١ : . . . وليس من الواجب ـ بعد ما أوضحناه ـ أن نأخذ بحرفية الآيات ، وأن نفهمها على ظاهرها وأن نتصور أن الله تعالى قد خلق الانسان من طين ، أو حَرق الطين فجعله صلصالا وشكل منه الانسان ، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان ، ومثال لما يفهمه الناس بطريق الحس والخيال . كيف يخول المؤلف لنفسه أن ينتهي الى هذه النتيجة ، وهو الذي أخذ يشرح عناصر الانسان وعناصر التربة بغية الوصول الى أن أصل كليهما واحد ، يعني أن الانسان خلق من طين ؟ ! إن ذلك ليس تبرأ الى الله منه ، ونود لو اطلع عليه صاحبه ليستعيده أو ليحكيه عن غيره من المفكرين ثم يبرأ هو منه أيضا .

تكلم المؤلف في هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي أن التسوية أولا ، ثم النفخ في آدم . ثم الأمر بسجود الملائكة ، وهذا السجود ليس عبادة وانما احترام وتوقير . ثم عند تعرضه للآيات ٥ ـ ٨ من سورة الطارق « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » ، أخذ يوضح المؤلف الصلب والترائب ، ويشرح عملية الاخصاب في الانسان ، ورسمها في شكل ايضاحي ، ثم في النص التالي له ، أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورا واناثا . ولم يحذف تكرارات كثيرة وجدناها في صفحات هذه الجزئية التي انتظمت تسعة نصوص قرآنية . وفي النص السابع يشرح كيف أن الرحم في الأنثى قرار مكين ، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث ، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة في رحم الأنثى حول

الجنين . أما النص الأخير ، والذي ذكر التين والزيتون وطور سنين .. فإنه شرح خواص هذه النباتات ، على الرغم من أن الموضع هنا ليس موضعها !! .

في الجزئية الخاصة بمسؤولية الانسان أعماله ومجازاته عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ، ويوضح أن حياة الانسان على الأرض لا تحتل الا جزءا يسيرا جدا إذا قيس بعمر الأرض ، وحتى يبين ذلك تكلم في المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضي . وعندما وصل الى بيان غفلة الانسان عن النعم الأعلى ، وأن من صفاته الظلم وأول من يقع عليه الظلم هو نفسه التي بين جنبيه ، يشرح في معنى « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مثالين : المثال الأول : تركيب الانسان نفسه ، فهو مكون من أجهزة ولكل جهاز وظيفته ، ثم المثال الثاني : اللقمة التي يتناولها الانسان في فمه ، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض ثم تناولها ثم هضمها والانتفاع بها في جسده .

وفي صفحة ٢٥٢ تحدث عن نوع من أنواع النفس البشرية (النفس المطمئنة ، وصفاتها الأربع ، ثم في الصفحة التي تليها تحدث عن النفس الانسانية كما عرفها علماء النفس . وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة ، ثم أوضح ان الموت نوعان : الموت المادي والموت العلمي والحقيقي ، وهو لا يكون بتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط ولكن يكون بموتها .

وعموما ، فالفصل تغلب عليه كثرة النقول من كتب التفسير دون وزن الأقوال أو انتخاب الأفكار منها ومناقشتها ، وهذا مما يؤخذ على صاحب الكتاب .

اختتم الكتاب بفصل عن « السماء » . وقبل الدخول في الفصول نود الاشارة الى أمرين : أحدهما يعتبر بديهة عامة يستطيع القارىء الواعي أن يصل اليها ، تلك هي موقع الفصل بين دفتي الكتاب ، فإن موضعه الملائم هناك عند الحديث عن السحب والأمطار والظواهر الجوية والنجوم والأرض وما شابه ذلك ، وأن يكون ختام الكتاب هو فصل « الانسان » . الأمر الثاني هو أن الفصل الحالي يعد خلاصة لكتاب سابق للمؤلف عنوانه (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت نفس دار النشر بطبعه سنة ١٩٨٣ ، أي قبل نشر الكتاب الذي نراجع الآن بنحو عامين .

يستهل المؤلف الفصل بنبذة عن السماء فيقول : نفتتح هذه النبذة بالقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معاني السماء التي جاءتنا في نصوص الكتاب الكريم ، لعل في عرضها ما يزيدنا بصيرة بالقرآن ، ويجيب على ما يتردد في أذهان كثير من الناس : ما هي السماء ؟ . وعند الاجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معان للسماء : ١ ـ جاءت السماء بمعنى ما يعلو الانسان « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة ١٤٤) . وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود في طبقات الجو . ٢ ـ جاءت بمعنى السحاب « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة ٢٢) . وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار . ٣ ـ وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التي تعلو الأرض وتلامسها عند الأفق . وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية ، وبين سبب زرقة السماء ، فقال : والجو هو السبب في زرقة السماء ، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الارض تقابله جزئيات الغازات المكونة للجو ، وكذا دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه ، وهذه تحدث « تشتتا » في الضوء لا يكون واحدا للأطوال الموجية المختلفة . فالجزئيات والدقائق تشتت الضوء الأزرق ، (أي الأطوال الموجية القصيرة) بدرجة أكبر مما تشتت بها الأضواء الأخرى الأطول

موجية كالأحمر وغيره . وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر فسماؤنا نرى زرقاء ، اذ أن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت . ٤ ـ كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » (الأنبياء ٣٢) ، « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » (الطور ١ ـ ٥) .

بعده أخذ مؤلفنا في تفصيل القول عن الأجرام السماوية ، وقسمها الى ثلاث فئات : الأولى : الكواكب ، الثانية : النجوم ، الثالثة : المجرات . في الفئة الأولى (الكواكب) ذكر أن الأقدمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجوالات) ، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس ، وأسماؤها مرتبة حسب ترتيب بعدها عن الشمس كالآتي : عطارد ـ الزهرة ـ الأرض ـ المريخ ـ المشتري ـ زحل ـ أورانوس ـ نبتون ـ بلوتو . هذه الكواكب السيارة هي أقرب الجيران لنا في هذا الفضاء الكوني . ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس ، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها ، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط . ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أمها الشمس الى « كواكب داخلية » و « كواكب خارجية » ، وبين النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس . الفئة الثانية من الأجرام السماوية هي (النجوم) : يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزاته الأكثر صعوبة في تعيينها ، ليس هذا فحسب ، ولكنه أيضا من أكثرها أهمية فكل التغيرات التي تتناول النجم أثناء حياته يمكن تعيينها من معرفة كمية ونوع الطاقة التي يشعها ، ولكن كمية الطاقة التي يشعها نجم في الفضاء لا يمكن معرفتها الا اذا عرف بعده . ثم تكلم في الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها ، وأن الوحدة لقياسها هي السنة الضوئية ، وأعطى تعريفا لهذه الوحدة وأمثلة لبيانها . وذكر أن « هالي » (والذي يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين في سنة ١٧١٨ م أن النجوم ليست ثابتة في مواضعها ، فقد لاحظ أن (الشعري اليمانية) وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهري للقمر ـ وهو بدر ـ عن المواضع التي عينت لها في كتالوج بطليموس القديم . وترسل المؤلف في شرح الحركات ، ثم انتقل الى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها ، وساق أرقاما يترنح الانسان عند رؤيتها وتصورها . وذكر خاصتين هامتين أخريين هي الحرارة والاضاءة فقال : درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المساحات من سطح النجم ، فإذا وجد نجمان متساويا الحجم فأكثرها سخونة يشع كمية طاقة أكثر ، وإذا وجد نجمان متساويان في درجة الحرارة فأكبرهما يشع طاقة أكثر . ولذا « فاضاءة » النجم (سطوعه الذاتي) تتوقف على عاملين : درجة حرارته وحجمه . وفي تفصيل الجزئية تعرض المؤلف لمقاييس الاضاءة ، ومنحنى H — R . يعادله بالعربية منحنى الحرارة ـ الاضاءة لبيان الارتباط بين درجة الحرارة النجم وإضاءته .

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية (المجرات) ، وهي تظهر في كل جزء من السماء فيما عدا امتداد (الطريق اللبني) ، حيث يخفى الغبار والغاز في مجرتنا المجرات الأخرى خلفه . ونرى في الكون مئات الملايين من المجرات ومنها ما نستطيع رؤيته بأضخم تلسكوباتنا ، ومنها مالا تجدي التلسكوبات الضخمة في الكشف عنه . . . وقد قام ايدوين هوبل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات ، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هي : البيضاوية والحلزونية وغير المنتظمة . وبعد أن جال وصال في هذا الميدان انتهى الى ما قد تقدم نستطيع أن

تقسم المادة في الفضاء النجومي الى ثلاث مجموعات رئيسية : السدائم المضيئة ، السدائم المظلمة ، الغاز والغبار في الفضاء النجومي (وهو الموجود بين السدائم) . وكانت آخر جزئية في هذا القسم من الفصل هي شرح فكرة أكدها اينشتين بأن « الفضاء محدود ولكن لا حدود له » (المجموعة المحلية هي مجموعة من حوالي سبع عشرة مجرة ، مجرتنا إحداها وتكون المجموعة جمعا صغيرا نسبيا) .

انتقل المؤلف الى الآيات القرآنية عن السماء والتي تبين بديع صنع الله سبحانه في خلقها وعظيم قدرته وأحكامه في تدبير أمرها ، وأورد ثلاثة عشر نصا هي على التوالي : فصلت ١١ ـ ١٢ ، النازعات ٢٧ ـ ٣٤ ، ق ٦ ـ ١١ ، الرعد ٣ ، الواقعة ٧٥ ـ ٧٦ ، نوح ١٣ ـ ١٦ ، الذاريات ٤٧ ، يس ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ، الفرقان ٦١ ـ ٦٢ ، الجن ٨ ، الأنبياء ٣٠ ، الملك ٣ ـ ٥ . في شرح قول الله تعالى في الآيتين ١١ ـ ١٢ من سورة الدخان « ثم استوى الى السماء وهي دخان » ، يوضح المؤلف السدائم المضيئة والأخرى المظلمة ، وهو ما سبق أن أوضحه في القسم الأول من هذا الفصل ، الا أنه عند تصويره لميلاد نجم من النجوم كان رائعا ، فلنلتقط منه لقطات : الغاز والغبار في الفضاء النجومي هو المادة الأولية التي تتكون منها النجوم ، وهو الذي سماه المولى عز وجل « دخان » ، ومما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت أن تكونت منه النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن .. ولكن المولى ـ جل شأنه ـ وضع من السنن الكونية ما يتم معها تخليق النجوم من الدخان ، كأن تنزع كتلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذي يكون السديم ـ مثلا بأن تقوم بحركة دوّامية ـ ثم تبدأ في عملية تقلّص ، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها نجما بدءا ، لأنه ليس ساخنا بدرجة كافية حتى يشع ضوءا مرئيا ، ولكن باستمرار تقلص الغاز تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب الى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة ، وعندما تبلغ هذه الدرجة في مركز النجم خمسمئة ألف درجة مطلقة يتحول (النجم البدء) الى (نجم يافع) ، يمكن تعيين موضعه على المنحنى R — H (الحرارة ـ الاضاءة) وفق اضاءته ودرجة حرارته .

وفي قول الله تعالى « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها .. » (النازعات ٢٧ ـ ٣٤) ، يوضح المؤلف أن الله سبحانه بعد أن قرر أنه بنى السماء ، شرح لنا كيفية البناء فقال (رفع سمكها) ، وفي شرح ذلك كرر المؤلف أقوالا وتفصيلا أورده في الصفحات السابقة عن القبة الزرقاء حولنا ، وسماء الكواكب ، ثم سماء النجوم ثم سماء المجرات . إذا كانت الصفة الأولى رفع السماء ، فإن الصفة الثانية هي « فسواها » أي جعلها خالية العيوب ، والصفة الثالثة هي « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » .. وإنما أضاف الليل والنهار الى السماء لأنهما إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها ، إنما يحصلان نتيجة لدوران الأرض حول محورها . وأخذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض في الآيات الكريمة ، وهذا ليس محله المناسب وإنما موقعه هناك في الفصل الخاص بـ (الأرض) .

في سورة ق (الآيات ٦ ـ ١١) يقول الحق تبارك وتعالى « أفلم ينظروا الى السماء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .. » ، ومن روائع ما جاء به المؤلف قوله : ومن الملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور في الأرض : المد والقاء الرواسي والانبات فيها . وفي السماء : البناء والتزيين

وسد الفروج . وكل واحد في مقابلة واحد ، فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة في أفلاكها ومزينة للسماء ، والانبات في الأرض شقّها وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها .

أما في (العَمَد) التي تحفظ السماء كما هي في مواقعها وبنائها ، وذلك حسبما يقول الله تعالى في سورة الرعد « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، في ذلك يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمد هو قوى الجاذبية التي تتجاذب بها النجوم والكواكب ، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هي قوة الطرد المركزية ، وبتعادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوي الاحتفاظ بموقعه وعدم الانفلات في الفضاء الكوني اللانهائي . وعند وصوله الى النص السابع في هذا الفصل ، تجده يوضح كيف أن الله سبحانه بنى السماء « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ، فلقد دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تتهادى معا في جموع ، كل منها يطلق عليه « جمع مجرى » . وكل جمع من المجرات هو مجموعة مقيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها .. وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التي تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ، ويحل بدلا منه تنافر ، اذ أن جموع المجرات يبدو أن كلا منها يتجنب الآخر . وقد دلت التجربة على أن المجموع المجرية تبتعد عنا ، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا . والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون آخذ في الاتساع . وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح : « والشمس تجري لمستقر لها » ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار » ، « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » ما هي البروج ؟ وما أحوالها ؟ وما أنواعها ؟ وما أسماؤها ؟ وما علاقتها بالشمس وحركاتها ؟ ثم كان انطلاقه لمعنى قول الله عن الجن « وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » ، فأخذ يشرح الشهب والنيازك ، ويعطي أمثلة على ما ذهب اليه . أما بيانه المقتضب في معنى قول الله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، جاء خلاصته ما أوضحه في أول الكتاب ، وهو ما فصله علماء الفسيولوجي في الكائنات الحية .

في نهاية هذا التحليل لهذا الكتاب الجليل يجب علينا أن نبين أمورا هامة هي :

١ ـ الكتاب تنقصه خاتمة .

٢ ـ نسيان شرح اشارات مذكورة في بعض الصفحات ، فمثلا في صفحة ٢٩٣ عند الكلام عن النجوم العمالقة الزرقاء والنجوم العمالقة الحمراء ، وضع المؤلف إشارات رقمية ، ومن المفهوم أنها سوف تشرح ، أو يعطى لها معنى في ذيل الصفحة ، وهذا ما لم يحدث !! ويحدث أيضا في صفحة ٣١٢ « شكل ٤ » ، فلا رقم الشكل ذكر ، ولا الشكل نفسه عرض في الصفحة نفسها أو حتى ما حولها .

٣ ـ نظرا لعدم مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وكذلك نظرا لكثرة النقول من كتب التفسير ، فانني أجد تكرارات كثيرة جدا في غير أهمية ، فبينما أجد كلاما في موضع أجده في موقع آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ص ١٦ ، ص ٣٥ ، الفقرة الثانية ، ص ٣٨ ـ الفقرة الأخيرة ، ص ٣٩ ـ الفقرة الثانية ، ص ٤٠ ـ الفقرة الأولى ، ص ٤١ ـ الفقرة الأولى ، ص ٤٤ ـ الفقرة الرابعة ، ص ٧٠ ـ الفقرة الثانية ، ص ٧٤ ـ الفقرة الأولى ، ص ٧٦ ، ص ١٤٥ ـ الفقرة الأولى ، ص ١٤٩ ـ الفقرة الثانية ، ص ١٥٦ ـ الفقرة الأولى ، ص ١٨٧ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٠ ـ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٨ ـ الفقرة الثانية ، ص ٢١٠ الفقرة الثانية ، ص ٢٧١ الفقرة الثالثة ، ص ٢٩٢ ـ الفقرة

الأولى ، ص ٢٩٣ ـ الفقرة الثانية ، ص ٢٩٥ ـ الفقرة الثانية ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ص ٣١٤ ـ الفقرة الرابعة ، ص ٣١٥ . ففي هذه المواضع يقول المؤلف كلاما في مكان تجده قد قاله في مكان آخر وهكذا . .

٤ ـ مراجع الكتاب : ذكر المؤلف سبعة مراجع في نهاية الكتاب (ص ٣١٩) ، بطريقة بدائية لا تتناسب وجلال ثقافته وطول خبرته ، ولنضرب على ذلك مثالاً بذكر مرجع منها : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري ، وفي مرجع آخر يذكر : المصحف المفسر تأليف محمد فريد وجدي . فالأول أستاذ وحكيم وشيخ ، والآخر لم يجد له لقبا يضفيه عليه !! . كذلك فالطريقة العلمية لذكر المراجع لم تتوفر ، وقد اتفق أهل العلم والثقافة على نظم في ذكر المراجع أشهرها : اسم المؤلف مبتدئا باسم عائلته ، ثم بقية الاسم بين حاصرتين / عنوان الكتاب أو البحث أو المقال . دار النشر ، رقم الطبعة ، السنة ، الصفحات إجمالا إذا كان كتابا ، ورقم الصفحة المقصودة إذا كانت مجلة (دورية أو غير دورية) . وذلك على غرار ما ذكرناه في ذيول بعض صفحات هذا التحليل . .

٥ ـ لما كان المؤلف قد عزف عن الرجوع الى المراجع والمصادر العلمية الضرورية فلم يفتش فيها عند التعرض لكل المسائل التي تعرض لها في هذا الكتاب ، لكنه اكتفى بالنقل من قلة من كتب التفسير ، فانني لم أجد بدا من الاشارة الى مراجع يستطيع القارىء أن يرجع اليها عند طلب الزيادة أو التحقق العلمي أو الوقوف على أمور معينة ، سواء ذلك في المجالات الفلكية أو البيولوجية أو الجغرافية أو غيرها .

٦ ـ الصور والأشكال : هناك فرق بين « الصورة » وبين « الشكل » ، فالأولى تكون مأخوذة بآلة تصوير (كاميرا) أي أنها فوتوغرافية ، ثم الوسيلة الثانية من وسائل الايضاح هي « الأشكال » ، أي تخطيط لجسم أو عملية ما ، والمثقف العادي ـ ناهيك عن أصحاب التخصصات العلمية المختلفة ـ يعلم ذلك ، فلا نطلق على صورة فوتوغرافية لفظ (شكل) ، كما لا نطلق على شكل تخطيطي لفظ (صورة) ، فالدقة في التعبير إحدى عناصر الكتابة الجيدة ، سواء كان القالب الذي يحتويها مقالا أو كتابا . نقطة أخرى ، لكنها خطيرة بشأن الصور ، يجب التنبيه اليها ، تلك هي عدم جدية الصور ، فتجد مثلا في فصل (الحيوان) عند الحديث عن الدواجن وصناعات الدواجن صورا للمؤلف ، وهو يزور بعض المذابح الآلية أو مصانع الدواجن (أنظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) . فهذه صور « ألبوم » ذكريات وليس محلها كتاب علمي ـ وان كان موجها للمثقفين لا المتخصصين ـ لا سيما وهو يتعرض لمسائل في غاية الأهمية ، فليس بعد القرآن الكريم أهمية تمثله .

ولما كان الكتاب اسلاميا فلا داعي إذا لظهور نساء غير محتشمات على صفحاته (أنظر صفحة ٥٢) ، فلا الصورة تعطينا تفصيلا فلكيا ، ولا هي تحتمت ظهور امرأة ترتدي سروالا قصيرا (شورتا) . وعدم وضوح تفصيلات الصور أمر شائع في كافة ماجاء منها ، أنظر على سبيل المثال : صفحات ٥٥ ، ٨٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وغيرها . في صفحة ٨٣ صورة لبعض الأشجار كتب تحتها (الغابات التي طمرت وكونت الفحم) ، فكيف أنها طمرت ونحن نراها حيانا على صفحات هذا الكتاب ؟ ! في صفحة ١٠٥ صورة ملتقطة من كتاب أجنبي عن التركيب النسيجي لورقة نبات (قطاع طولي منها ـ لم يذكر المؤلف ذلك) ، وحولها كلام باللغة الانجليزية ، فلم يترجم المؤلف هذا الكلام ، ولم يعطنا فكرة في تعليق قصير أسفل الصورة . في صفحة ١٢٤

صورة لرجل زنجي ينفخ في فوقعة أنفه ينادي بذلك على أناس آخرين ، أو ربما يستنفر بعض الحيوانات . في صفحتي ١٤٠ ، ١٤١ صور لأقراص الشمع في خلايا النحل ، وكلها متقاربة ، ولا تعليق مفصل يصاحب كل صورة من الصور الأربعة ولاحقتها في الصفحة التالية وكان يكفي صورة واحدة من هذه الخمسة ، مذيلة بتعليق مركز ومعمق . في صفحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ يأتينا المؤلف بصور لحيوانات عملاقة يقول أنها من العصور البائدة ، فمن أين أتى بها ؟ في صفحة ١٩٣ شكلا تخطيطيا لخطوات الاخصاب في أنثى الانسان ، ونسي المؤلف أن يكتب تعليقا على الجزئين السفليين من الشكل ، كما فعل مع الأجزاء الأربعة العلوية في نفس الشكل !!

معنى هذا أن صفحات عديدة قد أهدرت في صور لا أهمية لها ولا طائل من ورائها ، وإذا كانت المجلات والمطابع تعطي أهمية قصوى لكل مساحة ورقية ، فالورق باهظ الأسعار ، والطباعة مرتفعة التكاليف ، فكيف بهذه الدار وهي كبرى دور النشر في مصر ـ تسمح بنشر مثل هذه الصور ، مع علمنا بأن القليل منها مجدي .

٧ ـ منهج التوفيق العلمي : كونك تنقل فقرات من كتب علمية وتنسقها في نسق منتظم ، فهذا ليس بتأليف ولا ابداع ، وكونك تقتبس أو تقتطف سطورا طوالا من كتب التفسير ، فهذا أيضا ليس بتأليف ولا ابداع ، وإنما التأليف والابداع هو التغلغل في أعماق المسائل التي تتعرض لها ، موضحا رأيك فيها ، أو آراء المتخصصين على أعلى مستوياتهم ، وهذا يستدعي الرجوع مراجع حديثة متعددة ، وإذا كان لمعالجة المسائل الكونية في القرآن مناهج أو برامج محددة القسمات فقد فصلناها في بحث سابق[*] ، هذا مع اقتناعنا بأن يكون المنهج كما يلي :

أ ـ عرض مفاهيم من القرآن تشير الى الظاهرة الكونية أو البيولوجية .

ب ـ تتبع آراء المفسرين مع وضوح مواضع الاقتباس .

جـ ـ صياغة المفاهيم القرآنية المفسرة في شكل قواعد وقوانين جزئية .

د ـ التطبيق العلمي (أو العملي) لما ورد في القوانين المصاغة من المفاهيم القرآنية المفسرة .

هـ ـ استنباط التوافقية بين المنهج العلمي الحديث ، ومنهج القرآن وأسلوبه في معالجة الظواهر الكونية ، مع إيضاح سبق القرآن وشمولية اشارته وصدقها المطلق ، وصلاحية الانتفاع بها للانسان البدائي ولانسان عصر الفضاء ومن بعده على السواء .

فهل سلك المؤلف في معالجة الظواهر الكونية ـ التي ساقها من القرآن في هذا الكتاب ـ هذا المنهج ؟ ! الاجابة بالنفي طبعا

٨ ـ شيوع كثير من الأخطاء المطبعية والأغلاط العلمية ، وها هي بعض هذه وتلك :

٩ ـ بناء على ما تقدم ، فإننا نوصي في نهاية هذا التحليل أن يراجع الكتاب مراجعة علمية وطباعية دقيقة من المؤلف ذاته ، أو من غيره من المتخصصين ذوي الكفايات العلمية الرفيعة ، ولا نظن أن دار النشر المسؤولة عن الكتاب تفتقد هؤلاء ، فهي كبرى الدور في مصر ، حتى يكون الكتاب على المستوى اللائق بجلال موضوعه ، وذلك عند اعادة طباعته .

ولا يفوتنا أن نذكر للمؤلف مجهوده المشكور الذي بذله في مجال الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وندعو الله له بالجزاء الحسن ، وأن يغفر له ما لم يتنبه اليه . وعلى الله قصد السبيل .

(*) غنيم (كارم السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن ، المسلم المعاصر (٣١) ١٩٨٢ ، ص ٣٣ ـ ٦٢ .

الكلمة	موقعها	التصحيح الفارغ
فطرت	الآية ٣٠ من سورة الروم ، ص ٩	فطرة
مؤكـد	السطر الرابع من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	مؤكـــع ، أي أنـه سـيرتبط ارتبـاطـا مؤقتـا بـالأكسجين وليس متمـاسـكـا تماسكا يؤدي إلى تغييره
يـاكـد	السطر ١٢ من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	يتاكسج
السدات	السطر الثالث من الفقرة الثالثة ، ص ٢٩	أسمية جمع سداة
ثلاث أنواع	السطر الثاني من الفقرة الثالثة ، ص ٣١	ثلاثة أنواع
الفصائل	السطر الأخير من الفقرة الأولى ، ص ٤٩	الشعب
العائلات	السطر الأخير من الفقرة الأولى ص ٤٩	الفصائل
المتشمة	السطر الأخير ، ص ٥٤	المتمِّة
عليّ	السطر ١٤ من الفقرة الثالثة ، ص ١٥٢	علاّ
مجموعات من العدد تسمى الحويصلات	السطر ١١ ، ص ١٣٧	مجموعات من العدد تحتوي على حويصلات
يعني	الآية ٤٥ من سورة النور ، ص ١٣٤	يمشي
الطوائف	السطر السادس ، ص ١٤٢	الأقسام لأن الطوائف هي الترجمة الصحيحة لكلمة Classes
ترشق	في عنوان الصورة الرابعة في ص ١٢٨	ترشف أو ترتشف
لينصص	السطر الخامس من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	لينمحض أو لينمخض
جانات - جانة	السطر ١٩ من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	مراتب ، مرتبة
الالكترونيات	السطر ١٠ من الفقرة الأولى ، ص ١٥٩	الالكترونات
ولكن الانسان العصري هو سلفها	السطر الثاني ، ص ١٦٣	ولكن الانسان العصري هو خلفها
وشاهد القذرة	السطر السادس من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٣	وشاهدت القذرة
قانون الترمة العكسي	السطر الخامس من الفقرة الثالثة ، ص ٢٧٨	قانون التربيع العكسي
حين	السطر الثاني من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٩	في حين
وما لها من فروج	السطر قبل الأخير في سورة ق ، ص ٢٩٧	وما لها من فروج

ولقد حصلت القطيعة يوم أظهر لنا ليفي شتراوس ، بالنسبة للمجتمعات ، ولاكان بالنسبة للاوعي ، أن « المعنى » لم يكن ، على وجه الاحتمال ، سوى نتيجة سطحية أو لمعان ، أو زبد ، وأن ما يخترقنا في العمق ، ما يوجد قبلنا ، و ما يسندنا في الزمان والمكان ، كان هو النسق .

ان الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون (وحتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية) بل وحتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء والكيفية التي تأويها حساسيتهم ، وكل سلوكهم ، تحكمها ـ في جميع العصور بنية نظرية ، نسق ، يتغير مع العصور والمجتمعات ، إلا أنه يظل حاضرا في كل العصور وكل المجتمعات » (١) .

ميشيل فوكو

نظام الخطاب وإرادة المعرفة
ميشيل فوكو

ترجمة : أحمد السطاتي وعبدالسلام بنعبد العالي
عرض وتحليل : علوط محمد

الكتاب الذي نحن بصدده يتضمن نصين للفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو . الأول تحت عنوان (نظام الخطاب) قام بترجمته احمد السطاتي ، والثاني تحت عنوان (إرادة المعرفة) ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي ، بالاضافة الى عرض ثالث حول (نيتشة ، فرويد ، ماركس) مذيل بنقاش ساهمت فيه نخبة من المفكرين .

في النص الأول ينطلق فوكو من تصور معين : البحث عن علاقة الخطاب بالسلطة ، انه يشعر بمدى خطورة الخطاب ، لذلك يرغب (وهي رغبة جماعية) في أن يكون « في الخطاب كفجوة رهيبة أو كمجرى عرضي ، لا أن يكون ذلك الذي يصدر عنه الخطاب »

ان هذا الاحتراس مرتبط بالرغبة ، رغبة أن لا توجد بداية ، لكنه ايضا تدبير خوف وتوجس يصدر عن تفرد قد يحصل في الخطاب .. لكن السلطة ترد على هذه الرغبة ـ الاحتراس ، اذ تعمل على سن مجموعة من

القوانين ، تجرد الخطاب من سلاحه ، وقد تسمح له بنوع من الحرية ، ولكنها تظل تستمد أصولها من السلطة . يطرح فوكو هذا الرد بتهكم ، وهو نوع من التهكم التصعيدي ، ليكشف لنا أن تعارض الرغبة والسلطة مؤشر على قلق واحد ، يتمحور حول ماهية الخطاب في بعده المادي والوجودي ، هذا القلق المحفوف بمجموعة من المعارك والانتصارات . الاستيهامية التي قلم الاستعمال الطويل أظافرها . تبقى الاشارة الى أن هذا الطرح الاستهلالي لا ينفذ بعيدا عن مجال السلطة وعلاقاتها بالخطاب ، خاصة إذا توقفنا عند النبرة الملحمية التي تطبع هذا الاستهلال ، وفي مناطق أخرى من النص بكامله لصالح سلطته الذاتية .

يضعنا فوكو بعد هذا ، أمام مجموعة من الطرق الاجرائية التي بوساطتها السيطرة على الكلام ، مراقبته وانتقاده ، تنظيمه وإعادة توزيعه ، واسقاط ما فيه من رعب وخوف بأن كل مجتمع له طرقه الخاصة (النموذج الذي يتناوله فوكو هو المجتمع الغربي) ، وذلك حين يوزع مجموع هذه الطرق إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى تمارس اجراءاتها من خارج الخطاب ، في حين تمارس المجموعتين الأخرتين سلطتها من داخل الخطاب . كل مجموعة تتوزع عبر مبادىء فصلها فوكو بتأن عبر هذا النص .

في المجموعة الأولى ، هناك ثلاثة مبادىء للحظر وممارسة الرقابة : منطقتان يحظر فيهما الكلام (الحياة الجنسية والحياة السياسية) في هذا المجال تظهر آصرة الخطاب بالرغبة والسلطة . ذلك أن التحليل النفسي يبين لنا أن الخطاب هو موضوع الرغبة ، كما يبين لنا التاريخ أن الخطاب هو السلطة ذاتها و ان الخطاب موضوع الرغبة ومكان السلطة ، وليس الشكل الذي يعلن أو يشير اليها .

المبدأ الثاني في الحظر هو ثنائية العقل / الجنون : فالمجنون لا يعتد بخطابه ، لأن خطاب العقل لا يوليه العناية والاصغاء ، انه نوع من الصخب ، أعزل ومسالم ، حتى ولو كان يمثل دور الحقيقة ذات القناع لخطاب العقل . فعلاقة الطبيب بالمريض / المجنون تكشف عن هذا البعد ، فدور الطبيب ليس سوى ارهاف السمع للكلام الحر ، فكيف يكون هذا الاصغاء قبولا بخطاب المجنون ، مع علمنا أن الصمت لا يتأتى الا مع التوقف الصامت العارض بين أجزاء الكلام ، لا سيما اذا كان الاصغاء يتعلق بخطاب يقع تحت استغلال الرغبة .

المبدأ الثالث هو منظومة الصدق والكذب ، انه ايضا طريقة خارجية لممارسة الرقابة . ان مجال تشكيل ارادة الحقيقة (الكيفية التي نوظفها للبحث عن الحقيقة ، ومجموع النوايا التي تهدف منظومة معرفية) ينظر إليها فوكو على أساس أنها منظومة من النبذ ، منظومة تاريخية قابلة للتعديل ، وذات طابع اكراهي قانوني ، خطاب الصدق هو الخطاب الذي نجله ونهابه . الخطاب الذي يجب أن ننصاع له باعتباره يمتلك السيادة . ان طرد السفسطائيين من طرف افلاطون تأسيس لمنظومة الصدق ، حيث انتقلت الحقيقة من طور فعل خاضع ، فِعْلٍ فعّال وصائب ، انتقلت من طور التعبير الى طور العبارة ، والعبارة بالذات . اتجهت الحقيقة صوب معنى العبارة وصورتها وموضوعها وعلاقتها بمصادرها .

يحدد فوكو في اطار هذه المبادىء الثلاثة (الكلمة المحظورة ، تركة الجنون ، ارادة الحقيقة) مايلي : ان المنظومة الثالثة أعم واشمل ، اذ تستميل اليها المنظومتين الأولى والثانية لتصبا فيها . خطاب الصدق تنصل من الرغبة والسلطة ، أصبح حديثه عن الحقيقة مقنعا ، لايعترف بها . لم يعد خطاب الصدق عند قدماء اليونان ذلك الخطاب الذي يستجيب لرغبة ويمارس سلطة على ارادة الحقيقة ذاتها . هكذا ظلت الحقيقة أمامنا خادعة ،

والذين حاولوا مواجهة ارادة الحقيقة هذه بالحقيقة قلة يجب النظر اليهم باعتبار (نيتشه ، آرتو ، باتاي .. مثلا) .

كما يلاحظ فوكو أيضا أن ثمة اجراءات أخرى تتمثل في سعي ارادة الحقيقة لكي تفرض على الذات العارفة (قبل إجراء أية تجربة) وضعا معينا ، ونظرة معينة ، ووظيفة معينة ، إنه الاستعمال التقني الذي يجعل لانتشار المعرفة هدفا نفعيا حقيقيا (لنتذكر المبدأ اليوناني القديم : ليكن الحساب قضية تخص المدن الديمقراطية ، حيث نتعلم منه علائق المساواة . . .)

اننا هنا بصدد سلطة اكراه ترمي الى ممارسة نوع من الضغط على باقي الخطابات (يطبق فوكو هذا الأمر على مجموعة من الممارسات الاقتصادية والسياسية ليظهر كيف تتحول الى قواعد وقوانين تعليمية في خطاب محدد) ثم يسعى بعد ذلك الى تبيان اجراءات المجموعة الثانية .

في هذه المجموعة هناك أولا مبدأ التعليقات والشروح : في هذا الصدد يقارن فوكو بين مجموعتين من أنواع الخطاب . هناك الخطابات التي تقال يوميا وتتداول وينتهي أمرها بانتهاء الفعل ذاته الذي نطق بها . وهناك الخطابات التي هي أصل لعدد من ضروب الفعل الجديدة للكلام ، حيث يعاد تناولها وتحويلها والحديث عنها . هناك أيضا خطابات قيلت ، وأخرى تقال ، وستظل جاهزة للقول أبدا بقطع النظر عن صياغتها (النصوص الدينية أو القانونية أو الأدبية والعلمية . . .) النصوص الثانية على العكس من الأولى نصوص أمهات ، تأتي لتسجل السواد على البياض ، ولتلحق بعد ذلك بالتعاليق والشروح التي قد تحتل مكان الصدارة (مثلا بورخيس : يعتبره فوكو يلعب في اطار محاولة المحو الجذري لهذا التفاوت بين الأصل والتعليق ، لكنه يسقط في الحرفية والتكرار لما وقع عليه التعليق) . يقول فوكو في هذه النقطة بأسلوب شيق « ضرب من لعب النقد الذي يحدث اللانهاية من آثار ليس لها أي حظ من الوجود ، وحلم غنائي لخطاب يولد مرة بعد أخرى في كل نقطة من نقاطه جديدا بريئا ، ليعاود الظهور ، مرارا وتكرارا ، بكل نضارة ، انطلاقا من أشياء وعواطف وأفكار » ، مثال ذلك الأوديسية التي تتكرر في ترجمة Berand ، ونصوص متعددة ، وفي رواية أو ليس . باختصار . ان وظيفة التعليق هي أن يقول في النهاية ما كان قد قيل هناك بصمت . . وأن يقول للمرة الأولى ما سبق أن قيل (في هذه النقطة بالذات يلاحظ التدفق اللغوي والمجازي في كتابة فوكو حين يسعى إلى تأكيد هذه العودة والتكرار . راجع ص ١٧ ، ١٨) .

ثانيا هناك مبدأ آخر لتلطيف الخطاب : (مصطلح يوظفه فوكو بصدد الحديث عن طبيعة الخطاب المراقب ، بعد أن تم اخضاعه للمراقبة والحظر = ممارسة السلطة على الخطاب) . هذا المبدأ هو مفهوم المؤلف . ان المؤلف ليس ذلك الذي ينطق أو يكتب نصا . بل هو مبدأ لتجميع الخطابات وتأصيل ووحدة لدلالاتها وبؤرة تماسكها . كان ضروريا أن تستند الخطابات لمؤلف بالنسبة لعصور معينة ، خاصة الخطاب العلمي (اسم المؤلف مقابل نظرية ما) لكن الأمر اختفى منذ القرن السابع عشر . لكن بالنسبة لخطابات أخرى تعزز موقف المؤلف ، وأصبح البحث عنه ضروريا (الخطاب الأدبي مثلا . .) يفرق فوكو بين مفهوم المؤلف كما أنتجه النقد ، وبين المؤلف الحقيقي الذي يقطن في الخطاب كضمير مهمته أن يكون شاهدا وحجة على الحقيقة (نموذج الخطاب العلمي) ، وبالمقابل فان هناك نصوصا تروج بحاجة الى مؤلف (الحديث اليومي) ، لكنها ليست خطيرة ، لأنها معرضة للنسيان .

ان المؤلف يقوم بوظيفة معينة يحددها له عصره ، قد

يتعدد هذا المؤلف ، لصالح ظهور مؤلف مغاير ، لكن الوظيفة لا تتغير ، والتي هي حصر مباغتة الخطاب (هذا المصطلح يتسجه فوكو في صياغة تلحم بين مبدأ التعليق ولعبة الهوية التي تتلبس التكرار وصورة الذات ، مثلما أن لعبة الهوية تتلبس صورة الفردية ، وصورة الأنا ص ٢٠) . المبدأ الثالث : يتضح في مجال الفنون (Discipeines) هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ التعليق ومبدأ المؤلف . كل فن يشكل منظومة خاضعة لمجموعة من القواعد والتعريفات والتقنيات (يستشهد فوكو في هذا المجال بعلم النبات وعلم الطب) . يستعين المؤلف في هذا الصدد بمفهوم النمط ، اذ يجب على أية قضية لكي تنتمي إلى فن من الفنون أن تنخرط في نمط أفق نظري معين . يقول فوكو : « ان علم النبات والطب وعلى غرار سائر الفنون كلاهما صنيعة أخطاء ، وصنيعة حقائق ، وليست الأخطاء رواسب أو اجسادا غريبة . بل هي وظائف ايجابية وفعالية تاريخية » ، وهكذا يعود ليربط بذكاء مبدأ الحصر هذا في مجال الفن بمنظومة الصدق . فلكي تكون القضية تنتمي الى جملة من الفنون ، عليها اضافة الى ما ذكر ، أن يقال عنها انها صادقة .. أي أن تكون في دائرة الصدق (نموذج مانديل ، وهو عالم بيولوجي : لقد كان يقول الصدق ، لكنه لم يكن في (دائرة الصدق) . وهكذا نخلص الى ان الفن مبدأ لمراقبة الخطاب ولانتاجه .. انه صورة لترهين جديد مستمر للقواعد عن طريق لعبة الهوية .

في المجموعة الثالثة التي تسمح بمراقبة الخطاب نلاحظ أن عملية المراقبة لا تتعلق بحصر مباغتة الخطاب ، أو السيطرة على ما في حوزته من سلطة ، ولكن بتحديد شروط استعماله :

أولا : مبدأ انتقاء المتكلمين / الطقوس ، هذا المبدأ يقوم بتحديد شروط استعمال الخطاب ، وفرض جملة من القوانين على الذين يتناولونه . الهدف بالطبع هو تخصيص الخطاب بفئة معينة ، واقصاء فئات أخرى . تقليص عدد الذوات المتكلمة (مما يسمح بالقول بوجود خطابات مباحة للجميع لا تفرض فيها هذه السلطة) . اذا كان فوكو يطرح نموذجا لهذا الاحتكار بـ (شوكون) امبراطور اليابان وامتلاكه للرياضيات ، والملاح الانجليزي (ويليام آدمز) فالأمثلة لا تنقص في مختلف المجتمعات ان عملية انتقاء المتكلمين تفرض نوعا من الطقوس المصاحبة للخطاب لتحديد مفعوله في المتلقي وإعطاء القيمة الإكراهية للخطاب .

يستشهد فوكو في هذا الصدد (جماعات الخطاب) التي كانت تشكل نوعا من مصادرة الخطاب عن المتلقي (وهو أمر يتعلق بصيغة وتقنية إنتاج الخطاب) . إذ لم تعد لدينا مثل هذه الجماعات ، فان لدينا ما يؤكد خطورها بشكل آخر ، ويصوغها انطلاقا من مفهوم التملك للخطاب عن طريق سبع قواعد معينة (نظام النشر ، شخصية الكاتب ، الصيغة الرسمية للكتابة ...) وهكذا نكون بصدد جماعة خطاب مكشوفة ، ثم يستدل بتلك المفارقة اللا تماثلية بين ما نطلق عليه عملية (الخلق) ، واستعمال نظام النسق وصولا الى صيغة معينة . وحتى في الخطابات الحرة غير الخاضعة للطقوس ، فانه لا يمكن استبعاد هذا الاقصاء . أبرز مثال يقدمه فوكو في هذه النقطة ـ حسب رأيي ـ هو صور بث الخطاب الطبي بين الطبيب ومريضه .

ثانيا : مبدأ انتقاء المتكلمين / المذهب : فخطاب العقيدة والدين والفلسفة مثلا يؤكد على طريقة النبذ والبت السالفة الذكر ، ذلك أنه يكفي الاتجاه الى استعمال مشترك لمجمل الخطاب الواحد ، وبفضل هذا الاستعمال تتحدد الانتماءات (حتى ولو كان المتمون كثرة : ذلك أن خطاب العقيدة والمذهب يسعى الى الذيوع والانتشار) بفضل توفر الشرط الوحيد ، وهو

الاعتراف بنفس الحقائق ، وتوافق خطاباتهم مع الخطابات الثابتة الصلاحية . ستكون المراقبة هنا على مضمون العبارة وشكلها وليس على الذات التي تتحدث ، البدعة أو السنة نوع من الخروج عن الخطاب سواء بالمبالغة المفرطة والتعصب أو بالخروج التام ، ذلك أن الانتماءات تتراوح داخل مساحة الخطاب والحدود المسموح بها للذوات المتحدثة . هكذا يربط المذهب الأفراد بأنماط من التعبير في حين يمنعها عن غيرهم ، ويحدد الخطاب أنواع الارتباطات بين الأفراد . وبهذا تكون مهمة المذهب مزدوجة : إخضاع الذوات المتحدثة الى خطابات وإخضاع الخطابات الى جماعات .

ثالثا : التملك الاجتماعي للخطاب : يرى فوكو أن كلا من التربية والفلسفة تعملان على الحفاظ على تملك الخطاب ، يقول عن التربية : « ان كل نظام تربوي ما هو الا وسيلة للحفاظ على تملك الخطاب ، أو احداث تغيير يضمن ملاءمته مع ضروب المعرفة والسلطة التي تفوز جميعها بكل خطاب » ، وهكذا يكون نظام التعليم أيضا نوعا من اضفاء صبغة الطقوس على الكلام ، وتكون الكتابة في نهاية المطاف نظاما وإخضاعا مضارعا لما يسبق . ورغم أن فوكو يبدو تجريديا في هذا التوزيع ، فانه لا تفوته الملاحظة الى ان أنواع المراقبة المذكورة لاتعمل منفصلة ، بل تعمل بشكل كلي . الفلسفة بدورها (وهذا ينحو كلام فوكو نحو التعقيد قليلا . .) تقيم نوعا من التواطؤ مع العالم . تؤسس به امكانية الحديث عنه ، وامكانية الحديث فيه . ينتقد فوكو الفلسفة في هذا المجال انطلاقا من مفهوم اللوغوس الذي ينهض عليه الفكر الغربي ، ليصل الى أحكام تستند الى التحاليل اللسانية في خلفيتها الابستمولوجية ، وليقرر أن الخطاب ، سواء تعلق بمجال فلسفة الذات ، أو فلسفة التجربة الأصلية . أو فلسفة الوساطة الشمولية ، ليس سوى لعبة : لعبة كتابة في مرحلة أولى ، ولعبة قراءة في مرحلة ثانية ، ولعبة تبادل في مرحلة ثالثة ، وهذا التبادل ، وهذه القراءة لا تعتمد سوى الرموز ، وهكذا يلغي الخطاب ذاته حالما يضع نفسه ضمن نظام الدال .

ضمن هذا التصور العام الذي طرحه فوكو لحد الآن ، يقرر على أن كل حضارة تقف من الخطاب موقفين : موقف التقديس الظاهر ، الذي يخفي موقفا ثانيا وهو الخوف من هذا الخطاب ذاته ، وكنتيجة ، فانها تعمل على ممارسة الحظر والرقابة عليه قصد السيطرة عليه .

وصولا الى هذه النقطة يضعنا المؤلف امام مشروعه الذي يطرح في هذا العرض والذي قرر الاشتغال به :

١ ـ اعادة النظر في ارادة الحقيقة .

٢ ـ إرجاع صبغة الحادث للخطاب .

٣ ـ تجريد الدال من كل سيادة .

هذا الطرح يقتضي مجموعة من الالزامات :

١ ـ مبدأ القلب : ويفسره بالبحث عن الدور السلبي لتطبيق الخطاب وتنظيمه للوصول الى مبادىء التطبيق التي تحدد مصدر الخطابات ومبدأ وفرتها أو استمرارها ، وعند الوصول الى هذه النقطة يستلزم البحث عن مبادىء منهجية أخرى .

٢ ـ مبدأ الانفصال : الخطاب يتضمن منظومات من التطبيق تشكل سيادة . هذه المنظومات ذات طبيعة قمعية . لذلك يجب أن نرفع من شأن الخطاب ، بأن نرد إليه الكلمة والاعتبار . اذ يجب التعامل مع الخطابات باعتبارها ممارسات قائمة على الانفصال .

٣ ـ مبدأ النوعية : لكي يتحقق هذا المبدأ يستلزم ادراك أن الخطاب عنف نُوقِعُهُ بالأشياء ، وممارسة نفرضها على الأشياء ، إذ ليسَ العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا ، وليس وجها مقروءا علينا الا أن نطالع ونفك رموزه ، هذا التصور الجديد يحقق الاضطراد لحوادث الخطاب .

٤ ـ قاعدة المحيط البراني : وذلك بأن تكون مسيرتنا في

الخطاب تنطلق من الخطاب ذاته نحو الشروط الخارجية للامكان ، لا أن ترتد الى الخطاب بحثا عن نواة أو صلب مخبوء .

هذه المفاهيم السابقة تحدد مبدأ ضابط لها تؤطره مفاهيم أربعة أخرى :

مفهوم الحادث ـ مفهوم السلسلة ـ مفهوم الاطراد ـ مفهوم شرط الامكان . ويلاحظ ان هذه المفاهيم تتعارض في حدودها (الحادث / الخلق والابداع) و (السلسلة / الوحدة) و (الاطراد / الطرافة) و (شرط الامكان / الدلالة) . لقد ظلت هذه المفاهيم (الدلالة ، الطرافة ، الوحدة ، الابداع) تهيمن على تاريخ الفكر التقليدي لمدة طويلة .

يضيف فوكو في النهاية ملاحظتين :

١ ـ الأولى تتعلق بالتاريخ : ذلك أن مهمة المؤرخين التقليديين كانت تسعى إلى بناء وحدة من خلال فحص لمختلف العناصر والظواهر ، لكن الدراسات المعاصرة اليوم أصبحت تروم الى تأسيس وحدات نوعية تشكل سلاسل منعزلة ومنفصلة تتمتع باستقلال ذاتي .

٢ ـ المشاكل النظرية والابستمولوجية التي تنتج عن مفهومي السلسلة والحادث ، حيث الحادث ينشأ في أحضان التشتت المادي مفعولا له ، ومفعولا فيه ، وذلك حين ينحو باتجاه نزعة مادية للاجسمي . ثم مشكل التصور الذي يرى أن العلائق التي تقوم بين السلاسل منفصلة ، بحيث ينبغي اعداد نظرية في المنظومات القائمة على الانفصال خارج فلسفات الذات والزمن .

ان التنظير الذي يقدمه فوكو لا يخلو من شوائك تتمثل في الثالوث (الصدفة ، الانفصال ، الواقعة المادية) بحيث أن كل نظرية تسعى لاقامة زحزحة في الفكر يجب أن تحترس من مغبة السقوط في آلية هذه المفاهيم .

يظل سعي فوكو دؤوبا من أجل اقامة نظرية معرفية مبنية على التصورات السابقة . وهذا بالطبع ماطبقه على تركة الجنون والجنس والمراقبة والعقاب . في هذه المحاضرة نجد صدى لكتبه التي سبقت والتي ستأتي فيما بعد . لقد أكد فوكو أنه لا يقول فقط . . بل يمارس القول من خلال اعماله المتنوعة التي تناولت دراسة وظائف التبذوالحظر ومنظوميتها . مفسرا كيف تحدث ، وكيف يتم الحفاظ عليها ، وكيف تختار الحقيقة ، ثم كيف تأسس خطاب الصدق والكذب ، والاشتغال على قياس مفعول الخطابات في مجال الممارسة (مثلا دور الخطاب الطبي والنفسي في مجال ممارسة العقوبة . .) .

أيضا يرتكز هذا المشروع على دراسة اجراءات الحصر (مبدأ المؤلف ، والتعليق والفن) وهو ما قام به في تاريخ الجنون والطب العقلي في القرن السادس عشر والتاسع عشر وأيضا في مجال النقد الأدبي ، والتاريخ الأدبي ، كل هذا سعيا وراء الكشف عن عملية تطفيف الخطابات ، لكن هذا العمل لا يكتمل الا بتظافر كل من الوصف الجينيالوجي ، والوصف النقدي . فوكو في نهاية المطاف ، يقدم اعترافا بالامتنان والفضل لمن استفاد منهم ، من أساتذته (ديموزيل ، كانكلسهم ، جان هيبوليت) . هذا الأخير الذي ينظر اليه على أنه هيجلي ، محاولا أن يثبت كيف تمت هذه الاستفادة في الوقت المعاصر الذي تسعى فيه الفلسفة الى انفلات من كل ما هو هيجلي .

●●●

في النص الثاني المعنون (حفريات المعرفة) يقدم لنا فوكو تصورا غير معتاد لمجهود علماء التاريخ (المؤرخون = استعمال مطلق) ، مؤكدا على نوعية الأدوات المستعملة للبحث في تاريخ المعرفة ، وموضحا مراتب ومستويات التحليل المختلفة .

انطلاقا من الدراسة التي تستند الى حركة التراكم

والاشباع والكم ، أسس علماء التاريخ تحليلا منتظما ومتواصلا ، يقوم على التعاقب الخطي ، وسبر الأغوار ، مما دفع الى تشوه مستويات أخرى من التحليل . هذه المستويات أصبحت تشكل مراتب تصاغ في شكل (سلاسل - ص ٥٠) وظواهر تنحو تحو الانفصال (ص ٥٠) . ونلاحظ هنا انها نفس المفاهيم التي تمت الاشارة اليها سابقا فيما يتعلق بنظام الخطاب .

حول مفهوم السلسلة يوضح فوكو أن الاسئلة التقليدية للتاريخ ، تقوم على الوصل بين الأشياء واقامة علاقات تربط بين الوقائع غير المنتظمة ، وفرض تعاقب ضروري عليها . في حين أننا نجد أن الاسئلة المعاصرة تدعو الى الفصل بين الأجزاء واقامة مراتب للتحليل متعزلة .

وحول مفهوم الانفصال ، انتقل البحث من وصف الوحدات المنسقة التي كانت تنتظم عبر عصور وحقب الى دراسة تقوم على تبين عوائق الانفصالات داخل هذه الوحدات ويعطي فوكو أمثلة لأنواع من هذه الانفصالات .

١ ـ الأفعال والعتبات الابستمولوجية التي وصفها باشلار (البحث في تشكيل المعرفة ونموها)

٢ ـ تحول المفهومات وانتقالها من ميدان الى آخر (مع تطبيق حول المصطلح)

٣ ـ المستوى الصغير والمستوى الكبير .

٤ ـ اعادة التوزيع التراجعي للوقائع

٥ ـ وحدات الصرح البنيوي للأنساق الفلسفي

الهدف بالطبع من هذا العمل هو الوصف التاريخي لتبين الوقائع قصد بناء تحليل ينطلق من الاتصال الى تأسيس انفصال في رؤيتنا للمعرفة (يستلم فوكو في هذا الصدد مجموعة مفاهيم مساعدة : العتبة ، الفصل ، القطيعة ، التحول) .

ان التحليل في شكله القديم كان يسعى الى اقامة (ذاكرة) تقوم على أثريات الماضي محولا اياها الى وثائق . أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق الى أثريات . أن تصوروا على هذا المستوى يترتب عنه نتائج أربعة :

١ ـ المفعول السطحي الناتج عن ابراز تعدد المستويات الانفصالية ، دون وعي بخلق تاريخ وزمن خاصين بها .

٢ ـ المكانة العظمى التي أصبح مفهوم الانفصال يحتلها في الدراسات التاريخية ، حيث انتقل من كونه حاجزا في الدراسة الى مفهوم اجرائي .

٣ ـ الغاء فكرة التاريخ الشامل ، وبداية تكون التاريخ العام ، ذلك أن الأول يضم جميع الظواهر حول مركز واحد ، بينما الثاني يرسم فضاء تشتت وتبعثر .

٤ ـ مجموعة المسائل المنهجية التي أخذت تطرح في اطار التاريخ الجديد (تكون الوثائق المنسقة والمنسجمة ، وضع مبدأ الاختيار بينها ، تحديد مستوى التحليل والعناصر الملائمة فيه ، تعيين منهج التحليل . .) .

ان قراءة هذه المستويات في التحليل الذي يطرحه فوكو تتطلب رؤية يتداخل فيها مجموع من العلوم (المناهج ، التاريخ) ، الانثربولوجيا ، البنيوية . .) وان بلورة لمثل هذا التوجه تستدعي ليس عملا فرديا ، بقدر ما تستدعي عملا تاريخيا جماعيا . ذلك أننا بصدد تأسيس تحول ابستمولوجي لازال لم يكتمل بعد .

ان فوكو من خلال هذه المحاضرة يقدم عرضا مكثفا لمجموع هذه التصورات مليء بالاحالات الى مجموعة من الحقول المعرفية ، ويعمد الى التنظير والملاحظة والتقصي ودراسة الوثائق وأرشيف الماضي . . ان عملا مثل هذا لا يمكن أن نتقدم بالحكم عليه الا بعد و قراءات ، بالغة الوعي والدقة والتصور .

●●●

في العرض الثالث (نيتشه ، فرويد ، ماركس) ، والذي هو عبارة عن مائدة مستديرة موضوعها : تقنية التأويل عند ماركس ونيتشه وفرويد يقدم لنا فوكو تطورا للتأويل على هذا الشكل :

لدراسة تقنية التأويل ينبغي إقامة نوع من الموسوعات التي تضم تاريخا لتقنيات التأويل منذ الاغريق الى الآن . ان صيغة اللغة تستدعي التأويل ، لا يمكن ان نطمئن الى المعنى المقول . كما لا يمكننا أن نتوقف عند الصياغة اللفظية للكلام . اذ أن ثمة خطابات أخرى ذات طبيعة لا لغوية .

ان كل حضارة ، وكل نمط ثقافي له تقنية خاصة في التأويل ، لهذا نقف على منظومات متعددة للتأويل . في القرن السادس عشر كانت تقنية التأويل تقوم على مبدأ التشابه الذي شكل منظومة مضبوطة تتحكم فيها خمسة مفاهيم : (التلازم Convenentia ، التعاطف Sympatheia التوازي Emulatio ، الاسم Signature ، والتجانس)

منطق التشابه يقتضي داخل نظرية التأويل (Signe) الاتجاه الى إجراءين : هناك الانتقال الجانبي من تشابه الى آخر (Cognitio) ، والمعرفة المعمقة التي تنتقل من تشابه سطحي الى تشابه أكثر عمقا (Divinatio) .

تغيرت تقنيات التأويل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انطلاقا من النقد الذي وجهه بيكون وديكارت لمبدأ التشابه ، لكن في القرن التاسع عشر نجد ماركس ونيتشه وفرويد امكانية قيام تأويل جديد ، يمكن رصده في كتب هؤلاء المفكرين وما أحدثه في الفكر الغربي من صدمات . لقد كشف فرويد على ثلاثة جروح نرجسية في الثقافة الغربية (كوبرنيك ، داروين ، فرويد ذاته) نيتشه أقام جدلا طويلا يتقدم عبره الاعماق الفكرية ، وأغوار اللاشعورية لكشف الجروح والنفاق ولباس الأقنعة ، ثم أخيرا تعدية ماركس للسطح كشفا عن الحقائق التاريخية المستمرة .

لقد طرح التأويل مع هؤلاء مبدأ التشابه ، وأصبح تأويلا لا نهائيا على عكس القرن السادس عشر على أن كل تأويل سابق أو لاحق يظل معلقا ، قابلا للفحص ، مما ينتج عنه (وهذا ما يرغب فوكو في الوصول اليه) تشكيل وظهور انفصال في المعرفة .

إن التفكير حول الموضوع الذي ينصب عليه التأويل ، يقودنا الى الحديث عن العلامة .. اذا حدث أن توقف التأويل ، فلأنه لم يبق هناك ما يؤول من جهة ، ذلك أن عناصر الحقيقة في التأويل هي بدورها تأويلا . وهكذا فان التأويل لاي هؤلاء ينصب على تأويل سابق ، وهنا يجد التأويل ذاته مرغما على أن يؤول ذاته الى ما لا نهاية .

لقد سعينا هنا الى توضيح مجموعة من التصورات التي يقدمها فوكو في هذا الكتاب . رغم الكثافة المعرفية العميقة لهذا المؤلف . ونحن نأمل أن يكون هذا العرض معرض استفادة .. ذلك أن المؤلف في هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للمشروع المعرفي الذي ظل يشتغل عليه طوال حياته ، والذي سيفصح عن نفسه في كتاباته ومصنفاته التي خلفها بعد رحيله . ونذكر أن للنص الأول من الكتاب ترجمتان لكل من صالح هاشم في مجلة الكرمل عدد ١٠ ، ومحمد بسيلا من المغرب في كتاب مستقل بالاضافة الى الترجمة التي نحن بصددها مما يبين أهمية هذا النص وقيمته في الحقل المعرفي الفلسفي والعلمي المعاصر .

***